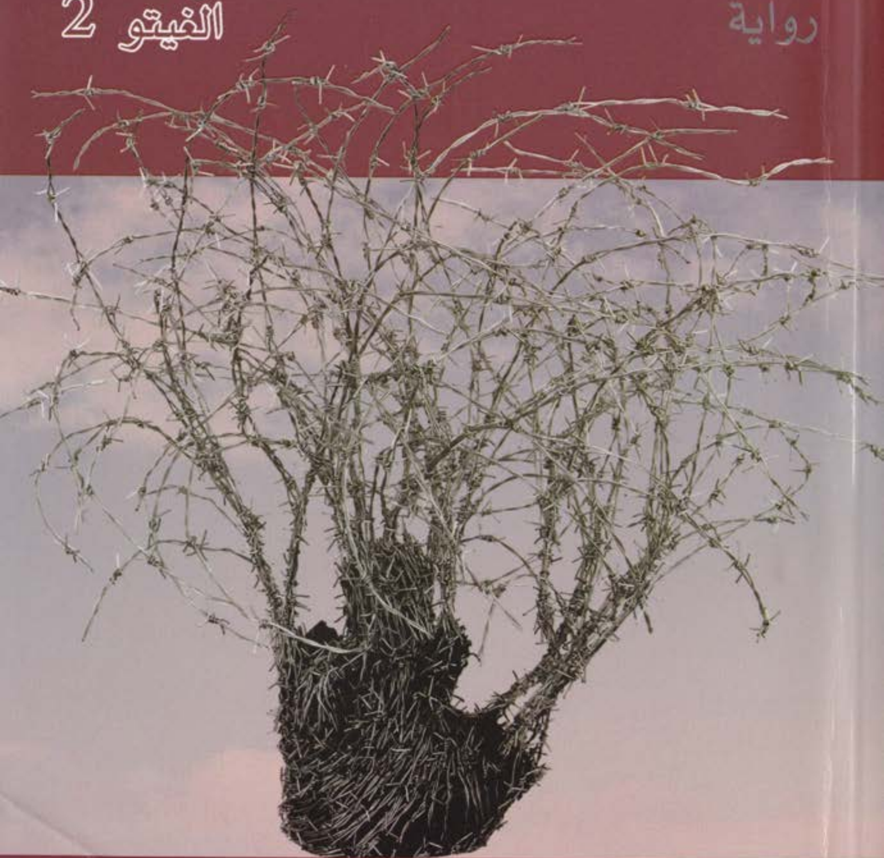
الياس خوري

أولاد الغيتو 2

رواية



نجمة البحر

مكتبة

دار الآداب

أولاد الغيتو (٢)

نجمة البحر

أولاد الغيتو (٢)

نجمة البحر

الياس خوري / روائي لبناني

الطبعة الأولى عام 2019
ISBN 978-9953-89-642-7



دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

الياس خوري

أولاد الغيتو (٢)

نجمة البحر

رواية

مكتبة 450



دار الآداب ـ بيروت

إلى عبلة وطلال ويامن

لكِ يا منازلُ في القلوبِ منازلُ / أقفرْتِ أنتِ وهُنَّ منكِ أواهلُ

المتنبي

مدخل

ضمير الغائب

ستيلّا مارس، أو نجمةُ البحر، هي شرفة الله المُطلَّة على الحمامة التي تسبح في الماء، ونسمِّيها حيفا.

على هذه الشرفة، حيث تأخذنا تلَّة النبيّ إلياس إلى الأعجوبة، اكتشف بطل هذه الحكاية وراويها آدم دنُّون، وجوهَه المتعدِّدة، وتصالَحَ مع أسمائه، ونسج حكايته. هنا ذاق طعم القبلة الأولى، وهنا تعرَّف إلى مُتَع الحبِّ وآلامِه. هنا أقسم على الإخلاص للفتاة التي أَحبَّ، وهنا تعلَّم أبجديَّة الخيانة كي يمحوَ جروح قلبه بجروح جديدة.

حين تعصف به ذاكرة شرفة الله، وهو يحاول أن يرسم صورته بحبر الكلمات، يرى حيفا وهي تسقط في البحر من شاهق الكرمل، وتمدّ جناحَيها كأنَّ الماء صار فضاءها الرحبَ. تغطس في الماء وتطفو، وتصير ملاذًا لشابٍّ صغير لا ملاذ له سوى شعوره بأنَّ ما يعيشه ليس سوى ظلال لحياة إنسان ما كان إلَّا ظلًّا لحكاية لا مؤلِّفَ لها.

الآنَ، يأخذه حنين جارف إلى ستيلّا مارس حيث كان يجلس وحيدًا، ويشعر بأنَّه غائب ولامرئيٌّ، يتوق إلى زمن الغياب، فيلجأ إلى ضمير الغائب كي يكتب غيابه.

هنا، في جبل الكرمل، حيث عبث التاريخ بتواريخ المكان، وُلد آدم الثاني على شرفة منبسطة في الكرمل. كان يملأ وحدته وغربته بالبحر. يغسل عينيه بغروب الأفق، ويغرق في صمت الهواء البحريّ الذي ينشر على وجهه طَعمَ الملح.

قرَّر آدم بْنُ حسن ومنال دنُّون، والمولودُ في غيتو اللدّ في سنة 1948، أنَّ حكايته بدأت حين جلس على شرفة الله التي يُطلقون عليها هنا اسم ستيلّا مارس، ليتنفَّس هواء حرِّيَّته الطالعةِ من رائحة البحر. كان يأتي إلى شرفة المدينة كي يجلس ساعاتٍ لا تنتهي على المقعد الحجريّ. كان الحجر ملاذَه من ذاكرة أمّه، ومن إقامته بالكاراج، أو بشقَّته الكبيرة التي هجرها أصحابها في وادي الصليب، وكانت هديَّةَ صاحب الكاراج له في عيد ميلاده السادس عشر. قال لصديقته رفقة، عندما طلبت منه أن يذهبا إلى بيته من أجل ممارسة الحبِّ للمرَّة الأولى، إنَّه يخاف من أشباح الناس التي تُقيم بالبيوت المهجورة. قال إنَّه حين يعود إلى البيت يمشي على رؤوس أصابعه كي لا يوقظَ أشباحَ الغائبين الذين طُردوا من هنا وابتلعهم البحر. قال إنَّه يستمع إلى دبيب أصواتهم المعشِّشة في حجارة البيت، ويرى وجوهَهم المغطَّاةَ بعتمة الغياب، وهي تتجوَّل في البيت كأنَّها تودِّع المكان أو تستعيدُه.

لم يكن آدم دنُّون يمتلك اللغة الملائمة كي يقول لرفقة إنَّه يخاف من أصحاب البيت الذين تعرَّف إليهم واحدًا واحدًا من خلال صُوَرهم التي كانت معلَّقة على الحيطان، وإنَّه كان يخاف، بصورة خاصَّة، من

عينَيِ المرأة الشابَّة التي تحتضن طفلها الصغير. ففي عينَي تلك المرأة التي لا يعرف اسمها، رأى الألمَ الذي يتجمَّع في أطراف العينين، والخوفَ الذي ينتشر على بياضهما، والضوءَ الذي يشعّ من البؤبؤين.

لم يكن آدم يمتلك الجرأة ليروي أنَّه لا يستطيع خيانة هذه المرأة في بيتها. فبعد أسبوع من مكوثه في البيت الذي قال له الخواجة غابرييل إنَّه صار بيتَه، أزال الفتى عن الحيطان جميعَ صور العائلة الحيفاويَّة التي كانت تسكن هنا. أزال جميع الصور ووضعها في إحدى الغرف، ورأى كيف تبقَّعت أمكنتُها بأشباح الغياب البيضاء. عاش مع البقع كي يتجنَّب نظرات أصحاب البيت التي ملأت روحه بشعور غريب من الرهبة والذَّنْب. لكنّ صورة تلك المرأة لم تفارقه لحظةً واحدة، عاد إليها وعلَّقها في صدر الدار واعتذر إليها، وأطلق عليها اسم شهلا. وصارت صورة شهلا وابنِها الصغير الذي سيُطلق عليه اسم ناجي، رفيقَته في هذا البيت المليء بأشباح الغائبين.

لو كان آدم يعرف معاني الحبِّ لروى أنَّ شهلا كانت حبَّه الأوَّلَ. كيف يروي فتًى في السادسة عشرة من عمره حكايةَ حبٍّ تصلح لأن تكون فصلًا في كتاب «طوق الحمامة» لابن حزم؛ الكاتب الأندلسيِّ الذي روى عن أشكالٍ للحبِّ لا تخطر في بال، وروى كيف يتحوَّل عشق الصورة إلى شهوة في حكاية تُصيب العاشقَ باليأس الذي هو أعلى درجات الحبّ.

كانت امرأة الصورة تُشبه منالَ، أمَّه، كثيرًا. الزمن لم يترك أثره في صباها الذي يتلألأ بالحزن، تضمّ إلى صدرها رضيعَها الذي سيبقى صغيرًا إلى الأبد، فالغائبون لا يكبرون ولا يموتون.

هل كانت شهلا المعلَّقةُ على حائط ذاكرة البيت في وادي الصليب، حبَّه الأوَّل؟ أم كانت مجرَّد صورة معلَّقة في بياض الذاكرة؟

في ستيلَّا مارس، قرَّر آدم دنُّون أن يطرد الذكرياتِ المعشَّشةَ في حياته، وأن يبدأ كأنَّه وُلد من ذاته، يعيش وحيدًا ويضع الماضي في صندوق يدفنه في الأرض. ستكون حيفا أرض صندوقه، وينسى كلَّ شيء؛ يدفن حكاية اللدّ وآلامَها وسِيَرَ العشَّاق فيها في صندوق النسيان، ويمضي.

السؤال الذي يؤرِّق كاتب هذه الحكايات هو كيف يكتب الغائبون؟ هل يستطيع الغائب أن يروي حكايته بضمير الأنا، فيكتب كمَن يتذكَّر، أم عليه أن يلجأ إلى ضمير غائب يكتب بدلًا منه؟

لعبة ما يُسمَّى الضمائر في لغة العرب عجيبةٌ ولا يوجد لها مُعادلٌ في أيِّ لغة أُخرى. فالأحرف التي تحلّ مكانَ الأشخاص تُسمَّى ضمائرَ، والضميرُ هو أيضًا الوازع الأخلاقيّ غير المرئيّ، فكيف يستطيع الروائيُّون الكتابة بضمير غائب؟ وما معنى أن يغيب الضمير كي يرويَ؟

شعر آدم في اللحظة التي غادر فيها منزل منال في حيفا، بأنَّه اختار الغياب، لذا لا يجد أمامه سوى احتمال واحد: أن يقسم آدمَ نصفين؛ نصفًا للحضور ونصفًا للغياب. النصف الأوَّل يعيش اليوم في مدينة نيويورك، فهو غائب عن المكان وحاضرٌ في النَّص، والنصفُ الثاني يعيش في حيفا، أي أنَّه حاضر في مكان مغيَّب. هذا الحاضر ـ الغائب، أو الغائبُ ـ الحاضر، يريد أن يعترف للإسرائيليِّين بتفوُّقهم اللغويّ في كلمة واحدة على الأقلّ. فالمشرِّع الإسرائيليّ، الذي

استنبط كلمة الحاضر ـ الغائب، كان عبقريًّا لأنَّه تجاوز خيال جميع كُتّاب مسرح العبث، فحوَّل اسم شعب كامل إلى عنوان للعبث.

يُطلق النحاةُ العرب على الضمير الغائب اسمَ الضمير المستتر. كاتب هذه الحكاية يجد نفسه مضطرًّا إلى أن يستتر. سيكتب عن آدمَ كأنَّه يكتشفه. سينسى الطفل الذي وُجد شبهَ ميِّت على صدر أمِّه تحت زيتونة في الطريق الطويل بين اللدّ ونعلين، ويرى الحياة بعينين جديدتين. سيلعب مع الغياب إلى النهاية. يغيب ليكتب عن أمكنة غائبة، لكنَّ لوثة الانبهار بعينَي شهلا المرسومتين على صورة الذاكرة، ستكشف له استحالة لعبته، لأنَّ غياب هذه المرأة خلف عينيها العسليَّتين اللوزيَّتين أثار في قلبه شوقًا أخرسَ إلى أمِّه الصغيرة التي لم يستطع أن ينساها.

في تلك الليلة الغريبة من شهر كانون الأوَّل، عندما حجبتِ الغيوم ضوءَ نجوم السماء، مارس الحبَّ مع رفقة تحت شبّاك الغيرة التي شعَّت من عينَي شهلا، واكتشف أنَّ الحياة ليست سوى خدعة علينا أن نواجهها بخدعة تُشبهها، كي لا تسحقنا ذاكرة الحنين والخوف، وتُحوِّلنا إلى أشباح تعيش مع أشباح الناس التي تمتلئ بها بيوت وادي الصليب التي تتداعى.

الحمامة البيضاء

الرَّحيل

- 1 -

كان آدم دنُّون في الخامسة عشرة من عمره عندما خرج في ليلة الأربعاء، الموافق فيها الخامسُ والعشرون من تشرين الأوَّل 1963، من منزل والدته الكائن في سفح جبل الكرمل.

كانت الثانية صباحًا. حمل آدم حقيبة الظهر الصغيرة. ومشى حافيًا على رؤوس أصابعه. وصل إلى الباب، وانحنى كي يلبَسَ حذاءه. وحين بدأ يقف بعدَ أن ربط شريطَي فردتَي الحذاء وجد منالَ أمامه، تحمل في يدها ملفًّا، وتمدُّه إلى ابنها.

أراد أن يَمضي بلا وداع. مشى متمهِّلًا كي لا يوقظَ منال. فضَّل أن يتلافى سيناريوهات الوداع التي نسجها في خياله، ويخرجَ من البيت متسلِّلًا، ويتركَ خلفه كلّ شيء، ولا يأخذَ معه سوى كتبه المدرسيَّة والقليل من ملابسه.

لكنّ أمّه ظهرت فجأة بقميص نومها الأزرق كأنَّها خرجت من مناماته. وقف، فرآها أمامه. تراجع إلى الوراء وأسند ظهره إلى الحائط.

قالت إنَّها كانت تعرف أنَّه سيَمضي، وإنَّها استعدَّت لهذه اللحظة من عشرة أعوام، فخبَّأت له هذه الوصيَّةَ التي تركها حسن دنُّون لابنه الوحيد الذي لم يسمح له الموت بأن يراه.

«هذه لك، خُذْها. وصيَّة... وصيَّة والدك.»

مدَّ الفتى يدًا مرتعشة وأخذ الملفّ. من زمان لم يحسَّ آدم بتدفُّق المشاعر التي استولت عليه في تلك اللحظة. شعر بالإعياء. أسند ظهره إلى الحائط، قبل أن يجد نفسه يزحط ويجلس أرضًا، والملفُّ بين يديه.

«هذه الأوراق»، همست «هي وصيَّةُ والدك، سأعطيك إيَّاها على الرَّغم من أنَّه تركها لي، فأنا لا أستحقّها. هذه الأوراق هي الميراث الذي تركه لك والدك».

«تُسمِّين هذه الأوراقَ ميراثًا»؟ قال آدم.

«نحن منملكش إشي غير الكلام»، همست.

العتمة التي تُحيط بقميص النوم الأزرق الطويلِ الذي ارتدته أمّه، حوَّلتِ المرأة إلى ظلٍّ يتوهَّج بضوء خفيٍّ كأنَّه هالة تشعّ من أنحائها كافَّة. لم يرَ آدم سوى هذه الهالة التي تحتضن عينين نصف مغمضتين، وأجفانًا مرتعشة، ويدًا ممدودة.

انحنتِ المرأة على ابنها كأنَّها تهمّ بضمّه إلى صدرها، لكنَّها تراجعت إلى الوراء. مدّ الفتى يديه نحو أمّه المنحنية، لكنَّ المرأةَ التي

كان قميص نومها الأزرق يمتزج بظلال العتمة، اختفت في الأزرق.

قالت له عن وصيَّة والده الميِّت، فخرج صوتها من بئر الصمت كي يعود إليه. أسند ظهره إلى الحائط كي ينهض. ارتفع قليلًا قبل أن يسقط جالسًا مرَّة أُخرى. ومرَّةً ثانية انحنتِ المرأة على ابنها، ومدَّت إليه يَدها. أمسك آدم اليد وتحامل على نفسه ليقف. وحين وقف لم يجد ما يقوله. نظرت في عينيه، وقالت له أن ينتظر كي يتوقَّف المطر. أدارت ظهرها وعادت إلى غرفتها. أغلقت باب الغرفة واختفت.

حين يتذكَّر آدم دنُّون لحظة الوداع تلك تخونه ركبتاه، ويجلس كي لا يسقط أرضًا، ويجتاحه إيقاع نَقْرِ المطر على الشبابيك، وصوتُ رياح عاتية تعصف من حوله.

كان يحلو للفتى أن يصف أمّه بامرأة التداعي. منالُ التي رضع ثدييها الناشفين طفلًا وظلَّ عطشانَ طوال حياته، كانت بالنسبة إلى ابنها سرًّا مُقفَلًا بالصمت وكسور الكلمات. حين يتذكَّرها لا يذكر من صوتها سوى مقاطعَ غيرِ متَّصلة، كأنَّها كانت تحكي في سرِّها، ولا تسمح سوى بخروج أصوات مبهمة تشير إلى كلمات لم تُقَل، أو قيلت بطريقة لا يعرف أحد فكّ رموزها. صورة منال الصغيرة، كما يتذكَّرها آدم، احتلّتها صورة المرأة التي سقطت على الأرض وهي ترحِّب به بعد عودته إلى البيت من الناصرة.

مات صديقه إبراهيم في مباراة كرة القدم التي جرت بين فريقَي الناصرة وعيلبون، فبقي آدم ثلاثةَ أيَّام في عاصمة الجليل، مثلما يحبّ أهل الناصرة تسمية مدينتهم، ولم تستطع منال مغادرة حيفا لمرافقة ابنها في تلك الأيَّام العصيبة، لأنَّ زوجها عبد الله الأشهل منعها من

ذلك. وعندما عاد ابنها إلى المنزل بعد ثلاثة أيَّام من معاشرة الموت وسط التحقيق الإسرائيليّ بتهمة مسؤوليَّته عن موت صديقه، ركضت منال صوب الباب مادَّةً ذراعيها. وقبل أن تصل إلى ابنها سقطت أرضًا. انحنى جَذعها إلى الوراء كأنَّها كانت تهمّ بالجلوس، ثم سقطت على حوضها قبل أن تتلاشى وتقعَ على ظهرها بيدين ممدودتين ووجهٍ مرتعش.

أمسك آدم بيد أمّه كي يُنهضها، فشعر بدبيب الحنان في أصابعها. يتذكَّر الفتى هذا الدبيبَ بصفته حنانًا، لكنَّه يعرف أنَّ هذه الصفة ليست ملائمة. يستطيع أن يقول إنَّه شعر بروح أمّه وهي تنتشر على أصابع يدها؛ أصابع طويلة وناعمة كالحرير، تنتشر فيها روح المرأة النائمة على الأرض. انحنى على وجهها، فرأى ظلال عينيها المغمضتين، وخاف من الموت. اعتقد أنَّ أمّه تموت، لكنَّه لم يصرخ. تسارعت نبضات قلبه، وبدأ يلهث. مسَّد عينيها بيديه، ففتحت المرأة عينيها وبدأت تستعدّ للنهوض. طبع قبلة على جبينها وساعدها على الوقوف. وقفت وارتسمت على شفتيها ابتسامةُ اعتذار حيِيَّةً. أمسكته من يده وقادته إلى الحمَّام. وضعت إصبعها على شفتيها كي تطلب منه ألَّا يحكي، وأشارت له بأن يخلع جميع ملابسه على الباب. أخذت الملابس الملأى برائحة السجن ورمتها في المزبلة، وأمرته بالاستحمام. وعندما خرج نظيفًا ومشرقًا بنعيم الماء، وجد مائدة فرشت عليها منالُ الطعامَ: بيضًا مقليًّا بالسمّاق؛ جبنةً بيضاء وزيتونًا وعسلًا وشايًا. جلست تراقبه وهو يلتهم الطعام، ثم أمرته بالنوم.

لم تسأله شيئًا، فهي كانت تعرف أنَّه بريء. وهو لم يحكِ، ولم يعاتب. خاف عليها من كلمات تروي معاناة صبيٍّ، لم يبلغ الرابعة

عشرة، في السجن بتهمة لم يرتكبها. كان آدم يشعر بأنَّ الكلمات تتَّخذ عند ارتطامها بأمِّه شكلَ الجروح، وكان حين يراها خارجة من الغرفة بعد سماعه صيحاتِ زوجها وشتائمَه، يشعر بأنَّ عُنُقَ المرأة مليءٌ بالجروح. جروحُها مثلُ عينيها. عينان لا تذرفان الدموع، وعنقٌ مليء بجروح لا تنزف.

قرَّر آدم أن يمضي. شعر بأنَّ أمّه لا تريده شاهدًا على مهانتها، وأحسَّ بأنَّ جدران البيت تضيق به. لم يعد هناك هواءٌ كافٍ في هذا المكان. لم يخطر في باله أن يسأل أمّه لماذا لا تأتي معه، أو لماذا لا تأخذه وتهرب. كان يعرف أنَّها لا تملك أيّ مكان. عودتها إلى قريتها عيلبون مستحيلةٌ، فهي لم تكتفِ بالهرب مع المجاهد حسن دنُّون الذي أنجبت منه ابنها، وإنَّما تزوَّجت مرَّة ثانية، بعد موت زوجها الأوَّل، رجلًا متزوِّجًا يدَّعي أنَّه أضاع امرأته الأولى في عتمة النكبة. أمَّا اللدّ فصارت، على الرَّغم من عذاباتها، أشبهَ بجنَّة مفقودة، اضطرَّت إلى مغادرتها بعد أن صادر اليهود البيتَ الذي أقامت به بحجَّة أنَّه صار جزءًا من أملاك الغائبين التي انتقلت ملكيَّتها إلى الصندوق القوميّ اليهوديّ.

امرأة بلا عائلة، تستند إلى ظلِّها الذي ينكسر على أشجار الزيتون والبرتقال، حيث كانت تقطف حياتَها كعاملة مياومة، في أرض مصادَرة يملكها زوجها. لكن حتى هذا الذلّ صار اليوم أمنية مستحيلة.

حكاية آدم دنُّون ارتسمت على أهداب أمِّه، فالمرأة التي لا تحكي إلَّا همسًا، كانت تُداري انفعالاتها برموشها، وكان على الفتى أن يقرأ ما تكتبه الرموش في حركتها السريعة أو المتباطئة، كي يفهم الإشارات التي تريد منال أن ترسلها.

كان آدم يعتقد أنَّ حياة أمّه انتهت هناك، معلَّقةً على أسلاك غيتو اللدّ التي أزيلت عن الأرض لكنَّها بقيت مغروسة في الوجدان. غادرت منال قريتها عيلبون إلى مجهولِ حبيبها في اللدّ، فوجدت نفسها عالقةً في الغيتو. امرأة صغيرة تحمل على زندها ابنَها الرضيع، ويقودها شابٌّ أعمى كان في الثامنة عشرة من عمره، قرَّر أن يكون عينَين لامرأة لا تعرف شيئًا عن المكان الذي علقت فيه، ولا تملك سوى خِيار وحيد هو البقاء حيث وجدت نفسها.

يذكر آدم لحظة اختفاء مأمون الأعمى على شكل بيت صامت لا حياةَ فيه. كان في السابعة من عمره. عاد إلى البيت من المدرسة ليجده مليئًا برائحة البخور. المرأة تخبِّئ وجهها في يديها وهي تجلس أمام أيقونة السيِّدة العذراء التي تحمل طفلها الرضيع. لم تتحرَّك المرأة من مكانها حين سمعت دعسات ابنها. «فين مأمون؟» سألها، فلم تجاوب، بقيت منحنية على يديها كأنَّها لا ترى. ثم نهضت فجأة. ضمَّت الأيقونة إلى صدرها، وأعادتها إلى مخبئها تحت فرشتها. يومها فهم أنَّ منال صارت يتيمة مثلَه، وأنَّ عليه أن يصير لها أبًا وزوجًا كي ينقذها من مصيرها. هذه المشاعر التي يستطيع آدم، وهو يُعيد تنظيم ذاكرته، أن يصوغها، لم تكن واضحة في ذلك اليوم الخريفيّ البارد، حين عاد إلى بيته بعد قضائه ثلاثةَ أيَّام سجينًا بتهمة جريمة لم يرتكبها.

اعتُقل آدم دنُّون في الناصرة يوم مقتل صديقه إبراهيم الذي كان حارس مرمى فريق الناصرة لكرة القدم. إبراهيم الذي يكبر آدم بخمسة أعوام، عاد مع أمّه من اللدّ إلى الناصرة كي يموت بطابة ركلها نعيم سالم الذي اشتُهر بركلاته التي لا تُرَدّ، فجاءت الطابة في صدره، وقيل إنَّ رئتيه أطبقتا فمات مختنقًا. آدم لا عَلاقة له. كلّ ما في الأمر أنّه

جاء زائرًا إلى الناصرة، وأنَّ صديقه، كي يُكرمه، ألبسه ثياب فريق الناصرة وجلس في مقاعد الاحتياط يتفرَّج، وأنَّه حين رأى صديقه يتلوَّى على الأرض ركض كي يغيثه، فجرى اعتقاله، بينما تمكَّن نعيم من الفرار. يذكر آدم حكاية موت صاحبه بصفتها موعدًا فاشلًا مع الحزن. فالاعتقال جعله يحتقر نفسه، إذ بدلًا من أن يحزن ويفكِّر في مصير صديقه، خاف على نفسه. وحين أُفرج عنه بعد ثبوت براءته، أحسَّ بأنَّه يستطيع أن يرقص فرحًا، إلى درجة أنَّه غادر السجن وعاد إلى حيفا من دون أن يذهب إلى منزل صديقه كي يقدِّم واجب العزاء.

امرأة التداعي التي استقبلته على باب البيت، لم تسأله شيئًا. قالت إنَّها كانت متيقِّنة من براءته، وإنَّها أَسلمته إلى الخِضْر وقالت له: «يا مار جرجس إنت دبِّر الصبي.» لم تسأله كيف عاد، وما حكايةُ سيَّارة الشيفروليه الحمراء التي أوصلته إلى باب البيت. تصرَّفت كأنَّها تعرف كلّ شيء. السؤال الذي حيَّر آدم ولم يجد له جوابًا هو: كيف عرفت أنَّ ابنها سيصل قبل أن يصل. وجد آدم الباب مفتوحًا، ومنالَ في انتظاره كي تستقبله بإغماءتها وبالفطور الشهيّ الذي حُضِّر في رمشة عين.

كان موت إبراهيم في الناصرة منعطفًا في حياته. إنَّها المرَّة الأولى التي رأى فيها الموت بعينيه. حين يستعيد آدم دنُّون هَوْلَ تلك اللحظة، يُصاب بالإعياء وتتملَّكه الحاجة إلى النوم. الفتى الذي وُلد في غيتو اللدّ، وعاش فيه طفولة ملأى بحكايات الجثث المتفسِّخة، ومهانة القفص الذي وُضع فيه الناس، والذي كان الموت بالنسبة إليه مجرَّد حكايات يستمع إليها كأنَّها حكايات الجنِّيَّات التي ترافق وعي الأطفال للغتهم، وجد نفسه للمرَّة الأولى أمام موت حقيقيّ لا يشبه الحكاية.

انحنى على إبراهيم وطلب منه أن ينهض، لكنَّ حارس المرمى

المغمَضَ العينين والمتشنِّجَ الوجنتين لم يجاوب، كأنَّه فقد القدرة على السمع. احتضنه بيديه كي يوقفَه على قدميه، فبدا إبراهيم ثقيلًا ومن الصعب تحريكُ جسده. جاء المسعفون وأمروا آدم بالتراجع. وضعوا حارس المرمى على محمل ومضوا به. في تلك اللحظة لم يعد هذا الجسد المحمول جسدَ إبراهيم. بدلًا من ملامح وجه صديقه، رأى آدم قناعًا يميل إلى الاصفرار، وفهم أنَّ الفتى مات، وأنَّ الموت لا يعني فقط أنَّ الروح تنسحب من الجسد، بل ينسحب الجسد من الجسد أيضًا، وتصيرُ الجثَّة كائنًا غريبًا لا تشبه صاحبها.

تجربة آدم الأولى مع الموت جعلته يفهم كيف تحوَّل الموت في اللدِّ إلى حكايات. ففي اللحظة التي تنسحب فيها الروح من الجسد يصير الجسد غفلًا وبلا اسم يحميه من الاندثار والتحلُّل. وعندها، يمكن للكلام على الموت أن يصير محايدًا وبلا عواطف، ومجرَّدَ لحظة صمت تفصل بين كلمتين، ويتحوَّل إلى حكاية.

وحين أخذوه إلى التحقيق كان آدم مقتنعًا بأنَّ الذي مات لم يكن إبراهيم. صديقه اختفى خلف جثَّة لا تشبه صاحبها، وآدمُ لم يفهم لماذا لم يبكِ. وبدلًا من أن يجتاحه الحزن، شعر بالخوف من المحقِّقين الذين سخروا من لهجته الشرقيَّة وهو يتكلَّم العبريَّة، ومن خوفه واصطكاك أسنانه الذي لم يتوقَّف.

وسيكتشف آدم، بعد أن هاجر إلى نيويورك، حيث سيموت وحيدًا ومحترقًا بجمر سيجارته المشتعل، أنَّ إبراهيم، في موته المفاجئ والعبثيّ، صالحه مع الموت الكثيرِ الذي امتلأت به حكايات طفولته، فصار قادرًا على النظر إلى اللدِّ ومأساتها بصفتها حكاية مرسومة في عيون الضحايا.

في الثانية من صباح يوم الاثنين الموافق فيه 18 تشرين الثاني 1963، أي بعد عام من حكاية اعتقاله القصيرةِ في الناصرة، وجد آدم أمَّه في انتظاره. عرفت من دون أن يقول لها أحد، وأذهله امتلاك هذه المرأة هاتفًا داخليًا يُخبرها كلَّ شيء عن ابنها الوحيد.

لو طلبتم من آدم أن يروي لكم حكاية أمِّه، لَكتبَ صفحات لا تُحصى بالحبر الأبيض. هكذا تخيَّل نفسه دائمًا، يكتب بالأبيض على الأبيض، بدلًا من أن يكتب ويمحوَ، كما يفعل الكُتّاب. يكتب حكاية بيضاء مرسومة بالصمت والوشوشة والاقتراب ممَّا لا يُقال كي يقول من دون أن يقول.

لم يخن آدم أمَّه إلَّا مرَّةً واحدة، حين قال لدالية إنَّه سيكتب قصَّته على جسدها بحبره الأبيض. ضحكت صديقته وقالت إنَّه يهلوس. كان في قمَّة الوصول إلى نشوة النشوة. فحين يتَّحد الجسد بالجسد، وتتداخل المتعة بالمتعة، ويختنق الكلام، ترفرف روح الله بأجنحتها التي لا تُحصى فوق ماء الحبِّ المتدفِّقِ من ينبوع الحياة. عندها يصير الحبّ كيمياء الروح، ويكتب الرجل بحبره الأبيض على الجسد الأنثويّ حكايةَ انسحاقه وذوبانه في أنوثة الماء.

لم يعد آدم إلى حكاية الحبر الأبيض مع دالية، لأنَّه شعر بأنَّه يُسيء إلى الاستعارة التي خصَّ بها منال من دون سواها من نساء العالمين.

لمنالَ وحدها يليق حبر الحبِّ الأبيض، فالمرأة الصغيرة المتشقِّقة الشفتين إلى حبٍّ لم يأتِ إلَّا كسراب. أضاعت حياتها بين ثلاث حسرات: حسرتِها على زوجها حسن دنُّون الذي أُصيب قُبَيْل سقوط

اللدّ فتحوّلت إلى ممرّضة لاحتضاره؛ وحسرتِها على مأمون الفتى الأعمى الذي كان رفيقها في أيّام الغيتو وأبًا مستعارًا لابنها الوحيد، لكن مأمون غادر الغيتو حين كان ابنها آدم في السابعة من عمره؛ وحسرتِها بسبب زواجها بعبد الله الأشهل، الرجلِ الغامض الذي لم تستطع أن تكون له.

كان آدم متيقّنًا من أنَّ رحيله لن يترك حسرة في قلب المرأة الصغيرة، فهي أرادت له أن يمضي، ولم يكن قراره إلّا صدًى لرغبتها الخفيَّة، لكنَّه لم يعد متأكِّدًا اليوم، وهو يعيش في منفاه الاختياريّ في نيويورك، من هذه الحقيقة. ليس دقيقًا أن نقول إنَّه شعر بالذنب، فآدمُ يعتقد أنَّ هناك كلمتين يجب ألَّا يستخدمهما المرء: الندمَ والشعورَ بالذنب، لأنَّهما تُتَفِّهان معنى خيارات الإنسان. الحقّ أنَّه يشعر بحبٍّ جارف لهذه المرأة. حتى قصّة حبِّه الكبرى لدالية، لم تستطع أن تمحو حبّه لمنال الصغيرة، الذي يشبه فراغًا يتسلَّل بين نبضات القلب.

أدار آدم ظهره ومشى ببطء شديد. كان في أعماقه يتوقَّع أن تناديه أمّه وتطلب منه البقاء معها. تخيَّل هذا السيناريو مرَّات لا تُحصى، وفي كلِّ مرَّة كان يحذف تفصيلًا ليُضيف تفصيلًا جديدًا، يقول شيئًا ثم لا يقول. صارت هذه اللحظات رفيقةَ ليل آدم: يدخل إلى الفراش، يغمض عينيه، ويبدأ في لعبة الاحتمالات التي تنقطع فجأة حين يغلبه النعاس.

ستمسك به من يديه وتذرف دموعًا، وسيزيح يديها بعنف ويقول إنَّه سئم منها ومن وجهها المستطيل بالأسى، وإنَّه سيصنع حياته بعيدًا عن كآبة العَلاقة بصورة والده الشهيد التي عليها أن تختبئ في غرفته كي لا يراها زوجها.

وفي مرَّة ثانية، تخيَّل نفسه يحمل صورة والده الشهيد ويَمضي. وحين ستطلب منه منالُ أن يتركها، سيقول لها إنَّها لا تستحقّ الرجل الذي خانت ذكراه مع زوجها. «لكنَّني أحبّه ولن أتوقَّف عن حبِّه»، ستقول. «هذا أبي ولا علاقة لك به»، يُجيبها، وهو يضع الصورة في حقيبته ويَمضي.

وفي مرَّة ثالثة، تخيَّلها وهي تنتزع الحقيبة من يده، تأخذ صورة حسن وتضمّها إلى صدرها. يقترب آدم من أمّه كي يأخذ الصورة منها، يقف متردِّدًا، ثم يَمضي.

وفي مرَّة رابعة، أمسكت به من كتفيه، نظرت في عينيه وقالت إنَّها ستَمضي معه. نَهَرَها قائلًا: «اِبقَي مع زوجك. أنت تستحقِّينه.»

وفي مرَّة خامسة، ستقف وتسدّ الباب وتمنعه من الخروج، وسينظر إليها قائلًا: «ابتعدي عنِّي يا امرأة». وستجرح كلماته عنقَها فتضع منال يديها على جراحها، وتئنُّ بصوت خافت، وتنحني مفسحة له المجال كي يخرج.

وفي مرَّة سادسة، قالت له وهي تمسك بيديه إنَّها تطلب منه ألَّا ينسى أنَّها أمُّه، وأنَّها ستبقى تحبّه حتى آخر يوم في عمرها. نظر إليها وقال إنَّه نسي كلّ شيء، وسيبدأ حياته من جديد كأنَّه وُلد الآن.

وفي مرَّة سابعة، سقطت أرضًا، وكان عليه أن ينحني على أمّه ويوقظها من إغماءتها بقبلاته، ويقول إنَّه يعتذر لأنَّه سيسبِّب لها الألم، لكنَّه لم يعد يستطيع أن يبقى.

تكلَّمت منال كثيرًا في ليالي آدم. امتلأ نعاسه بصوتها، وتدرَّب على جميع احتمالات حزنها وخوفها على ابنها وقلقِها إزاء مصيره.

لكن منال حين رأت ابنها يحمل حقيبته .ويمضي خيَّبت جميعَ توقُّعاته، فهي لم تسقط أرضًا ولم تمدَّ يديها طلبًا لمساعدته، وإنَّما همست إليه بكلمات قليلة، ووقفت مثلَ ظلٍّ يترنَّح في العتمة. أعطته وصيَّة والده بعد أن ساعدته على النهوض، ثمّ غادرت مدخل البيت وعادت إلى غرفة نومها وأغلقت الباب بهدوء.

وجد آدم نفسه وحيدًا، فمضى من دون أن يلتفت إلى الوراء.

- 2 -

كان الفتى الطويل القامة ذو الشعر الأشقر الذي يميل إلى الكستنائيّ، يعرف إلى أين سيَمضي. سوف يُمْضي ما تبقّى من الليل في حديقة بنيامين في الهادار، ثم يذهب إلى كاراج الخواجة غابرييل، في وادي الصليب، حيث سيعمل، ويحاول أن يتابع دراسته في مدرسة المطران في حيفا.

خرج آدم من البيت ليجد نفسه وسط الماء. كان المطر يهطل فوق مدينة حيفا التي بدت كأن المطر سيبتلعها ويجعلها تنزلق إلى البحر. فقط في هذه المدينة التي إن رأيتَها من البحر يُخيَّلْ إليك أنك ترى حمامة تفرد جناحيها وسط الماء، يشعر المرء بأن الجبل ينزلق إلى الماء، وأن المسطّح الذي رسمه النبيّ إلياس في ستيلّا مارس، هو الحدودُ التي تمنع المدينة من أن تغطس في الماء وتعودَ سديمًا.

مشى آدم تحت المطر التشرينيّ وهو يشرب الماء في ثيابه وجسمه، وشعر بأن حريَّته التي صنعها في تلك الليلة العاصفة، كانت

في حاجة إلى الولادة في الماء، مثلما علّمه الأستاذ نعيم.

كان أستاذ الطبيعيّات في مدرسة المطران رجلًا غريبَ الأطوار، يُدعى نعيم القيسي، يقول إنه حيفاويّ أبًا عن جَدّ، لكنّ لهجته القرويّة كانت تشي بأنه لا يقول الحقيقة. كان في خمسينياته، يدخل الصفَّ حاملًا في يده قنينةَ ماء ملأى، ينساها على الطاولة وهو منهمك في شرح الدروس لتلامذته. كانت علاقة هذا الأستاذ بالماء غريبة. قيل، والله أعلم، إنه كان عازبًا يعيش وحيدًا في غرفة صغيرة في وادي النسناس، وإن جميع أفراد عائلته غادروا المدينة بحرًا في أثناء الطرد الكبير الذي أعقب سقوط المدينة بأيدي قوات «الهاغاناه» في 21 نيسان 1948. رجل وحيد ومتوحِّد، حياته هي المدرسة التي كان يُمْضي فيها أغلب أيّامه، ولا يغادر المبنى إلّا في المساء، حين يطلب منه الشمّاس جورج أن يذهب إلى بيته، لأنَّه يريد إقفال الباب والنومَ. الشيء الوحيد الذي عُرف عنه هو وَلَعُه بالماء وفلسفتُه بشأن الأصل المائيّ للإنسان:

«الإنسان مصنوع من الماء. الطين الذي استخدمه الله، سبحانه وتعالى، في خلق آدم كان مجرد ثوب للماء، وعندما يقترب الإنسان من الموت، يصير قابلًا للكسر مثل الفخار الذي شُوِيَ على نار الحياة وفَقَدَ ماءه. الموت، يا أولادي، لا يأتي إلاّ حين يفرغ الطين البشريّ من مائه ويصير فخّارًا بلا روح.»

لم يكن أحد من تلامذته قادرًا على مناقشة هذا الأستاذ الذي يعرف عمل الأعضاء في جسم الإنسان كأنَّه طبيب. فالأستاذ نعيم لم يزر طبيبًا قطُّ، بل كان يعالج تلامذته حين يمرضون بأعشاب يصنعها ولا يقول سرَّها لأحد.

ارتكزت نظريَّة الأستاذ على حقيقة علميَّة قال إنها جوهر الوجود البشريّ. فالماء يشكّل نحو 60% من جسم الإنسان الناضج، أمّا الطفل المولود حديثًا، فإن الماء يشكّل 75% منه. وكان الأستاذ يمتلك معلوماتٍ تفصيليَّةً عن حجم الماء في الأعضاء، الأمر الذي دفعه إلى استنتاج عجيب هو أنَّ الماء روح الإنسان. «الماء هو الروح. نحن نعيش في أرحام أمهاتنا داخل وعاء مائيّ، لذا حين يبدأ المخاض، ينزف الماء من رَحِم المرأة ونقول «طقّت ميّة الراس». نخرج من جنّة الماء إلى الأرض، لكننا نحمل الماء في داخلنا طوالَ حياتنا. وحين تحين الساعة يكون ما تبقّى من ماء الرَّحِم قد تبخّر، وتكون أرواحنا قد غادرتنا بالتدريج مع ماء أجسادنا.»

مشى آدم في الماء الذي يهطل من السماء، وأحس بأن روحه تهطل عليه، وأنَّه صار الآن إنسانًا جديدًا. مرَّة واحدة حدثته منال عن المعموديَّة، وكيف تغتسل روح الأطفال في الماء، وحين سألها لماذا لا يعتمد المسلمون، قالت إنها قرأت نصًّا لأحد الصوفيِّين الذين يشبهون جَدَّ العائلة الذي عُرف باسم ذي النون، يقول إن المسلمين يعتمدون على طريقتهم، فقد استبدلوا معموديَّة يوحنا بالماء بمعموديَّة إسماعيل بالدموع.

«وأنا، هل اعتمدت؟» سألها.

«أكيد، كلُّ الناس يعتمدون»، أجابته.

«بالدموع، أم بالماء؟» سأل.

«الدموع كانت ماء الغيتو»، قالت.

مشى وسط عتمة الماء، وشعر بأنَّه يعبُرُ البحر الذي شقّته عصا

موسى إلى نصفين، وأنَّه صار اليومَ إنسانًا آخر، يلبَس روحًا جديدة، ويستطيع أن يبدأ رحلته إلى ذاته. كان يمشي وهو ينظر إلى السماء، كمَن يستدعي مزيدًا من الماء. معطفه الرماديّ القصير انتفخ بالهواء. مشى الفتى كأنَّه يترنَّح، وشعر بأنَّه لم يعد في حاجة إلى الدموع. لقد اعتمد بدموع السماء، ويستطيع ابتداءً من اليوم أن يكون إنسانًا آخر، بدأت ترتسم ملامحه الأولى في الطريق الذي قطعه داخل سيارة الشيفروليه الحمراء من الناصرة إلى حيفا.

حين سيقرأ آدم قصيدة معين بسيسو عن موسى وهو جالس في غرفته الصغيرة بعد هجرته إلى نيويورك، سيضحك بصوت مرتفع وهو يتذكَّر تلك الليلةَ التي أطلق عليها اسم فُصحه المائيّ، بحيث تراءى له أنَّه عَبَرَ تحت المطر إلى آدم الجديد الذي رسم ملامحه طوال أكثر من عام. وسيسخر من سذاجته، ومن تشبيهه نفسه بكليم الله موسى. فعصا موسى التي شقَّت البحر، بحسب الشاعر الغزاويّ، لا تصلح إلاّ كاستعارة لزمننا الحاضر، وكإدانة لتحوُّل عصا موسى من أداة هَرَب من الفرعون إلى سيف للفَرْعنة، ولا مكان فيها لجميع رومانسيات الأستاذ نعيم.

«أعطى الله عصاه لموسى ليشقّ البحر ويهربْ / لم يعطِ الله عصاه لموسى كي يضربْ»

واكتشف آدم أنَّه لم يعبُر الماء في ذلك الليل الشتائيّ في حيفا، إلاّ كي يهرب من حكايته، ليعودَ فيلتقيَ بها في النهاية، بعد أن فَقَدَ أكثر من نصف مائه.

- 3 -

بدأ عبور آدم إلى عالمه الجديد في طريق عودته من السجن في الناصرة إلى حيفا، حين التقى آدم الخواجة غابرييل. كان يقف وحيدًا في الطريق، بعد أن أعياه المشي. خرج من السجن في السادسة صباحًا، ليجد نفسه في الشارع. أراد أن يأخذ الباص لكنَّه تذكَّر أنَّه لا يملك ثمن تذكرته. ضاع منه كلّ شيء في زحمة اعتقاله، عندما اقتاده رجال الأمن إلى غرفة الملابس الخاصَّة باللاعبين، وطلبوا منه أن يخلع ملابس الفريق الرياضيّ ويلبَس ثيابه. وجد نفسه وسط فوضى الملابس التي تبعثرت وامتزجت بملابس أعضاء الفريق الآخرين. وبعد التحقيق الأوَّليّ، أمر المحقِّق بإيداعه في السجن. وبينما كان يسلِّم ساعته وشريط الحذاء والحزام، اكتشف أنَّه أضاع المصاري التي وضعها في جيب بنطلونه. وها هو الآن يقف وحيدًا في الشارع لا يعلم ماذا عليه أن يفعل، فمشى، لأنَّه لم يكن يملك حلًّا آخر. وفي الطريق بين يافة الناصرة والمجيدل، وقف تحت شجرة جمِّيز كي يرتاح

قليلًا. الأوتوستوب لم يخطر في باله، فهذه هي المرَّة الأولى في حياته التي يغادر فيها حيفا منذ استقراره في المدينة مع أمِّه وزوجها. وهو لا يعرف هذه المناطق التي تنحني تضاريسها وتتشعَّب، فالجليل بالنسبة إليه لم يكن سوى فلذات من حكايات روتها أمّه عن قريتها عيلبون. جاء إلى الناصرة بالباص مثلما أوصاه إبراهيم الذي كان في انتظاره في محطَّة الباصات، ولم يتسنَّ له زيارة مدينة المسيح مثلما وعده صديقه. فإبراهيم مات، وهو لم يرَ من المدينة سوى غرفة التوقيف، وعليه الآن أن يعود وحيدًا.

كان يقف حائرًا لا يدري ماذا يفعل، عندما توقَّفت سيَّارة شيفروليه حمراء أمامه، وقال سائقها بالعبريَّة إنَّه نازل إلى حيفا، ويستطيع أن ينقله في طريقه.

«وأنا أيضًا»، قال آدم.

«اركب»، قال الرجل.

تردَّد آدم قليلًا ثم صعد إلى السيَّارة.

هكذا بدأت الرحلة.

«اسمي غابرييل تاندوف»، قال الرجل الأربعينيّ الذي أمسك مقود السيَّارة بكلتا يديه.

«وأنا آدم؛ آدم دانون.»

«أنا من حيفا»، قال الرجل، «وأسكن في هادار هكرمل.»

«وأنا أسكن في الكرمل»، قال آدم.

«أنتم الشباب تفعلون ما تشاؤون، أمّا نحن فعلينا أن نركض خلف الرغيف»، قال غابرييل.

لم يتوقَّف غابرييل عن الكلام طوال الطريق. قال إنَّه هاجر من بولندا عندما كان في السابعة، جاء مع أمِّه وشقيقه شلومو. «أمّي كانت رجل البيت، جاءت بنا إلى هنا وحدها لأنَّ أبي الأحمق قال إنَّه بولنديّ ولا يريد أن يترك بلده، فهربت بنا، أنا وشقيقي الصغير الذي كان في الثالثة. أمّي ائتمنتني على السرّ. قالت يجب ألَّا يعرف أحد، وخصوصًا والدَك شمعون الأحمق، أنَّنا عازمون على الرحيل. هربنا إلى إستانبول، ومن هناك ركبنا سفينة العودة إلى أرض إسرائيل. أخي كان أشقر مثلك، وكانت أمّي تعبده. قالت لي إنَّها هربت من أجله ومن أجلي، لكنَّه مات هنا. كان في السابعة عشرة، وكان أحمقَ مثلَ والده. تطوَّع في «الهاغاناه» حين كان في عمرك، ومات في معركة تحرير حيفا. الآن، عندما سندخل المدينة سأدلّك أينِ مات. ومنذ لحظة موته لم تخلع أمّي ثوبَ الحِداد، ثم أُصيبت بما يشبه الجنون. كانت تعتقد أنَّها ترى شبح ابنها في كلِّ مكان، وكان زوجها يظهر لها في المنامات، ويحاول قتلها لأنَّها قتلت ابنها عندما أتت به إلى هنا».

«حكاية لا تصدَّق»، أضاف غابرييل.

«وماذا حلَّ بأبيك؟» سأل آدم.

«تقصد شمعون الأحمق. لا أحد يدري، اختفى، وعندما كنت أسأل أمّي عنه كانت تُجيب بهزّة لامبالاة من كتفيها، وتقول شمعون لم يكن، لنقل كأنَّه لم يكن.»

«غريب»، قال آدم.

«الغريب هو أنت»، قال غابرييل، «أبيض وتتكلَّم كأنَّك شرقيّ. هل أنت يهوديّ يمنيّ؟»

«لست يمنيًّا ولا يهوديًّا»، قال آدم.

«غريب»، قال غابرييل، «تبدو مثلنا وتتكلَّم مثل اليمنيّين. من أين أنت؟»

«أنا آدم.»

«صبابة! المهمّ يا سيِّد آدم، ماذا كنت أقول؟ صحيح. كنت أريد أن أُخبرك سرًّا: هل تعلم لماذا توقَّفت وطلبت منك أن تصعد في سيَّارتي؟ لأنَّك تشبه أخي. كان أخي مثلك، أشقرَ وطويلَ القامة وظهرُه ينحني إلى الأمام قليلًا، وعيناه لوزيَّتان مثل عينيك، ولونهما غريب يتأرجح بين الأخضر والرماديّ. أنت مثلنا بولنديّ، أليس كذلك؟»

لم يدرِ آدم كيف يدخل في الكلام، فكلام الرجل لا يتَّسع له. كان كأنَّه يحكي مع نفسه، ولا ينتظر جوابًا. لكن عندما التفت إليه الرجل وسأله ماذا أتى به إلى هنا، لم يدرِ آدم بماذا يُجيب. فهو بدأ في لعبة الكذب عندما وضع الألف بدلًا من الشدَّة في اسم عائلته. دانون توحي بأنَّه يهوديّ، وليست مثل دنُّون العربيَّة التي تُشير إلى هويَّته الفلسطينيَّة. والآن، ماذا سيقول مبرِّرًا وجوده على طريق يافة الناصرة ـ مجدال هعيميك؟

لم ينتظر غابرييل الجواب، إذ بدأ يتحدَّث عن عمله كصاحب كاراج لتصليح السيَّارات في حيفا. «كما ترى، أنهض فجرًا وأعمل حتى ساعة متأخِّرة من الليل. زوجتي لا وقت لديها للاهتمام بي. تعود إلى البيت في الثامنة مساءً مرهَقة، نتعشَّى بسرعة شيئًا يشبه الطعام، ثم تضع رأسها على المخدَّة وتبدأ في الشخير. الشخير يقطع حبل الرغبة. تنام وأبقى أنا مع رفقة. ابنتي رفقة في الرابعة عشرة، وهي تشبه أمِّي

كثيرًا. إنَّها ابنتي الوحيدة. لا تسألني لماذا لم أنجب غيرها، فأنت تعرف أنَّ من المستحيل تحبيلَ امرأة تشخر في الليل. ورفقة ممتازة في المدرسة، وجميلة، وصديقاتها جميلات كالعصافير. متعتي الوحيدة هي زبائني الذين يتعاملون معي كأنَّني طبيب. اليوم مثلًا غادرت منزلي في الثالثة صباحًا حين رنَّ هاتفي وسمعت صوت أحد زبائني يرجوني أن أنقذه لأنَّ سيَّارة الشحن التي يقودها تعطَّلت به. فركبت سيَّارتي وأتيت. جميل هواء الجليل، أليس كذلك؟ الآن أفهم لماذا كان الجليل ملجأً اليهود الأخيرَ. أنت مثلي تحبّ الجليل؟»

صمت غابرييل، وارتفع صوت موسيقى كلاسيكيَّة من المذياع.

«وأنت، كيفك في المدرسة؟»

«أنا؟» سأل آدم.

«آمل ألَّا تكون مثل أخي. أخي كان متفوِّقًا في كلِّ شيء، وكان الصبيَّ المدلَّل، وأنا كنت غير نافع. هو مات في أوَّل معركة خاضها، وأنا أصبحت ميكانيكيّ سيَّارات، ونجوت في جميع الحروب. هل تحبّ العمل في الكاراج؟ أنت تشبه أخي كثيرًا. لا بدَّ من أن تأتي يومًا لزيارة أمّي العجوز. أكيد سترى فيك ابنها.»

لم يتوقَّف غابرييل عن الكلام طوال الطريق. الرجلُ المربوع القامة بلحيته الكثيفة وعينيه الصغيرتين المدوَّرتين، ملأ صمت الطريق بصوته. حاول آدم أن يشرح له أنَّه من اللدّ، من غيتو اللدّ، لكنَّ الرجل لم يسمع سوى كلمة غيتو، واسترسل في الكلام عن غيتو وارسو، «هل تعلم، أمّي عندما بدأت تصيبها النوبات العصبيَّة أطلقوا عليها في المستشفى هنا لقب «سيِّدة الغيتو». طلعت خرفتها على

الغيتو، وصارت تعتقد أنَّها في الغيتو وتشعر بالجوع. امرأة دائمة الجوع، تأكل ولا تشبع، وتخاف أن ينفد الطعام، حتى صارت 100 كيلو. شيء مخيف. وأنا صرت أخاف منها، أفظع شيء يا آدم، قلتَ إنَّ اسمك آدم؟ نعم، أفظع شيء هو أن يصل الإنسان إلى اللَّحظة التي يعافُ فيها النظرَ إلى أمّه. لكن هذه هي الحياة، مجرَّد خدعة بلا معنى، ومع ذلك يجب ألَّا نخاف منها، وعلينا أن نخدعها نحن أيضًا، وعندما نتوقَّف عن الخداع نُصاب بالجنون، ونموت.»

«أخبرني عن أمّك أنت»، قال غابرييل.

«أمّي! كيف أخبرك؟ أمّي معتدلة القامة ونحيفة، عيناها واسعتان وتشبه طفلة كبرت قبل أوانها.»

«أنا أحبّ النساء الصغيرات. أنا أشتهي صديقات ابنتي. هناك فتاة اسمها سارة، صبابة. أرى في المنام أنَّني أضاجعها. إنَّها فتاة صغيرة ومنمنمة، كأنَّها في العاشرة من عمرها، مع أنَّها في الخامسة عشرة. كم عمرك يا آدم؟»

«خمسة عشر عامًا.»

«ماذا تشتغل؟ أنت عربيّ، والعرب الذين في عمرك يشتغلون. هل تحبّ أن تشتغل معي في الكاراج؟ أنا أبحث عن صبيٍّ يقوم بالتنظيف والمساعدة. تشتغل وتتعلَّم المهنة، ما رأيك؟»

«أنا تلميذ في المدرسة.»

«المدرسة لا فائدة منها. أنا أربح أكثر من دكتور. لو لم يمت أخي وصار طبيبًا، كما كانت تحلم أمّه، لما ربح كما أربح أنا. العمل اليدويّ كنز. اِنسَ الكلام الفاضي على التعليم وتعالَ إلى كاراج

غابرييل. إنَّه الكاراج الأهمّ في حيفا كلّها. الناس يقصدونني من تلّ أبيب لأنّني فنَّان في اكتشاف الأعطال.»

«لا أريد أن أشتغل، أريد أن أدخل الجامعة.»

«لأيش الجامعة؟ هل تريد أن تصير دكتورًا؟ أنت تعرف، فرص دخول العرب الجامعة صعبة جدًّا. أنا لست عنصريًّا، وأحبّ العرب. جميع عمَّالي عرب ويعيشون في قريتهم في البعنة، كلّهم من البعنة وأقرباء المعلّم ممدوح، وهم ممتنُّون جدًّا لأنَّهم وجدوا عملًا. إنَّهم فلَّاحون بلا أرض، فصار كاراج غابرييل أرضهم. تعالَ وانسَ الجامعة.»

«أنا لست من البعنة. أنا من اللدّ وأقيم بحيفا، وأُريد أن أدخل الجامعة كي أصير كاتبًا.»

«كاتب! وماذا ستكتب؟»

«أكتب مقالات في الصحف، وكتبًا.»

«يعني مثل بياليك.»

«لا. بياليك كان شاعرًا. أنا أريد أن أكتب قصصًا.»

«مثل عجنون يعني. أنا قرأت هذا العجنون، لكنّي لم أفهم شيئًا. لماذا يكتبون هكذا؟»

«وأنا قرأت بياليك وعجنون، وفهمت كلّ شيء.»

«أنت تعرف العبريَّة جيِّدًا يا ولد.»

«نعم، أعرفها وأحبّها، لأنَّها تشبه العربيَّة.»

في مدخل حيفا التفت غابرييل إلى آدم وطلب منه أن يمرّ على

الكاراج متى يريد. «لن تضيع»، قال، «جميع الناس يعرفون الكاراج. اسأل عن غابرييل في الوادي، وستجده بلا عناء. أين تريد أن أوصلك؟»

قال آدم: «لا يهمّ، سأنزل عند مفترق الكرمل، وأدبِّر حالي.»

«لا تنسَ أن تمرَّ بي»، قال غابرييل.

«تو داه ربَّاه»، قال آدم.

لكنَّ السيَّارة انعطفت صعودًا إلى الكرمل، «شكرًا»، قال آدم، «أنزل هنا.»

«سأوصلك إلى البيت، ولا يهمَّك.»

وعند سفح الكرمل، أمام منزل صغير يشبه الكوخ، ترجَّل آدم من السيَّارة. وبعد أن أغلق الباب انحنى على النافذة كي يقول شكرًا، لكنَّ غابرييل أقلع بسرعة جنونيَّة وهو يقهقه ضاحكًا. لم يفهم آدم لماذا ضحك الرجل، لكنَّه لم يهتمّ. كان مرتبكًا، فقد وصل إلى البيت في السابعة صباحًا. خاف أن يكون عبد الله مستيقظًا، أو أن يوقظه حين يقرع الباب. فعبد الله الأشهل رفض أن يصنع نسختين من المفتاح لزوجته وابنها، قال إنَّه هكذا يضمن ألَّا تهرب الزوجة من البيت، فهو الأعرف بطباع النساء، وأحد ثوابت طباع المرأة هو الفرار، «تِسألونيش ليش وكيف، لأنّي مش رح أحكي. مفتاح إلك أو لابنك يوك، عشان تبقي في البيت وتتحرَّكيش، وتقضي وقتك ناطرتيني وناطرة ابنك.»

لم يَدُرْ في بال آدم، وهو يلتهم فطوره بعينيه الناعستين، أنَّ اللقاء بغابرييل سيغيِّر حياته، ويُضيف إليها حلمَ الهرب من البيت. وبدأ منذ تلك اللحظة، يرسم مخطَّطات مستقبله.

قرَّر في البداية أن يتبنَّى وجهة نظر هذا الرجل الأربعينيّ ويلتحق بالكاراج، ويخلص. قال له غابرييل إنَّ جيوب الميكانيكيّ ملأى دومًا بالمال، وإنَّ صاحب كاراج أفضلُ من طبيب، فلِمَ لا يمزّق الكتب وينسى المدرسة ويبدأ حياة جديدة ملأى بالمغامرات؟ غير أنَّه عدل عن هذه الفكرة، لأنَّه رأى في نفسه كاتبًا وليس عاملًا يدويًا. عالم الكتب سحره منذ أن عثر في مكتبة صغيرة في وادي النسناس على روايات إحسان عبد القدُّوس، وخطرت في باله فكرةُ أن يُعيد كتابتها. وحاول ذلك، لكنَّه فشل، ففي اللحظة التي بدأ ينسخ رواية «الوسادة الخالية» شعر بأنَّه لن يستطيع. من أين سيجلب حلم الغرام الرومانسيّ الذي ملأ حياة هذا الروائيّ المصريّ العجوز؟ لا يعلم لماذا شعر بأنّه أمام كاتب عجوز مُتصابٍ، وأنَّ عبد القدُّوس وُلد عجوزًا، وأنَّ غراميَّات أبطال هذا الكاتب المصريّ الذي احتلَّت الأفلامُ المستوحاة من رواياته حياةَ جيل كامل من القرَّاء والمشاهدين العرب، تشبه بخار الذاكرة، وأنَّ أبطالها ليسوا حقيقيِّين. وآدم كان يحبّ الأدب الحقيقيّ، ولم تكن محاولته لإعادة كتابة «الوسادة الخالية» إلَّا كي يحوّلها إلى رواية عن الحقيقة، مثل بطل رواية «الغريب» لألبير كامو، التي قرأها بالإنكليزيَّة وسحرته لغتها، وهو ما قاده إلى محاولة قراءتها بالفرنسيَّة التي لا يعرفها.

لن يُعيد كتابة «الوسادة الخالية» ولن يترك المدرسة، ولن يبقى في بيت عبد الله الأشهل وزوجته منال.

فكَّر في أن يعود إلى اللدّ، ويطالب بحقِّه في استعادة أرض والده المصادَرة. رسم هذا السيناريو عدَّة مرَّات. فكَّر في أن يذهب إلى تلّ أبيب، إلى بيت الخواجة ناحوم إلياهو، فالخواجة ناحوم كان عضوًا

نشطًا في حزب الأحرار، وكان ليبراليًا ومحبًا للعرب، وهو الذي ساعد عددًا من عائلات اللدّ على البقاء في المدينة بعد أن جاءت أفرادَها أوامرُ الطرد بحجّة عدم ولائهم للدولة. ومع أنَّ آدم يعرف أنَّ منالَ ذهبت إلى الخواجة ناحوم، بصحبة أبي سعيد النشواتي، مغنّي ليالي الغيتو الذي كان يعزف على عوده لحنًا واحدًا ويغنّيه في ليالي الأفراح وهو يبكي مردّدًا بصوته المبحوح الذي يشبه صوت فريد الأطرش «يا غايبين ارجعوا»، وروت له أنَّ الأرض التي ورثتها عن زوجها صودرت وصارت ملكًا للدولة، وشرحت له أنّها ليست غائبة كي تُحسَب أرضها في عداد أملاك الغائبين، «أنا حاضرة يا خواجة، وها أنا أقف أمامك. هل أنا غائبة؟» إلّا أنَّ الخواجة ناحوم يومها صغَّر عينيه كي يمنع تساقط الدموع منهما، وقال لها إنَّه آسف. «أكيد أنت حاضرة أمامي، لكن قانونيًا أنت غائبة. ونحن في دولة قانون. لا أحد يستطيع أن يخالف القانون، لكنّي مستعدّ لأن أدبّر لك عملًا في مصنع البسكويت الذي أملكه في تلّ أبيب.»

فكَّر في أن يذهب إلى الكاهن الذي كان يعمل مشرفًا على مدرسة المطران، ويطلب منه أن يَقْبله تلميذًا داخليًا في المدرسة في مقابل أن يعمل في التنظيف والجلي، لكنَّه تراجع عن الفكرة، إذ رأى نفسه محلَّ سخرية زملائه.

وبعد طول تفكير لم يجد آدم حلًّا، لكنَّه قرَّر أن يَمضي.

فجأة، ركبته فكرة مغادرة البيت الصغير. لم تعد الإقامة تحت سقف واحد مع زوج أمّه ممكنةً، فمضى من دون أن يفكّر في العواقب. حمل أغراضه ومشى وسط ليل حيفا الممطرِ إلى حيث لا يدري.

- 4 -

في الليلة السابقة على مغادرة البيت، رسم آدم خطَّة صغيرة. سيذهب إلى الكاراج ويعرض على الخواجة غابرييل أن يسمح له بالمبيت هناك، بين السيَّارات، وسيتابع دراسته. أمّا كيف سيدبِّر أمور قسط المدرسة وتكاليف الطعام. فسيجد لها حلًّا. لم يفكِّر كيف سيجد هذا الحلّ، ولا على ماذا سيعتمد، فكَّر في ألَّا يفكِّر. التفكير في ألَّا يفكِّر سيحكم مسار حياته بأسرها. فلو فكَّر بهدوء لانتظر دالية، وحاول التفاهم معها، ولَما ترك عمله في الصحافة الإسرائيليَّة، وخصوصًا بعد أن قدَّمت له «يديعوت أحرونوت» عرضًا للعمل فيها ككاتب عمود يوميّ. قال له رئيس التحرير «اكتب ما تشاء، فلغتك العبريَّة تحمل نكهة خاصَّة، كأنَّك تستعيد لغة التلمود الآراميَّة، لكن بشكل حديث»! أعجبته حكاية الآراميَّة التي لا يعرفها، وخطر في باله أن يقول لرئيس التحرير إنَّ هذه نكهة لغة العرب، لكنَّه طبعًا لم يَقُلْ. اكتفى، وهو

يغادر، بأن ألقى عليه تحيَّة السلام بالسريانيَّة. وبدلًا من أن يقول شالوم قال شلومو. لكن شعوره بأنَّ حبّه لدالية انتهى، وأنَّ هذا الحبّ تلاشى فجأةً كأن لم يكن، جعلاه يشعر برغبة لا تُقاوَم في السفر إلى أميركا، فمضى من دون أن يفكّر في العواقب. وها هو اليوم، يعيش وحيدًا بين روائح الفلافل والفول والباذنجان في مطعم «بالم تري» في شارع ماكدوغال، وبين أوراقه التي بعثر عليها حكايات تأبى أن يضمَّها كتاب.

خرج آدم في الثانية بعد منتصف الليل من بيته، إلى عتمة حيفا ومطرها الذي كان ينهمر بسخاء وحشيّ. سوف يُمْضي ما تبقّى من الليل في حديقة بنيامين في هدار هكرمل، ثم يَمْضي فجرًا إلى الكاراج، لكنَّ المطر الذي فاجأه جعله يتردَّد قليلًا. فكَّر في العودة إلى البيت في انتظار توقُّف المطر، لكنَّه لم يعد. خاف أن يقرع بابًا لا يملك مفتاحه، كما كان متأكِّدًا من أنَّ منال لن تكون في انتظاره هذه المرَّةَ. منال دخلت غرفتها وأغلقت الباب، وهذا يعني أنَّها حسمت الأمر. هكذا فعلت حين أرادت الزواج بعبد الله الأشهل. نظرت إلى ابنها وقالت إنَّها ستتزوَّج غدًا، وإنَّ عليه الاستعدادَ للانتقال إلى الإقامة معها بحيفا. لم تنتظر جواب ابنها أو ردَّة فعله. كانت تعلم بأنَّه يكره هذا الرجل الذي صار يزورهما بشكل يوميٍّ، وأنَّه رفض أن يسمح لعبد الله بتقبيله عندما كان العريس يتودَّد إلى الابن كي يكسب موافقة العروس. قالت عبارتها ثم دخلت غرفتها وأغلقت الباب وراءها.

لم يكن أمام آدم سوى خيار واحد: أن يذهب إلى الحديقة العامَّة

ويحتمي بأشجارها في انتظار بزوغ الفجر. مشى الفتى في ليل الماء. كان المطر يصفعه في أنحائه كلّها، حاول في البداية وضع حقيبته على رأسه، لكنَّه اكتشف عبثيَّة الاحتماء من الماء بالماء الذي أغرق الحقيبة. مشى كمن يعبر نهرًا، وشعر بأنَّ الماء يأخذه إليه، وأحسّ بأنَّ روحه تفيض وتلتحم بروح الماء الكونيَّة. تذكَّر نظريَّات الأستاذ نعيم عن الماء، وقرَّر أن يروي لأستاذه أنَّ روح تلميذه اتَّسعت عندما احتضنت ماءَ هذا الفيض من المطر. سيقول إنَّه اكتسب عمرًا جديدًا، كأنَّ روح حيفا صبَّت في روحه كلَّ مائها.

في مسيرة الماء الطويلة صار آدم حيفاويًّا، وسيبقى حيفاويًّا حتى النهاية. أحبَّ يافا وبحرها اللامتناهي، وعشق بارات تلّ أبيب أو المدينةِ البيضاء بعمارة «الباو هاوس» وبيوتها التي تُدير ظهرها للبحر، وسحرته مكتبة بياليك على أطراف الحيّ اليمنيّ. لكنّ حيفا ستحفر في روحه وشمَ اللقاء بين كرملها وبحرها، كأنَّ المدينة خرجت من البحر أو تستعدّ للغطس فيه. هنا، في حيفا، اكتشف آدم معموديَّة ألمه وخوفه وتوتُّر روحه وإيقاعات الحبّ التي تشبه لحظات الصمت التي تربط بين نبضات القلب. وسيبقى أسير ذلك الشعور بأنَّه يعيش على جناح حمامة بيضاء تستلقي وسط أمواج البحر الأبيض، حتى موته.

حين وصل آدم إلى حديقة بنيامين مرهَقًا يترنَّح بالماء، اقترب من الكوخ الصغير الموجود على الطرف الغربيّ من الحديقة، وقرَّر أن يفتح بابه، حتى لو اضطرّه ذلك إلى خلعه. ولم يكد يبدأ في معالجة مسكة الباب حتى انشقّ الباب عن شبح مغطًّى بالعتمة. تراجع آدم إلى

الوراء، كأنَّه يريد أن يهرب، لكنَّ الشبح أمسكه من يده وشدَّه إلى الداخل.

كان جمر كانون الحطب يرسل إشارات ضوئيَّة خافتة، وآدم يرتعش بردًا ويخبّ بالماء الذي يتساقط منه. أضاء الشبح الضوء، «أتاه يهوديم؟» سأل آدم، «ادخلْ، مالَكْ واقف زيّ الصنم؟» «لُوْ لُوْ أَنِي عربيّ!».

«إيش جابك بها الليل وتحت الشتا؟»

بقي آدم جامدًا في مكانه.

«اشلح تيابك وبعدين منحكي.»

أعطاه الشبح بيجامة تفوح منها رائحة الزيت المقليّ، وجلس على السرير الحديديّ المنخفض يراقب هذا الضيف الغريب.

«إنت جوعان؟ بدَّك توكل؟ ما عنديش إلَّا خبز وزعتر وشاي، اقعد وتدفّا، وأنا بحضَّرلك الشاي.»

ومع رشفة الشاي الأولى، بدأ آدم يستعيد جسده من ارتعاشات الماء. هنا بدأت أُولى صداقاته الحقيقيَّة. بل إنَّ آدم حين يتذكَّر أيَّام شبابه، يرى في رباح عبد العزيز، أو شبح الحديقة، صديقَه الأوَّل ودليلَه.

روى آدم أنَّه هارب من البيت لأنَّه كره الحياة مع زوج أمّه، وقال إنَّه يريد المبيت الليلة هنا، وبعد ذلك يحلُّها الحلَّال.

«بتقدر تنام هون، بس وين أبوك؟ ليش مش قاعد معاه وقاعد مع زوج أمّك، ارجع لأبوك أحسنلك.»

«أبي ميّت»، قال آدم، «أبي شهيد قُتل في اللدّ، وأمّي أتت بي إلى حيفا كي تتزوَّج.»

«أبوك شهيد! قول هيك من الأوَّل.»

وانفجر الشبح بالضحك.

«ابن شهيد جاي ينام عند عميل، والله هذه حكاية! اشرب الشاي يا ابني، ونام على هالفرشة.»

«مين العميل؟» سأل آدم.

«منبقى منحكي، إحنا إيش ورانا، نام هلق والصباح رباح.»

- 5 -

اللقاء برباح عبد العزيز سينحفر في ذاكرة آدم كصورة للحقيقة التي لم يكن قد رأى سوى طيفها. آدم الذي وُلد بعد سقوط اللدّ وتحويل بقاياها إلى غيتو، عاش طفولته في همس الذاكرة. واليومَ، حين يحاول أن يتذكَّر أيَّام الغيتو، فإنَّه لا يرى سوى صُوَر غامضة مقطَّعة الأوصال لحياة لم يعشها إلَّا في كلمات أمّه، وفي الحكايات الناقصة التي كان يسمعها على ألسنة الناس. حكايات لم تكتمل يومًا، كأنَّ حكايات اللدّ لا بداية لها، أو كأنَّ ألسنة الناس كانت نصف مقطوعة، فيقولون كي لا يقولوا، يتردَّدون ويتلعثمون، وبدلًا من أن يَرْوُوا ماذا جرى يبتلعون الكلام كما يبتلعون دموعهم.

«الكلام ذاب في الدموع يا ابني»، قالت منال، وهي تروي لابنها الوحيد كيف مات والده مختنقًا بالرصاصات التي مزَّقت رئتيه.

في حديقة بنيامين، وتحت شنين المطر المنهمر، اكتشف آدم أوَّل

الكلام؛ فرباح الذي انبثقت ملامحه من العتمة على هيئة رجل تجاوز الخمسين، بعينين صغيرتين مطفَأَتين، وأنف كبير، ووجه مستطيل وقامة منحنية، أخذ آدمَ في رحلة إلى قرية الغابسيَّة حيث وُلد رباح وعاش، وحيث رأى كيف خانته الخيانة. استخدم رباح هذه العبارة كي يلخِّص حياته. الانطباع الذي خرج به آدم من هذا اللقاء لم يكن له علاقة بالحزن. فرباح لم يكن حزينًا. قال الرجل إنَّه لن يسمح للحزن بالدخول إلى قلبه، وإنَّه اكتشف جمال الوحدة. «أحلى إشي الإنسان يعيش مع نفسه، يا زلمي إشي ما بيتصدَّق. بتعرف إنِّي بزهقش أبدًا، بضلّني حاسس إنِّي مشغول، مع إنِّي بعملش إشي، بقعد والأفكار بتاخدني وبتجيبني. راس الإنسان مليان صُوَر، كيف بدِّي أخبرك؟ يعني صندوق صُوَر ما إلها نهاية.»

قال إنَّه وحيد هنا. زوجته وأولاده الأربعة ذهبوا إلى لبنان، أمّا هو فبقي لأنَّه يريد أن يستعيد أرضه، وهو الآن يعمل حارسًا للحديقة وينتظر، «وين بدها تروّح الأرض؟ الأرض بتزحش من مطرحها، وأنا ناطر، أكيد رح يرجعولي أرضي، ولّا كيف يعني؟ بتفتكر إنَّ اليهود بيخونوا زَيْنا، لا، لا، أنا بفكِّر إشي تاني، إنت يا تلميذ المدارس إيش رأيك بالموضوع؟»

لم يفهم آدم شيئًا. كان ينشِّف حقيبته من الماء، ويُخرج منها كتبه ودفاتره كي يتأكَّد من أنَّها لم تتبلَّل، حين فاجأه رباح بأسئلته عن الخيانة. فكلمةُ خيانة لم يسمعها إلّا من زوج والدته الذي كان يحكي دائمًا عن كيد النساء وخيانتهنَّ، ولم يفهم معنى خيانة الخيانة، ولم

يخطر في باله يومًا أنَّ الذين تعاونوا مع الإسرائيليِّين سينتهي بهم الأمر إلى هذا البؤس الذي يراه على ملامح رجل مغطًّى بالعتمة، ترتجف يده الصغيرة وهو يحتسي كوب الشاي وينفث دخان سيجارته في فضاء الغرفة، ويتكلَّم من خلال سعاله المتقطِّع.

مَن هو رباح عبد العزيز، وما حكايته؟

لم يجمع آدم خيوط الحكاية إلَّا بعد شيوع خبر المأساة. غابرييل أخبره عن رجل وُجد معلَّقًا ومشنوقًا في غصن شجرة جمِّيز وسط حديقة بنيامين.

«عمل وحشيّ»، قال غابرييل، «رجل أحمق، يريد أن ينتحر فلينتحرْ في غرفته، أمَّا أن يتدلَّى وسط الحديقة حيث يلعب الأطفال، فهذا شيء لا يصدَّق»، أضاف. «الإنسان حيوان حقير، هذا ما تقوله أمِّي، وعندما أطلب منها ألَّا تكرِّر هذا الكلام تنهرني. تخيَّلْ يا رجل، لقد تجاوزتُ الأربعين، ولا تزال أمِّي تناديني يا ولد، وتقول إنَّني لا أفهم شيئًا لأنَّني مَحَوْت من ذاكرتي حكايات الغيتو.»

«وأنا أيضًا محوتها»، أجاب آدم.

«توقَّفْ عن هذا الهراء، أنت لا علاقة لك.»

ومن هو الرجل الذي انتحر؟» سأل آدم.

«إنَّه حارس حديقة بنيامين. لم تُشر الإذاعة إلى اسمه. من المرجَّح أن يكون أحد أيتام الشُّواه، هؤلاء جاءوا إلى هنا مرغَمين، لكنَّهم لا يستطيعون أن ينسوا. هذا ما تفعله الذاكرة بالناس. الذاكرة تقتل، وعلينا محوُها.»

«لكنَّه ليس يهوديًّا»، قال آدم بصوت مرتجف، وهو يترك الكاراج بسرعة.

«إلى أين؟» صرخ غابرييل.

لم يجب آدم عن السؤال. ذهب راكضًا إلى الحديقة، ليجد المكان مطوَّقًا برجال البوليس. حاول اختراق الطوق من دون جدوى. كان يريد أن يُنزل الرجل عن مشنقته ويضمَّه إلى صدره. وعندما سأل رجالَ الأمن عن الجثَّة مدَّعيًا أنَّه أحد أقرباء الميِّت، قيل له إنَّ الجثَّة نُقلت إلى المشرحة، وإنَّهم لا يعرفون شيئًا عن إجراءات دفنها.

- 6 -

صار اسم شجرة الجمّيز شجرةَ رباح. حفر آدم على جِذعها اسمَ صديقه المنتحر باللغتين العربيّة والعبريَّة، وصارت مكانَه المفضَّل، يأتي إليها كي يحكي مع رباح ويروي له عن مشاريعه وهمومه. يجلس في ظلالها في المساء حيث يتراءى له قمر الغابسيَّة مرسومًا داخل هالة فضِّيَّة تتلألأ على أوراق الشجرة التي تُشرق بالضوء. كأنَّ هذه الشجرة تقمَّصت روح صديقه، وصارت مخبأ أسراره. معها وحدها يتكلَّم العربيَّة، فالشجرة لا تفهم سوى لغة الأرض التي نبتت فيها. هذا ما علَّمه إيَّاه رباح، وهو يروي له حكايات أرضه المسروقة.

بعد التحاقه بعمله في الكاراج، لم يتوقَّف آدم عن زيارة رباح، فالرجل كان كريمًا وحنونًا. فتح أمامه كوخه وحكايته، فبقي آدم ثلاثة أيَّام في ضيافة شبح الغابسيَّة، قبل أن يستجمع شجاعته ويذهب إلى كاراج غابرييل في وادي الصليب. وفي هذه الأيَّام الثلاثة، أكل آدم جميع أصناف الباذنجان التي كان رباح مولعًا بطبخها، واستمع إلى

الحكاية المحزنة التي رواها الرجل عن أرضه المفقودة.

قال رباح إنَّه عميل، «اشتغلت عميلًا لأنَّني كنت أكره جماعة الحاجّ أمين. تِسألنيش ليش. بكرههم لأنَّهم أساءوا إلى عائلتنا. تخيَّلْ نصَّبوا حسّان بن زنُّوبيا، زعيمًا على القرية، وصار هذا المقطوع من شجرة يُأَوْمِر علينا. المهمّ يا سيدي، أنا تعاونت مع اليهود بحسن نيَّة. كرهت جيش الإنقاذ، جماعة القاوقجي الذين كان همُّهم الوحيد أكلَ الدجاج، وكنت أعلم بأنَّهم سيفرُّون ويتركوننا لمصيرنا.» انفجر رباح ضاحكًا، «واللهِ أنا بفهمش سياسة، بس هيك حسّيت، واشتغلت مع «الهاغاناه» وهرَّبت سلاح للكوبانيات اليهوديَّة، وكنت على كيفك، كلمتي بتصرش اتنين عند أولاد عمّنا، حتى إنِّي اشتغلت راس خيش في عيلبون. هادي قصص بتنحكاش. واللهِ ما كنت مفكِّر إنَّهم رح يقتلوا الشباب يلِّي أشَّرت عليهم براسي المغطَّى بالكيس. ما علينا، أيَّام ومرقت، هيدا قضاء الله، أنا كنت مجرَّد أداة بيد القضاء والقَدَر، وشوف إيش كانت النتيجة، معقولة يعملوا فيّي هيك. الشيخ رباح توصل فيه الأيَّام ليكون حارس جنينة اليهود! تْفُو على هالزمن.»

أراد آدم أن يقول إنَّ هذا أيضًا قضاء الله، لكنَّه لم يَقُل.

غير أنَّ حكاية رباح لا تنتهي عند تحوُّله إلى حارس حديقة عامَّة في هدار هكرمل، بل تبدأ هنا، وهذا هو سرّ القصص: نعتقد أنَّنا وصلنا إلى نهايتها حين نكون أمام بدايتها. وقصَّة رباح بدأت في هذه الحديقة، وهنا سيكتب الرجل نهايتَها بجثَّته التي تأرجحت تحت شجرة الجمّيز، وأخافت روَّادَ الحديقة، قبل أن يقوم المسعفون بسحبها، ويقوم البوليس بإقفال أبواب الحديقة سبعةَ أيَّام.

وعندما سأل آدمُ غابرييل لماذا أُقفلت الحديقة سبعةَ أيَّام، جاوبه الميكانيكيّ الإسرائيليّ مبتسمًا: «إنَّها الشيفعا، أيَّام الحداد اليهوديَّة.»

«لكن رباح لم يكن يهوديًّا.»

«حتى لو. إنَّه يعمل في مكان يهوديّ، والشيفعا هي من أجل الأحياء، وليست فقط من أجل الموتى.»

ثم سأل غابرييل آدمَ إذا كان يحبّ أن يعمل حارسًا للحديقة، «أعرف مسؤول الحدائق في بلديَّة حيفا. إنَّه عمل ممتاز. تجد مكانًا يؤويك، وتقبض راتبًا صغيرًا في نهاية كلّ شهر، وتتخلص من رائحة زيت السيَّارات الذي تكرهه.»

«أنا أعمل في حديقة رباح؟»

«اسمها حديقة بنيامين، يا حبيبي. فكِّر في الأمر، قبل أن يعيِّنوا حارسًا جديدًا.»

«أنا لست عميلًا»، قال آدم.

«كلّنا عملاء»، أجاب غابرييل، «كلّنا «عملاء للقَدَر، أليس هذا ما تؤمنون به، أنتم المسلمون؟»

«أنا لا»، أجاب آدم.

وقال آدم إنَّه يفضِّل البقاء في الكاراج، والعمل هنا.

«لكنَّك مجرَّد عامل نظافة، تكنس وتنظِّف بعد نهاية دوام العمل، وترفض أن تتعلَّم المهنة، الأفضل لك أن تحرس الحديقة. أستطيع أن أدبِّرها»، قال غابرييل.

«لا، الحديقة لا، أنا أخاف من الموتى.»

لم يروِ آدم لغابرييل أنَّه عاش طوال حياته مع صورة والده الميِّت، وأنَّه مضى من دون أن يأخذ صورة حسن دنُّون معه. فكَّر للحظة في أن يأخذها كي يغيظ أمَّه، لكنَّه كان يعلم في قرارة نفسه بأنَّه لن يأخذها، لأنَّه لا يعرف أن يتكلَّم مع الموتى. منال كانت كليمة الموتى، تحكي مع الصورة كأنَّ الرجل يعيش معها داخل إطار أسود لا يبارحه، تستشيره في كلِّ شيء.

روى مأمون لآدم أنَّ منال غريبة الأطوار، لا تفعل شيئًا إلَّا بعد أن تدخل غرفتها وتحكي مع الصورة، وتسألها رأيَها في الموضوع.

«وهل تجاوب الصورة؟» سأل آدم الذي كان في السادسة من عمره.

«أعتقد أنَّ أمّك تسمع الأجوبة وحدها. أمّك تعيش مع الأموات.»

هل غادر مأمون إلى حيث مضى لأنَّه سئم من عِشْرة الأموات؟ أم غادر لأنَّ حبّ منال تلاشى في قلبه، مثلما توقَّف وضّاح اليمن عن حبّ أمّ البنين؟

حين غادر بيتَ عبد الله الأشهل، ترك آدم ذاكرة اللدّ خلفه، وتناسى مأمون الأعمى، أستاذَه ووالدَه بالتبنّي. مأمون، الذي عاش معهم في غرفة في حاكورة البيت الذي أقاموا به في اللدّ، جعل آدم يشعر باليُتم مرَّة ثانية. فمأمون كان جزءًا من البيت. صحيح أنَّه كان ينام وحده في غرفة في أقصى الحديقة، لكنَّه كان جزءًا من الحياة، «كنت عينيه، وكان مدرستي التي تعلَّمت منها كلَّ شيء. أمّي لم تكن تحكي إلَّا الكلام الضروريّ، أمَّا هو فمنه تعلَّمت الكلام، ومن لغته

تسلَّلت اللغة إلى لساني. إنَّه لغتي الأمّ. بفضله تكلَّمت اللهجة اللّدّاويَّة التي كانت منال لا تُتقنُها ولم تُتقنُها يومًا، لأنَّ لسانها كان مُطَعْوَجًا على اللهجة الجليليَّة التي يتكلَّمها أهل عيلبون. وفجأة اختفى. واللهِ، أحسّ الآن بأنَّ هذا الرجل لم يكن حقيقيًّا. كان مجرَّد خيال ظلّ، حين أتذكَّره اليوم أراه بالأبيض والأسود وبلا ألوان. مضى وتركني. كيف كان له قلب يعمل هيك، بعرفش، وبفهمش كيف فيه آباء بيتركوا أولادهم. أنا لا، لن أنجب أولادًا كي لا أتركهم»، قال آدم لدالية.

«كين كين»، قالت دالية، «أكيد ستنجب أولادًا، لأنَّني أريد ولدًا يتألَّف من ثلاثة أثلاث: ثلث عراقيّ، وثلث بولنديّ، والثلث الثالث فلسطينيّ.»

«وماذا يكون؟»

«يكون كما يكون، ثلثه مسلم، وثلثه الثاني يهوديّ، وثلثه الثالث مسيحيّ.»

«سيكون مصيبة»، قال آدم وهو يبتسم، «ولن نجد له اسمًا.»

«سنسمِّيه ثلاثة أسماء»، قالت، «حسن، وغوستاف، وأوري.»

«لا، سنسمِّيه اسمًا واحدًا» قال آدم، «سنسمِّيه قايين، على اسم الابن الأوَّل لآدم.»

«لا»، أجابت دالية، «قايين قاتل، قتل أخاه، سنسمِّيه هابيل.»

«هابيل قتيل، سنبقى أسرى الخِيار بين القاتل والقتيل، لذلك لا أريد أولادًا.»

«أنا أختار القتيل»، قالت.

«هذا هو الخِيار الأسهل لابنة القاتل. تتطهَّرين بالاسم من الدم.»

«ابنة قاتل وحفيدة قتيل»، قالت، «أمَّا أنت، فقتيل يتمنَّى أن يكون قاتلًا، وهذه مشكلتك.»

«لن نسمِّيه، سنتركه بلا اسم، وعليه أن يجد اسمه عندما يكبر.»

«لا يوجد بشر بلا أسماء.»

«بلى، نحن بلا أسماء.»

«أنت تكذب الآن، أحبّك حين تصير، كما أنت، فلسطينيًّا بلا اسم.»

«أنا لست. . . أنا آدم.»

«آدم ليس اسمًا»، قالت، «إنَّه رمز.»

«جميع الأسماء ليست أسماء»، أجابها.

- 7 -

تحت أغصان شجرة الجمَّيز أعاد آدم نسج حكاية رباح الخائن. الخائن هو اسم العائلة التي أطلقها آدم على رباح في ذاكرته. لا شيء يشفع لرباح سوى موته. لكن، ما هي الخيانة؟ كيف نعرِّف الخائن في زمن اختلطت فيه المقاييس؟ ومَن هو آدم كي يحكم على الناس؟ هل يكفي أن تكون ابن شهيد كي تبرِّر لنفسك أيَّ شيء؟

لم يتوقَّع آدم أن ترتطم حياته لحظةَ بدايتها بهذا النوع من الأسئلة: هل رباح خائن، وعبد الله الأشهل بطلٌ؟ هل يحقّ للبطل أن يضرب زوجته لأنَّ بطولته تجعله فوق النقد؟ كان عبد الله يصرخ في منال أنَّه عاد إلى وطنه متسلِّلًا من لبنان لأنَّه لم يستطع مفارقة رائحة حيفا. لكنْ، أين هي رائحة حيفا؟ هل هي رائحة المزبلة التي كانت مكان عمل عبد الله؟ ففي مزبلة حيفا كان الرجل يقوم بفرز النفايات لقاء أجر يوميّ، وهناك لم يسأله أحد عن أوراقه الثبوتيَّة. عاد إلى رائحة النفايات وهو يعتقد أنَّه عاد إلى مدينة البحر، يقمع زوجته بشكل

يوميّ لأنّها لم تنجب له ولدًا بعدما أضاع أولاده في دهاليز النكبة وطرقاتها الوعرة. لم تروِ منال لابنها حكايةَ عبد الله وأولاده وزوجته السابقة. آدم اكتشف الحكاية عن طريق مصادفة عجيبة، وعندها فقط سامح زوج أمّه، واعتبره قَدَرَ منال البائسَ.

أمّا الشيخ رباح فكان خائنًا، ولم يشفع له سوى فنّه العجيب في طبخ الباذنجان. كان حين يأكل مقلوبة الباذنجان أو شيخ المحشيّ، الذي كان يطلق عليه اسم «الشيخ المحشيّ»، يكاد يُغمى عليه من اللذّة. يأكل كأنّه يمارس الجنس، ويُصدر تأوُّهاتٍ غريبةً، وهو يشرح لآدم أنَّ عليه أن يمتّع جميع خلايا لسانه بنكهة الطعام قبل ابتلاعه. «الأكل للتنكُّه به وليس للابتلاع. نبتلعه في النهاية حين نستنفد نكهاته. كُلْ على مهلك يا ابني، إحنا إيش في ورانا.»

متعة الطعام جعلت آدمَ زائرًا دائمًا للحديقة، وكان الخائن يفرح بضيفه، ويضع القدور على النار لحظة وصوله. هذه المتعة الباذنجانيَّة جعلت آدم يربط بين الباذنجان والخيانة: يأكل وهو يشعر بالذَّنْبِ، لكنَّه لا يستطيع مقاومة ذنوبه. وحين سيهاجر آدم إلى نيويورك، ويعمل مع شريكه الإسرائيليّ في مطعم «بالم تري»، ستكون سندويشات الباذنجان، بكلِّ تفرُّعات الحتسيليم، إنجازَه الأكبر، وسيتمتع بالنظر إلى اليهود والعرب وهم يلتهمون معًا «سندويشات الخيانة».

قال رباح إنَّه لا يفهم لماذا عاملوه بهذه الطريقة، «أنت تعرف كيف احتلَّ اليهود الغابسيَّة، وكيف هرب الناس. أنا لم أكن هناك. الذين قالوا إنَّني كنت مع جيش اليهود لحظة احتلال القرية يكذبون، فأنا كنت في حيفا، ولا علاقة لي بما جرى في القرية، لكنَّني كنت أعرف أنَّها ستسقط. أنا، يشهد الله، لم أصبح عميلًا إلَّا لأنّي كنت

مقتنعًا بأنَّ القرية ستسقط. أقنعت أبناء حمولتي بمغادرتها قبل 21 أيَّار. قلت لرجال القرية بلاش هالحركات، ليش تقاتلوا مع أهل الكابري في خربة جدِّين. البلاد رايحة رايحة، المهمّ الأرض. فطلعلي عثمان أسعد عبد الله، كان حامل بارودة إنكليزيَّة وهدَّدني بالقتل. واللهِ أنا ما ليش علاقة بموت الرجل على أيدي اليهود. قتلوه لأنَّه كان عم يشتغل مع جماعة جيش الإنقاذ، وكان حامل رشَّاش برن، وشارك في الهجوم على القافلة اليهوديَّة في خربة جدِّين، فمن الطبيعيّ أن يقتلوه. طبعًا كلّ يلِّي كانوا بالقرية انهزموا، كثيرين راحوا عَ لبنان. أنا طلعت على حقل الزيتون محلّ ما تجمَّع يلِّي بقيوا، وقلت لهم يا جماعة ما تتركوا البلاد، وأنا أضمن عودتكم إلى الأرض.»

قال رباح إنَّ المأساة بدأت هنا. فالمأساة، بالنسبة إليه، لم تكن احتلالَ لواء كرملي للقرية، ولا القصفَ العنيف الذي تعرَّضت له، ولا القتلى والجرحى الذين سقطوا في طريق الهروب من القرية في اتِّجاه قرية الشيخ داود، بل بدأت حين عاد الرجل مع أفراد حمولته إلى القرية، وأقاموا بمنازلهم وعادوا إلى العناية بأرضهم. «وبعد تسعة أشهر، وكنَّا نعيش في أمان الله، جاءت فجأة وحدات من الجيش الإسرائيليّ وأمرت الجميع بمغادرة المكان، «ذهبتُ إلى الضابط وشرحت له مَن أكون، لكنَّ الرجل أدار أذنًا صمّاء، وتابع إصدار أوامره بضرورة إخلاء القرية، كأنَّني لم أحكِ، أو كأنَّ كلامي لم يدخل في أذنيه. فحاولت أن أحكي من جديد، لكنَّه ضربني وأهانني أمام أهلي. هل هذا معقول؟ أنا الشيخ رباح تُسفَح كرامتي أمام الناس!

المهمّ أنَّنا غادرنا القرية. أغلبيَّة الناس رفضت اقتراحي؛ الذهابَ إلى قرية الشيخ داود والانتظارَ فيها. قالت خديجة أيُّوب، «إنت مش

رجّال، إنت عميل وما عندك شرف، وإحنا رايحين لبنان، تفو عليك وعلى إسرائيل»، وبصقت في وجهي. الضابط أهانني، وهذه المرأة بصقت عليّ. قلت أحتمل، لا بدَّ من أنَّ هناك خطأً ما.

«ذهبت وأقمت بالشيخ داود، واتَّصلت بالنقيب شلومو، وهو الرجل الذي عملت معه ويعرف مدى إخلاصي. قال الرجل إنَّ هذا خطأً كبير، ونصحني بأن أقدِّم معروضًا إلى المحكمة الإسرائيليَّة العُليا، وهو مَن تابع القضيَّة مع محامٍ ينتمي إلى حزب المبام، نسيت اسمه الآن. والحقّ يُقال: إنَّ المحكمة العليا عادلة، فقد حكمت لمصلحتنا، وسمحت لنا بالعودة إلى قريتنا. بشَّرتُ أهلي وأقربائي، وبعثت مراسيل إلى منطقة صور حيث يُقيم أبناء قريتنا، وقلت لهم ابشروا بالعودة. وعدنا.

«عاد أهل القرية في صباح يوم مشمس من شهر أيَّار عام 1951. كان كلّ شيء على حاله. عدنا ونحن سَكْرى برائحة حبّات الزيتون التي ملأت أراضي الحقول لأن لا أحدَ قام بقطفها. يا عين على الزيتون لمَّا بيتخمّر بالتراب، بصير كلّ إشي ريحته زيت زيتون. يا الله ما أحلى تلك اللحظات. واللهِ، لم أصدِّق عينَيَّ. دخلت المسجد وركعت ركعتين، ثم جلست تحت شجرة السدرة التي كانت أغصانها ملأى بالشراطيط التي علَّقها الناس كنذور، ولمحت أيُّوب، الرجل الثمانينيّ الذي بقي في القرية وحده، كلّنا اعتقدنا أنَّه مات عندما احتلّ لواء كرملي القرية في 21 أيَّار 48، لكنَّه كان هنا، كأنَّه شبح، بقامته المنتصبة النحيلة ولحيته البيضاء. اقتربت منه كي أسلِّم عليه لكنَّه اختفى، بعرفش وين راح. لمَّا شافني أدار وجهه. قلت معليش، بكرا هو وغيره رح يعرفوا فضلي عليهم، بس والله والله ما لحقناش نحطّ

الرحال وندخل لبيوتنا حتى جاءت وحدة من «الهاغاناه» وأمرتنا بمغادرة بيوتنا والتجمُّع في ساحة الجامع. وهناك، كنَّا أكثر من ميّة بني آدم، رجال ونسوان وطفالى، شفنا كيف دمَّروا البيوت كلّها، خلُّوش إشي، يا إلْهي. أفظع إشي منظر البيوت وهي عم بتموت، بصير البيت كأنَّه إنسان، وبتصير أصوات الحجارة يلّي عم تتكسَّر كأنَّها صراخ. إي والله، البيوت بتصرخ. إحنا كنَّا عم نتفرّج وساكتين، جرَّافات وديناميت، أكتر من ميَّة وعشرين بيت، ماتوا دفعة واحدة. مجزرة حيطان وحواكير، ونحنا عم نتفرّج والجيش مطوِّقنا. ما حدش استرجا يفتح تمّه، حتى أنا صرت زيّ الأخرس. صرت أبلع دموعي، وحسّ إنَّها عم تجرح حنجرتي. بتصدِّق! بعد هالمجزرة انبحّ صوتي، كأنِّي صرت أخرس. ولمَّا خلصت حفلة التدمير أمرنا الضابط بالذهاب إلى لبنان، وبدأ إطلاق النار فوق رؤوسنا.»

قال رباح إنَّه حاول إقناع زوجته بالعودة معه إلى قرية الشيخ داود، لأنَّ هناك خطأً. لا يمكن أن يخالف الجيش قرارات المحكمة العليا، «لكن زوجتي قالت إنَّها لن تبقى دقيقة واحدة معي، بَهْدَلْتنا ولسَّه بدَّك تبهدلنا أكثر، خلِّي يهودك ينفعوك»، وذهبت وانقطعت أخبارها.»

هل انتهت حكاية الشيخ رباح هنا؟ طبعًا لا، فالرجل لم يعد إلى قرية الشيخ داود، بل نزل إلى حيفا، وصار ينام في كنيسة مار إلياس في ستيلَّا مارس. ومن مقرِّه الجديد، بعث رسائل إلى المسؤولين الإسرائيليِّين، واتَّصل بجميع معارفه، وقيل إنَّه أُصيب بلوثة من الجنون. «إيّاك تفكِّر، يا ابني، إنِّي تخلِّيت عن زيارة القرية وتفقُّد أرضي، بعدني لليوم بزورها كلّ يوم جمعة المسا، على الرَّغم من كلِّ

الصعوبات. لا، الصعوبات ما لهاش علاقة باليهود العراقيِّين في مستعمرة نتيف هشياراه يلِّي انبنت على أراضي القرية، هيدول كانوا يشوفوني وما يحكوا إشي، تعوَّدوا عليّ، وأنا كان بدِّي ياهم يعرفوا قصَّتي. الحقيقة إنِّي خبَّرت القصَّة لواحد عراقي ختيار اسمه صموئيل، هاجر من جديد على البلاد، وشفت دموعه. قال لي إنِّي عم بذكّره كيف ضاعت حاكورة بيتهم ببغداد. سألته طيِّب إيش أسوِّي، قال لي ماكو، يلِّي ضاع ضاع. اِنسَ، قال اِنسَ قال. بيطلب منِّي اِنسى وهو قاعد ببلدي وعم يبكي على التمر ببغداد. لا مش رح اِنسى.

«وين كنَّا؟ آه، كنَّا بالصعوبات. الصعوبات كانت بسبب أيُّوب الختيار يلِّي بقي بالقرية وصار حارس لشجرة السِّدر، وبعدين عملوا منه وَلِيّ وإيش بعرِّفني. بعرفش إيش كان يسوِّي بالقرية، وصار زيّ الشبح، وكنت كلّ ما أدخل الجامع أسمع صوته عم بهدِّدني، ويقول: فيش مطرح للجواسيس بالجامع. وأسمع أصوات غريبة، كأنَّه معه جيش من الجانّ والعفاريت. أنا بخفش من الجنّ، بعرف إنُّو بيكفي تلاوة سورة الكرسيّ حتى تهرب الجنّ، بسّ مع أيُّوب وجماعته فش إشي نفع. والحقيقة صرت أخاف أزور الخراب يلِّي امتلأ بالجناني.»

روى رباح عن الخراب. قال إنَّه يشبه العتمة. لم يكن الرجل يملك كلمات ملائمة، فبدا وصفه لزياراته قريته، أشبهَ بكلمات مقطَّعة الأوصال، لا تأتلف في جُملٍ. روى عن العتمة في وضح النهار. قال إنَّه هناك، في أزقَّة القرية التي تهدَّمت معالمها، شعر بأنَّه صار أعمى. «واللهِ، العميان أفضل منِّي، الأعمى بشِفش الضوّ ولا الأشياء، بيحسّها بعرفش كيف، أمَّا أنا المفتَّح، فصرت ضايع وحولي لا يوجد سوى اللون الأسود. صارت الشمس بقعة سودا، وصرت أمشي متل الدايخ.

ضعت لمَّا اقتلعوا كلّ الأشجار يلّي مزروعة حول البيوت. ورق الزيتون الأخضر بيصير كأنَّه أزرق تحت الشمس، ورق الزيتون بيضوّي المكان، وهلّق اختفى الضوّ واختفى المكان.»

حاول الرجل أن يصف، لكنَّه لم يعثر في قاموسه على الكلمة التي اخترعها أجدادنا العرب لوصف خراب الأمكنة. وحين قال آدم إنَّ البلاد كلّها صارت أطلالًا، سأل رباح عن معنى هذه الكلمة، فأجابه آدم: «مش مهمّ، المهمّ يا عمّي إنَّك تنسى. خلص بتقدرش تبقى عايش بالذكريات، اعتبر أنَّ حياتك بدأت الآن، وخلص. لاقيلك مَرا وتزوَّجها، وبلّشْ من جديد.»

«ومرتي، إيش أسوّي فيها؟»

«اِنساها، كلّ النسوان زيّ كلّ النسوان، متل ما كان يقول عبد الله زوج أمّي.»

«هذا خطأ»، قال شبح الحديقة، «فشّ مرا زيّ التانية. بعدين أنا بدّي مرتي وأولادي، عندي صبيين زيّ القمار، اتركهم يعيشوا زيّ الكلاب بالمخيَّمات بلبنان، مش معقول.»

«ما إنت عايش هون كأنَّك بمخيَّم.»

«أنا مش عايش، لازم أرجع على القرية، حتى أستردّ كرامتي، وحطّ على عيون كلّ يلّي احتقروني وأذلُّوني، وخلّي مرتي ترجع زيّ الكلبة وتقلّي أنا في عرضك يا رجّال، ما تتركني وتتزوَّج عليّ، زيّ ما كانت تقول لي زمان.»

«بسّ إنت خاين يا عمّ رباح، والخاين ما عنده كرامة.»

«أنا خاين، بسّ زيّ ما قلت لك، خاين وخانتني الخيانة.»

«بسّ إنت كنت تقبض فلوس من اليهود.»

«صحيح، بس مش هادا سبب خيانتي. أنا خيانتي كان سببها إنّي فهمت القصّة، وفهمت إنَّها خسرانة، فقلت ألعب مع الربحانين وأربح زيّهم.»

قال إنَّه خسر كلّ شيء، وألقى خطابًا لا ينتهي عن الندم. يومها شعر آدم بالقرف من الرجل. أبشع شيء هو الندم. يجب ألّا نندم على شيء. الندم هو سلاح الضعفاء والتافهين كي لا يدفعوا ثمن أخطائهم. في الندم شيء يدعو إلى التقزُّز. بدلًا من أن تندم، اِدفعِ الثمن. يومها قرَّر آدم أنَّه لن يندم على شيء. سيعيش الحياة مثلما تأتيه، وسيواجهها بالسخرية منها. كلّ شيء يدعو إلى السخرية: مشهد رباح الأهبل الذي صدَّق اليهود فوجد نفسه حارسًا مرميًا في كوخ في حديقة في الهادار، ورسائله الرومانسيَّة إلى رئيس الحكومة الإسرائيليَّة داڤيد بن ـ غوريون، التي تُذكِّر الزعيم الصهيونيّ بخدمات «عبده الفقير رباح بن عامر عبد العزيز للدولة، وتعاونه النشط مع الهاغاناه خلال حرب الاستقلال.» فماذا كانت النتيجة؟ عوَّضوه عن أرضه وقريته بهذا الكوخ الحقير، وعوَّضوا عن عماه تحت شمس الغابسيَّة عبر تحويله إلى شبح لامرئيّ، في حديقة عامَّة حوَّلها المغاربة إلى مكان لشيّ اللحم، وهو يخدمهم وينظِّف أوساخهم لكنَّهم لا يرونه. لا أحد من روّاد الحديقة سأله عن اسمه؛ لا أحد استمع إلى حكايته المحزنة والمضحكة في آن معًا. يشتغل زبَّالًا هنا، وفي المساء يدخل كوخه كالخُلد، ويختفي في العتمة.

في المرَّة الأخيرة التي زار فيها آدم صديقَه الخائن، كان الرجل مهدَّمًا بشكل كامل. لم يسمع آدم صوت القدور على النار، ولم يشمَّ

رائحة الباذنجان المقلي أو رائحة الزهرة المقليَّة، استعدادًا لوليمة المقلوبة. تحوَّل رباح إلى ظلٍّ نفسه. حتى صوته صار خشنًا ومتحشرجًا، كأنَّ لسانه أصبح عاجزًا عن وضع الحروف في كلمات صحيحة. يومَها، أعدّ آدم الشاي بنفسه، وجلس صامتًا أمام رجل صامت يرفض أن يحكي.

سأله آدم ما به، لكنَّ الرجل بدا عاجزًا عن الكلام، كأنَّه صار حجرًا. شربا الشاي بصمت، ونظرا إلى فراغ المكان بصمت. وعندما اكتمل الصمت بهما، ووقف آدم كي يغادر، سمع صوت حشرجة الرجل الجالس في مواجهته. وضع الرجل كفّه على عنقه كمن يخنق نفسه، وخرج صوته المخنوق ليروي أنَّه ذهب إلى الغابسيّة، وأنَّه لم يأكل منذ يومين، لأنَّه رأى...

رأى الرجل وروى، وكانت كلماته ضبابيَّة مثل المشهد الذي رآه. قال إنَّه أوّل مَن رأى، «فأنت تعرف أن لا أحد يذهب إلى هناك سواي. وهناك رأيته. كان المساء يغطِّي أوراق شجر السِّدر الزرقاء. كنت أريد الدخول إلى الجامع عندما سمعت خشخشة أوراق الشجرة وهي تنتحب. بكاء خفيض يعمّ المكان. التفتُّ إلى الخلف، فرأيته. كان يتدلَّى من الغصن. عُنُقه كان رفيعًا، وجسده النحيل يتأرجح في الهواء، والضوء... الضوء يشعّ في المكان، كأنَّ الموت صار شمسًا تبدِّد العتمة. واللهِ خفت. لم أصدِّق في البداية أنَّه أيُّوب، وأنَّ هذا الأيُّوب مات مشنوقًا. اعتقدت أنَّها إحدى ألعاب الجنّ الذين كانوا برفقته. نعم، واللهِ، كان أيُّوب يعيش في القرية المهدَّمة مع الجنّ. هو قال لي إنَّه صار يرى بأعينهم، وإنَّ هذه الأعين التي استعارها منهم ترى ما تريد، وإنَّه يرى القرية كما هي كأنَّها لم تُدمَّر. «بفهمش ليش الناس بترجعش، ما

هيَّاها القرية، كلّ إشي فيها على حاله زيّ ما هو، بسّ إنت بدّيش أشوفك هون، ما فيش مكان للخونة جنب السدرة». قلت: لا بدَّ من أنَّ أيُّوب جعلني أرى بعيون الجنّ، وأنَّ هذه إحدى ألاعيبه كي يمنعني من زيارة الجامع. لكن لا، واللهِ لا، كانت الأمور مختلفة، أيُّوب يتأرجح كقطعة قماش معلَّقة على الشجرة، وأنا واقف لا أدري ماذا عليَّ أن أفعل. عندها سمعت أصواتًا. ملأ وقع الأقدام رأسي، فهربت إلى داخل الجامع. ورأيت النساء يتجمَّعن حول الجثَّة المعلَّقة وينتحبن بصوت عالٍ. من أين أتت النساء، لا أدري. وبدأ الضجيج يعلو، وسمعت الرجال، وميَّزت من بينهم صوتَ أحمد الدكرور، وهو من مهجَّري القرية الذين بقوا في الشيخ داود، وهو يصرخ بأنَّ العراقيين قتلوه. «قتله اليهود»، صاحت امرأة، ثم بدأت أستمع إلى أصوات الزغاريد، كأنَّنا في عرس. شعب مجنون يزغرد للموت، واللهِ لا أفهم. لم أجرؤ على الخروج من الجامع، فجلست في الزاوية قرب المحراب، ورأيت. لم أرَ شيئًا، لكن كأنَّني رأيت. الآن، وأنا أخبرك، أرى الأشياء كأنَّها حدثت أمامي. كنت منزويًا في عتمة الجامع، ورأيت كيف جاء رجال حرس الحدود وحاولوا طرد الناس، لكنَّ الناس رفضوا أن يغادروا. الضابط الإسرائيليّ قال إنَّها حادثة انتحار، ولا لزوم لتشريح الجثَّة، وأمر رجاله بإنزالها.

«هنا، يا سيِّدي، حدثت المعجزة. امرأة كانوا ينادونها فاطمة كسرت طَوْق رجال شرطة الحدود، وضمَّت أيُّوب من قدميه إلى صدرها، وهي تصرخ «وين الزلام؟ يا حيف على الزلام! ما لازم نخلِّيهم يمسُّوه، هيدا وليّ من أولياء الله. لا، أيُّوب ما انتحر، أيُّوب شهيد، أيُّوب صار صديقًا للحبيب المصطفى. ممنوع حدا من أولاد

الكلب يقرّب» تقدَّم الحشد من الجثَّة المعلَّقة، وانسحب رجال القوَّة الإسرائيليَّة إلى ما وراء شجرة السِّدر يراقبون. تقدَّم الرجال من أيُّوب، أنزلوه عن عرش موته، ولفُّوه بكفن أبيض، لا، لم يغسلوا الجثَّة، قالوا إنَّه شهيد والشهيد لا يُغسل. الشهيد يغسله دمه. سجُّوه خارج الجامع، أمام القناطر الثلاث، وصلُّوا عليه، ثم حفروا قبره تحت شجرة السِّدر، فصارت الشجرة شاهدَ قبره.

«بقيت في الجامع يومين لا أتحرَّك من مكاني. كنت خائفًا، لا طعام، ولا شراب، وأصواتُ حفيف البشر. نعم، نعم، تصير أصوات الموتى مثلَ أصوات حفيف أوراق الشجر، تتهامس كأنَّها تحكي، بعضها مع بعض. وأنت تعرف، القرية امتلأت بجثث الناس الذين قُتلوا يوم احتلالها. أعرف الضابط من لواء كرملي الذي قاد الهجوم على القرية، كان اسمه عوزي، قابلته يوم الثلاثاء 20 أيَّار، أي بعد انتهاء «عمليَّة بِنْ عامي» بيوم واحد. كان فخورًا جدًّا بانتصاره، وهو الذي روى لي كيف حفروا في الأرض قناةً طويلة دفنوا فيها القتلى. وأنا كنت سعيدًا بانتصارنا. لا تفهمني غلط. حزنت على يلِّي راحوا، بس ماتوا من حمرنتهم. قلت لهم بلاش هالحركات. المهمّ، خفت من أصوات الموتى، وخفت من أيُّوب المقبور تحت شجرة السدرة على يمين المسجد.»

قال رباح إنَّه بقي يومين جائعًا، ولم يكن يخرج من مخبئه إلَّا عند الفجر. يخرج زاحفًا ويقطف الأعشاب البرِّيَّة، «أكلت خبِّيزة نيَّة وبقلة وزيتونًا مرميًّا على الأرض. كنت آكل وأتمرمر. الزيتون مُرّ. لُفّ الزيتون بالخبِّيزة وآكل، وبعدين أستفرغ. وشربت. لاقيت تنكة ريحتها لحمة، أبصر، يمكن عساكر «الهاغاناه» رموها هناك، عبَّيتها من قناة

الوضوء في الجامع، وشربت.»

قال رباح إنَّه استجمع شجاعته في صباح اليوم الثالث، وخرج من الجامع. جلس تحت شجرة السرو التي تتوسَّط الباحة وشمّ رائحة الموت، ثم مشى إلى السدرة فرأى أغصان الشجرة ملأى بشراطيط علَّقها الناس، قِطَعُ القماش الصغيرة صارت علامة على النذور لأيُّوب الوليّ. قال إنَّه مشى ولم يلتفت إلى الوراء، وهو الآن هنا، لكنَّه ليس هنا. رائحة أيُّوب تملأ أنفه، فالغابسيَّة صارت قرية الموتى، ولم تعد العودة إليها ممكنةً.

لم يدرِ آدم كم مَرَّ من الوقت، فهو ذهب لزيارة صديقه في العاشرة صباحًا. جلس صامتًا يستمع إلى كلام متقطّع، كان عليه أن يُعيد ترتيبه في رأسه، لأنَّ كلام الرجل كان يخرج من فمه بشكل غير متسلسل، كأنَّ الحكي كان يتساقط متناثرًا على أرض موحلة. شعر بأنَّه يستمع إلى وحل الكلام، وأنَّه هو أيضًا يستمع إلى أصوات حفيف الموتى الذين تقمَّصوا الأشجار، وتداخلوا بالعتمة.

ما إن انتهى الرجل من رواية حكايته، حتى عمَّت العتمةُ المكانَ، كأنَّ الظلام اختبأ تحت كلمات الرجل. وجد آدم نفسه في العتمة والصمت، فشعر بالخوف وأنَّ عليه أن يمضي ولا يعود إلى هنا أبدًا.

لكنَّه عاد، وسيواظب على العودة حتى بعد مغادرته حيفا وإقامته بيافا؛ وسيجلس تحت الجمِّيزة، في ظلال الخيانة التي خانت صاحبه.

عندما ركض آدم إلى الحديقة، بعدما علم بانتحار رباح، رأى أمامه جثَّتين تتدلَّيان من غصنين في شجرة واحدة: جثَّة أيُّوب، وجثَّة رباح، كأنَّهما صارتا مرآتين تعكس إحداهما الأُخرى، وتعكسان، معًا، كلَّ مرايا الجليل.

أوَّل الحكاية

لم تبدأ حكاية آدم الجديد، تحت مطر الوداع، حين أدارت منالُ، أمُّه، ظهرَها وأغلقت باب غرفتها، مثلما يحبّ أن يتذكَّر. كما لم تبدأ أيضًا بصحبة رباح الخائن وأيُّوب الوليّ، معلَّقةً على حبل مشنقة يتدلَّى من أغصان سدرة هناك أو جمِّيزة هنا، مثلما روى لصديقته دالية. فآدم، كجميع الخلق، يحبّ أن يدوِّر ذكرياته كي تتلاءم مع شعوره الدائم بالوحدة. وهذا الشعور لا علاقة له بأمّه وذاكرتها المجرَّحة بصمت الألم، بل ناجمٌ عن قراره الواعي بأن يحوِّل الغيتو إلى حكايته، بعد أن يقوم بتغيير جميع عناصرها، محتفظًا بخطوطها العريضة التي تلائم أيّ مكان آخر.

بدأت حكاية آدم الجديد في الطريق من الناصرة إلى حيفا، وفي تلك المصادفة الغريبة التي جمعته بغابرييل. عَرْضُ اليهوديّ البولنديّ للعمل في الكاراج لم يفارقه منذ تلك اللحظة. تخيَّلَ المشهدَ عشرات المرَّات، وانتهى إلى قرار حاسم: سيذهب إلى غابرييل ويقول له إنَّه

اقتنع باقتراحه، وإنَّه على استعداد لترك المدرسة والعمل عنده شرط أن يؤمِّن له مكانًا موقَّتًا يبيت فيه، في انتظار أن ينجح في تدبير أموره.

لكنَّ مطر حيفا فاجأه في ليلة تنفيذ القرار. قال آدم لغابرييل إنَّه غيَّر رأيه بسبب المطر، وكان يكذب. ففي الأيَّام الثلاثة التي أمضاها في حديقة بنيامين، فتح آدم وصيَّة والده، واكتشف أنَّ أمّه دسَّت له صورتين لحسن دنُّون بين أوراقه. الصورة الأولى يبدو فيها حسن رضيعًا داخل مِلَفَّة بيضاء بين ذراعَيْ والده الجالس ضاحكًا تحت شجرة زيتون، والثانية لحسن شابًّا صغيرًا، نبت وَبَر شاربيه، وأغلب الظنّ أنَّه في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من العمر، يقف أمام باب منزل عربيٍّ. ونرى في الجزء الأيمن من الصورة شجرة فتنة ملأى بالزهور. الفتى في الصورة الثانية يشبه الرجل في الصورة الأولى، كأنَّه هو وقد عاد أعوامًا إلى الوراء، ثم قرأ شذرات من الوصيَّة، لكنَّه لم يستطع أن يقرأها كلَّها، مع أنَّه حاول ذلك أكثر من مرَّة. لم يخطر في باله أن يسأل عن سرِّ عدم وجود تشابُه بينه وبين الصورتين. عاش في ظلِّ كلام أمّه على أنَّه لا يشبه أباه، لكنَّه لم يقتنع بذلك. فعلى الرَّغم من لون شعره الأشقر الذي يميل إلى الكستنائيّ، فإنَّه كان مصرًّا على أنَّه يشبه والده، لكنَّه هنا في كوخ رباح اكتشف أنَّ لون شعره وبياض بشرته سيشكِّلان مفتاحًا للدخول في عالم جديد.

ثلاثة أيَّام صحبة رباح الخائن، رسمت له الحدود التي يجب ألَّا يتخطَّاها بين الخيانة والخدعة. رباح رجل بائس، باع روحه كي يحافظ على أرضه، فوجد نفسه بلا روح وبلا أرض. حين روى رباح لآدم نتفًا من حكايته، كان ينفجر ضاحكًا حين يصل إلى عبارة: الغائبين ـ الحاضرين. «اسمع إيش قال لي الضابط، قال إنت حاضر ـ غائب،

هيك القانون. حضورك يعطيك الحقّ في الجنسيَّة الإسرائيليَّة. أنت الآن مواطن في الدولة اليهوديَّة، وغيابك يسمح للدولة بأن تُصادر أرضك. شوف شو هالحكي. أنا مش بس مواطن، أنا خدمت الدولة قبل ما يشرّفوا العراقيِّين والمغاربة وكلّ يهود أوروبا. هم أخذوا أرضي وصاروا حاضرين، وأنا صفِّيت غايب! معقولة!»

آدم كان يعرف أنَّه لا يصلح للخيانة، وأنَّ رباح ليس نموذجًا يُحتذى به؛ فهو كان رضيعًا حين انتشرت الخيانة في كلِّ مكان. منال أخبرته عن الفلَّاحين الذين أتوا للعمل في اللدِّ من القرى قرب الناصرة. مأمون منعها من استعمال كلمة خيانة، «هيدول مساكين، تقوليش خونة، قولي أيّ إشي، بس لا، ما فيش خَوَنة إلَّا يلِّي خانوا. الناس بتخونش هيك. الله يستر عليهم وعلينا.» آدم وُلد بعد الخيانة، وعاش طفولته في الذلّ، من غيتو مسيَّج بالأسلاك إلى غيتو مسيَّج بالخوف، واعتُقل ثلاثَ مرَّات وهو في السادسة حين كان يسرق تينًا وبرتقالًا من الأرض التي قالت له أمّه إنَّها مُلك أبيه، وإنَّها حقّه. وفي المرَّة الثالثة حين تعرَّض للضرب في المخفر، فهم أنَّ الحقّ والمهانة صارا مترابطين في هذه المدينة، وأنَّ عليه أن يجد حلًّا.

وآدم، عكسُ جميع الناس، أعجبته فكرة الحاضر ـ الغائب، وسيقوم لاحقًا بتغيير معالمها كي تعبِّر عن صيغة الموجود ـ اللاموجود، التي اختصرها بكلمة اللامرئيّ، فصار لامرئيًّا، أو هكذا بنى صورته في مرآة روحه. اخترع فكرة اللامرئيّ الذي يَرى ولا يُرى، وقام بتطبيقها بالتدريج، إلى أن تحوَّل فعلًا إلى كائن موجود ولامرئيّ. قال لدالية، بعد أن توثَّقت علاقته بها، إنَّه كان يراها كلّ يوم في بار أشعياء، وإنَّه صار يعرف أدقّ التفاصيل عن ثيابها والألوان التي تحبّها،

وإنَّه عرف أين تُقيم، وشعر بأنَّ علاقتها بصديقها الرسّام الألمانيّ كانت تترنَّح، ولولا ذلك لَما تكلَّم معها في البار.

«لكنَّني لم أرك، قبل يوم لقائنا.»

«أنا كائن لامرئيّ»، أجابها.

لم يُخبرها بأنَّه ليس مَن يدَّعيه. تركها تكتشف ذلك بنفسها. لكنَّه، في المقابل، لم يلعب معها لعبة إخفاء هويَّته الأصليَّة. ترك الأمور تنساب بشكل تلقائيّ، وعندما عرفت أُصيبت بصدمة. كان ذلك بعد أمسية طويلة أمضياها مع جدِّها غوستاف، حيث اختلطت الفودكا بدموع ذكريات الجدّ التي لم تتوقَّف عن الانهمار، حتى عندما كان يضحك. قال الجدّ البولنديّ الذي رفض أن يغيِّر اسمه بعد أن جاء إلى أرض إسرائيل، إنَّه منذ دخوله في السبعين وهو يختبر عَلاقة الذكريات بالدموع. «ذكرياتنا هي دموعنا المؤجَّلة التي لا تنفجر إلَّا حين ندخل في السبعين، عندها نكتشف أنَّ الحياة بدأت فعلًا، وسط شعورنا بهشاشة الجسد وعجزه عن مرافقة أرواحنا إلى بداياتها. لذا يصير الجسد وعاءً للدموع. يا ابني، عندما تصل إلى عمر الدموع، تذكَّرْ جدّك الناجي من غيتو وارسو، واشرب الفودكا على شرف حياتي. هل تعلم: الكلمةُ الوحيدة الجميلة بالعبريَّة، هي حين نرفع الكأس ونقول «لحايم». نشرب للحياة دموعًا نقطِّرها ويصير اسمها فودكا.»

«لا»، قال آدم، «الفودكا ليست دموعًا. العَرَق يشبه الدموع، إنَّه دموع عناقيد العنب التي تتدلَّى من الدوالي.»

«تقصد الراكي الذي يشربه السفارديُّون في صربيا؟»

«لا، العَرَق الذي يصير لونه حليبيًّا حين نمزجه بالماء. إنَّه دموع

الله التي اختزنتها حبّاتُ العنب.»

«ليس الراكي؟»

«إنّه مشروب العرب والأتراك واليونانيّين»، قال آدم.

عندما صار آدم وحيدًا مع دالية، سألته من أين يعرف أخبار العرق الذي يشربه العرب واليونانيّون.

«أنا يونانيّ»، قال.

«يونانيّ؟»

«لا، أنا عربيّ.»

«أنت!»

«لكنّني عربيّ غير مرئيّ»، قال. «ألم تنتبهي إلى ذلك؟» يومها اتّخذت دالية قرارها بمقاطعته لأنّه يكذب طوال الوقت. أمّا هو، فقرّر أن يحبّها إلى الأبد لأنّها لا تكذب.

رباح لم يكن نموذجًا. صحيح أنَّ آدم لم يكن قد قرأ رواية إميل حبيبي: «المتشائل»، ولم يتعرَّف إلى النهاية التعيسة، لكنِ الملأى بالسخرية السوداء وجماليّات اللغة وتعقيدات الواقع وتناقضاته التي برع إميل حبيبي في صوغها، عندما أوصل بطله سعيد إلى الجلوس على الخازوق بعدما ضاقت به السبل، إلّا أنَّ مصير رباح الذي تأرجحت جثّته على غصن جمّيزة حديقة بنيامين، أصابه بالرعب. سعيد ركب على خازوق ورباح تخوزق من عُنُقه، وهو لا يريد لنفسه هذا المصيرَ. هذا ما حاول شرحه لدالية. قال لها إنّه لا يخون، بل يلعب، «ثم ما علاقتي بهذه الحكاية؟ الحقّ على اليهود، لا يريدوننا مندمجين ولا يريدوننا غير مندمجين، الأمر الذي دفعني إلى اللّعب.» شرح لها أنَّ

لعبته كاذبة وكذبَه صادقٌ، «أنا أكذب من قلبي. واللهِ، عواطفي صادقة، وأنا أحبّ جدَّك، كأنّه جدّي، لكن لو قلت له إنَّني من غيتو اللدّ وليس من غيتو وارسو، فهل كان سيحبّني ويصادقني ويتبنّاني؟»

كلمة «يتبنّاني» انزلقت من بين شفتَي آدم، من دون أن يعنيها. جاءت، لا يدري من أين، فهو يكره الآباء وأزواج الأمّهات وكلَّ ما له علاقة بتعبيرات الأبوّة التي لا معنى لها. لكنَّ الكلمة جاءت من دون أن يريدها، فقالها.

عندما سمعت دالية كلمة «يتبنّاني»، دمعت عيناها. ضمَّته إلى صدرها، وقالت إنَّها ستكون جسره كي يتصالح مع نفسه.

في خضمٍّ هذه اللحظة المشحونة بالعواطف، وبدلًا من أن يلتقط الرجل بشفتيه دموعَ حبيبته التي تساقطت على خدَّيها، مثلما يفعل العشّاق، تراجع آدم إلى الوراء وانفجر ضاحكًا.

«لماذا تضحك؟» سألت.

«ولا إشي»، قال.

«بدّي أفهم»، قالت دالية.

أراد أن يقول لها إنَّ هذه اللحظة العاطفيَّة لا مبرِّر لها لأنَّها وليدة انزلاق كلاميّ، ويمكن اعتبارها كذبًا، لكنَّه عدل عن ذلك، لأنَّ الصدق في هذه اللحظة سيدمِّر الحبّ، فقال إنَّه تذكَّر أمّه وهي تتكلَّم مع صورة والده، وتدعوه إلى العودة من مملكة الموت كي يهتمّ بابنه.

«هذا لا يُضحك. أنا لا أفهم عليك. هذا مشهد تراجيديّ وأنت تضحك!»

«اعتبريه ضحكًا تراجيديًّا»، قال.

هزَّت دالية رأسها وقالت إنَّها تتفهَّمه، «أنت مثل جدِّي، تُحوِّل المأساة إلى نكتة. وعندما كنت أسأله لماذا يفعل ذلك كان يجاوبني بأنَّها الطريقة الوحيدة لتحمُّل أعباء الحياة.»

لم يكن آدم يقصد ما قاله، والحقيقة أنَّه تعلَّم أن يتبنَّى معنى الكلام بعد أن يقوله. هذا حصاد تجربته في العمل في الكاراج، عندما نجح في ألَّا يعمل إلَّا بشكل رمزيّ، كي ينصرف لدراسته، ويتحوَّل إلى شقيق موقَّت لغابرييل.

موت رباح لم يُفسد علاقته بغابرييل، فهو لم يُخبر صاحب الكاراج شيئًا عن الرجل الذي استضافه ثلاثةَ أيَّام في كوخه في الحديقة، والذي صار معلِّمَه في فنِّ الطبخ، ورفيقَ وحدته.

«أصعب إشي هو أن يكون أحدُنا بلا أمّ»، قال لدالية.

«لكنْ، لماذا لا تذهب إليها وتصالحها؟ أذهب معك وتستعيد أمّك»، قالت.

«مستحيل»، قال آدم، «لا نستطيع استعادة الموتى إلَّا كظلال. أوَّل ما ننساه هو أصوات الموتى، وعندما يختفي الصوت يصير الإنسان كأنَّه لم يكن.»

لكن ظِلّ منال وصورتها لم يفارقاه يومًا. تعجَّب في بداية حكايته من حضور هذه المرأة في حياته. فمنال حضرت حين غابت، لأنَّه خلال الأعوام الثمانية التي أمضاها معها بعد زواجها وانتقالهما إلى الإقامة ببيت عبد الله الأشهل في حيفا، لم يكن يشعر بوجودها إلَّا نادرًا. صارت بعد الزواج كأنَّها طيف يراه ولا يراه. صوتها الخفيض المتلعثم كاد يختفي. تمشي في البيت كأنَّها لا تدوس على الأرض.

ولم يبقَ من منال سوى جمالها الذي يختبئ في عينيها، وظهورِها بين وقت وآخر في غرفة ابنها وهي تقف أمام صورة حسن وتكلّمها بصمت.

كان آدم في سنوات عبد الله الأشهل بلا أُمّ. هكذا كان يعتقد. وكان شعوره بالوحدة قاتلًا، ولا تبدّده نظرات أمّه المعجبة بتفوُّقه في المدرسة، أو بنظراتها إلى عينيه، التي تختزن عاطفتها الخرساء. لكن، في اللحظة التي أغلق فيها باب البيت، ودخل في زخّات المطر، شعر بحنين جارف إلى الأمّ التي تركها ملتفّة بالعتمة، وفكّر في أن يعود، لكنّه لم يعد. مشى في ليل المطر مع وحدته التي سترافقه طوال حياته. وحين عثر على رباح الخائن، أحسَّ بأنَّ هذا الطبَّاخ الماهر يستطيع أن يُعيد إليه نكهات طعام أمّه، لكن هذه النكهات سرعان ما تبدَّدت بانتحار الرجل، ليجد آدم نفسَه وحيدًا.

وَحْلُ الكلام

لو يستطيع أبطال الروايات أن يكسروا جدران الصفحات ويتكلّموا مباشرة، وبلا أيّ وسيط، لروى آدم حكايته ليس كإنسان لامرئيّ، بل كرجل صنعه الخيال. آدم، هو ابن مخيِّلته التي رسمت له شخصيَّة ملتصقة بشخصيَّته، لكنَّها مختلفة عنها. فمنذ لحظة خروجه من بيت أمّه إلى ليل المطر، اكتشف آدم أنَّه يستطيع أن يرسم نفسه كما يشاء، مستعينًا ببعض الأحداث الحقيقيَّة التي تشكِّل خلفيَّة لا بدَّ منها. هكذا، بنى آدم حياته كلّها، فصار الرجل زئبقيًّا، ينزلق على كلماته ويهوي في لجَّتها. ربَّما كانت هذه الزئبقيَّة سببًا لاقتناع دالية بأنَّه لا يستطيع أن يقول الحقيقة، لأنَّه لم يعد يعرف الحدّ الفاصل بين الحقيقة والكذب.

كان آدم أوَّل الواصلين إلى الكاراج. كانت السادسة صباحًا. الضوء يتشقَّق من فجوات عتمة ذلك اليوم الشتائيّ، وآدم يقف وحيدًا أمام باب الكاراج المقفَل في انتظار غابرييل. لكن غابرييل لم يأتِ. فجأة وصلت شاحنة محمَّلة برجال ذوي ملامح عربيَّة. وما إن بدأ

العمّال بالنزول من الشاحنة حتى علا الضجيج. انسحب آدم من أمام الباب كي يفسح في المجال لرجل أربعينيٍّ معتدل القامة، ينفث دخان سيجارته من بين شاربيه الأسودين الكثيفين، يُخرج علّاقة مفاتيح من جيبه وينظر إلى آدم باستغراب. يفتح الباب ويأمر رجاله بالدخول، ثم يلتفت إلى آدم ويسأله بعبريَّة ركيكة: مَن يكون، وماذا يريد؟

لا يدري آدم لماذا أجاب بالعبريَّة، فلم يكن هناك أيّ مبرِّر لإخفاء هويَّته التي ستنكشف، في أيِّ حال. قال إنَّه في انتظار صديقه غابرييل.

«صديقك!» قال العربيّ، الذي سيعرف آدم أنَّ اسمه ممدوح، متعجِّبًا.

«نعم، نعم، هو مَن طلب منِّي المجيء إلى هنا للعمل في الكاراج.»

«تفضَّل، تفضَّل»، قال ممدوح بالعربيَّة، وهو يشير إلى غرفة صغيرة وُضعت فيها طاولتان وثلاثة كراسيّ.

«شكرًا»، قال آدم بالعربيَّة.

«وبتحكي عربي كمان، أهلًا. من وين الأخ؟»

«من هون، من حيفا.»

شرح له ممدوح أنَّ انتظاره للمعلِّم قد يطول، إذ لا مواعيد محدَّدة لمجيء الخواجة، فهو يأتي ساعة يشاء، «على كلٍّ، تفضَّل، اِجلس.»

جلس آدم وحيدًا في الغرفة، بينما جلس العمّال على الأرض. فرشوا صحفًا عبريَّة قديمة، ووضعوا عليها فطورهم الصباحيّ. أحدهم أعدّ الشاي، بينما وقف ممدوح بعيدًا قليلًا كأنَّه يفكِّر في أمر ما.

اقترب ممدوح من الجالسين، فرفص إلى جانبهم، تناول ثلاثة أرغفة، قطَّعها، ووزَّع الخبز على الجميع، وبدأوا يأكلون.

شعر آدم بالجوع عندما شمّ رائحة البندورة والبصل والزعتر. لم يستطع أن يرى المائدة من خلف زجاج المكتب حيث يجلس، لكنَّ الرائحة التي تسلَّلت إلى أنفه أثارت شهيَّته. فجأة، دخل ممدوح إلى المكتب وسأل آدم لماذا لا يأكل، «مش جايب فطورك معك؟ مش مهمّ»، قال آدم «أنا مش جوعان.» «قوم يا زلمي وافطر معنا، الخير كتير.»

قاده ممدوح إلى المائدة حيث أجلسه إلى جانبه، وأعطاه قطعة خبز وأمره بأن يأكل. وبينما كان آدم مشغوفًا بالطعام كأنَّه لم يأكل شيئًا منذ أيَّام طويلة، همس ممدوح في أذنه بأن لا مكان له هنا. «بتشرب شاي معانا وبتروّح على البيت، مفهوم؟»

شعر آدم بهمهمة تسري في المجموعة المتحلِّقة حول الطعام، وأحسَّ بالخوف. بدت له وجوه جميع هؤلاء العرب كالحةً، ورأى دوائر سوداء حول عيونهم، وشعر بدبيب نعاسهم يتَّخذ شكل تثاؤب متواصل تخرج من ثناياه أصواتٌ مرتفعة. كان الصمت مخيِّمًا، فالكلام الوحيد الذي سمعه بعد أن أنهى ممدوح تهديده كان صمتًا يخترقه التثاؤب.

شعر آدم بأنَّه وقع في مِصيدة، وأنَّ وعده لنفسه بأن يجد مكانًا يأوي إليه لم يكن سوى وهم، لكنَّه لا يملك سوى خيار التعلُّق بهذا الوهم، لأنَّ عودته إلى الوراء صارت مستحيلة.

«فهمت إيش قلت لك؟» قال ممدوح بصوت مرتفع، «بتخلِّص

كباية الشاي وبتتسهَّل، وبدِّيش أشوفك هون.»

«حاضر»، أجاب آدم بصوت متلعثم، «بس الخواجة طلب منِّي أشتغل هون.»

«فهمت عليّ، يلَّا قوم اِتسهَّل، مع السلامة.»

لكن آدم لم ينهض. تململ في جلسته كأنَّه يحاول النهوض وبقي في مكانه.

تحوَّلت المجموعة البشريَّة المتحلِّقة حول الطعام إلى كتلة متراصَّة من البشر تُحيط بالفتى من كلٍّ جانب.

أراد أن يقول لممدوح إنْ لا لزوم للمشاكل لأنَّه سيمضي، لكنَّه يشعر بعدم القدرة على النهوض. وقبل أن يفتح فمه تلقَّى ضربة من قبضة حديديَّة على أنفه، وبدأ الدم يسيل. دبدب على الأرض وهو يحاول الوقوف فرأى دمه ينتشر على الإسمنت الذي فُرشت به أرضيَّة الكاراج. وضع يده على أنفه كي يوقف النزف ونهض متثاقلًا، ليتلقَّى ضربة من حقيبته الصغيرة التي وضعها على الأرض في المكتب، وتركها هناك عندما دعاه ممدوح إلى الطعام. سقطت الحقيبة على كتفه وتبعثرت كتبه ودفاتره. لم يعد الفتى يأبه بالضربات التي انهالت عليه، لأنَّه كان مشغولًا بالتقاط الكتب التي تناثرت على الأرض. ركع وهو يلملم أشياءه، والدم المتدفِّق من أنفه يختلط بدموعه، وشعر بأنَّه يستطيع أن يموت.

فجأة، توقَّفت الضربات وساد السكون، وسمع صوت دعسات على الأرض. رفع رأسه إلى الأعلى، فرأى قدمين جمدتا أمام وجهه المنحني، وسمع صوت الخواجة غابرييل يسأل: ماذا يجري؟

«مين هالولد؟» سأل غابرييل.

«بعرفش»، أجاب ممدوح، «وجدناه على باب الكاراج. اعتقدنا أنَّه شحَّاذ، فأطعمناه، لكنَّه رفض أن يغادر.»

«أنا آدم يا خواجة غابرييل.»

«مين آدم؟»

«تَبَع الناصرة»، قال آدم وهو ينهض متثاقلًا. «أنت طلبت منِّي يا خواجة آجي أشتغل عندك بالكاراج، تذكّرتني؟»

حكَّ الخواجة لحيته الكثيفة كأنَّه يستنجد بها كي يتذكَّر.

«ومن وين إجا الدم؟»

«ضربوني لأنِّي قلت لهم إنِّي ناطرك، لازم إمشي، يمكن نحن ما التقينا على طريق الناصرة ـ حيفا، يمكن أنا تخيَّلت إشي ما صار، يمكن إنت ما عندك أخ أشقر اسمه شلومو مات بالحرب، أعتذر.»

اقترب غابرييل من الفتى، نظر إلى وجهه مليًّا، ثم سحب محرمته من جيبه ومسح بها أنفه الدامي وأمسكه من يده.

«وين تروح؟» قال غابرييل، «تعال. إنت الولد الذي يشبه أخي، الآن تذكَّرتك، أنت أخي الصغير شلومو، تعال.»

ومنذ تلك اللحظة صار لآدم اسمين: شلومو مع غابرييل، وآدم مع ممدوح وأقربائه من أهل البعنة.

لا يذكر آدم ماذا جرى بعد ذلك. دخل غرفة صاحب الكاراج، حيث هرع إليه ممدوح وشابٌ آخر اسمه أكرم للعناية به، بينما كان غابرييل يوزِّع العمل على سائر العمَّال. لم يطلب منه أحد أن يقوم بأيٍّ

عمل. بقي جالسًا في الغرفة. أعاد ترتيب شنطَته، وشرب فنجان قهوة أعدَّه محاسب الكاراج، إفرايم. كان هذا المحاسب رجلًا كهلًا في نحو السبعين من العمر، الزمن محفور على أخاديد وجهه. نظر بريبةٍ إلى هذا الفتى الذي قدَّمه إليه غابرييل تحت اسم شلومو، لكنَّه قدَّم إليه قهوة غريبة الطعم، يسمُّونها هنا «بوتز كافيه»، أي قهوة الوحل، بحيث لا يُغلى البنُّ المطحون على الطريقة التركيَّة مع الماء، بل يوضع في كوب، ويُدلق عليه الماء المغليّ، فيصير وحلًا. شرب آدم الوحل وهو يلحس شفتيه اللتين انتشر البنّ على أطرافهما، وانتظر، لكن غابرييل اختفى، ولم يظهر إلّا في الثانية ظهرًا، بثياب ملوَّثة بشحم السيَّارات، حاملًا في يده صينيَّةً وُضعت عليها ثلاثةُ صحون من الحمّص. تناول آدم الطعام وهو يستمع إلى الحوار بين غابرييل وإفرايم. كان غابرييل يحاول أن يجد لآدم مكانًا ينام فيه، وإفرايم يقول إنَّ هذا مستحيل، مُتحَجِّجًا بأنَّه لا يوجد مكان لائق سوى هذه الغرفة، «فهل نفرش له هنا، ونعمل نحن بين السيَّارات؟»

لم يقتنع غابرييل. قال إنَّه يمكن تحرير الزاوية الشماليَّة من الكاراج وإقامة غرفة صغيرة يبيت فيها شلومو، لكن إفرايم أصرَّ على رأيه، «نضع هنا السيَّارات التي تمَّ إصلاحها. هذا هو المكان الوحيد المحترم في الكاراج، ويجب أن نحترم زبائننا.»

«لا، لا»، قال غابرييل، «هذا هو الحلّ الوحيد.»

«لماذا لا تأخذ أخاك كي يُقيم معك بالبيت؟» أجاب إفرايم وهو ينظِّف الطاولة، ويعود إلى عمله في إعداد الفواتير للزبائن.

التفت الخواجة إلى آدم وسأله ما رأيه.

شعر آدم بالحرج، فهو متطفِّل على هذا المكان، ولا يريد سوى أن يشتغل. ينام هنا بضعة أيَّام، ثم يجد لنفسه سقفًا يأوي إليه. هذا ما قاله. لكنَّه حكى بطريقة غريبة، بدا كأنَّه يبحث عن كلماته. الفتى الذي كان يتباهى أمام أقرانه في مدرسة المطران، بطلاقته في اللغة العبريَّة، شعر بأنَّ الكلمات صارت وحلًا في فمه، كأنَّه يمضغ الوحل ولا يستطيع إخراجه من بين شفتيه. حاول أن يقول، قال، غير أنَّ علامات الدهشة التي ارتسمت على وجه غابرييل، جعلته يصمت. وبدلًا من أن يحكي صار يسعل ويشهق بسعاله.

«هل أنت مريض؟» سأله غابرييل وهو يربِّت على ظهره.

أشار برأسه إلى الأعلى علامةَ النفي. استجمع اللغة في فمه وقال كلمة واحدة «الوحل.»

أجلسه غابرييل على الكرسيّ. طلب من ممدوح أن يجلب كوب ماء، ناوله لهذا الفتى الغريب الذي بدا كالأخرس، «اشرب، اشرب.»

بعد أن شرب الفتى أحسَّ بأنَّ الوحل بدأ ينزاح عن زلعومه. قال إنَّه سعل بسبب قهوة الوحل، وأنَّ ما يريده هو العمل في الكاراج، لا أكثر.

لكن غابرييل كان له رأي آخر. قال له إنَّ مهمَّته في الكاراج ستقتصر على فتح الباب للعمَّال في السادسة صباحًا، ثم يستطيع أن يذهب إلى المدرسة إذا شاء، لكن عليه العودة قبل الخامسة مساء، فينظِّف المكان، وينام هنا، لأنَّ عليه الردَّ على المكالمات الهاتفيَّة الطارئة في الليل، والاتِّصال بغابرييل إذا رأى أنَّ ظروف المتَّصل لا تحتمل التأجيل.

«النوم هنا جزء من وظيفتك الجديدة.»

«وكم سيكون راتبه؟» سأل إفرايم.

«أنا سأدفع إليه من جيبي، لا تتدخَّلْ في المسألة.»

«لكنِّي...»

«لا يوجد لكن هنا، ممدوح سيشرح لك مهمَّاتك بالتفصيل، وسيجد لك مكانًا تنام فيه. يجب أن أذهب الآن. أحلى شيء في هذه البلاد هو القيلولة. طقس بلدكم قيلوليّ، لذلك أراد الله أن تكون أرضًا لشعبه المختار، فالله يحبّ القيلولة.»

«هذا بلدنا، وليس بلدهم»، قال إفرايم ضاحكًا.

«طبعًا طبعًا»، أجاب غابرييل، وهو يضع في يد آدم كمشةً من النقود.

الأخرس إن حكى

اكتشف آدم أنَّ وحل الكلام لا علاقة له بوحل القهوة، فمنذ أن حطَّ رحاله في الكاراج وأقام تحت وصاية غابرييل، وهو يشعر بأنَّ وحل الكلام لم يسيطر عليه فقط بسبب اضطراره إلى الكلام بالعبريَّة مع غابرييل وإفرايم، بل امتدَّ ليشمل اللغة العربيَّة أيضًا، إذ بدا شبه عاجز عن إيصال معنى كلماته إلى ممدوح وبقيَّة العمَّال العرب الذين يعملون في الكاراج.

لم يتأتئ آدم حين كان صغيرًا، فماذا جرى له الآن؟

الحقيقة أنَّه في تعامله مع وحل الكلام شعر بأنَّه عاجز عن النطق، وأنَّه حين يبدأ في الكلام ينتّع ويقطّش. يبدأ في صوغ كلامه فيشعر بأنَّ الكلمة تنشقّ نصفين، يقول نصفها الأوَّل، وعليه أن يبحث جاهدًا عن نصفها الثاني، كأنَّه منال. لا، أمّه لم تكن هكذا. كانت امرأة غريبة، إلى درجة كانت تدفع مأمون إلى التشنُّج ومغادرة البيت. قال لها إنَّ عليه تعريفَ الأبجديَّة وتحديدَ دلالاتها من جديد كي يفهم ما تقوله،

فلم تجاوب. وبعد لحظة صمت طويلة قالت إنَّها لا تعرف أن تحكي إلّا هكذا.

في الكاراج فهم آدم معنى كلام أمّه التي كانت، بحسب مأمون، غريبةَ الكلام. «إنتِ مش غريبة الأطوار زيّ ما الواحد بفكّر لمّا بيتعرَّف عليك، إنتِ غريبة الكلام.»

غربة الكلام التي رافقت آدم طوال السنة الأولى من عمله في الكاراج، ستنزاح عندما يألف ممدوح وأكرم ورفاقَهما. في البداية، كانت نظرات هؤلاء العرب إلى هذا الكائن الغريب، والذي يعامله الخواجة غابرييل بشكل مختلف؛ عدائيَّةً وملأى بعلامات الاستفهام.

بدأ الاستفهام ينزاح وتخفت العدائيَّة مع الوقت، ومع محاولة آدم الاندماج ضمن هذه العائلة العربيَّة الكبيرة التي لم يكن قادرًا في البداية على فهم كيف تشكَّلت، أو فهمِ الرابط الذي جعل هذه المجموعة التي تتراوح أعمار أعضائها بين السابعة عشرة والأربعين، كتلةً متراصَّة لا يمكن اختراقها.

ممدوح كان كبيرَهم في العمر وفي المقام، وهو مَن بدأ العمل في الكاراج حين جاء إلى حيفا تسلُّلًا من قريته في الجليل بحثًا عن عمل. كان ذلك منذ خمسة عشر عامًا. جاء ليكتشف في وادي الصليب، الذي كانت بيوته المهجورة تشبه مغاور مقفَلة على الأسرار، كاراجًا صغيرًا يعمل فيه غابرييل وحده. روى ممدوح أنَّه لا يدري كيف استطاع التفاهم مع رجل لا يتكلَّم لغته. لكنَّهما تفاهما؛ فممدوح كان ميكانيكيًّا قبل سقوط الجليل وعمل على إصلاح آليَّات جيش الإنقاذ المعطوبة خلال الحرب. أُسِر يوم احتلال قريته، وبقي في الأسر ستَّة

أشهر، ثم خرج ليجد نفسه عاطلًا عن العمل، وعاجزًا عن مغادرة قريته بحثًا عن عمل في حيفا. غابرييل كان الحلَّ، هكذا روى ممدوح لآدم وهما يشربان كأس عَرَق مع الشباب في شرفة منزل ممدوح في البعنة. صفيَّة، زوجة ممدوح، أعدَّت الكبَّة الجليليَّة النيئة والحوسة؛ كبَّةٌ تشبه الطَّبَق الذي كانت تعدّه منال في منزلها في الغيتو، ثم توقَّفت عن إعداده بعد ذهابهما إلى حيفا لأنَّ زوجها عبد الله لا يحبّ هذا الطبق الذي يذكِّره بالخيانة.

قال ممدوح إنَّ «غابرييل دبَّرها، وبدأتُ العمل معه. كان الرجل، والحقّ يُقال، كريمًا معي. قال لي إنَّ الله فتحها في وجهه منذ أن بدأت العمل معه، وحين تكون الحياة كريمة يجب أن نُجيب على كرمها بالكرم. وقال له الكريم خود. لا، الفضل ليس لي وحدي، فغابرييل ميكانيكيٌّ جيِّد. هل تعرف كيف نميِّز الميكانيكيَّ الجيِّد من الميكانيكيّ الرديء؟ الجيِّد هو مَن يعشق رائحة الزيت والشحم، وغابرييل كان مثلي، يعشق هذه الرائحة. ينزل تحت السيَّارة كي يستكشف أحشاءها قبل أن يبدأ بالعمل على الخلل. حين كنَّا وحيدَين كنَّا نتمتّع بهذه اللحظات، ونتنافس في تحديد مصدر الخلل. وبدأ الكاراج يكبر. كنت أنا مَن دبَّر جميع العمَّال ما عدا إفرايم. إفرايم كان صديقه منذ البداية، وهو ناجٍ من المحرقة، يُخفي رقمه بقميصه، لأنَّه لا يحبّ الكلام على تلك الأيَّام. رجل وحيد لم يتزوَّج، ويعيش في عالمه الداخليّ. غابرييل يحبّ إفرايم ولا يناقشه في أمور المال، فقط يناقشه حين كنت أشكو إليه رفضَ المحاسب دفع تعويضات للعمل الإضافي عندما كنت أضطرّ في بعض الأحيان إلى استبقاء عامل أو عاملين بعد الدوام الذي ينتهي في الرابعة بعد الظهر. وإفرايم معه حقّ

في أن يتأفَّف، فالبقاء بعد الدوام يعني المبيت في الكاراج ودفع ثمن العشاء، إلى جانب زيادة الأجر. أنت تعرف أنَّ تصاريحنا للمجيء إلى حيفا لا تسمح لنا لا بالتنقُّل ليلًا، ولا بالمبيت في المدينة. أنت غير شكل يا ابني. أنت من المدينة، وأهل المدن يحقّ لهم ما لا يحقّ لنا.»

«لكنَّنا عشنا في الغيتو»، قال آدم. «وفي الغيتو، لم يكن مسموحًا لنا مغادرة قفص الأسلاك الشائكة.»

غابرييل دبَّر له تصريحًا من الحاكم العسكريّ. وجد في ممدوح ميكانيكيًّا موهوبًا ورجلًا أمينًا ولا يريد سوى السترة وإطعام أفراد عائلته. ومع توسُّع العمل والحاجة إلى مزيد من اليد العاملة الرخيصة، بدأ عمَّال الكاراج يتكاثرون، وكانوا كلّهم من العرب الذين اختارهم ممدوح بنفسه، وهو طبعًا لم يختر سوى أفراد من حامولته.

كان ممدوح يتصرَّف في الكاراج بصفته شيخَ قبيلة، لكنَّه كان يلزم حدوده بشكل دقيق. فهو يعرف مَن هو السيِّد هنا، ويعرف أيضًا أنَّ مصير عمله وعمل أقربائه مرتبطٌ برضى الخواجة. فمن دون هذا الرضى لن يستطيع أحد منهم حيازة تصريح بمغادرة القرية، وسيكون مصيرهم كمصير الآخرين، أي العمل في المحاجر، وتعبيدِ طُرقات كوبانيات اليهود، والوقوف على أطلال أراضيهم المصادرة.

أمضى آدم في الكاراج عامًا قبل أن يستطيع فكَّ شيفرة زملائه العرب والانخراطَ في لغتهم، الأمر الذي فتح له أبواب بيت ممدوح، وجعله يشعر بأنَّه صار مقرَّبًا من قبيلة العمَّال التي يرأسها.

القرب من «القبيلة الممدوحيَّة» لم يعنِ الانخراط فيها، فالعمّال

كانوا ينظرون إلى هذا الفتى اللدّواي باعتباره طارئًا وغريبًا، ومفروضًا عليهم من الخواجة اليهوديّ. لم يفهم أحد منهم سرّ العلاقة بين آدم وغابرييل، ولا هذا الشعورَ الذي جعل الخواجة اليهوديَّ يعتبر الفتى اللدّاوي بمثابة أخيه الضائع، فيسمح له بعدم العمل، ويتكلَّم معه بلطف لم يعهده أحد من معلِّمهم، ويدعوه إلى منزله. نعم، اليهوديّ يدعو عاملًا عربيًّا مقطوعًا من شجرة إلى منزله على العشاء، ويجد له بيتًا مستقلًّا، كي يتوقَّف عن النوم في الكاراج. ولولا إصرار آدم على متابعة العمل، وهو لم يكن يعمل شيئًا على المستوى الفعليّ، سوى تنظيف الكاراج يوميًّا بعد نهاية الدوام، لكان غابرييل سيدفع إليه أجره، ويرعاه، ويتابع معه شؤون دراسته. وعندما حدثت الفضيحة، وسمعوا غابرييل يخور كالثور ويقول إنَّه سيقتل هذا العربيّ إذا شاهده في الوادي، فهموا أنَّ الفتى أللدّاويّ الذي يتلعثم في كلامه، ويحمرّ خجلًا عندما يأتي الحديث عن الجنس والنساء، كان أوَّلَ عربيّ وصل إلى فراش فتاة يهوديَّة.

لكنَّ هذه الحكاية لم يأتِ أوانها بعد.

فجأة، صار آدم ميكانيكيًّا، وسمع الخواجة يُثني عليه، وينصحه بترك الدراسة، «إفرايم صار كهلًا ويريد أن يتقاعد، ما رأيك في أن تستلم إدارة الكاراج مكانه؟»

«أنا! مستحيل.»

«ابن الكلب! أنت تشبه أخي وتتكبَّر على النعمة، وهؤلاء الذين يتصرَّفون هكذا يموتون، وأنا لا أريدك أن تموت.»

«لن أموت، ولن أصير ميكانيكيًّا مثلك.»

حدث ذلك صباح الاثنين الموافق في 7 تشرين الأوّل 1964. نهض آدم في الخامسة والنصف صباحًا. فتح باب الكاراج، ووضع إبريق الماء على النار استعدادًا لصنع الشاي للعمّال، قبل أن يذهب إلى المدرسة، وجلس ينتظر. وعلى غير العادة لم يأتِ أحد. صارت الساعة السابعة والنصف، وعلى آدم أن يذهب إلى المدرسة، لكنَّه لا يستطيع. فكَّر في الاتِّصال بالخواجة غابرييل، لكنَّه تردَّد قبل أن يقرِّر أنَّ من الأفضل الاتِّصالَ بإفرايم، فهو لا يريد أن يبدأ نهاره بسماع صراخ المعلِّم وشتائمه. تلفن لإفرايم، لكن لم يردّ عليه أحد، فجلس ينتظر.

في الثامنة والنصف وصل إفرايم إلى العمل وفوجئ بعدم وجود العمّال، اتَّصل بغابرييل الذي وصل بعد عشر دقائق وهو يلهث، كأنَّه جاء راكضًا، مع أنَّ آدم سمع زئير سيَّارة الشيڤروليه وأزيز عجلاتها وهي تتوقَّف فجأة في الكاراج.

«إلى العمل»، صرخ بآدم.

«أين العرب؟» سأل إفرايم.

سمع آدم صراخ غابرييل وهو يشتم اليهود.

فهم آدم من كلام غابرييل أنَّ هناك مشكلة في البعنة، وأنَّ الشرطة أقفلت مداخل القرية، وأنَّ ممدوح وصحبه لن يأتوا اليوم.

انبطح غابرييل تحت إحدى السيَّارات، وبدأ يُصدر أوامره لآدم، وكان على آدم أن يفكّ رموز كلام الخواجة ويلبِّي طلباته، ثم وجد نفسه يعالج محرِّك السيَّارة. وبينما كان الخواجة يتكلَّم على الهاتف، اكتشف آدم أنَّ المشكلة ناجمة عن ترويح الزيت. وعندما عاد غابرييل،

وسمع نظريَّة آدم، نَهَرَه في البداية، ثم رفع رأسه عن المحرِّك. طبع قبلة على خدّ آدم، وقال «عظيم.»

عملا معًا طوال النهار. والحقّ أنَّ آدم استمتع بمدائح معلِّمه، وفكَّر للحظة في أن يوافق على اقتراحه.

في السادسة مساءً طلب غابرييل من آدم أن يستحمَّ ويلبَسَ ثيابه لأنَّه سيدعوه إلى العشاء.

في طريقهما إلى البيت، مرَّ غابرييل على مطعم للكباب، اشترى كفتة ولحمًا مشويًا وحمّصًا وسلطة طحينة.

«هذا أطيب طعام، طبخ المدام لا يُؤكَل، ستجرِّبه الآن.»

لم يكن غابرييل دقيقًا في كلامه، فكَّر آدم، وهو يجلس إلى مائدة الطعام التي تترأَّسها سيِّدة أربعينيَّة رفيعة القوام، وجنتاها ممصوصتان، تتحرَّك بعصبيَّة طوال الوقت، اسمها تالي. جلس غابرييل في مواجهتها على رأس الطاولة المقابل، بينما جلست رَفقة في مواجهة آدم. كانت رَفقة في الخامسة عشرة، بيضاء ممتلئة، شعرها الكستنائيّ مربوط كذيل حصان خلف ظهرها.

أبدت السيِّدة الأربعينيَّة تأفُّفها من الشواء الذي جلبه زوجها، «ستصير رائحة بيتنا مثل روائح بيوت العرب. أنا أعددت لحمًا بالبطاطا، سنأكله، أمّا طعامك هذا فخذه غدًا إلى عربك في الكاراج.»

اعترضت رفقة على كلام أمّها، وقالت إنَّها تحبّ الشواء العربيّ.

قال غابرييل متلعثمًا إنَّه يعشق طبيخ زوجته، لكنَّه جلب الشواء من أجل صديقه آدم، لأنَّه خاف ألَّا يستسيغ طعامها.

نظرت المرأة إلى آدم بعينين زجاجيَّتين.

«أنا آكل كما تأكلون»، قال الفتى اللدّاوي.

«عبريَّتك ممتازة، أنت لست يهوديًّا؟»، سألَتْ رَفقة.

أومأ آدم برأسه.

«هل تحبّ اليهود؟» سألتِ الفتاةُ.

«أنا أحبّ قصص عجنون ويزهار.»

«هل تعرف شِعْرَ بياليك؟»، سألتِ الفتاة.

«الأدب لا معنى له»، قالت المرأة.

«لكنَّ الناس يحبُّون الأدب»، قال غابرييل.

نظرت المرأة إلى زوجها من طرف عينيها، فتلهَّى غابرييل بحكِّ لحيته.

كسر غابرييل الصمت وقال لزوجته إنَّ آدم هو أفضل عامل في الكاراج، وهو يذهب إلى مدرسة المطران في وادي النسناس، وسيُنهي البجروت بعد سنة كي يدخل الجامعة.

«وماذا ستدرس؟» سألت المرأة.

«الأدب العبريّ الحديث»، أجاب آدم.

«هل أنت يهوديّ؟» سألت.

«إذا شئتِ»، أجاب.

«من أين أنت؟»

«من الغيتو»، قال.

«إنَّه يهوديّ»، قالت رفقة.

«لا، إنَّه عربيّ يكذب ككل العرب»، قالت الزوجة.

«أنا... أنا... لا أعرف»، قال آدم.

«إنَّه يشبه أخي»، أليس كذلك.

«أنا لا أعرف أخاك إلّا من الصور»، قالت الزوجة.

«إذا كنت ستدرس الأدب العبريّ، فلماذا لا تذهب إلى مدرسة يهوديَّة. مدارس العرب لا تنفع.»

«لأنَّني... لأنَّني لا أعرف.»

التفتت إلى زوجها وقالت له أن يتَّصل بصديقهم أبراهام ليفي الذي يعمل في وزارة التعليم، كي ينقل الفتى إلى «مدرسة الاستقلال».

«لكنَّه عربيّ»، قال غابرييل.

«هل أنت متفوّق في دروسك؟» سألت الزوجة.

«إنَّه الأوَّل في كلِّ الموادّ»، قال غابرييل.

«إذًا، يمكنه الالتحاق بالمدرسة في العام الدراسي المقبل.»

«هل صحيح أنَّك عربيّ؟» سألت رفقة.

«صحيح» أجابها غابرييل، «لكنَّه يشبهنا».

لم يأكل آدم إلَّا لُقَيمات قليلة، فالدهشة استولت عليه وأنسته جوعه. هذه هي المرَّة الأولى التي يدخل فيها بيتَ يهوديٍّ. البيوت اليهوديَّة التي زارها كانت مخافر الشرطة في اللدِّ، أو سجنَ الناصرة. وهو لا يذكر سوى أنَّه كان خائفًا. هنا أيضًا كان خائفًا. حين دعاه غابرييل إلى منزله بعد يوم الكاراج الطويل، لم يدرِ هل يفرح أم يخاف، لكنَّه ذهب لأنَّ كلام غابرييل كان قاطعًا ولا يُردّ. فوجئ بالطعام الذي لم يجده كما وصفه الخواجة، على الرَّغم من أنَّه لم يستسغه. فكَّر في أنَّ الطعام مجرَّد عادة، وأنَّه يستطيع أن يتعوَّد عليه

وأن يحبّه. رائحة الشواء الذي التهمته رفقة مع أبيها أثارت فيه مشاعر متناقضة. سال لعابه في البداية، ثم شعر بما يُشبه الغثيان، ربَّما لأنَّ رائحة الشواء لا تنسجم مع نكهة المايونيز التي كانت في صحنه. لكن هذا لم يكن مهمًّا. المهمّ، بالنسبة إليه، هو احتمال الانتقال من مدرسة المطران إلى المدرسة اليهوديَّة.

نظرت السيِّدة تالي إلى آدم باشمئزاز، وسألته لماذا لم يأكل شيئًا، «يبدو أنَّك لم تحبّ طعامنا.»

«أحببته.»

«لكنَّك لم تأكل شيئًا.»

«اتركيه على راحته»، قال غابرييل.

«لماذا أتيتَ به إلى هنا؟» سألت تالي، ولم تنتظر جوابًا. حملت الأطباق وبقايا الطعام إلى المطبخ.

«يجب أن أَمضي»، قال آدم.

«أنا سأوصلك»، قال غابرييل، «ونشرب الشاي في الكاراج.»

«سآتي معكما»، قالت رَفقة.

مضى الثلاثة. جلست رفقة إلى جانب والدها في المقعد الأماميّ، بينما جلس آدم في المقعد الخلفيّ.

سألته رفقة إذا كان جادًّا في الذهاب إلى مدرسة يهوديَّة.

«طبعًا»، أجابها، «أريد أن أدرس الأدب العبريّ.»

«أنا أكره المدرسة. طلبتُ من أبي عدَّة مرَّات أن يسمح لي بتركها والعمل معه في الكاراج، لكنَّه رفض. هل تعلم لماذا؟ لأنَّه يخاف من زوجته.»

«أنا لا أخاف من أحد، لكنَّ الكاراج ليس عملًا للنساء.»

«ما رأيك؟» سألَتْ آدم.

«واللهِ لا أعرف، لكن لماذا تكرهين المدرسة؟»

«وأنت، لماذا تحبّها؟»

«لأنَّني... لأنَّني أريد أن أصير يهوديًا.»

قهقه غابرييل ضاحكًا: «هذا مستحيل.»

«هل ستقول للخواجة ليفي إنَّني عربيّ؟ أرجوك لا تقل له.»

«لكنَّه سيعرف من بطاقة هويَّتك.»

«يعرف أو لا يعرف، لكن لا تَقُلْ له.»

«اسمك يهوديّ»، قالت رفقة، «آدم هو أبو اليهود.»

«إنَّه أبو كلّ البشر. هذا إذا سلَّمنا بأنَّه وُجد كإنسان ولم يكن قردًا يقفز على أغصان الأشجار»، أجاب غابرييل.

«هل يُسمّي العرب أطفالهم آدم؟» سألت رفقة.

عندما وصلوا إلى الكاراج، قال غابرييل إنَّه سيعود إلى البيت، لكن رفقة أصرَّت على شرب الشاي في الكاراج، فقال والدها: لا. نظرت إلى آدم بعينين متواطئتين، لكن آدم أشاح وجهه ونزل من السيَّارة.

«آدم»، همست رفقة.

عاد إلى نافذة السيَّارة ليرى الفتاة تمدّ إليه كيسًا مليئًا ببقايا الشواء والحمّص.

«لا لزوم لذلك»، قال آدم.

«خذه، إنَّه من أمّي.»

شعر آدم، وهو يشرب الشاي وحيدًا في الكاراج، بأنَّه وصل إلى عتبة حياته الجديدة. الانتقال إلى المدرسة اليهوديَّة سيعني أنَّه نجح أخيرًا في مغادرة الغيتو الذي وُلد فيه، كما أنَّ نظرات رفقة أوحت إليه بأشياء غامضة لم يكن قادرًا على فهم معانيها.

سوف يتبنَّى آدم حكاية أنَّه الشقيق الأصغر لغابرييل، وأنَّه هرب مع أمّه من غيتو وارسو، وأنَّه سيصير هنا إنسانًا جديدًا. وفي تلك اللحظة قرَّر أن يفعل كاليهود ويغيِّر اسمه. لا لزوم لتغيير اسمه الأوَّل، فآدم اسم يصلح لليهود كما يصلح لغيرهم. أمّا اسم عائلته، فلا يحتاج إلَّا إلى أن يضيف إليه حرف الألف، فيصير: دانون.

فرح آدم باكتشافه الجديد، ونام وهو يحتضن حرف الألف كي يمنعه من الإفلات منه، وفكَّر في أنَّه سيروي في الغد قراره لغابرييل.

لكنَّه لم يروِ شيئًا، لأنَّ كلام الأخرس هزَّه من أعماق جذوره.

في اليوم التالي، عاد العمَّال العرب إلى عملهم كأنَّ شيئًا لم يكن. عاد الجميع ما عدا أكرم، وقد شرح ممدوح للخواجة أنَّ أكرم سيتغيَّب بضعة أيَّام لأنَّه مريض.

الغريب أنَّ غابرييل لم يسأل الشباب لماذا غابوا، ولم يستفسر عن تفاصيل ما جرى في قريتهم. غابرييل لم يسأل، والشباب لم يحكوا، وفهم آدم أنَّ هذا الصمت هو أحد قواعد العمل في الكاراج.

وحين كسر أكرم الصمت بعوائه، بعد نحو أسبوعين من عودته إلى العمل، شعر آدم بأنَّه في مِصيدة مقفَلة، وأنَّ عليه أن يهرب قبل أن يعلق فيها من جديد.

في ذلك اليوم عاد آدم من مدرسة المطران، في الرابعة، ليجد ممدوح وغابرييل منبطحَين حول سيَّارة صغيرة حمراء، وأكرم يساعدهما. «تعالَ يا ولد»، صرخ به ممدوح. التفت آدم حواليه، ليكتشف أنَّه هو المقصود بهذا النداء، وأنَّ معموديَّته كميكانيكيّ بدأت. فهو، منذ مجيئه إلى الكاراج، لم يقم عمليًّا بأيٍّ مهمَّة سوى مرَّة واحدة، حين غاب العمَّال العرب بسبب أحداث البعنة. كان يكنُس المكان مساء، وينهض في الصباح باكرًا كي يفتح أبواب الكاراج للعمَّال، ويُعِدَّ لهم الشاي، ثم يمضي إلى مدرسته، ولا يعود إلَّا في الرابعة بعد الظهر، حين يبدأ العمَّال استعداداتهم لمغادرة المكان.

يومها صار آدم ميكانيكيًّا، وفهم متعة إنطاق محرِّك السيَّارة الذي كان مصدر السعادة الوحيد لغابرييل.

في تلك الليلة، وبعد أن انتهى الجميع من إصلاح السيَّارة في نحو التاسعة مساء، اصطحب غابرييل آدم معه إلى وادي النسناس حيث اشتريا فلافل وكبابًا وحمّصًا، وعادا إلى الكاراج ليتناولا طعام العشاء مع ممدوح وأكرم.

بعد العشاء غادر الخواجة غابرييل الكاراج، وأمر ممدوح بأن تُرفَع بقايا الطعام استعدادًا للنوم، لكنَّ النوم لم يأتِ. أكرم الأخرس افتتح الكلام بصراخه. صار العمَّال يُطلقون عليه لقب الأخرس لأنَّه فَقَدَ القدرة على الكلام بعد شفائه من مرضه الغامض. وعندما كان يضطرّ إلى الإجابة عن أسئلة الخواجة، كان يُجيب بغمغمة مقرونة بإشارة من يديه. هذا الأخرس، جلس إلى جانب آدم وفرش الكلام على الأرض. الحقيقة أنَّه لم يتكلَّم. كان كلامه أشبه بإشارات التقطها ممدوح، الذي حاول في البداية، إسكاته، لكنَّ غضب الأخرس

تصاعد صراخًا يشبه العواء، الأمر الذي أجبر ممدوح على الكلام.

قبل أن يبدأ ممدوح حكايته، سأل آدم عن حياته في الغيتو، ولماذا انتقل من اللدّ إلى حيفا.

ضريبة الكلام هي الكلام، فكّر آدم، لكنَّ الفتى لم يُرد أن يحكي أو أن يسمع، فقال أنتم تعرفون المذبحة والغيتو، وإلى آخره، وأنَّه كان رضيعًا، لذلك لا يذكر شيئًا.

ترك بيت أمّه هربًا من الحكايات التي كانت تلاحقه، فاصطدم بجثَّة رباح المعلَّقة على شجرة في الحديقة العامَّة. اعتبر كاراج الخواجة غابرييل مكانًا محيَّدًا عن الكلام، فصاحب الكاراج الكثّ اللحيَّة لم يكن مهتمًّا بسماع حكاية أحد. هوَسَه الوحيد كان السيَّارات التي يستطيع أن يحكي معها، وعنها، إلى ما لا نهاية.

رحل آدم من البيت كي ينسى، لكن من أين يأتي النسيان؟

هذا هو السؤال الذي أرَّق بطل هذه الحكاية. الحقيقة أنَّ صوت مأمون لا يزال يرنّ في أذنَي الفتى المراهق: «إحنا كلّ حياتنا خسارة بخسارة.» آدم جاء إلى هنا كي ينتهي من لعبة الخسارة التي صارت في بيت عبد الله الأشهل كابوسًا له اسم واحد، هو منالُ، التي لم تعد تشبه الأمَّهاتِ بعد زواجها وانتقالها مع ابنها الوحيد للإقامة ببيت زوجها الذي يُشبه بيوت اللاجئين في مخيَّمات لبنان (كان عبد الله يقول إنَّه عاد، لكنَّه بقي لاجئًا). أمّا منالُ، فاختبأت في ظلّها، كأنَّ انتقالها للإقامة بحيفا حوَّلها إلى امرأة أُخرى. صارت ظلًّا لامرأة كانت، ولم يعد آدم قادرًا على الإمساك بها. كيف يمكن الإمساك بظلٍّ يظهر ويختفي، يكبُر ويصغُر، يقترب حين يبتعد، ويبتعد حين يقترب؟ شعر

بأنَّها قالت له أن يَمْضي من دون أن تقول، كأنَّها كانت تحيا مع الجريمة التي كانت تنمو في أحشاء زوجها الذي صار يكرهها عندما اكتشف عجزها عن الإنجاب، وكانت تريد لابنها ألَّا يكون شاهدًا على الخسارة الكبرى التي سيُنهي بها عبد الله الأشهل حكايتَه.

لماذا حكى الأخرس؟ من أين يأتي الكلام حين تموت اللغة؟

في تلك الليلة، كان الكلام مائدة الرجال الثلاثة الذين اجتمعوا حول كؤوس الشاي بعد ذهاب الخواجة غابرييل إلى منزله.

ممدوح سأل آدم، وحين بدأ آدم يروي بلغة متلعثمة، ارتفع عواء أكرم، وهو يطلب من ممدوح أن يحكي.

«لماذا لا تحكي أنت؟» سأل آدم.

«اليهود قطعوا لسانه»، أجاب ممدوح.

«كيف؟»

«لا، لا»، صرخ الأخرس وهو يحرِّك رأسه يمينًا ويسارًا، ومدَّ لسانًا سليمًا كي يقول إنَّ لا أحدَ قطع لسانه، ثم أشار بيده إلى ممدوح كأنَّه يتَّهمه بإخراسه.

«هل عرف الخواجة أنَّ أكرم لم يعد يستطيع الكلام؟» سأل آدم.

ابتسم ممدوح وقال: «كلّنا خُرْس بالنسبة إلى الخواجة. أنت الوحيد هنا الذي يُسمَح له بالكلام، لأنَّ الخواجة يريدك أن تصير يهوديًّا مثلهم.»

قال ممدوح: «إجت النكبة، إيش صار والله منعرفش. يلّي صار صار، بس هدا الولد هو القتيل يلّي ما مات، انقتل وما مات. كان عمر أكرم سبع سنين لمَّا مات أوَّلَ مرَّة، ولمَّا صار عمره 23 سنة انقتل

مرَّة ثانية، وكمان هالمرَّة ما مات. بيكفِّي حكي يا أكرم، خلِّينا نسكت أحسن.»

لكن أكرم لا يريد السكوت، انهمرت الدموع من عينيه وهو يُصدر نشيجًا خافتًا.

روى ممدوح أنَّه بعد احتلال البعنة ودير الأسد في سنة 1948، جمعوا أهل القريتين في الساحة، ثم اختاروا أربعة رجال وساقوهم إلى الإعدام؛ اثنين من البعنة واثنين من دير الأسد. من البعنة اختاروا علي محمَّد عابد والد أكرم، وحنّا إلياس فرهود. ومن دير الأسد أحمد عبد الله عيسى الأسدي وصبحي محمَّد دبّاح، قتلوا الرجال الأربعة رميًا بالرصاص، وأمروا الآخرين بالذهاب إلى لبنان، ولعلع الرصاص فوق رؤوس الجميع.

كان أكرم في السابعة يقف مع الواقفين في ساحة القرية وهو يمسك بيد والده، وعندما اختير الرجل مشى أكرم معه. لكنَّ أمّه ركضت وهي تولول. سحبت ابنها من يد والده وعادت به.

ومع صياح الجنود ورصاصهم الذي أصمّ الآذان، انهزم الناس في جميع الاتِّجاهات، ثم لجأوا إلى حقل زيتون قريب حيث أقاموا نحو ثلاثة أسابيع قبل أن يعودوا إلى القريتين التوأمين. لكنَّ هنيَّةَ، والدةَ أكرم، صارت هي الحكاية. لا تذكر المرأة ماذا جرى. قالت، وهي تبحث كالمجنونة عن ابنها، إنَّ الولد زحط منها لا تعرف كيف، وإنَّها تريد أن تموت.

خلال يومين وليلتين، لم تهدأ المرأة. كانت تركض تحت أشجار الزيتون تسأل الجميع، ثم تبدأ في تفتيش ثيابها كأنَّ ابنها اختبأ منها

تحت جلدها. وفي اليوم الثالث عثرت عليه نجيبةُ، زوجة، حنّا إلياس فرهود الذي قُتل مع علي محمَّد العابد. كانت المرأة تبحث عن جثَّة زوجها التي وجدتها مع جثث الرجال الثلاثة مكوَّمةً تحت أحد الجِلال، ومغطَّاةً بقليل من التراب وبأوراق شجر الزيتون. وفي الجُلِّ نفسه عثرت على أكرم. كان الفتى مستلقيًا على ظهره، فاعتقدت المرأة أنَّه ميِّت، حاولت إيقاظه ففتح عينيه وقال بصوت خافت إنَّه عطشان. حملته بين ذراعيها وغسلت وجهه بدموعها التي تساقطت من عينيها من دون بكاء، وعندما وصلت إلى حقل الزيتون حيث التجأ السكَّان، ارتمت على الأرض وبدأت تنوح.

عاد أكرم من الموت. وككلّ المستيقظين من موتهم، كان الذهول يفترسه. وعندما حكى، قال إنَّه سمع صوت والده يقول له أن يترك يده.

لم يصدِّق أحد حكاية صوت الوالد، لكنَّهم صدَّقوا الفتى الذي قال إنَّ اليهود قتلوا الرجال الأربعة برصاص مسدَّس صُوِّب إلى رؤوسهم من الخلف، ثم لبطوا الجثث وتركوها تتدحرج في الجُلِّ المقابل، غير أنَّ مجنَّدة يهوديَّة صرخت بهم وحاولت دفن الجثث، لكنَّها اكتفت برمي بعض الرمال عليها وتغطيتها بأغصان الزيتون.

هذه كانت مِيتةَ أكرم الأولى.

لكنَّ الحكاية لم تنتهِ هنا، إذ بدأت هنيَّةُ ونجيبةُ، زوجتا القتيلين، ومعهما امرأتا دير الأسد اللتان قُتل زوج الأولى وابن الثانية، بالإلحاح في ضرورة دفن الجثث قبل أن تنهشها الضباع.

الحكاية كانت حكاية الدفن. الإسرائيليُّون كانوا لا يزالون

يجولون بين بيوت القرية، فكيف يستطيع الناس دفن موتاهم من دون التعرُّض لخطر الموت؟

اقترح المختار التريُّث قليلًا حتى تنجليَ الأمور، «المهمّ أنَّنا عرفنا أين جثث الشهداء»، قال، «ننتظر يومين أو ثلاثة.»

«يومان» صرخت نجيبة. «أنا رأيت بعينَيَّ اللتين سيأكلهما الدود جثَّةَ حنّا وهي منتفخة بالموت. رأيت يدًا واحدة تتدلَّى إلى جانبه ولم أرَ اليد الثانية، ربَّما أكلتها الوحوش. يا دِلِّي وَين الرجال؟ بتتركوا الجثث وبتهربوا؟ تْفُو عليكم وعلى حياتكم كلّها. لا، لا، مش رح نطر ولا دقيقة.»

تحلَّقت النساء حول نجيبة وهنيَّة. نجيبة عصبت رأسها بمنديل أسود لا يدري أحد أين عثرت عليه، وهنيَّة كانت تمسك بيد ابنها الصغير الذي كان يرتعش، وذهبن لدفن الضحايا.

مشت النساء فشعر الرجال بالخجل. كانوا متردِّدين في البداية، لكنَّهم حملوا معاولَ ورفوشًا ومشوا خلف النساء. وفي غمرة انشغال الجميع بحفر القبور، لم يتنبه أحد إلى أكرم الذي كان يرتعش وهو يتمسَّك بطرف ثوب أمّه. حتى هنيَّة نسيت ابنها وهي تنوح أمام جثَّة زوجها. وما إن انتهى وضع الجثث الأربع في القبور وأُهيل التراب عليها، حتى بدأ الرصاص الإسرائيليّ يلعلع من جديد، فانفرط عقد الناس وركضوا يمينًا وشمالًا، وضاع أكرم مرَّة ثانية.

قال ممدوح: «هالمرَّة أنا يلّي وجدته، حملته وسقيته وأطعمته خبزًا وزيتًا ونيَّمته على حرام إلى جانبي في الفلاة. ورحت لوالدته وقلت لها خلص بكي وندب يا مرا، لازم تهتمّي بابنك، لأنّ الحيّ أفضل من الميّت.»

«أكرم كان يحكي زينا»، قال آدم، «إيش صار حتى خرس؟»

«أنا مش أخرس»، نطق أكرم كلماته بصعوبة وبصوت خفيض.

«ما صار إشي»، قال ممدوح، «يلّي صار على أكرم صار معانا كلّنا، أنا بعرف الولد منيح، الولد من وقت ما مات أبوه بهالطريقة صار غير شكل وما فلح بالمدرسة، وكانت أمّه تصرخ عليه دايمًا لأنَّه كسلان. أنا تبنِّيت الصبي، أكرم زيّ أولادي، ويمكن هو أعزّ ابن عندي، ولمَّا بلَّشت الشغل بالكاراج صار يجي معاي، وصار ممتاز. رأي الخواجة إنُّو أكرم ميكانيكي جيِّد، وهدا رأيي كمان، بس إيش بعرّفني، من وقت الاعتصام بحقل الزيتون صار هيك، الله يساعدنا.»

كان احتلال حقل الزيتون هو ردَّة أهالي قرى منطقة الشاغور على مصادرة أراضي ثلاث قرى هي: دير الأسد والبعنة ونحف، من أجل بناء مدينة كرمئيل، في سياق العمل على تهويد الجليل.

قال ممدوح: «خيارنا كان الدفاع عن أرضنا ولَّا إيش نسوِّي؟ اجتمعنا بلجنة من الشيوعيِّين وقدَّمنا التماسًا إلى المحكمة العليا. قلنالهم يمكن أن تبنوا مدينتكم خارج أرضنا الزراعيَّة. يعني معقول تقطعوا أشجار الزيتون عشان تزرعوا بدالها إسمنت؟ لكن ما فيش تجاوب. وبعدين بعرفش كيف تطوَّرت الأمور، إجا مجموعة من اليهود لدعمنا وعلى رأسهم شخص اسمه أوري دايفيس. أوري سكن معانا في دير الأسد، فاعتقلوه، وتشربكت الأمور. في واحد عميل وسمسار كان عمّ بيقنع الناس يبيعوا أراضيهم لليهود اسمه علي انطعن بسكِّين، وما حدّش عرف مين الجاني. المهمّ يا سيدنا اعتصمنا بحقول الزيتون. كنَّا حوالى 30 شاب بيناتنا خمسة يهود، وكان يوم سبت، اعتصمنا في المنطقة رقم 9، وقلنا مش رح نترك الأرض. الشرطة

الإسرائيليَّة طوَّقت المكان وما عملوش إشي، ونطروا الليل، وبالليل دخلوا علينا، أضواء وكلاب وعصي وضرب، وهدَّدوا بإطلاق النار وتفرَّقنا، وبعرفش إيش صار، اكتشفنا تاني يوم الصبح وجود ثلاث شباب ضايعين، وما عرفنا شو لازم نعمل، بعدين مرق راعي معيز وقال إنَّو في ثلاث شباب مربوطين بشجر الزيتون، ركضنا وفكَّيناهم وكان أكرم واحد منهم.»

«هكذا انتهت القصَّة، ومات أكرم للمرَّة الثانية»، قال ممدوح.

لكن أكرم لم يمت. إنَّه هنا، يجلس مُطْرقًا وصامتًا. كان الكاراج غارقًا في العتمة. ممدوح ينفخ دخان سيجارته في الهواء، وأكرم مُطْرِق كأنَّه غارق في أفكاره، وآدم يشعر بأنَّه يكاد يختنق، وأنَّ عليه أن يهرب من هنا.

أراد آدم أن يقول، لكنَّه وجد نفسه عاجزًا عن الكلام. أحسَّ في البداية بالغضب. لماذا يتمسَّك هؤلاء الفلّاحون بأرض حُكم عليها بالإعدام؟ هل على الفلسطينيِّين أن يكونوا حرَّاسًا لشجر الزيتون؟ وما هو مصير الحارس عندما يعجز عن حماية شجرته من الاقتلاع؟ هل يستطيع الإنسان أن يصير شجرة؟

عندما وقف ممدوح إيذانًا بضرورة الذهاب إلى النوم، فكَّر آدم في أنَّ هذا الرجل يستطيع أن يكون والدَه، لكن خلص. لم يعد آدم مستعدًّا لاستقبال أيّ أب جديد. دُفن آباؤه الثلاثة في بئر النسيان، وعليه اليوم أن يهرب قبل أن تفترسه هذه القصَّة.

الكاتب التائه

لم يفهم آدم معنى عبارة اليهوديّ التائه إلَّا حين التقى الكاتب الإسرائيليّ مناحم زخاريا الذي سيُطلق عليه آدم لقبَ الكاتب التائه. كان آدم قد انتقل إلى الإقامة ببيته الجديد في وادي الصليب، ويُنهي سنته الأخيرة في «مدرسة الاستقلال»، لكنَّه أصرّ على متابعة العمل في الكاراج، كي لا يشعر بأنَّ المرتَّب الشهريّ الصغير الذي يتقاضاه من غابرييل كان صَدَقة أو ما يشبهها.

غابرييل طلب منه أن يتوقَّف عن العمل، لأنَّه سيكلِّف به أكرم بعدما استعاد قدرته على الكلام. لكن آدم لم يوافق.

«اعتبرْ ما أعطيك إيَّاه دَينًا ستردّه بعد تخرُّجك من الجامعة.»

«مستحيل. إذا أردتني أن أتوقَّف عن العمل فسأترك البيت ولن آخذ منك قرشًا واحدًا.»

«لكنَّ البيت ليس لك. أنت تُقيم به بشكل غير شرعيّ. كلّ ما في

الأمر أنّني رشوت ضابط الشرطة المغربيّ كي يغضّ الطرف عنك.»

«لن أقبل»، قال آدم.

وظلّ آدم يأتي فجرًا يُعِدّ الشاي للعمّال العرب، ثم يعود إلى الكاراج في الرابعة بعد الظهر كي ينظّفه ويقفلَ الباب. وفي كثير من الأحيان كان يجد غابرييل ممدَّدًا تحت سيّارة، فيساعده على إصلاحها.

دوافع آدم إلى البقاء في الكاراج لم تكن أخلاقيّة فقط، بل كان يقع خلفها شعور غامض بأنّ هذا المكان يشكّل فرصته الوحيدة في لقاء رفقة. هذا ما أوحته إليه الفتاة، وهذا ما توقّعه. وحين حدث، لم يشعر آدم بالندم.

وفي الكاراج التقى كاتبًا يهوديًا غريب الأطوار يُدعى مناحم زخاريا.

شعر آدم بالتعاطف مع هذا الرجل، ولم يفهم لماذا عامله ممدوح بهذه الطريقة القاسية.

الحكاية بدأت حين جاء رجل نصفُ أصلع، أسمرُ البشرة ممتلئُ الجسم في نحو الأربعين من العمر، من أجل إصلاح سيّارة موريس صغيرة حمراء، بالكاد تتّسع لجثّته الضخمة.

جاء مناحم زخاريا إلى الكاراج في الرابعة مساءً، وكان العمّال يستعدّون للمغادرة بعدما سبقهم إلى ذلك الخواجة غابرييل وإفرايم. حاول الرجل أن يتكلّم مع ممدوح، لكن ممدوح صدّه وطلب منه أن يأخذ سيّارته ويأتي غدًا.

«سأترك سيّارتي وأعود غدًا.»

«لا»، قال ممدوح، «اليوم خلصنا شغل، لن أستلم السيَّارة الآن. خُذْها.»

«صعد الرجل حانقًا إلى سيَّارته، لكن محرّكها رفض أن يعمل. وبدأ الرجل يتصبَّب عرقًا أمام محرّك سيَّارته الذي لا يستجيب لمحاولاته المتكرِّرة، بينما وقف ممدوح مكتوفَ اليدين يتفرَّج عليه.

«خلِّصنا بدنا نروَّح.»

«لكنَّها لا تدور.»

«اترك كتلة التنك هنا وتعالَ غدًا واجلب معك ونشًا واسحبها، لأنَّنا لا نريد إصلاحها.»

نزل الرجل من سيَّارته وهو يتصبَّب عرقًا وحنقًا، «مَن أنت حتى تتكلَّم معي هكذا، هل أنت صاحب الكاراج؟»

«لا، أنا أشتغل هنا.»

«وأين صاحب الكاراج؟»

«في بيته، ذهب ولن يعود اليوم. الحقْه إلى بيته إذا شئت.»

«أنت عربيّ، أليس كذلك؟»

«لماذا تنظر إليَّ بهذه الطريقة كأنَّك تشعر بالقرف؟ نحن كلّنا عرب هنا.»

«هذا واضح من تصرُّفاتكم. العرب هكذا دائمًا.»

«ماذا تظنّ نفسك؟ أنتم المغاربة عرب أيضًا، بل أسوأ من العرب.»

«أنا لست مغربيًّا»، قال الرجل.

«إذًا، يمنيّ.»

«لا.»

«غير مهمّ، تعال غدًا لتأخذ سيّارتك.»

مشى ممدوح ولحقه بقيّة العمّال وبقي الرجل واقفًا كالمشدوه.

تقدَّم منه آدم وعرض عليه فنجان قهوة، «لا شكرًا»، قال الرجل، «هؤلاء العرفيم وسخ.»

أعدَّ آدم فنجانَي قهوة وحل ودعا الرجل إلى غرفة إفرايم المزجَّجة. أشعل الخواجة مناحم سيجارة وسأل آدم هل عليه أن يأتي غدًا بونش ويسحبها كما طلب منه الرجل؟

«لا، ممدوح قلبه طيّب، غدًا سأُخبر صاحب الكاراج عن الموضوع وسيعتني بك.»

«أنت تعمل هنا؟»

«لا، أنا تلميذ في المدرسة وغابرييل قريبي أساعده فقط من أجل مصروف الجيب.»

«أنت يهوديّ جميل»، قال مناحم.

«وهؤلاء العرب طيّبون. أنت أتيت في آخر النهار وكانوا متعَبين. غدًا ستنحلّ الأمور.»

«كلّ العمّال هنا عرب؟»

«نعم.»

«ويعيشون في حيفا؟»

«لا، هم من الجليل لكنَّهم يأتون كلّ يوم.»

«أخبرني ماذا تعرف عنهم.»

«والله لا أعرف الكثير، لكن ما أعرفه هو أنَّهم يحبُّون صاحب الكاراج، وهو يعاملهم بشكل جيِّد.»

«هل تعتقد أنَّني أستطيع أن أسألهم أشياء عن حياتهم؟»

«طبعًا تستطيع.»

«متى تأتي غدًا إلى الكاراج؟»

«أجيء في الرابعة، عند نهاية دوام العمل، أنظِّف المكان وأُقفل بابه.»

«ألا تستطيع أن تأتي غدًا في الصباح؟»

«مستحيل، أكون في المدرسة.»

«طيِّب قبل الرابعة، لنقل في الثالثة والنصف بعد الظهر.»

«ممكن، لكن أنت لا تحتاج إليَّ. لا تَخَفْ، لن يجبروك على أخذ سيّارتك من دون تصليح. تعالَ في التاسعة صباحًا وتكلَّم مع غابرييل، إنَّه رجل لطيف.»

«أريد أن تساعدني في مسألة أُخرى. فأنا أكتب رواية وأبحث عن عربيّ كي يخبرني شيئًا عن حياته في إسرائيل. أعتقد أنَّ ممدوح ملائم، وأنت تستطيع إقناعه بذلك.»

«لماذا تريد أن تكتب عن العرب؟»

«لنَقُلْ إنَّه فضول، ومن أجل إضافة نكهة إلى روايتي. أرجوك تعالَ غدًا. أريد مساعدتك.»

«أنا!»

«أرجوك.»

«سأحاول، لكنِّي لا أعدك بشيء.»

في الصباح، وبينما كان الجميع يشربون الشاي ويفطرون، أخبر آدم ممدوح بالطلب الغريب الذي سمعه من الرجل.

ضحك الجميع، وقال عبَّاس الأعرج: «عظيم، ربَّما يريد الرجل أن يصنع فيلمًا، وتصير يا معلِّم ممدوح نجمًا سينمائيًّا.»

قطَّب ممدوح وجهه وطلب من الجميع عدم التكلُّم مع الرجل لأنَّه قد يكون مخبرًا يعمل مع السلطة، «بدناش ياه، وبدناش وجع راس، يلعن أبوهم لاحقينا على الكاراج كمان.»

عندما جاء آدم كالعادة في الرابعة مساءً، كان الجوّ في الكاراج مشحونًا. الرجل الإسرائيليّ يقف وحيدًا أمام باب سيَّارته، والعمَّال العرب يضبُّون أغراضهم ولا يلتفتون إليه.

«لماذا تأخَّرتَ؟» صرخ الرجل الإسرائيليّ.

«ماذا جرى؟» سأل آدم.

«أولاد الزنا»، قال الرجل بصوت منخفض، «قالوا إنَّني جاسوس ولا يريدون التكلُّم معي. قال هذا الأعرج، الذي يقف بالباب، إنَّني مخبر قذر. هل هذا معقول؟ قريبك غابرييل طلب منِّي في الصباح أن أعود قبل الرابعة كي آخذ سيَّارتي وأحاسب إفرايم. إفرايم ليس هنا. حاولت أن أتكلَّم معهم. الحقّ عليّ، أخبرتهم بحقيقة مقصدي، وأنَّني أريد من هذا الذي يُدعى ممدوح أن يُخبرني كيف يعيش العرب في بلادنا، لكنه نظر إليَّ بحقد وقال هل أنت متأكِّد من أنَّها بلادكم؟ طلبك ليس متوفِّرًا هنا، ولا نريد أن نحكي. وعندما طلبت منه مفتاح

سيَّارتي كي أمضيَ رفض إعطائي إيّاه، وقال إنَّ عليّ أن أدفع أوَّلًا. وعندما أخرجت محفظة نقودي قال إنَّ لا علاقة له بالأمر، وإنَّ عليّ أن أحاسب إفرايم. «لكن إفرايم ليس هنا»، قلت، «إذًا، عُدْ غدًا» أجابني. «لكنَّني محتاج إلى سيَّارتي اليوم، يجب أن أصعد إلى معالوت»، «هذه مشكلتك»، قال، «اصعدْ بالباص كما نفعل نحن، والآن شالوم.»

حاول آدم أن يتدخَّل، لكن ممدوح زجره بعنف، «إنت معانا ولَّا صرت يهوديّ زيّهم؟»

مشى العمَّال وتركوا الرجل مرتبكًا بحيرته. ذهب آدم إلى غرفة إفرايم كي يعطي الرجل مفتاح سيَّارته، لكنَّه لم يجد المفتاح في العلَّاقة مع مفاتيح السيَّارات المركونة في الكاراج. يبدو أنَّ ممدوح تحسّب للمسألة وأخذ المفتاح معه.

«آسف، يا صديقي»، قال آدم، «المفتاح ليس هنا.»

«أعطني رقم تلفون غابرييل، سأتَّصل به وأطلب منه أن يجبر هذا العربيّ الوقح على أن يعود ويُعطيني المفتاح. وسأطلب منه أيضًا أن يطرد جميع هؤلاء العرب من العمل.»

نصحه آدم بعدم الاتِّصال بغابرييل، فصاحب الكاراج لا يستطيع إعادة ممدوح، «لأنَّك، كما تعلم، هؤلاء القرويُّون العرب يجب أن يكونوا في قريتهم قبل السادسة مساءً. الإذن الذي منحهم إيَّاه الحاكم العسكريّ لا يسمح لهم بمغادرة قريتهم ليلًا.»

«معقول! من المفترض أنَّنا نعيش في دولة ديموقراطيَّة»، قال الكاتب الإسرائيلي.

«هذه هي الديموقراطيَّة الحقيقيَّة» أجاب آدم، «هل تريد أن تسمح لأحقاد هؤلاء الفلَّاحين، الذين صادرت السلطات أراضيهم من أجل تنمية البلاد، بأن تنفجر في وجوه اليهود؟»

«معك حقّ»، قال مناحم.

«الآن عثرت على بطلك يا صديقي، انطلق من الحقد الذي رأيته على وجوه العرب، واكتب عن بطلك العربيّ.»

«لا، لا، أريد بطلًا مختلفًا، أريده لطيفًا ولا يحكي بهذه الصلافة.»

«هل تريد بطلًا أخرس؟ كلّهم يحكون هكذا، هذا إذا حكوا.»

«أخرس؟» سأل مناحم.

«نعم، أنا أعرفهم أكثر منك. الكثير منهم صاروا بُكمًا، أو يدَّعون ذلك.»

«بطل أخرس! لمَ لا؟ قد تكون فكرتك رائعة. أنت ذكيّ يا ولد، ماذا ستدرس في الجامعة؟»

«الأدب العبريّ»، أجاب آدم.

«سألتقيك في جامعة حيفا وسأهتمّ بك. أنا أستاذ الأدب فيها.»

«تشرَّفنا. أرجوك، لا تشكُ العمَّال إلى غابرييل. هؤلاء فقراء ولا يريدون سوى لقمة العيش.»

«لن أعمل بنصيحتك، سأشكوهم، لأنَّهم يجب أن يعاقَبوا.»

عندما جاء آدم في الرابعة من بعد ظهر اليوم التالي، كان العمَّال العرب قد غادروا على غير عادتهم باكرًا، ووجد غابرييل في انتظاره.

خاف آدم من أن يكون مناحم قد نجح في إحداث شرخ بين غابرييل وممدوح، واستعدَّ للدفاع عن الشباب.

«أينَهم»؟ سأل آدم.

«صرفتهم باكرًا مكافأةً لهم على طريقة تعاملهم مع هذا الكاتب المعتوه»، قال غابرييل، وانفجر ضاحكًا وهو يسخر من هذا الأستاذ الأبله الذي جاء إلى الكاراج بحثًا عن أبطال لروايته، «كان يرتجف غضبًا وطلب منِّي طردهم. قلت له إنَّني لن أطرد أحدًا، وإنَّ عليه أن يكتب روايات من خياله. ما هذا الأدب السخيف؟ يريد من عمَّال نصف أميِّين أن يكتبوا له. أين الخيال؟ لكنَّه أخبرني بأنَّه معجب بقريبي الذي أعطاه فكرة أدبيَّة عظيمة. وعندما سألته مَن يكون قريبي هذا، قال إنَّه يعتقد أنَّ اسمه آدم، فتذكَّرت أنَّك أخي الصغير. صبابة! أنت المؤلِّف الحقيقي وليس هو. المهمّ أنَّني عوَّضت على شعوره بالإهانة بأن رفضت أخذ أجرة تصليح السيَّارة منه، فدعاني إلى العشاء في منزله في معالوت، وطلب منِّي أن أجلب قريبي معي. ما رأيك؟ نذهب نحن الثلاثة، أنا وأنت ورفقة، ونسكر في الجليل؟»

«لن أذهب»، قال آدم.

«أعرف لماذا، لأنَّك لا تريده أن يكتشف أنَّك عربيّ بعدما ضحكت عليه، سأقول لرفقة أن تدّعي أنَّك قريبي، ما رأيك؟ أفكِّر في دعوة سارة، زميلة رفقة في المدرسة. سارة منمنمة وصغيرة ولطيفة.»

«بالمناسبة، لماذا لا تكون أنت العربيّ الذي يبحث عنه الكاتب؟» قال غابرييل.

«أنا؟»

«صحيح أنّني لا أفهم في الأدب، لكنّني أعتقد أنّ الطاقة التي فيك تسمح لك بأن تكون بطلًا نموذجيًا لقصّة يكتبها يهوديّ.»

«لكنّني لست قصّة.»

«كلّنا قصص. ألستُ أنا قصّة؟ أليس موتُ أخي قصّةً؟ أليست أمّي قصّةً؟ كلّها قصص.»

«أخبره بقصّتك أنت، إذًا.»

«لكنّه لا يريد قصّة يهوديّة، إنّه يبحث عن عربيّ.»

«لن أعطي قصّتي لأحد.»

«لن أخبره عنك، ستبقى قريبي كما تريد، لكن تعالَ معي.»

«لن أذهب.»

«قلت ستذهب. يعني ستذهب.»

«لن أذهب. خالي شقيق أمّي يعيش في ترشيحا.»

«لم أقل إنّنا سنذهب إلى ترشيحا، قلت معالوت.»

«لكنّ معالوت هي ترشيحا»، أجاب آدم.

لا يدري آدم هل ذهب غابرييل وابنته إلى العشاء في معالوت أم لا، لكنّه لاحظ أنّ هناك علاقة ما بدأت تتشكّل بين الميكانيكيّ والكاتب، كأنّ مناحم استعاض عن العربيّ بالميكانيكيّ اليهوديّ، كي يروي له حكايات عن العرب.

مناحم هو الكاتب التائه الذي حلّ محلّ اليهوديّ التائه. هذه هي الصورة الأدبيّة الباهتة التي رسمتها شخصيّة مناحم وهي تستعير بقايا الأدب الوجوديّ الفرنسيّ، كي تجد عبره صلة وصل بالغالوت اليهوديّ

الذي هو حالة وجوديَّة لا يمكن لأيٍّ استعارة أدبيَّة أن تملأ غيابها.

وفي نيويورك، سيشعر آدم، حين سيحاول كتابة قصَّة حياته، بأنَّ تائه اليوم صار الفلسطينيّ، وأنَّ على هذا التائه الجديد أن يُدرج قصَّة الذين احتلُّوا أرضه وشرَّدوه في قصَّته هو.

«قصَّتهم لا تتَّسع لنا. أمّا قصَّتنا، فتتَّسع لنا ولهم وللجميع»، هكذا فكَّر آدم في أن يكتب حين تأتيه الكتابة.

عشّاق حيفا

- 1 -

كان آدم في السادسة عشرة، عندما بدأت علاقته برفقة التي لم تستمرّ سوى ثلاثة أشهر، لكن تلك العلاقة العاصفة التي هزّت كيانه أدخلته في متاهة من الأسئلة. وبعد غضب غابرييل وردّة فعله اللذين قادا إلى الانقطاع القسريّ لهذه العلاقة، قرّر آدم أنّه لن يخون ذاكرة حبّه الأوّل، وسيبقى مخلصًا للآهة التي أطلقتها الفتاة المنمنمة القوام على المقعد الحجريّ في ستيلّا مارس في ليلة العشق الأولى.

لا يستطيع آدم أن يصف كيف بدأ حبّه لرفقة، فالحبّ نَما في قلبه بشكل سرّي، ولم يكتشف أنّه يُعاني كما يُعاني العشّاق إلّا بعد أن امتلكته هذه الفتاةُ بقوامها الرفيع وثدييها الصغيرين وركبتيها البارزتين وخفر عينيها وجرأة تصرّفاتها.

التقاها مرّات لا تُحصى في الكاراج. كانت تمرّ بسبب وبلا سبب، وتقول إنّها تأتي كي تتزحلق على الأرض المغطّاة بالماء

والصابون، وتتفرَّجَ على التلميذ المجتهد الذي يشطف أرض الكاراج ويعمل خادمًا في مكان يملكه رجل يفخر بأنَّه يكره المدرسة ويحتقر المتعلّمين والمثقَّفين.

وصار آدم ينتظرها. ينهي عمله. يُعدّ فنجان شاي ويدَّعي أنَّه يريد أن يرتاح قليلًا قبل أن يعود إلى البيت ويدخل في عوالم اللغة العبريَّة. اكتشف أنَّ الانتظار هو بداية الحبّ، وأنَّه حين يجلس وحيدًا في الكاراج مع كوب الشاي، يجتاحه تنمُّل خفيف ينتشر في أنحائه. لم يكن هناك أيّ إشارة تنمّ عن رغبة جنسيَّة، فالجنس الذي كانت تعبق رائحته في تلافيف روحه وجسده لم يكن له مكانٌ هنا. فآدم وضع علاقتَيه المتداخلتين بشهلا التي يعيش مع صورتها المعلَّقة على جدار غرفته في منزله، وبطيف رفقة الذي صار عمله في الكاراج شكلًا لانتظاره لها، خارجَ المشاعر الجنسيَّة التي كانت ملك يده التي يستحلم بها على إيقاع فظاظات رفاقه في المدرسة التي صارت أحاديثه معهم فيها تدور حول صور العاريات التي كانوا يخبّئونها بين كتبهم.

كان آدم يكتفي بالتفرُّج على الصور في كتب زملائه، لكنَّه يخجل من وضع أيّ صورة منها في كتبه هو، كي لا يجرح مشاعر شهلا بانحناءتها الأبديَّة على ابنها. وعندما ظهرت الفتاة المنمنمة صار خجله مضاعَفًا.

ما يعرفه أنَّه مع رفقة كان يُصاب بتنشُّف في ريقه، وترتسم على شفتيه ابتسامة صغيرة لا تتَّسع لفيض مشاعره. كان يجمد في مكانه ولا يعرف ماذا عليه أن يقول. أمّا هي فكانت لا تتوقَّف عن المزاح وإطلاق النكات والضحك على أساتذتها ومعلّماتها والسخرية من المدرسة، وتقليدِ حركات أمّها التي قالت إنَّها تشبه الحائط.

«لا أعرف كيف يستطيع أبي أن ينام معها. هل يستطيع الرجل أن ينام مع حائط؟»

«أنا أسألك، فلماذا لا تجاوب؟»

قال إنَّه لا يعرف شيئًا عن النساء.

«هل أنت عذراء؟» سألت، «زميلي في المدرسة روى لي عن معاشرته إحدى المومسات. يبدو أنَّ جميع الشبَّان يبدأون حياتهم مع مومسات.»

«ما اسم زميلك؟»

«أنا أسألك!»

«قلت إنَّني لا أعرف. أنا الآن أقرأ لشاعر فرنسي يُدعى لوي أراغون، كتب ديوانًا رائعًا عن الحبِّ اسمه «مجنون إلسا.»

«أنت دائمًا هكذا، لا تحكي إلَّا عن الكتب، وهذا يدعو إلى السأم، لكنَّ السأم معك ممتع. لا أعرف كيف أشرح لك.»

«أنا لا أسأم معك»، قال، «أستطيع أن أُقضي معك ألف ساعة من دون أن أسأم. ألا تحبِّين الشعر؟»

«هل أنت شاعر؟ أنا أحبّ الشعراء.»

«لا، لكنِّني أحبّ الشعر.»

«هل تحبّ بياليك؟»

«أحبّ شاعرًا إنكليزيًّا اسمه اللورد بايرون، وأعشق قصيدته عن البحر. هل تعرفين شعره؟»

«لم أقل إنَّني أحبّ الشعر. قلت إنَّني أحبّ الشعراء، وكنت أعتقد أنَّك شاعر.»

«أنا شاعر، لكنَّني لا أخبر أحدًا، فالشعر بالنسبة إليّ عمل سرّي.»

«وهل أنا غريبة؟ يلّا أَسمِعْني إحدى قصائدك.»

«أنا لا أحفظ شعري، لكنَّني سأكتب لك قصيدة.»

«قصيدة عنّي!»

دارت رفقة حول نفسها كأنَّها تستعرض جمالها أمام عينَي الفتى اللتين كانتا تشربان الضوء الذي يتطاير من بين ركبتَي الفتاة البارزتين تحت تنُّورتها القصيرة الحمراء، فشعر آدم بالعطش.

«لم تجاوبي. ما اسم صديقك تَبَع المومس؟»

ضحكت وقالت إنَّها لن تقول له.

شعر آدم بالخجل ولم يقل شيئًا.

«أنت لم تجاوب عن سؤالي عن المرأة ـ الحائط.»

«وكيف عرفتِ أنَّها لوح ثلج في الفراش؟»

روت رفقة أنَّها رأتهما. قالت إنَّها سمعت صوتًا غريبًا كأنَّه ارتطام شيء سقط بعنف على الأرض، «كان منتصف الليل، وكنت أشعر بالأرق. خرجت من غرفتي في اتِّجاه الصوت الذي قادني إلى غرفة أبي وأمّي، والتي كان بابها مقفَلًا على غير العادة. مشيت على رؤوس أصابعي. وضعت أذني على الباب، وكان المشهد مريعًا. رجل مشتعل يرتطم بحائط ثلجيّ يتململ تحته بصمت.»

«لكنَّك لم تري شيئًا.»

«رأيت بأذني. كنت أعتقد أنَّك شاعر يعرف كيف يرى بحواسِّه كلِّها.»

انفجرت ضحكة رفقة وهي تروي أنَّها أحسَّت بوالدها يترك الفراش، فهرعت إلى غرفتها وتركت بابها مفتوحًا. «دخل والدي يتفقَّد نومي، فتناوَمتُ. خرج من غرفتي وذهب إلى المطبخ وسمعته يُعِدّ قهوته التركيَّة. تعلَّم أبي أن يشرب القهوة التركيَّة من عمَّال الكاراج العرب، وكانت أمِّي تكره رائحة الهال التي يعبق بها البيت، فتفتح النافذة وهي تتأفَّف. نهضت من سريري ومشيت إلى المطبخ. سألني هل لا أزال مستيقظة، أجبته بأنَّ دخوله غرفتي أيقظني، «أنتِ نومك خفيف مثلي، ولستِ مثل أمّك التي لا يستطيع أيّ شيء إيقاظها من شخيرها المتواصل». شرب أبي كأس كونياك مع قهوته، وكان منظره مثيرًا للشفقة. لحيته شعثاء، وشعره منكوش، ويداه ترتجفان، كأنَّ أحدًا ضربه. هذا ليس ممارسة للحبّ. أنا متأكّدة من أنَّه توقَّف في منتصف العمليَّة. أشفقتُ عليه. قلت له إنَّني سأتركه لأذهب إلى النوم. اقتربت منه وانحنيت كي أقبِّله، فدفعني بعيدًا. في العادة هو مَن يستجدي قبلاتي، لكنَّه في تلك الليلة كان مختلفًا. الحقيقة أنَّني أشفقت عليه. مسكين غابرييل، كان يستحقّ امرأة أُخرى.»

«لماذا تتكلَّمين عن أمّك هكذا؟»

«وأنتَ، هل رأيت أمَّك في الفراش مع أبيك؟»

«أنا!»

«هل يستطيع الرجل أن يتوقَّف في منتصف العمليَّة. قال صديقي

تبع المومس إنَّ هذا مستحيل، فالتوقُّف يصيب الرجل بوجع رهيب في الخُصيتين.»

«أنا أكره صديقك الذي لا أعرف اسمه.»

«أنت تغار منه. لا لزوم لغيرتك، إنَّه مجرَّد صديق. ما رأيك في أن نذهب إلى المقهى ونشرب كأسًا؟».

«الآن؟»

«نعم الآن، عليَّ أن أعود إلى البيت قبل السادسة، قلت لأبي إنَّني سأحضر اليوم درسًا خاصًا عن المحرقة سيُلقيه علينا أحد الناجين، وسأعود في السادسة. وهربت من المدرسة وجئت إليك.»

وبدأ ذلك الشيء الغامض يعرِّش في قلبه. لم يجد آدم كلمة أكثر ملاءمةً من العريشة، كي يصف كيف تسلَّقَه الانتظارُ واستولى عليه العطش. نبات وحشيّ لا يتوقَّف عن النموّ في الأحشاء، ويصل إلى العنق، يصاحبه دُوار وشعور بالاختناق.

الَّلبلاب الأخضر ينمو في أحشائه، وهو يجلس في الكاراج منتظرًا. لم يجرؤ أن يتلفن إليها أو يطلب موعدًا، فهو لم يكن متأكِّدًا من شيء سوى أنَّ الَّلبلاب ينمو، وأنَّه يحتاج إلى ماء العالم كلِّه كي يروي عطش هذا النبات الذي استوطنه.

كان يداوي العطش بالعطش. تأتي فيتردَّدُ ولا يقول. تجلس؛ تلهو؛ تروي؛ تلعب؛ تطير الكلمات منه، وبدلًا من أن يحدِّثها عن الحبِّ، يروي لها عن قراءاته، فيرى في عينيها الإعجاب الذي سرعان ما يتلاشى في السأم، ويعلو صخبَها ومزاحَها.

لم يعرف آدم أنَّه الحبُّ إلَّا حين سمع الكلمة تخرج من شفتيه ثم

تكرج على شفتيها وهي تمسك بيده في مقهًى صغير حيث جلسا يحتسيان البيرة.

قالت إنَّها تحبّ أن تشرب معه الخمر حتى تسكر. وقالت إنَّ السُّكْر سيحرِّر لسانها كي تقول ما تريد قوله. وقالت إنَّها تجد نفسها في عزلة حين تتحدَّث صديقاتها عن تجاربهنَّ الغراميَّة.

«هل أحببتَ من قبل؟» سألته.

قال آدم إنَّه أحبَّ صورة امرأة، فقهقهت رفقة وقالت إنَّها ترى الشبّان وهم يخبِّئون صورًا لنساء عاريات وممثِّلات أميركيَّات في كتبهم المدرسيَّة.

«هل أحببتَ صورة عارية، أم صورةَ إحدى الممثِّلات؟»

أراد آدم أن يجيبها بأنَّها أساءت فهمه، وأنَّه لا يتكلَّم على هذا النوع من الصُّوَر، لكنَّه شعر بالخجل.

قال إنَّه يرى الأمور بشكل مختلف.

«كيف يعني؟» سألت.

اكتفى آدم بأن هزَّ رأسه، وأخبرها عن «مجنون إلسا» لأراغون. قال إنَّ الشاعر الفرنسيّ استوحى حكاية شاعر عربيّ قديم أطلقوا عليه، أو أطلق على نفسه اسمَ «مجنون ليلى». وقال إنَّ قصَّة المجنون هي أوَّل قصّة حبّ في التاريخ البشريّ.

«أنتم العرب»، قالت.

«شو؟» سألها.

«لا شيء، أنا أحبّ العرب. طعامهم طيِّب جدًّا. لكنْ، هل تزوَّجها؟»

«مَن؟»

«صاحبك المجنون.»

«لا، أُصيب بالجنون لأنَّ أهلها زوّجوها بشخص آخر.»

«كنت متأكِّدة من أنَّ صاحبك الشاعر حمار. كان عليه أن يتزوَّجها بدلًا من أن يُجَنّ. وأنت، هل ستتزوَّج الفتاة التي ستحبّها؟»

«أتمنّى ذلك كي لا أصير مجنونًا، مثل هذا الشاعر.»

ضحكت.

«لكنَّك شاعر.»

«أنا؟»

«أنت قلت لي، ووعدتني بأن تكتب عنِّي قصيدة. أَسمعني قصيدتك.»

قال إنَّه لم يجلب القصيدة معه إلى الكاراج، لأنَّه لم يكن يعرف أنَّها ستأتي.

«أنت كذَّاب»، قالت، «ومع ذلك، أتمتَّع بالبقاء معك. ربَّما أتمتَّع لأنَّك كذَّاب.»

«كلّ الشعراء يكذبون»، قال.

«أنت كذّاب من دون أن تكون شاعرًا.»

- 2 -

حاول آدم أن يكتب لرفقة قصيدة حبٍّ، لكنَّ اللغة لم تُطِعه، فوجد نفسه يكتب خربشات تدور حول لحظتَي الانتظار والعطش.

مزَّق الورقة التي أمامه، وقرَّر أن يعترف لها عندما يلتقيان بأنَّه ليس شاعرًا، وكلّ ما في الأمر أنَّه ينتظرها كلّ يوم. وعندما يلتقيها يشعر بالعطش، لكنَّه خاف من أن تسخر منه.

في الماضي الذي صار يراه اليومَ بعيدًا، كان يشعر بالعطش حين كان يستمع إلى شفتَي أمّه المتشقّقتين، وهي تروي له عن براميل الماء التي تتدحرج وتُدحرج معها دموعَ الله. هكذا كان الحاجّ إيليا بطشون، الملقَّب بالحاجّ صبابة، يُسمّي الماء الذي يجلبه الشباب مرَّتين في اليوم إلى غيتو اللدّ الذي أقفله الجيش الإسرائيليّ بالأسلاك الشائكة.

سأل أمّه مرَّة: هل يبكي الله؟

كان يمشي في منحدرات الكرمل، يدُه في يد رفقة والمطرُ

يغسلهما، ويروي لها أنَّ علامة الحبّ الأولى هي الانتظار بلا موعد للقاء، والعطش بلا أمل في الارتواء.

«أنت تحكي مثل الشعراء»، قالت.

«لكنَّني لست شاعرًا.»

يومَها، لم يكن آدم يملك الكلام. كان يشعر بأنَّ الكلام يملكه. يتخيَّل الأشياء على صورة أحرف متفرِّقة تتجمَّع وتفترق. وعندما صار في الخمسين قال لدالية إنَّه لم يجرؤ يومًا على كتابة الشعر، لأنَّ الشعر يلخِّص العالم ويأسُره في الكلمات والصور.

كانت رفقة بدايةَ ما سيُطلق عليه آدم، بعد الفراق الذي فُرض عليهما، اسمَ الحبّ. مشاعرُ غامضة تطفو على القلب، وانتظارٌ ممزوج بالعطش.

حين سأل رفقةَ عن عطشها، قالت إنَّها لا تحبّ شرب الماء ولا تعطش أبدًا، وحين تشعر بالحاجة إلى الماء تُغمض عينيها وتشرب بسرعة. قال لها إنَّ هذا يعني أنَّك لا تشتاقين إليَّ، ففرقعت قهقهتها، «وما علاقة الشوق بالعطش؟» سألته. حاول أن يروي لها قصيدة الحلَّاج، الشاعرِ المتصوِّف الذي كتب الحبَّ عطشًا، كأنَّ هذا الشاعر العبَّاسيّ كتب قصيدته عن آدم. لكن، كيف يترجم لها «لم يزدني الوِرْدُ إلَّا عطشًا»؟

لم يترجم لرفقة شيئًا، فقد خلع اللغةَ العربيَّة وصارت اللغةُ العبريَّة ثوبَه الجديد الذي سيلبَسه إلى الأبد. فتَّش في ذاكرته عن معادل إنكليزيّ أو عبريّ لهذا البيت الشعري، فلم يجد.

لكنْ، كيف يخلع المرء لغتَه؟ سيجد آدم نفسه بعد خمسة عشر

عامًا، عندما يبدأ في الكتابة لصحيفة «هعير»، بالعبريَّة، عن الموسيقى العربيَّة وأمّ كلثوم، أنَّه يكتب العبريَّة بالعربيَّة، وأنَّ لغته الأمّ تتسلَّل إلى لغته الجديدة وتُعيد صوغها، وكان هذا سبب إعجاب القرَّاء بأسلوبه، لكنَّه كان سرَّه الذي لم يَبُح به إلَّا لدالية.

مع رفقة اكتشف البحر، وتعلَّم كيف يهبط من الكرمل إلى المدينة. بدت له هذه المدينة أشبهَ بتلَّة تنزلق إلى البحر. لم يأخذها إلى حديقة بنيامين خوفًا من شبح الموت الذي بقي معلَّقًا على أشجارها، لكنَّهما ذهبا إلى حديقة الكرمل الشاسعة. نزلا من عسفيا إلى الغابة، ومشيا في حديقة عبّاس أفندي، وحدَّثها عن بهاء الله. قال إنَّه تعرَّف إلى حفيدة عبَّاس أفندي، وكانت زميلته في المدرسة وتُدعى لولوة، وإنَّ هذه الفتاة البيضاءَ، الإيرانيَّةَ الملامح بوجهها المدوَّر وعينيها الكبيرتين اللوزيَّتين وشفتيها المكتنزتين الملوَّنتين، أخبرته بأنَّ جدَّها كان يملك هذه الحديقة كلَّها، لكن بعد موته استولى عليها ابن شقيقته الذي كان يُدعى شوقي أفندي، وأنَّ أوَّل ما قام به هذا الأفندي الجديد هو طرد ابنتَي عبّاس أفندي وأولادهما من الطائفة، تحت تأثير زوجته الكنديَّة، وأنَّ أمَّها تفكِّر في الهجرة إلى لبنان.

لم تكترث رفقة لحكايات بهاء الله، النبيِّ الذي أسَّس دينًا جديدًا في إيران، ولا لحكايات أتباعه المضطهَدين في كلِّ مكان. قال لها إنَّه لا يفهم لماذا يبذل الأغنياء أموالهم من أجل أن يُقيموا معابد وحدائق وقبابًا مذهَّبة. أليس من الأفضل أن يعطوها للفقراء؟

«هل تعرف قصَّة ضومط؟»

«ومَن هو ضومط؟»

«عربيٌّ وكذّاب وذكيٌّ مثلك، سمعت أبي يقول إنَّ قصّة ضومط صارت على كلِّ شَفَة ولسان، وصار الرجل مَضْرَب مثل، فيقولون: «أشطر من ضومط ع العجم.»

«تقول الحكاية إنَّ ضومط، وهو لبنانيٌّ مُقيم بحيفا، كان يملك قطعة صغيرة من الأرض في الكرمل. وحين قام البهائيُّون بتوسيع حديقتهم اشتروا جميع الأراضي المجاورة، ولم يبقَ سوى أرض صغيرة بُني عليها بيتٌ متواضع، يملكها رجل لبنانيّ يُدعى ضومط ضومط.

«كان ضومط في الستِّين من عمره، عازبًا ووحيدًا وسكِّيرًا وعاطلًا عن العمل، يبدِّد ثروة عائلته كما يحلو له، ويُمْضي أغلب وقته في التجوُّل في حديقة الكرمل، وينام تحت الأشجار ملتحفًا السماءَ في أحيان كثيرة، حتى ظنَّه الناس شحّاذًا، فكان البعض يرمي إليه الصَّدَقات، لكنَّه كان يهرع كي يردَّها وهو يتمتم عبارات غير مفهومة.

«وحين وصل السمسار، الذي اشترى الأراضي لعبَّاس أفندي، إلى ضومط، كان مقتنعًا بأنَّ الرجل سيبيع أرضه بأيِّ مبلغ، لأنَّ الأرض لم تعد تساوي شيئًا بعد تطويقها من الشمال والجنوب والشرق بالحديقة البهائيَّة.

«فوجئ السمسار برفض ضومط القاطع، وعندما سمع الرجل بالسعر الذي عرضه السمسار هبَّ واقفًا وقال إنَّ الأرض ليست للبيع، وأشار بيده إلى الباب.

«حاول السمسار إقناعه بأنَّ أرضه لم تعد تساوي فلسًا واحدًا بعد أن اشترى البهائيُّون جميع الأراضي المحيطة، «اِضحك في عبّك يا

زلمة، الجماعة مش بحاجة لأرضك، ولولا إنّي تدخَّلت وأقنعتهم بأنَّك رجل درويش وفقير ما كان بدهم يدفعوا إشي.»

«توكَّل على الله، الأرض مش للبيع.»

«إنت رجل صار عمرك فوق الستِّين، لا ولد ولا تَلَد، لَمين بدَّك تورِّث. بيع وتمتَّع بالفلوس أحسنلك.»

«ما بدِّي بيع»، قال ضومط، «والأرض بدِّي أورثّها للشراميط، أنا حرّ.»

«حاول السمسار إغراءه عبر زيادة المبلغ، لكن ضومط أصرَّ على رفضه. ضاعف الرجل المبلغ من دون نتيجة. وعندما غادر سمع ضومط يقول «كلّ فلوس العجم ما بتساوي أرضي.»

«السمسار كان على حقّ، فأرض ضومط صارت بحكم الميِّتة، لن يشتري أحد أرضًا صغيرة على شكل زاوية محاصَرة بمركز دينيّ غريب عن البلاد وأهلها.

«وعندما استوعب ضومط هذه الحقيقة اشترى خشبًا ورفعه على شكل صليب عال في مواجهة حديقة البهائيِّين، وملأه باللمبات الكهربائيَّة الصغيرة التي كانت تُضيء ليل حيفا، وصار الناس يطلقون على المكان الذي كان يمكن رؤيته من جميع أنحاء المدينة اسم صليب ضومط، بدلًا من أن يسمُّوه جنينة عبَّاس أفندي.

«وبدأت المفاوضات من جديد. فاوضوه في البداية على إزالة الصليب لقاء مبلغ كبير فرفض، وقال إنَّه يمارس حقَّه باسم الحرِّيَّة الدينيَّة. ولمَّا فشلت جميع السبل دفعوا إلى ضومط مبلغًا كبيرًا، يساوي عشرة أضعاف المبالغ التي نالها أصحاب قطع الأراضي الآخرين، فباع

الأرض واشترى بيتًا في وادي النسناس، وصار ضومط مَثَلًا على ألسنة الناس: «أشطر من ضومط ع العجم.»

«لماذا أخبرتِني هذه القصّة؟»

«لأنَّك شاطر مثل ضومط.»

«أنا؟»

«نعم، أنت. أقنعت رجلًا يهوديًا بأنَّك شقيقه الصغير، فأهداك بيتًا، وصرت طالبًا في أفضل مدرسة في حيفا.»

«هذه صُدفة»، قال.

«وأنا صدفتك الأخيرة»، قالت.

لم يكن آدم مثلَ ضومط، لكن ماذا يقول أمام فتاة شيطانيَّة الجمال أوقعته في الشوق؟ أراد أن يقول لها إنَّه يريد الذهاب معها إلى الأعماق، لكنَّها لم تكن تُبالي. كانت كمَن يريد أن يطفو فوق الأشياء، لا أن يغرق فيها.

لم تقل له إنَّها تحبّه، وهو لم يقل ذلك.

ومرَّةً، عندما كانا جالسين على مقعد في ستيلًّا مارس، وضعت الفتاة رأسها على زنده فأحسَّ آدم بالخدر ينتشر في خلاياه كلِّها. حاول أن ينحني كي يقبِّلها، وفي تلك اللحظة شعر بأنَّه يمثِّل في فيلم هوليووديّ، وأنَّ المشهد بأسره ليس حقيقيًا، فتراجع إلى الوراء.

لو سألنا آدم أن يروي لنا قصَّة حبّه لرفقة لَتلعثم قبل أن يقول إنَّه لا يملك قصَّة يرويها. فالعَلاقة بابنة صاحب الكاراج نَمَت من دون سبب. سيقول آدم إنَّ حكايته لها اسمٌ واحد هو الانتظار. فالفتاة صارت تأتي إلى الكاراج بسبب وبلا سبب، وكانا يلهوان بالكلام؛

يشربان الشاي؛ تروي له مغامراتها في المدرسة؛ تسخر من أمِّها، وفجأة تقفز وتقول إنَّ عليها أن تذهب.

مرَّةً قال لها إنَّه يشعر بالخجل من والدها.

«ممَّ تخجل؟» سألت.

«ولا شي، بسّ الرجل آواني وأحبَّني، وصار مثل أخي.»

«وبعدين؟»

«بعدين أشعر بأنَّني ناكر للجميل.»

«هل سرقتَ خزنة الكاراج؟»

«أكيد، لا.»

«هل سرقت زبائنه لمصلحة كاراج آخر؟»

«شو هالأسئلة البلا معنى؟»

«لماذا تشعر بالذنب إذًا؟»

«قُلْها، يلَّا قُلْ.»

لا يدري آدم كيف أفلتت منه تلك الكلمة، كان يخطِّط أن يقولها وهما جالسان في ستيلَّا مارس، يده في يدها وعيونهما تشرب البحر، لكنَّ الكلمة انطلقت. عضَّ على شفتيه وأحنى رأسه ونظر إلى الأرض.

«ماذا قلت؟»

«معك حقّ أن تشعر بالذنب. كان عليك ألَّا تحاول غواية ابنة الرجل الذي آواك وأحسن إليك، لكنَّك فعلتها، وعليك أن تعتذر.»

«تعالَ غدًا إلى الكاراج باكرًا واعتذر إليه.»

«هل أنت جادَّة؟»

«لا، لا تعتذر، أنا سأعتذر إليه لأنَّ قلبي سُرق منِّي؛ سرقه شابٌّ عربيٌّ فقير جعله أبي شقيقه بالتبنِّي.»

ضحكت رفقة وضحك آدم.

«يعني إنت...؟»

«نعم أنا...»

وقفت، وقالت إنَّ عليها أن تعود إلى البيت.

- 3 -

مَن لم يقف مع امرأة على شرفة الله في ستيلًّا مارس، لا يعرفْ سرَّ الحبِّ الذي يمتزج بسرِّ المدينة التي اتَّخذت شكل حمامة بيضاء مزروعة في البحر. من شرفة الله هذه يرتعش ظلُّ المدينة الحمامة في الأزرق، ويرتسم على جناحيها زغب أبيض. زبد الموج يتحوَّل إلى ريش صغير ينتشر في الرمادي فيلوّنه ببياض يتماوج، يعلو ويهبط، فتستسلم العين أمام غواياته التي لا تستطيع القبض عليها.

كانا يجلسان صامتين على مقعدهما الحجريّ في ستيلًّا مارس، يدُها في يده وعيونهما غارقة في تلاوين الماء. سألها هل ترى الحمامة، فابتسمت، «كيف تريدني أن أراها ونحن جالسان الآن على جناحها الأيمن؟»

قال لها إنَّه يرى ظلَّ الحمامة في البحر.

شدَّت على يده، ثم التفتت إلى عينيه. «أُحبّ رموشك الطويلة.»

وكانت القبلةُ الأولى. فتًى وفتاةٌ مرتبكان؛ شفتان تلامسان

شفتين؛ عيونٌ مغمضَة وقبلةٌ هاربة. تتراجع رفقة إلى الوراء. تنفجر ضاحكة. يقترب آدم من جديد. تغمض الفتاة عينيها. يحاول تقبيلها. يأخذ شفتيها في شفتيه. تنزلق الشفاه، يبوسهما. تمسح الفتاة عينيها بكفَّيها، وتضع رأسها على كتف آدم.

يتأمَّل آدم وجهها الشاحب الطويل، وعظمتَي صدرها العلويَّتين البارزين، وشَعَرَها الأشقر المنسدل على عنقها، والذي يُخفي جزءًا من وجهها، ويشعر بحنان يمتزج بشهوة غامضة إلى الجسد النحيل الذي يرتمي على صدره. يمسّد شَعَرَها بيديه. يقبِّل عنقها، وترتفع شفتاه ببطء إلى الأعلى لتجدا شفتين منفرجتين في انتظارهما. وعندما استسلمت له الشَّفَة السفلى وتداخلت الروح بالروح، وبدأ العاشقان يمتصَّان رحيق الشهوة، أُصيب آدم بالدُّوار. تراجع إلى الوراء فرأى الدُّوار يحتضن عينَي رفقة. ضمَّته إليها بقوَّة، وتسلَّقت وجهه بشفتيها.

جاءا إلى هذا المكان من أجل تأمُّل غروب الشمس. غطست الشمس في البحر ولم يبقَ من احمرارها سوى خيوط رفيعة تتلاشى، وبدأت ألوان العتمة تزيح الأزرق المائيّ.

نظرت الفتاة بهلع إلى ألوان المساء وبدأت تلملم جسدها عن المقعد الحجري وهي تقول إنَّها تأخَّرت ويجب أن تعود إلى البيت.

«لكنَّنا لم نرَ ظلّ الحمامة في البحر»، قال آدم. انحنى من جديد على شفتيها وأخذهما في قبلة طويلة. عيناه ترسمان في إغماضتيهما استداراتِ الثدي الأيسر الذي كان يرتعش في تكويرة كفِّه، وأنفاسُه تلتهم أنفاسها المحترقة.

دفعته عنها ببطء وقالت إنَّها يجب أن تعود إلى البيت. غطَّت

ركبتيها بيديها، كأنَّها تستعيد جسمها، ومشت. لحق بها آدم، وبدآ في الهبوط ببطء من أعالي الكرمل.

جبل الكرمل يحتضن المدينة ويهبط بها إلى البحر، ثم يعود ويحملها من جديد ليصعد بها إلى القمَّة. إنَّه سحر حيفا: جبل أخذ اسمه من إيل، كبيرِ آلهة الكنعانيِّين الذي لم يمت حين ماتت جميع الآلهة، فصار اسمه إشارةً إلى إله نسخَ أسماء الآلهة التي سبقته. الكرمل هو كرم إيل، أي كرمُ الله. وإيل، الذي صرخ به يسوعُ الناصريُّ وهو يُحتَضَر على الصليب «إيلي إيلي لما شبقتني؟»، هو الاسم الذي اتَّخذته حيفا شفيعًا لها.

قال لها آدم إنَّ عليها أن تمشي على رؤوس أصابعها، لأنَّ هذا المكان مقدَّس.

«سئمتُ من القداسة. كلّ شيء في هذه البلاد مقدَّس. أريد أن أمشي على أرض عاديَّة بلا مقدَّسات.»

روى لها أنَّ القداسة آتيةٌ من الاسم، فضحكت، «أنت مثل أمّي تؤمن بالخرافات.»

«أنا؟ لا.»

«لماذا تحدِّثني عن القداسة، إذًا؟»

«قرأت هذا في كتاب عن اللغة السريانيَّة.»

«وشو خصّك بالسريانيَّة؟»

قال إنَّه أخبرها لأنَّه يعتقد أنَّ اسم الكرمل جميل.

«اسم جميل، معك حقّ، لكنَّه يمكن أن يكون جميلًا من دون هذا الإله الذي اسمه إيل.»

«لكنّه جبل مقدَّس»، قال، «الحبّ يجعله مقدَّسًا.»

«أنت رومنطيقيّ»، قالت.

«وأنت أيضًا.»

«أنا لست رومنطيقيَّة، لكنَّني أحبُّك.»

مشيا معًا إلى شرفة مار إلياس، «هذا المكان له اسمان: ستيلًّا مارس وتلَّة مار إلياس، وفي أسفله توجد المغارة التي اختبأ فيها إلياس النبيُّ هربًا من الملك آخاب.»

«هذا مكتوب في التوراة. هل أنت يهوديّ؟» سألته.

«أمّي أخبرتني هذه الحكايات. كانت تأتي وحدها إلى المغارة، ولم تكن تأخذني معها.»

«لماذا؟»

«لأنَّني مسلم، وهذا مقام للمسيحيِّين.»

«لم أفهم، أليست هي أيضًا مسلمة؟»

«لا.»

«أمّك يهوديَّة إذًا، يعني أنت يهودي.»

«لا، أمِّي مسيحيَّة.»

«لا أفهم. كيف تكون أمّك مسيحيَّة وأنت مسلم؟»

«إنَّها حكاية سأخبرك إيَّاها يومًا ما.»

وفجأةً، التمع وجه الفتاة بفكرة «عندي فكرة شيطانيَّة». قالت إنَّها تقترح أن يذهبا معًا إلى المغارة، يضيئان الشموع ويمارسان الحبّ. شدَّها من يدها وقال «تعالي»، لكنَّها سحبت يدها من يده، وقالت إنَّ

عليها أن تعود إلى البيت.

روى لها آدم عن الاسم المقدَّس لجبل الكرمل من دون أن يعي ما يقول. لكنَّه كان يرى في القداسة نكهةً أُنثويَّة؛ صورةَ منالَ التي انطبعت في ذهنه كقدِّيسة دنّسها الزمن بالزواج بعبد الله الأشهل، وأيقونةَ شهلا المعلَّقةَ على حائط بيته، والتي تشبه مريم العذراء وهي تنحني على ابنها الوحيد المقتول. مع رفقة اكتشف معنًى جديدًا للقداسة، ستنحفر في روحه بصفتها قداسةَ الحبِّ التي تفوح منها رائحة الرغبة التي لا ترتوي، والتي تصفِّي الجسد وتجعل الروح شفَّافةً ومجلوَّةً كمرآة.

لم يكن آدم مؤمنًا. اكتشف ذلك حين قرأ نيتشه. فالفتى الذي كان مهووسًا بالقراءة، كان يصرف أغلب وقته في مكتبة المدرسة حيث كان يلتهم الكتب التي يراها أمامه. لم يكن يميِّز بين الكتب، فكلّ ما هو مكتوب يجب أن يُقرَأ، أكان فلسفة أم شعرًا أو روايةً أم مذكّراتٍ. صارت الكتب، بالنسبة إليه، ذاكرتَه الشخصيَّة. قرأ بالعبريَّة والإنكليزيَّة. وكان، حين يشتاق إلى لغته العربيَّة، ينزل إلى وادي النسناس، ويشتري ما تيسَّر من الكتب. ولم يكن يميِّز. حين يتذكَّر الآن أنَّه كان يرى في إحسان عبد القدُّوس نموذجًا ويضعه إلى جانب تولستوي ودوستويفسكي، يبتسم من سذاجته. يقرأ الوجوديِّين والماركسيِّين، ويحفظ القصائد الشعريَّة غيبًا. جعلته سذاجته يقدِّس الحرف المطبوع بأيِّ لغة أتى. أحبَّ إبراهيم طوقان وبياليك. سحره سعيد عقل والسيّاب. قرأ المنثور والمنظوم، كأنَّه كان يبتلع الكلام. حفظ جميع قصص العشَّاق، من قيس إلى روميو، وأحسَّ بأنَّه وريث جميع العاشقين.

لكنَّه حين ارتطم بكتاب «هكذا تكلَّم زردشت»، شعر بأنَّ الكتابة تأخذه إلى مطارح أخرى. قرأ عبارة «مات الله» فتبنّاها من دون أن يفهم دلالتها، وأعلن نفسه نيتشويًا من دون أن يعي ماذا يقول.

حاول أن يشرح لرفقة مفهومه للقداسة، لكنها لم تكن تبالي.

«هل تعرف؟» قالت. «لا، لن أقول لك.»

«أعرف»، أجابها.

«ماذا تعرف؟» سألت.

«أعرف أنَّني أحبّك.»

«أنا لا أعرف ماذا يعني الحبّ»، قالت، «أقول أحبّك لأنَّ الكلمة جميلة. أوهيف، كيف تقولونها بالعربيَّة؟»

«أحبّ»، أجابها.

«إنّي أوهيفيت أوتخا»، قالت.

«إنّي أوهيب أوتاخ»، قال، «أنا أحبّكِ.»

«إنَّها الكلمة نفسها، أوهيف، أي أحبّ. لكن كيف تقولون أوتخا؟ أين أوتخا (أنتِ)؟ لقد اختفت، يبدو أنَّ ما يُقال صحيح بأنَّكم تحتقرون المرأة.»

«اسمعي، في العربيَّة لا نضع الفاعل قبل الفعل، نحذف أنا ونقول (أحبّك).»

«هل هذه جملة؟ هل يمكن أن تتألَّف الجملة من كلمة واحدة؟»

«نعم لأنَّها لغة الإيجاز. البلاغة في الإيجاز. الفاعل هو أنا، لكنَّه ضمير مستتر، والمفعول هو الكاف، وهي ضمير متَّصل، يعني

نحن لا نحذف أنتِ المؤنَّث، بل نحذف المذكَّر والمؤنث، أي نحذف أوتخا وأوتاخ.»

«غريب!»

«شو هو الغريب؟» سألها.

«نسَّيتني ما كنت أريد أن أقوله.»

«وأنا أيضًا، حين ألتقيك أنسى كلّ ما أعددته من غزل.»

«الآن تذكَّرت. حين أضمّك أشمّ رائحة الزعتر والزيتون. هل هذه رائحة العرب؟»

«أنا لم آكل زعترًا منذ فترة.»

«الرائحة»، قالت.

«أنا لا أشمّها.»

«وأنا، هل تشمّ رائحة خاصَّة عندي؟»

«رائحة الياسمين»، قال.

«أنت تكذب.»

«أنا لا أكذب، لكنَّني لا أقول الحقيقة.»

- 4 -

بعد القبلة الأولى، تغيَّر كلّ شيء. صار الانتظار صليبًا، وبدأ آدم يشعر بالغياب إذا لم يرَ رفقة، وبالغياب إذا رآها. غيابان لا يمتلئان. عدم رؤيتها فراغ، ورؤيتها لا تروي. يقرأ الروايات كي يروي لها. يخترع القصص من أجل أن يُثير إعجابها، لكنَّ الوقت يسرقه. حين يراها يتلعثم ويخطفه الصمت، وحين يبدأ الكلام يكون موعد ذهابها قد اقترب.

لا يذكر آدم أين قرأ أنَّ الحبّ هو فاكهة الحياة، وأنَّه نكهة لا تسدّ الجوع، لكنَّها تُعطي الأشياء طعمًا مختلفًا. حاول أن يقتنع بذلك، لكن عطشه إلى هذه الفتاة لم يكن يتوقَّف. ينتظرها قبل أن يراها، وينتظرها حين يراها، وينتظرها بعد أن يراها.

قال لها إنَّ قصَّة حبّهما خاصَّة، لأنَّه لا يستطيع أن يُخبرها لأحد. مَن يُخبر، وماذا يقول؟ شعر بأنَّه يرتكب ما لا قدرة له على عدم ارتكابه، وغرق في انطوائه، ووَحدته، وغربته التي لم يكن يبدِّدها

سوى تفوُّقه في دراسته، وشعورِه بأنَّه حين يقرأ الكتب يصنع لنفسه ذاكرةً جديدة.

التغيُّر الكبير كان الكاسكيت. صار آدم، عندما يخرج مع رفقة، يسحب من جَيب سترته الرماديَّة كاسكيتًا مخمليَّة لونها بنِّيّ اشتراها من متجر صغير لبيع الألبسة المستعمَلة في وادي النسناس. وعندما رأت رفقة قبَّعته انفجرت ضاحكة، مدَّت يدها وطيَّرتها إلى الأعلى.

«ما هذه القباحة؟ أنا أحبّ شعرك الكستنائيَّ المجعَّد قليلًا. هذه القبَّعة تشوِّهك، لماذا تلبَسها؟»

أجابها بأنَّ رأسه يؤلمه بسبب هواء المدينة البحريّ، لكنَّ الفتاة لم تقتنع بهذه الحجَّة، فاضطرّ إلى أن يسحب كذبته ويقول ما يشبه الحقيقة.

«هذه قبَّعة الإخفاء، حين أضعها أصير لامرئيًّا.»

«لكنَّني أراك!»

«أنت فقط تستطيعين رؤيتي. أمّا بالنسبة إلى الآخرين، فسأكون لامرئيًّا.»

«معقول هالحكي»؟

«أنا أقول الحقيقة.»

«أنت كذَّاب وخائف. تعتقد أنَّ الناس لن يتعرَّفوا إليك مع هذه الكاسكيت البشعة.»

«صحّ.»

«يعني أنت جبان.»

«لا تقولي جبان.»

«يعني أنت كذّاب.»

«كذّاب ربّما، لكنّني لست جبانًا. لنقل إنَّ هذه الكذبة هي محاولة كي أقول الحقيقة.»

خطفت رفقة القبّعة وأخفتها في عبّها. حاول آدم انتزاعها، لكنَّ الفتاة غطّت عبّها بيديها، وقالت إنّها سترميها في سلّة المهملات.

وعندما نجحت يد آدم في التغلغل في صدر رفقة، نسي القبّعة وأمسك بالنهدين الصغيرين. «عيب» صرخت، «نحن في الكاراج»، ورمته بالقبّعة. حاول إزالة جعلكتها عبر تمسيدها براحة يده، اعتمرها، وأمسك بيد رفقة وخرجا من الكاراج.

«أخبرني أبي بأنّك تقيم في ببيت في وادي الصليب، غير بعيد من هنا. الليل موحش وفارغ، ألا تخاف أن تعيش هناك؟»

هزّ رأسه، وقال إنّه، منذ أن اشترى الكاسكيت، لم يعد يخاف.

«إنتَ عَمْ تضحك عليّ.»

أخبرها بأنَّ أمّه أقنعته بأنّه إذا ارتدى قبّعة الإخفاء فلن يراه أحد.

«كنت في السادسة من عمري عندما اعتقلتني الشرطة لأنّني لصّ. أخذوني إلى المخفر، حيث ضربني الشرطيّ اليهوديّ بحزام جلديّ، وهدّدني بأنّه سيقتلني إذا عدت إلى السرقة. يومها شخّيت تحتي من الخوف، ولم أستطع أن أتوقّف عن البكاء. جاء الضابط وصرخ بالشرطيّ بأنّه لا يجوز ضرب طفل صغير، ثم اقترب منّي كي يهدّئ من روعي. أمسك خدّيَّ براحتيه، فامتلأت يداه بالدموع والمخاط، ثم شمّ الرائحة، فتراجع بقرف وصرخ بي: «إياك أن تعود إلى السرقة من

جديد. عربيّ وسخ، تْفُو»، فعدت إلى البكاء، «أُخرجوا هذه الحشرة من هنا» صرخ، فأمرني الشرطيّ الذي ضربني بالخروج. صرت في الخارج، وأحسست بأنّي ضعت. رأيت طريقًا وسيّارات. كان كلّ شيء غريبًا. لا أعرف كيف أعود إلى البيت. جلست على الرصيف وحيدًا، وشممت رائحتي، وقرفت من نفسي. ثم جاءت أمّي. رأيت قدميها وتنُورتها، فانزويت على نفسي من الخجل. اقتربت منّي، «يا حبيبي»، قالت هامسة، حملتني وضمَّتني إلى صدرها وهي تهدهدني وتمسح دموعي، وأخذتني إلى البيت.

«وفي البيت نزعَتْ كلَّ ثيابي. لم أَرَ في وجهها سوى الحنوّ والعطف. حمَّمتني وعطَّرتني، وأخذتني إلى سريرها ونمت حدَّها كلَّ الليل.

«وصرت أخاف من كلّ شيء، ولم أعد أجرؤ على الخروج من البيت، أو على الافتراق عنها. رفضت أن أذهب إلى مدرسة مأمون، أو أن أتزحزح من مكاني الملتصق بها، فاشترت لي منالُ قبّعة كاكيَّة، وقالت إنَّها قبّعة الإخفاء، «عندما تلبَسها لن يراك اليهود»، لبستها وبدأ خوفي ينزاح، وعدت إلى حياتي، ولم أخلع هذه القبّعة قطّ. القبّعة ملأتني بثقة عجيبة بالنفس، وهذا ما سمح لي بعد ذلك بأن أصير عضوًا في عصابة من الصِّبْيان احترفت السرقة، وانتهت بدخولي السجنَ، حيث بقيت ثلاثة أشهر.

«اعتدت القبّعة ولم أكن أخلعها إلَّا حين أنام. صارت طوطمي الشخصيّ. تعرفين أنَّ أغلب الأطفال يضعون إلى جانبهم في السرير لعبةً أو دبًّا مصنوعًا من القماش أو سمكة. أمَّا أنا، فكانت القبّعة تنام حدِّي كلَّ ليلة، ولم أخلعها إلَّا حين أتينا إلى حيفا، وبسبب زوج أمّي

الذي سخر منها ومنّي، وأمرني بخلعها.»

«وأنا أيضًا»، قالت رفقة، «كان حبيبي فردًا عجيبًا اشتراه لي أبي، ولا يزال القرد حتى هذا اليوم ينام إلى جانبي في السرير. قصّتك غريبة. هل اقتنعت فعلًا بأنَّ اليهود لن يروك إذا لبست قبّعة أمّك، وهل كنت لصًّا فعلًا؟»

لم يعرف آدم كيف يبدأ حكايته، «اسمعي، سأقول لك سرًّا أريد أن يبقى بيني وبينك»، وروى لها عن حياته في غيتو اللدّ، وعن المدينة التي تمَّ إفراغها من سكّانها، وبيوتِها التي نُهبت، وأمّه التي صارت تعمل في قطف البرتقال والزيتون في أرض زوجها التي صادرها الإسرائيليُّون، وعن الفقر واشتهاء التين البقراطيّ الأحمر الذي كانت تنحني أغصان أشجاره قرب بيتهم.

«غيتو؟ هل كان هناك يهود في اللدّ؟»

«لا، يا حبيبتي. إنَّه غيتو العرب.»

«غيتو وعرب! هذا مستحيل. أنت كذّاب.»

«أقول الحقيقة. إذا شئت تعالي نأخذْ سيّارة تاكسي من حيفا، ونَقُل للسائق: إلى غيتو العرب في اللدّ، وسيوصلنا إلى الحيِّ العربيّ في المدينة.»

«معقول؟ سأسأل أبي.»

«اسألي مَن تشائين، لكن لا تأتي على سيرتي، فهذا سرِّي.»

«وهل كنت لصًّا؟»

روى لها أنَّه عندما اعتُقل في المرَّة الأولى كان يتسلَّق أغصان شجرة تين في الحاكورة القريبة من البيت، «أمّي قالت لي إنَّ الحاكورة

مُلك أبي. تسلَّقت الشجرة، وبدأت ألتهم التين، ثم نزلت وجلبت سلَّة صغيرة لأنَّ أمّي كانت تحبّ أن تأكل التين مع خبز الطابون المغمَّس بالزعتر والزيت. وفجأة رأيت الشرطيّ الإسرائيليّ يأمرني بالنزول. أخذ منّي سلَّة التين وقادني إلى المخفر، وهناك سألني مَن حرَّضني على السرقة. لم أفهم معنى كلمة حرَّضني، لكنَّني أجبته بأنَّني لا أسرق، فهذه التينة لنا. «لكم؟» صرخ وأخذ حزامًا جلديًّا وبدأ بضربي، وهو يقول لي إنَّ الأراضي كلّها هي مُلْكٌ للدولة. كنت صغيرًا كي أفهم معنى الكلمات، وكي أستوعب أنَّ الأراضي والبيوت صارت في عداد أملاك الغائبين، وأنَّني أُعتبر غائبًا ـ حاضرًا في القانون الإسرائيليّ.»

«شو يعني غائب ـ حاضر؟ الواحد أو بيكون غائب أو حاضر»، سألت رفقة.

«واللهِ لا أعرف. ما أعرفه هو أنَّني صرت أخافِ، لكن طاقيَّة الإخفاء غيَّرت كلّ شيء، ولم أعد أخاف، بل صرت «أَبْطَلَ» ولد في الغيتو. ثم شكَّلنا عصابة مؤلَّفة من ثلاثة، كنت أصغرَهم، أنا وسمير الأسمر ونديم كيَّالي، وبدأنا نسرق برتقالنا وزيتوننا وتيننا. ننتظر حلول المساء، ونتسلَّل إلى البيَّارات والحقول. نحمل سلالًا ونسرق. وبدأ نديم الكيَّالي يبيع مسروقاتنا في السوق، فوَشى بنا عميل عربيّ، وذهبنا إلى السجن.»

«يعني إنت روبن هود.»

ضحك آدم وضحكت رفقة، «أنا أحبّ لصًّا»، قالت. ثم التفتت إليه وسألته «هل تكره اليهود؟ أكيد أنت تكرههم، فكيف تحبّ فتاة يهوديَّة؟»

قال إنَّه سامحهم، «واللهِ سامحتهم وما بكرههم، بل أحبُّهم». وشرح لها أنَّ لا علاقة له بالسياسة. «أريد أن أعيش، لكنَّ الحياة صعبة، ولم أعد أستطيع أن أتحمَّل ذاكرتي. رميتُ كلّ شيء في بحر حيفا، وطلبت من الأسماك أن تأكل ذاكرتي، ولولا أنَّك سألتِني عن الكاسكيت، لَما تذكَّرت حكاية السرقة. عندما تركت منزل أمِّي قلت لروحي أن تنسى. أنا الآن إنسان جديد نسي كلّ شيء، وأنت تحبِّين هذا الإنسان.»

«لكنَّك تضع على رأسك قبَّعة الإخفاء كي لا يراك اليهود. فكيف أحبّ مَن لا يريدني أن أراه؟»

«هذا كان من زمان. أمَّا الآن، فأنا لا أريد لأحد أن يراني، اليهود والعرب وكلّ الناس. فقط أنت، أريد أن أرى نفسي في مرآة عينيك.»

«أنا أحبّ لصًّا وشاعرًا، متى أَلَّفتَ «مرآة عينيك» هذه؟»

«أنا لم أؤلِّفها، سرقتها من كتاب لمؤلِّف لبنانيّ لم أعد أذكر اسمه.»

«تسرق الزيتون والبرتقال والكلمات، وتسرق قلبي أيضًا.»

أمسك بيدها وبدآ في الصعود إلى جبل الكرمل.

«إلى أين تأخذني؟»

«إلى ستيلَّا مارس.»

«لكنَّنا لن نرى شيئًا. الشمس غابت وبدأت العتمة.»

«لا أريد أن أرى أحدًا سواك.»

جلسا على مقعدهما الحجريّ. وضعت رأسها على صدره، وغرقا في نشوة القُبلات. مدَّ يده إلى قميصها. تسلَّل إلى ظهرها. فكّ الصدريَّة. أزاحها. وضع رأسه على سرَّتها. رفع القميص قليلًا، وبدأت شفتاه تقبّلان ثدييها. سمع تأوُّهَها. اقترب أكثر. امتدَّت يده إلى فخذيها وارتفعت تنُّورتها القصيرة. دفعته بيديها «لا، لا، أنا أخاف، ليس هنا.»

تراجع إلى الوراء، فرأى عينيها الملتمعتين بالرغبة. حاول أن يقترب من جديد.

«فلنذهبْ من هنا»، قالت.

لم تقل إلى أين تريد أن تذهب، لكنَّها رأت تردُّد آدم، «تعالَ، أريدك.»

تركا مقعدهما الحجريّ ومشيا. قال آدم إنَّه لا يريد الذهاب إلى بيته. الدنيا ليل، والمكان موحش «وأنا أخاف.»

«تضع طاقيّة الإخفاء وتخاف؟»

«أنت تضحكين عليّ.»

«اسكتْ، وتعالَ.»

أوقفت رَفقةُ سيَّارة تاكسي. صعدا في المقعد الخلفيّ وكان الصمت. لم يجد آدم ما يقوله، كانت ركبتاه ترتطمان، إحداهما بالأُخرى. أحسّ برعشة برد في ظهره. مدَّ يده، وأمسك بيد رفقة فتسلَّلت برودتها إليه. أراد أن يقول شيئًا، لكنَّ الكلام اختنق في حلقه. التفت إليها فرآها تنظر من عتمة النافذة. وصلت السيَّارة إلى المدخل الجنوبيّ لوادي الصليب. الشوارع مقفرة، والمطر الذي انهمر

في أوَّل المساء نشر رائحة التراب في المكان. من النافذة تراءت البيوتُ المهجورة كأنَّها أشباح، وسمع آدم صوت رفقة كأنَّه يخرج من بئر عميقة. «أين الناس؟» تعجَّب آدم من سؤالها، فكاراج والدها يقع في هذه الحارة المهجورة. مشهد البيوت التي تشبه أطلالًا صار أليفًا في عينَي آدم الذي يراه كلّ يوم، لكنَّه مع سؤال رفقة اكتشف أنَّ الأليف بدأ يصير غريبًا.

«صحيح، أين الناس؟» قال.

«أنا أسألك»، أجابت.

«الناس رحلوا»، جاء صوت سائق التاكسي من خلف مقود السيَّارة.

«إلى أين؟» سألت رفقة.

«ما أعرفه أن البلديَّة تُعدّ مشروعًا إعماريًّا كبيرًا للحيّ، ولذلك تركته فارغًا من الناس.»

«لكنْ، أين أصحاب هذه البيوت؟» سألت رفقة.

«ابتلعهم البحر»، قال آدم. «هل تعرفين ما هو الاسم الذي يُطلقه أهل وادي النسناس على هذا البحر الذي نتأمَّله من شرفة ستيلًا مارس؟»

«إنَّه البحر المتوسِّط.»

«لكنَّ الناس هنا يسمُّونه بحر النكبة.»

«نكبة؟ ما هي النكبة؟» سألت.

طلب آدم من السائق أن يقف. نظر إلى رفقة وقال إنَّهما وصلا.

نزلا من السيَّارة التي غادر ضوؤها المكان، فغرق الشارع في العتمة. أمسكت بيده، وقالت إنَّها خائفة.

«لا تخافي، لن يرانا أحد، فطاقيَّة الإخفاء على رأسي.»

ارتسمت نصفُ ابتسامة حائرةٍ على شفتَيْ رفقة: «كيف تستطيع أن تعيش هنا؟»

امتلأ البيت بضوء الثريَّا القديمة المعلَّقة في سقف الصالون، والتي صُمِّمت لمباتُها الخمسُ على شكل شموع. مشت رفقة كالتائهة في البيت. توقَّفت طويلًا أمام البقع البيضاء التي صنعتها الصور التي نُزعت من مكانها. وقبل أن تصل إلى صورة شهلا وابنها، رأت يدَي آدم مرفوعتين إلى الأعلى وهو يحاول انتزاع الصورة من مكانها.

«ماذا تفعل؟» سألت.

«لا شيء.» تراخت يدا آدم، والتفت إلى الوراء، فرأى عينَي رفقة الرماديَّتين، وهي تنظر إلى المكان كأنَّها لا تصدِّق ما ترى.

«أين بقيَّة الصور؟» سألت.

«أنزلتها عن الحائط، لأنَّها أوحت إليَّ بأنِّي لصٌّ أعيش مكان أناس آخرين.»

«ولماذا تركت صورة المرأة مع ابنها؟»

«كنت أريد أن أنزعها لكنَّك منعتِني.»

«أنا بردانة»، قالت.

«إسّا بعمل شاي.»

«شاي! لا بدّي كونياك. عندك كونياك؟»

فتح الخزانة الموجودة خلف طاولة الطعام. أخرج قنّينة كونياك أرمنيّ عتيقة، وصَبَّ كأسين.

«من أين اشتريت هذا الكونياك؟»

قال إنَّه وجده في البيت، ولم يشرب من القنّينة سوى مرَّة واحدة.

«كونياك فاخر»، قالت بعدما شربت كأسها دفعة واحدة. صبَّت لنفسها كأسًا ثانية. «لماذا لا تشرب؟ أريد أن أشرب نخب صُوَر أصحاب هذا البيت الذين تركوا لنا هذا الكونياك.»

كانا واقفَين في وسط صالون كبير، أرضه مرصوفة ببلاط أبيض مزيَّن بخطوط سوداء، يتوسَّطه صدر نحاسيٌّ دمشقيٌّ مطعَّم بالفضَّة. كرسيَّان خشبيَّان هزَّازان في الزاوية اليمنى؛ ثلاث كنبايات واسعة قديمة، ورفوف فارغة. اقترب منها، وضعت رأسها على كتفه. شمّ رائحة عطرها ممتزجًا بالكونياك. ضمَّها إليه. أحسَّ بارتعاشة جسدها. قبَّلها قبلة طويلة. مدَّ يده تحت قميصها الأبيض، وانحنى كي يقبِّل ثدييها. حاول أن يرفع قميصها، فدفعته إلى الخلف. أمسكت قميصها بيديها. خلعته ورمته على الكنباية. فكَّت صدريَّتها فتلألأ نهداها الصغيران المدوَّران. اقتربت منه. أخذ نهديها بين شفتيه وهو يتمتم: هذه فاكهة الله.

«أطفِئِ الضوء»، قالت.

«أريد أن أحبّك في الضوء.»

«ماذا قلتَ؟»

«قلتُ إنَّني أحبّك في الضوء.»

«لا، قبل ذلك.»

«لم أقل شيئًا، بلى قلت إنَّ نهديك فاكهة الله.»

«حبيبي الشاعر.»

مشى بها ببطء وأجلسها على الكنباية. أمسكها من كتفيها ودفعها بحنان كي تستلقي، انتفضت الفتاة وقالت «لا. مِشْ هنا، فلنذهب إلى السرير.»

دخلا غرفة النوم. أطفأت رفقة الضوء الذي أشعله آدم، لكنَّ الضوء المنبعث من ثريَّا الصالون تسلَّل إلى الغرفة التي صارت ملأى بالظلال.

«لماذا أطفأتِ الضوء يا رفقة؟»

«لأنَّني أكره الضوء العاري. كيف تستطيع أن تعيش مع ضوء هذه اللمبة العارية التي تقتل الألوان؟»

خلعت رفقة تنُّورتها وسروالها الداخليّ وبدا عريها الإلٰهي مليئًا بالظلال، «ماذا تنتظر؟» قالت، «اِخلع ثيابك وتعالَ إلى جانبي.»

لم يكن آدم يتوقَّع أن يأتي العريُّ دُفعةً واحدة. تخيَّل هذه اللحظة مرَّات لا تُحصى، وكان عندما ينزع قطعة من ثياب رفقة في خياله يتراجع إلى الوراء كي يتأمَّل الجسدَ الأنثويَّ الأبيضَ ويرى فَقْش أمواجه وهي تتداخل بماء عينيه. وها هو الجسد العاري يستلقي وينتظره. خلع ثيابه بسرعة. انحنى عليها، وشعر بأنَّه ينقذف إليها. استلقى إلى جانبها وبدأ يبوس خلايا جسمها، كأنَّه كان يكتشف ما خبَّأته ظلال الضوء التي تسلَّلت إلى ثناياه بشفتيه. «تعال»، همست. انقلب فوق فخَذِيها المفتوحتين. ارتطم بسرَّتها. شدَّها إليه، وارتفعت تأوُّهاته.

«ليس هكذا»، قالت، «ادخل.»

سألها بصوت متلعثم «هل أنتِ؟»

«نعم أنا»، قالت.

ركع على ركبتيه. حاول، لكنَّه لم. كانا يرتجفان بالشهوة والخوف، ثم لا يدري كيف أحسَّ بسائل ساخن يتدفَّق. ارتفعت رغبته إلى الأعلى، وسمع صوت أنينها وهي تقول «آخ»، ثم سمعها تصرخ «يا إلٰهي». دخل إلى الأعماق، وأحسّ بأنَّه يطير بالنشوة. «آخ، آخ» صرخت من جديد. حاول أن ينسحب، فشدَّته إليها. التفَّ وجهه بشعرها الطويل، وصار جسدها امتدادًا لجسده، وبدأ يتدفَّق في داخلها. وفي وسط ارتجافاته باللذَّة، أحسَّ بجسد رفقة يرتعش، وسمع أنين متعتها.

تراخى جسمه فوقها. قبَّل عينيها. أحسّ بطعم مالح على لسانه. شرب دموعها وعَرَقها. أزاحته ببطء عنها، قفزت من الفراش وركضت إلى الحمّام. أحسَّ آدم باللزوجة في الفراش. نهض وأشعل الضوء، فرأى بقعة دم ارتسمت كالفراشات على الشرشف. جلس على طرف السرير لأنَّه شعر بأنَّ قدميه لا تقويان على حمله، وعندما عادت رفقة من الحمّام، رأته جالسًا ورأسه بين يديه. أطفأت الضوء وقالت إنَّها تريد كونياكًا. لكن آدم لم يتحرَّك من مكانه، «ألا تسمع؟ بدِّي كونياك.» أزاح يديه عن عينيه وسألها إذا كان كلّ شيء على ما يرام. «اجلبْ لي كأسًا، فأنا أريد أن أحتفل.»

جلسا في السرير وشربا الكونياك. قالت رفقة إنَّها نعسانة وتريد أن تنام. تقوقعت على نفسها وأغمضت عينيها. اقترب منها آدم. مسَّد

شعرها. انحنى وقبَّلها على جبينها، وضمَّها إليه بقوَّة، وبدأ ينزلق بين فخذيها، «أرجوك لا». ضمَّها إليه وأغمض عينيه. ضمَّها بقوة، فشدَّته إليها، وأخذهما الحبّ من جديد.

«أحبّكِ»، قال، وهو يمسك بيدها كي يذهبا إلى الحمّام معًا.

تساقط ماء الدُّوش على الجسدين، وذاق طعم الصابون على نهديها. «أحبّكَ» قالت، «لكن يجب أن أعود إلى البيت، تأخَّر الوقت.»

خرجا إلى الشارع، وانتظرا. ركبا سيَّارة تاكسي. أوصلها إلى بيتها، ثم عاد مشيًا إلى بيته.

في السيَّارة كانا دافئين. جلسا ملتصقين، يدُها في يده، ولم يتكلَّما. وعندما وصل آدم إلى بيته منهَكًا، نام مع رائحة رفقة، وتدثَّر بظلال جسمها، وأغمض عينيه على حرير فَخِذيها.

- 5 -

في البداية، لكن أين البداية؟ حين يتذكَّر آدم لحظة رفقة في حياته، يرى العتمة. كانت التاسعة ليلًا. سمع قرعًا متكرِّرًا على الباب. ركض كي يفتح، فرأى رفقة تنبثق من العتمة بوجه ممتقع وعينين ذابلتين وهي تطلب منه أن يغادر البيت ويختفي.

هكذا صارت النهايةُ هي الحكايةَ، وبدأت الأيَّام التي احتضنها الحبّ وانتظاراتهُ وعطشُه كأنَّها غمضة عين، أو كأنَّها لم تكن إلَّا منامًا قصيرًا صحا الفتى منه متشقِّقَ الشفتين بالخوف.

احتوى آدمُ رفقةَ عدَّة مرَّات. كانا يلتقيان في الكاراج في الرابعة والنصف بعد الظهر، يمشي قبلها إلى البيت، تتبعه من بعيد، ويترك الباب مفتوحًا في انتظارها.

كان متأكِّدًا من أن لا أحد رآهما، ومع ذلك كان يشعر بالخوف عندما تخرج من بيته.

شعر بأنَّه صار مسؤولًا عن هذه الفتاة التي اكتملت أنوثتها باكتمال رجولته. أمّا هي، فلم تتخلَّ عن مرحها ومزاحها. قالت له إن لا شيء تغيَّر، وعليه ألَّا يكبِّر المسألة، فالبكارة لا معنى لها. إنَّها مجرّد قشرة تافهة، على الفتاة أن تمزِّقها بنفسها قبل أن تمارس الحبّ.

«يعني أنت لم تكوني... من أين أتى الدم إذًا؟»

«أنا كنت يا حمار، ألم تشعر؟»

«بلى.»

«لماذا تسأل؟»

واصلا اللقاء في الكاراج، والجلوسَ على مقعدهما في ستيلًّا مارس، والذهابَ إلى المقهى الصغير قرب جنينة عبّاس حيث كانا يحتسيان القهوة.

كما أنَّ آدم لم يخلع طاقيَّة الإخفاء التي كانت تعطيه شعورًا وهميًّا بالثقة بالنفس.

فجأةً ومن دون مقدِّمات، جاءت تبلغه أنَّ كلّ شيء انتهى.

«ماذا جرى؟» سألها.

قالت، وهي تلهث، إنَّ عليها أن تعود إلى البيت، «أبي اضطُرّ إلى الذهاب لمعالجة عطب في سيَّارة أحد الجيران، لكنَّه أقسم قبل أن يغادر بألَّا يعود إلَّا بعد أن يقتلك.»

«يقتلني؟»

«اترك المكان فورًا، فالرجل أُصيب بما يشبه الجنون.»

روت رفقة أنَّ الحقّ على سارة صديقتها، «عندما سألتُه كيف

عرف بعلاقتي بك قال سارة، فصرختُ في وجهه وسألته أين رأى سارة، فسمعت صوت أمّي يخرج كالحشرجة وهي تقول أنت رجل لا تستحي، فتاة من عمر ابنتك، وفي سريري، تَفُو عليك وعلى كلّ أصناف الرجال.»

قالت رفقة إنَّها سمعت ما لا يُسمع. كيف يقول أمامي عن أمّي بأنَّها تشبه المومياءات المصريَّة؟ قال إنَّها ليست امرأة، وعليها ألَّا تتدخّل في شؤونه، «اذهبي إلى عملك وتعالي إلى البيت كي أسمع شخيرك وينقطع حَيْلي.» هل هذا معقول؟ رجل يحكي بهذه الطريقة مع زوجته أمام ابنته!»

قالت رفقة إنَّ والدها صرخ في وجهها «هل صحيح أنَّك تضاجعين هذا العربيّ الوسخ؟»

«هذا شقيقك» قلت له، «أنت أقنعتني بأنَّه شقيقك.»

«هل صحيح؟»

«وأنت، هل صحيح أنَّك نمت مع سارة؟»

«أنا أسألك، أجيبي.»

«صحيح»، قالت الأمّ، «أنا رأيتهما.»

«اخرسي»، صرخ غابرييل بتالي.

«تفُو عليك وعلى ابنتك. هذا بيت للزنى»، قالت الأمّ.

ثم قال إنَّ عليَّ أن أشكر ربِّي لأنَّه ليس عربيًّا مثل عشيقي، «لو كنت عربيًّا لقتلتك الآن، لكنِّي سأقتله هو، ابن الزانية، هذا الكلب الذي آويته ووجدت له مدرسة ممتازة وصرفت عليه. هذا الكلب يأكل من لحمي. سأقتله.»

قالت رفقة إنَّها خرجت من البيت بعد خروجه بثوانٍ، وإنَّ أمّها لعنتها وقالت إنَّها ستخبر والدها عندما يعود بأنَّها ذهبت كي تحذِّرني.

«يجب أن أذهب الآن، أرجوك عليك أن تختفي.»

«وكيف عرفت سارة؟» سألها.

«أنا أخبرتها، كنت أعتقد أنَّها صديقتي الوحيدة.»

«وماذا كان موقفها؟»

«ضاجعت أبي، ألا يكفي هذا؟»

«لماذا أخبرتِها؟»

«أرجوك اذهبِ الآن. يجب أن أَمضي، فلو رآنا معًا فسيقتلنا معًا.»

«لن أغادر.»

«مجنون، ماذا ستفعل؟»

«سأنتظره هنا.»

«أرجوكَ أنا أعرفه، ستموت، وأنا لا أريدك أن تموت.»

«لن أموت»، أجاب آدم، «وسأتزوَّجك.»

«تتزوَّجني؟ هل فقدت عقلك؟»

«سأقول له إنَّنا عاشقان، وإنَّني مستعدّ للزواج بك.»

«مستحيل.»

«يعني ما بتحبِّيني.»

«بلى، أحبّك، بس الزواج لا.»

«ليش لا؟»

«أنت عربيّ، وهذا مستحيل.»

«وما ذنبي وما ذنبك أنت، هل؟ لا أعرف ماذا أقول. أنا متأكِّد من أنَّك لا توافقين على هذا الكلام. تعالي نتزوَّجْ.»

«لا نقدر.»

«يعني الحبّ كذبة بالنسبة إليك!»

«مش كذبة، لكنَّه لا يكفي.»

«كيف يعني؟»

«يلّا، يلّا، يجب أن أذهب الآن.»

«ومتى أراك؟»

«لا أعرف. المهمّ أن تختفي.»

خرجت رفقة إلى العتمة، وبقي آدم وحيدًا. تردَّد كثيرًا قبل أن يقرِّر البقاء في البيت، أقفل الباب بالمفتاح، وأقفله مرَّة ثانية بالسقَّاطة خوفًا من أن يكون غابرييل يمتلك مفتاحًا للشقَّة. أطفأ الضوء، وجلس في الصالون.

لن يفتح الباب مهما حدث. فكَّر في أنَّ حركته صبيانيَّة، وأنَّ عليه مواجهة شقيقه اليهوديّ بالحقيقة، لكنَّه شعر بالعجز بعد كلام رفقة التي يبدو أنَّ الخوف أو الارتطام بالحقيقة مَحَوَا الحبّ من قلبها.

فكرة امِّحاء الحبّ هكذا بشحطة قلم جعلته حائرًا وعاجزًا، وفكَّر في أنَّه هو أيضًا ربَّما توقَّف عن حبِّ رفقة عندما سمعها تقول إنَّ الحبّ لا يكفي. ماذا كانت تفعل معه، إذًا؟ هل سلَّمته نفسها وأهدته

بَكارتَها لأنَّها كانت تريد أن ترمي البكارة التي لم تعد على الموضة؟ هي قالت له إنَّ البكارة لم تعد على الموضة، وطلبت منه ألَّا يكبِّر المسألة، وروت أنَّ صديقتها سارة تعمَّدت أن تفقد بكارتها مع زميل لها في المدرسة لم تكن تحبّه، فقط من أجل التخلُّص من غشاء وهميّ، يثير القرف.

لكن آدم لم يشعر بالقرف عندما احتوى رفقةَ في سريره. أحسّ بأنَّه يسبح في داخلها، وأنَّ الدم القليل الذي فاضت سخونته عليه ملأ قلبه بالحنان. قال لها إنَّ صديقتها حمقاء، فالجنس لا يكون إلَّا امتدادًا لنبضات القلب.

«أنت رومنطيقيّ»، أجابته ضاحكة، «وأنا أحبّ رومنطيقيَّتك.»

لكن، ماذا عليه أن يفعل الآن؟

بعد ليلة الحبّ الأولى، لم يغسل آدم الشرشف. غطَّى بقعة الدم بمنشفة، لأنَّه أراد لرائحة الحبِّ ألَّا تغادر نومه ويقظته، ولم يغيِّر الشرشف إلَّا حين أخبرته رفقة بعد ثلاثة أيَّام بأنَّها ستسهر معه. قالت إنَّها ستأتي بالتاكسي، فهي تعرف كيف تصل إلى بيته وحدها، وإنَّها قالت لأمّها إنَّها ستسهر عند سارة. يومها نظَّف آدم الكاراج بسرعة وذهب إلى البيت. غيَّر الشراشف. كَنَس الأرض ومسحها. أعدَّ قنِّينة الكونياك، واشترى بايغل وأجبانًا استعدادًا للّقاء.

لا يريد آدم أن يتذكَّر اللحظات التي كان فيها الحبّ يعصف به عند لقاء الجسدين الفتيَّيْن الجميلين، ما معنى أن يتذكَّر حين تصير الذاكرة ناشفة ولا طعم لها؟

أعدَّ كاسة شاي وجلس في العتمة ينتظر، وفهم أنَّ عليه إحداثَ

تعديلات جوهريَّة على قاموسه، فالانتظار اليوم مُرّ وقاسٍ، بينما كانت انتظاراته لرفقة ملأى بروائح الحبّ والرغبة. الانتظار اليوم يُخرسه ويجعله عاجزًا عن الكلام، بينما كانت انتظارات الأمس ملأى باحتمالات الكلام التي لا تُحصى. الآن فهم آدم طريقة أمّه في الكلام، فمنال الصغيرة كانت تفكِّك الجمل بدلًا من أن تقوم بتركيبها، لأنَّها كانت تعيش نوعًا ثالثًا من الانتظار هو انتظار اللاشيء.

فكَّر في أنَّه لا يملك شيئًا يقوله لغابرييل. حتى الاعتذارُ لا معنى له، فالخيانة فعل لا يمكن الاعتذار عنه.

هل خان آدم غابرييل عندما أحبّ ابنته، أم أنَّ غابرييل خان شقيقه الصغير آدم عندما امتلكه الغضب لأنَّ ابنته أحبَّت عربيًّا؟

ما معنى الخيانة هنا؟

جلس آدم على الكرسيِّ الهزّاز في العتمة ينتظر. كان عاجزًا عن تخيُّل احتمالات ردَّة فعل غابرييل، وأحسّ بالوحل ينتشر في حَنجرته، وأنَّ أيّ مواجهة مع غابرييل ستجعله يفقد صوته، وتُحوِّل كلامَه إلى حشرجات موحلة.

خطرت له فكرة أن يهرب ويعود إلى حديقة بنيامين. هذا هو المكان الوحيد الذي يستطيع اللجوء إليه، لكنَّه غيَّر رأيه وهو يرى أمامه شبح جثَّة رباح المشنوقة التي يتلاعب بها هواء كانون الثاني الباردُ.

اتَّكأ على يده وبدأ يشعر بالتنمُّل في مؤخّرة رأسه. قرَّر ألّا يستسلم للنوم. غفا من دون أن يشعر بأنَّه نام. جلس بين اليقظة والنوم، في حالة لا اسم لها، ينام وهو يشعر بأنَّه مستيقظ، ويستيقظ داخل النوم. يفتح عينيه على العتمة ويُغمضهما على العتمة. وفجأة،

سمع جلبة أمام الباب. انحلَّت ركبتاه من الخوف. نظر إلى ساعته فلم يرَ الوقت لأنَّ العتمة غطَّت كلّ شيء. تحامل على نفسه. وقف ومشى حافيًا على رؤوس أصابعه إلى الباب. انحنى كي يرى، فلم يرَ. لا صوت ولا حركة. تراجع عن الباب وأشعل الضوء. كانت الحادية عشرة والنصف ليلًا. من أين أتى الصوت؟ أحسّ بالجوع، أخذ قطعة خبز وغمَّسها بزيت الزيتون، ورشّ عليها الملح، والتهمها.

عاد إلى الكرسيّ الهزّاز وهو يشعر بالخجل من نفسه والشفقةِ عليها. ذهب إلى الباب. فتح السقَّاطة، وذهب إلى سريره وهو مقتنع بأنَّه سيموت. حين يأتي غابرييل سيكون نائمًا. سيسمع المفتاح في القفل لكنَّه لن يتحرَّك من مكانه، سيدخل غابرييل غرفته ويبدأ بصياحه وشتائمه. لن يفتح آدم عينيه. يريد أن يموت نائمًا. سيرى بعينه الثالثة المسدَّسَ مصوَّبًا إلى رأسه. سيشدّ على أجفانه كي تبقى مغلَقة، لأنَّه لا يريد أن يرى الموت قبل أن يموت. وعندما سيسيل دمه من ثقب تُحدثه الرصاصة في رأسه سيستسلم للنوم وينسى أنَّه كان.

قبل النوم، دخل الحمَّام. أخذ دُوشًا ساخنًا. نشَّف جسمه بالمنشفة التي كان يطلق عليها اسم منشفة رفقة. ترك شعره مبلَّلًا. نزع المنشفة واستلقى على ظهره عاريًا، وتغطَّى بحرام صوفيّ أخضر، وأغمض عينيه.

مع خيوط الفجر الأولى، سمع المفتاح يدور في قُفل الباب، فأغمض عينيه واستسلم لموته المحتمل، لأنَّه لم يُرد أن يغيِّر شيئًا في السيناريو الذي رسمه لهذه اللحظة.

سمع وقع أقدام في الصالون. تسلَّل ضوء الثريا إلى غرفته.

اقترب وقع الأقدام من باب الغرفة، لكنَّه لا يشبه وقع أقدام غابرييل الواثقة الملأى بالجلبة، ثم شعر بظلِّ رَجل يقف أمام باب الغرفة. ضربته رعشة خوف لكنَّه تماسك. لم يَصدر عن الظلِّ الواقف بالباب أيُّ صوت. بدأ جسم آدم يرتعد، ورأى نفسه يصرخ من دون أن يخرج الصوت من فمه، وفجأة، أزاح الغطاء الذي تدثَّر به، وفتح عينيه.

«بعدك نايم، ليش ما إجيت وفتحت الكاراج؟ يلّا قوم البس.»

كان ممدوح يقف بالباب وهو يداري ضحكته.

«نايم ملط يا عَرْس. قوم البس عليك واعملّي قهوة. بدّي احكي معاك كلمتين.»

«ممدوح!» قال آدم بصوت جافّ.

«نعم، ممدوح، يلّا قوم يا قيس عصرك. البس واعملّي قهوة. في زوج كلام لازم أقولهم وارجع عَ الشغل.»

اختفت ارتعادة آدم. نهض مسرعًا. لبس بيجامته الزرقاء، ووضع الركوة على النار، «وين الخواجة غابرييل؟» سأل آدم.

«الخواجة منجنّ منك، وصل عَ الكاراج الساعة ستَّة، وقعد يدوّر عليك ويشتم. سألني وين العكروت، عرفت إنُّو بيحكي عنك. «ما جاش»، قلت، قال: بدّي أقتل هالكلب. وصار يسبّ علينا كلّنا، ويقول العرب جنس وسخ. أمسكته ودخلت معاه غرفة إفرايم، وحاولت إفهم، وفهمت. ليش عملت هيك؟»

«أنا ما عملتش إشي.»

«أخبرني الزلمة كلّ إشي، وقال لازم تعطيني مفتاح البيت وتختفي. بدُّوش يشوفك ولا يسمع اسمك. اترك البيت وتسهَّلْ.»

أشعل ممدوح سيجارة وارتسمت ضحكة تشبه التكشيرة على وجهه، «وبتسمّي يلّي صار مش إشي؟ عيب.»

«أنا ما عملت إشي عيب.»

«نِكتها للبنت يا ديُّوث. ما تقول لا. هي قالت لأبوها.»

«أرجوك، ما تستعمل هالكلمة البشعة.»

«الكلمة بشعة، ولّا العمل يلّي عملته بشع؟ رجّال تبنّاك وعاملك زيّ أخوه، بتقوم بتطعن عرضه؟ استحِ على دمّك.»

«أنا بحبّ رفقة ومستعدّ أتزوَّجها، بس هي بدهاش. مبارح إجت عندي هون وقالتلي اهرب من البيت لأنّ غابرييل منجنّ. قلتلها مشّ رحّ أهرب وخلّيه يقتلني، بس أنا بحبّك وبدّي أتزوَّجك. قالت بدهاش، شو أسوّي؟»

«إنت تتزوّجها؟ ليش مين مفكّر حالك يا ولد؟ قلّي قدّيش عمرك؟»

«16 سنة.»

«صبيّ عمره ستعش وبنت عمرها خمستعش، هيك بتكون قرطت كلّ شي البنت والكاراج. إنت مجدوب، أو عم تتخوّت عليّ؟»

«أنا بحبّها، وبدّيش أقرط إشي. الله يخلّيك قول لغابرييل إنّي مستعدّ أتزوَّجها.»

«مشّ رح أضيّع وقتي معك، وأكيد مشّ رح أطلبلك إيدها.»

مدّ ممدوح يدَه طالبًا مفتاحَ الشقَّة.

«غابرييل معاه مفتاح.»

«طيّب ضبّ اغراضك وانقلع.»

شرب ممدوح شفَّة من قهوته، «قهوتك مش زاكية، اليهود بعرفوش يطحنوا البنّ عَ الأصول.»

وقف ممدوح وَهَمَّ بالخروج: «شو بدّك ياني أقول للزلمة؟»

«بعرفش.»

«إيمتى رح تترك البيت؟»

«بعرفش.»

«والله إنَّك عكروت كبير. خبّرني كيف لَقيت اليهوديَّات؟»

«تحكيش هيك، أنا بحبّ رفقة.»

«سيبك من هالحكي، كلّهم شرموطات.»

«ما بسمحلك، هذي حبيبتي.»

«حبيبتك يا حمار. أكيد هلَّق قاعدة بالمدرسة عم تخبِّر أصحابها عن نياكة العرب.»

«أنا مش عرب.»

«إنت مش عرب؟ إنت إيش؟ خاين ابن كلب؟»

«قصدي أنا بني آدم، بصرش تحكي معي هيك، عرب ويهود. هذا حبّ.»

«إنت حمار، اضحك بعبّك، كلّ الشباب بيتمنّوا يعملوا متلك، بس ما حدا زابطة معاه. ازمط بريشك وافرقنا. يلّا هات المفتاح.»

«روح قول لمعلّمك إنّي مش رح أترك البيت، خلّيه يجي يقتلني.»

«الزلمي بده بيته. شو هالحركات؟»

«هذا بيتي هو ما إلوش بالبيت.»

«لا إله إلّا الله. هذا بيتك! من فين جبت المفتاح؟»

«هو أعطاك المفتاح، يعني هيدا بيته.»

«لا، هدا مش بيته.»

«إيش هالحكي؟»

«هدا بيت عرب، وأنا عربي.»

«إسّا صرت عربي وعامل بطل؟ انقلعْ، وإلّا بضربك.»

«قلتلك مش طالع، هم سرقوا البيت وأنا استردّيته. بدّي رفقة، وبدّي البيت.»

نظر ممدوح إلى آدم بشفقة، ونصحه بألّا يعاند: «هذه دولتهم، بلاش تياسة، وإلّا فسيكون مصيرك السجن والبهدلة. اسمع منّي وبلاش مشاكل.»

«شو قلت؟»

«طيّب، بترك البيت، بس بدّي أكم يوم حتى أدبّر حالي.»

مشى ممدوح صوب الباب، ثم التفت إلى آدم، وقال له إنّه سيقول لغابرييل إنّه أعطاه فترة سماح مدّتها أسبوع، «واللهِ إذا إجيت بعد أسبوع ووجدتك هون، أنا بقتلك. من وين طلعتلنا. رح تخرّب علاقتنا بالزلمة، فاهم؟»

غادر ممدوح ليجد آدمُ نفسَه وحيدًا.

كانت السابعة والنصف صباحًا، وعليه أن يذهب إلى المدرسة. لكنَّه بدلًا من أن يلبَس ثيابه، استلقى على السرير وغرق في نوم عميق.

اختفت رفقة.

لم يترك آدم وسيلة إلَّا حاول من خلالها الاتِّصال برفقة. تلفن إلى بيتها عدَّة مرَّات، وكان يُقفل الخطّ قبل أن يحكي. يسمع صوت غابرييل أو زوجته تالي، فينشلّ لسانُه ولا ينطق بحرف. ذهب إلى مدرستها وانتظر: انتظر أن تأتيه إلى مدرسته؛ انتظرها في البيت. كان يتسلَّل إلى الكاراج وينتظر في زاوية الشارع المحاذية، لكن رفقة لا. مضى الأسبوع، وعليه أن يترك البيت كما وعد ممدوح، لكنَّه بدلًا من أن يبحث لنفسه عن مسكن انشغل بالبحث عن رفقة التي لم يجدها.

البيوت العمياء

صباحَ السبت الموافق فيه 12 آذار 1965، وضع آدم مفتاح البيت على طاولة الصالون. حمل حقيبته الملأى بالكتب والدفاتر بعد أن أضاف إليها صورة شهلا وابنها. ضبّ ثيابه في بقجة لفَّها بحرام، وغادر البيت من دون أن يعرف إلى أين سيذهب.

كانت السابعة صباحًا. شوارع السبت اليهوديّ شبه فارغة. ريح باردة تلفح وجهه برائحة البحر، ورذاذ ربيعيّ يهطل خفيفًا، وشعور بأنَّه يمشي في مكان غريب لا يعرفه. أحسَّ آدم بأنَّه يفتح عينيه للمرَّة الأولى، كأنَّه لم يرَ المدينة من قبلُ، أو كأنَّ الغطاء انزاح عن وجه المكان، فبدت البيوت كأنَّها وجوه رجال ونساء بلا عيون.

سينحفر وادي الصليب في ذاكرته بصفته مأوًى لبيوت سُمِلت عيونها، لا تستطيع النظر إليها من دون أن تشعر بالقشعريرة في أوصالك. بيوت فسيحة بشرفات واسعة ونوافذ كبيرة، تحوَّلت إلى تجسيد للعماء. جميع النوافذ والأبواب سُدَّت بحجارة من الباطون،

بحيث بدت البيوت بلا عيون. وأحسَّ الفتى بأنَّه كان أعمًى لأنَّه لم يرَ، فلو رأى لَما استطاع أن ينام ليلة واحدة في هذا المكان الموحش.

نظر إلى البيت الذي كان يُقيم به مبنى مؤلَّف من ثلاث طبقات تُزنِّرها شرفات عريضة مستديرة، أقام بالطبقة الأرضيَّة منه، غير أنَّ الطبقتين الثانية والثالثة كانتا مقفلتَي العيون، كجثَّتين. شعر بأنَّه عاش تحت جثَّة المكان، وأنَّه أمضى ستَّة أشهر من عمره في مقبرة.

فكرة المقبرة أصابته بالذعر. خطر له أن يعود إلى البيت كي يأخذ جميع صور أفراد العائلة التي أقامت به، لكنَّه ترك المفتاح في الداخل، ولا يجرؤ على الذهاب إلى الكاراج كي يطلب من ممدوح أن يفتح له الباب.

لن يعود إلى الكاراج أبدًا، ولن يدخل بيت شهلا من جديد، فغدًا سيأتون ويُقفلون نوافذ البيت وأبوابه بالحجارة، وسيتحوَّل بيت شهلا إلى وجه أعمى من الخارج، ومقبرة لصور العائلة من الداخل.

مشى في الشارع، وسمع صوت المكان من خلال سكون المقبرة. فالسكون يتنفَّس ويحمل في ثناياه وشوشاتٍ غامضةً، كأنَّه يحكي بلغة لا نستطيع أن نفكّ رموزها أو نقرأ حروفها. صوت السكون يخبِّئ في داخله مزيجًا من أصداء الأصوات التي التصقت بحيطان البيوت ولم تغادرها. أصوات توشوش من دون أن تقول. أصوات تقمَّصت في أعشاب بريَّة تعربش على الحيطان وترسم إشارات الحياة. سمع آدم وشوشاتِ الغائبين، ورأى الميناء الذي كان يطلّ على مشهده من ستيلًّا مارس بعينين جديدتين. شاهد البيوت تتدحرج في اتِّجاه البحر، وأحسَّ بأنَّ البحر ابتلع المدينة. كأنَّ المكان أُصيب

بالصمم، ولم تعد أصوات حشرجات الغائبين التي تصطدم بالنوافذ المقفلة تستطيع اختراقه.

مشى إلى ساحة الملك فيصل. جلس في مواجهة العمود الذي ينتصب وسط ساحة صغيرة في حيٍّ وادي الصليب. العمود صُمِّم مكسورًا مثل الملك العربيّ المكسور الذي صُنع العمود تكريمًا له، ولذكرى هزيمته في ميسلون.

جلس آدم على حافَّة مبلَّلة ببقايا المطر الذي توقَّف عن الهطول، وضع بقجته وحقيبته في حرجه مخافة أن تتبلَّلا، ولم يبكِ.

ستبقى هذه اللحظة حيَّةً في ذاكرة آدم لأنَّه لن ينساها. قال لروحه إنَّ عليها أن تحفر هذه اللحظة كي تمنعها من الهرب إلى النسيان فتصير غير حقيقيَّة. كأنَّ مغادرته بيتَ عبد الله الأشهل حدثت من زمان، وكأنَّ منالَ صارت مجرَّد صورة صَنع لها إطارًا في مكان ما من ذاكرته، ونسيها هناك.

وخلال أسبوع الغياب صارت رفقة كأنَّها لم تكن. ومرَّ أمامه شريطُ حياته كأنَّه حياة إنسان آخر، سأل آدم نفسه ما علاقة هذا الفتى بالكائن الذي كانَه: هل هو الابن البكر للغيتو، أم أنَّ الغيتو مجرَّد قصَّة جميع أبطالها من صنع الخيال؟

ابتسم وهو يتأمَّل في العمود المكسور. فهذا العمود صُمِّم كي يكون مكسور الرأس كتحيَّة من مدينة خائفة على مصيرها، إلى مَلِكها الذي تخلَّى عنها وذهب إلى العراق بحثًا عن عرشه القاتل، ولم يعد إلى حيفا إلَّا جثَّةً في سنة 1933، بعد موته في سويسرا. وفكَّر في أنَّ هذا العمود يشبهه، لأنَّه هو أيضًا وُلد مكسورَ الهامة، في مدينة صار

على مَن بقي من أبنائها فيها أن يعيش في غيتو مكسورَ القلب والجناح.

ابتسم آدم لأنَّه شعر بأنَّ هذا العمر الذي صبغ حياته بالأسى مجرَّدُ مهزلة؛ مهزلةٍ لا تُثير الضحك لكنَّها لا تدعو إلى البكاء. وحاول أن يجد خيطًا يربط مراحل حياته المتعدِّدة، بعضها ببعض، لكنَّه لم يجده، وأُصيب بالذهول حين شعر بأنَّه لا يمتّ بصلة إلى الطفل الذي كانه في غيتو اللدّ. كأنَّ ذلك الطفل ليس أكثر من صورة بدأ الزمن يمحو ملامحها. نظر إلى نفسه في مرايا ذاكرته، ورأى طفل الغيتو، وقد صار شابًّا طويل القامة، وشعر بأنَّ الجسم الذي استطال فجأة لا علاقة له بالفتى النحيل القصير القامة الذي كانت نساء الغيتو يضحكن من قِصَر قامته، ويقلن إنَّ طوله لا يتجاوز طول النرجيلة.

من أين عادت صورة النرجيلة التي امَّحت من ذاكرته اليوم؟

كان آدم الطفل يرى في عينَي أمّه شفقةً خفيَّة؛ فالمرأة حين كانت تغضب من ابنها، كانت تعيِّره بشعره الأشقر الذي لا يشبه شعر والده البطل بسواده الحادّ الذي كان يرتفع فوق جبين أسمر عريض وعينين صقريَّتين. «من فين جبت هالشعر الأشقر؟ شو هالفرق بينك وبين الشهيد، كأنَّك مش ابنه.» لكنَّها لم تعيِّره يومًا بِقصَر قامته، مع أنَّه كان يقرأ الحيرة في عينيها.

اقتنع آدم بأنَّه أشقر وقزم، مثلما كان يعيِّره رفاقه، كأنَّ جسمه الذي التصق بالأرض يرفض أن يرتفع. وفجأة، لا يدري كيف صار طويلًا، ووصل طوله، وهو في السادسة عشرة من عمره، إلى مئة وثمانين سنتمترًا، وتغيَّر لقبه ليُصبح الأشقر الطويل.

كان جسمه يتغيَّر ويعلو تحت نظرات أمّه التي فوجئت به وقد صار إنسانًا آخر. فخذاه القصيرتان السمينتان صارتا طويلتين. طيزه اختفت، ووجهه المدوَّر أصبح مستطيلًا. كأنَّه لم يصر طويلًا إلَّا بسبب عينَي منال اللتين كبر فيهما، ومن أجلهما.

صار طويلًا كأنَّه شخص مختلف؛ كأنَّ آدم الطفل مات وحلَّ مكانه آدم آخر. هذا الشعور سيرافق آدم إلى القبر، فالرجل صار يشعر بأنَّه يحمل أمواتًا في داخله نسيهم أو تناساهم. ففي كلِّ منعطف من حياته سيموت وينبت في مكانه إنسان آخر، ولن يستيقظ الموتى وتكتظّ بهم حياته إلَّا في نيويورك حين اقترب من موته الأخير.

في ذلك الصباح المليء باحتمالات المطر، رأى الفتى بعينَي رأسه كيف يموت أمامه آدمُ الكاراج وآدمُ رفقة، كي يولد في مكانه آدم جديد لا تزال ملامحه غامضة. هذا الآدم كان في حاجة إلى الحنان والدفء، ولن يحتمل تأنيب الضمير. في تلك اللحظة محا الشعور بالذنب من قاموسه. لن يندم على وظيفته في الكاراج التي فتحت له أبواب مدرسة حيفا، ولن يندم على رفقة التي أضاءت حياته بقوس قزح الحبّ، وبألوان البحر، ورأى بعينيها حيفا حمامةً تحتضن البحر الأبيض بجناحيها الأبيضين، حين قاما برحلة بحريَّة في مركب صغير. لن يندم لأنَّه ترك منالَ تتخبَّط في مصيرها، ولن يشعر بالذنب لأنَّه خان صداقته لغابرييل من أجل الحبّ.

الخيانة كلمة لا معنى لها. مَن خان مَن؟ هل آدم هو الخائن، أم إنَّ الخائن الحقيقيّ هو غابرييل؟ لماذا جُنّ غابرييل؟ أليس آدم أخاه الصغيرَ؟ ألا يحقّ له الحبُّ؟ ألم يقل له غابرييل إنَّه سيجعله يهوديًا، وسيُخضعه لعمليَّة تطهير كي يصير يهوديًّا مثل اليهود. وعندما قال له

آدم إنَّه لا يحتاج إلى ذلك لأنَّ أمّه طهَّرته عند ولادته، تعجَّب غابرييل وسأله إذا كانت أمّه يهوديَّة؟

«لا، أمّي مسيحيَّة»، أجابه.

«يعني كيف؟»

«ولا كيف ولا غير كيف. أبي مسلم وأنا مسلم، ونحن المسلمون نطهِّر الأطفال الذكور عملًا بشريعة إبراهيم.»

«يعني أن المسلمين يهود!» قال غابرييل.

«لا اليهود مسلمون»، أجابه آدم، وهو يتذكَّر عبارة ذي النون: «أبناء إبراهيم مسلمون كلّهم، فالإسلام هدى البشر إلى الحقّ بالحقّ، والإسلام هو كلّ الأنبياء من آدم إلى إبراهيم، ومن موسى إلى عيسى إلى النبيِّ العربيِّ»، التي قرأتها له أمُّه في مقام ذي النون المصريّ المتصوِّف، الذي يعتقد آل دنُّون أنَّه جدّهم الأكبر.

لماذا فَقَدَ غابرييل أعصابه عندما علم بأنَّ هذا «العربيّ القذر» ضاجع ابنته؟ رفقة قالت إنَّ أباها استخدم هذه العبارة، بل قال أكثر من ذلك. قال إنَّها لوَّثت نفسها بالوسخ، وإنَّها في حاجة إلى التطهُّر بالماء من قمَّة رأسها حتى أخمص قدميها.

ابتسم آدم وهو يفكِّر في أنَّ غابرييل هو مَن صار مسلمًا، بدلًا من أن يحوِّل شقيقه المسلم إلى يهوديّ.

مَن هو الخائن في حالتي آدم وغابرييل؟

هل خان غابرييل نفسَه عندما صادق آدمَ، أم أنَّ آدم الذي لبسه دور الفتى اليهوديّ، هو الخائن؟

فكَّر آدم في أنَّ كلمة الخيانة لا معنى لها، فكلّ واحد منَّا مؤهَّل

لأن يُعتبر خائنًا حين لا يلبّي توقُّعات الآخرين. لذا، لن يندم. سيرمي الماضي كلَّه وراءه. حتى الحبُّ الذي احتلَّه، سيرميه في النسيان، ولن يبقى من رفقة سوى عينيها المفتوحتين على الخوف وهي ترتجف واقفة على عتبة بيته كي تطلب منه أن يهرب من والدها الذي سيقتله.

هل خافت عليه، أم خافت على والدها، أم خافت على نفسها؟

الخوف يطفئ نور القلب ويدمِّر الحبّ. هذا ما استنتجه آدم وهو يجلس حائرًا، وفهم أنَّ الخيانة لها مُرادفٌ واحد هو الخوف.

أمام العمود المكسور في ساحة صغيرة في وادي الصليب، حفر آدم في ذاكرته لحظةَ موت آدم واستعداده للولادة من جديد، كما نحَّى الخوف جانبًا كي لا يهوي في قاع الخيانة.

وقف ومشى، فقادته قدماه إلى المكان الوحيد الذي يستطيع أن يذهب إليه في هذه المدينة. رأى نفسه يهبط أدراجًا ويمشي في أزقَّة، ليصل إلى أمام باب مدرسة المطران.

كان الباب مفتوحًا، ومدخلُ المدرسة مليئًا بالأولاد الذين يستعدُّون لدخول الباحة. فتَّش عن وجه يعرفه، فلم يجد. وقف حائرًا ماذا يفعل حين اقتربت منه سهام، زميلتُه السابقة في الصفّ، وسألته ماذا يفعل هنا.

«إنت شو عبالك، تركتنا ورحت على مدرسة اليهود، شو جابك؟»

قال إنَّه يبحث عن الأستاذ نعيم.

«أستاذ الماء؟» قالت سهام ضاحكة.

«الأستاذ نعيم قاسم»، قال.

«تعالَ، بكون بقاعة المدرِّسين»، قالت.

«بدّيش أدخل. فيك تندهيله؟»

عادت سهام بعد دقائق وبصحبتها الأستاذ نعيم الذي سأل تلميذه القديم متعجّبًا ماذا أتى به، «هل طردك اليهود من مدرستهم؟ كنت أعرف ذلك، يا ابني. تعال ارجعْ إلى أهلك وربعك. أنت تلميذ ممتاز، وأعتقد أنَّ المدير لن يعترض على عودتك.»

قال آدم متلعثمًا إنَّه يريد أن يروي حكايته للأستاذ لأنَّه في حاجة إلى مساعدته.

«تعالَ عندي في الساعة السادسة مساءً. الآن يجب أن أدخل الصفّ.»

فكَّر آدم في أنَّ أفضل مكان كي يضع فيه أغراضه هو فرن عبلة. فهذا الفرن القريب من المدرسة كان مطعمَه اليوميَّ، يفطر فيه منقوشة زعتر، ويتغدَّى منقوشة لحم بعجين أو منقوشة فلفل وزيت، ويأخذ معه إلى الكاراج رغيفَ خبز كي يتعشَّاه مع ما يحمله من بندورة وبصل. وصارت عبلة، المرأةُ الستّينيَّة الممتلئة الجسم، والتي يشبه بياضها بياض العجين، تعطف على هذا الولد اليتيم، فتُطعمه بين وقت وآخر شيئًا من الطبيخ التي كانت تجلبه من بيتها كي تتغدَّى به، وترفض أن تقبض ثمنه.

ذهب إلى عبلة التي ما إن رأته حتى هرولت نحوه مرحِّبةً وهي تحمل في يدها منقوشة زعتر.

لم تسأله لماذا يريد أن يضع أغراضه عندها. رأت في عينيه حزنًا وحيرة، فقالت له «تِكْرَمْ عينك، بس ما تتأخَّرش. لازم أسكّر الفرن في الرابعة وبقدرش أنطرك أكثر.»

وفي المساء، روى للأستاذ حكايته.

«يعني إنت شهيد الحبّ»، قال الأستاذ.

ابتسم آدم ولم يجاوب.

قال الأستاذ نعيم: «الحبّ، يا ابني، هو ماء الحياة الذي يسيل. الحبّ هو السباحة في هذا الماء. الذَّكَر يسبح في ماء الأنثى، والأنثى تستقبل ماء الذَّكَر. وعندما يجفّ الماء يتوقَّف الحبّ، وعندما يتوقَّف الحبّ تصير الحياة جافَّة، وعندما يجفّ ماؤنا نموت.»

بعد هذا الخطاب العلميّ الذي استفاض الأستاذ في تدبيجه، انتقل إلى محاولة فهم تصرُّف غابرييل، وقال إنَّ الرجل اليهوديّ كان محقًّا، فهم يخافون من مائنا مثلما نخاف نحن من مائهم. يجب ألَّا يختلط الماء بالماء، وإلَّا فُقدت الهويَّة.

لم يقل آدم إنَّه لا يفهم معنى الهويَّة، وإنَّه هارب منها، فالوقت ليس وقت مماحكة. كان يريد من أستاذه شيئًا واحدًا، هو أن يدبِّر له غرفة يُقيم بها في المدرسة.

اقترح الأستاذ على آدم أن يعطي الطلَّابَ دروسًا في اللغة العبريَّة بعد انتهاء الدوام. «بتعرف فيناش ما نسلِّح الطلَّاب بهادي اللغة عشان البجروت وعشان الجامعة، وإنت ممتاز باللغة العبريَّة، ومندفعلك معاش صغير، حتى تدبّر حالك.»

«شكرًا»، قال آدم.

«بس فين بدّك تنام؟» سأل الأستاذ.

«بعرفش»، قال آدم، «بركي بالمدرسة؟»

«المدرسة؟ مستحيل!»

«بدوّرلي على مكان.»

«بسّ المعاش بكفّيش، لازم تلاقي حلّ.»

ووجد الأستاذ الحلَّ. اقترح على تلميذه أن يستأجر غرفة في منزل الفرَّانة عبلة، «يمكن تطلب منك تساعدها شْوَيّ بالفرن الصبح بكِّير قبل ما تروّح على المدرسة. عبلة امرأة ممتازة ووحيدة، وبفتكرش عندها مانع تستقبل عندها بالبيت شابّ صغير بعمر أولادها.»

نام آدم ليلته في منزل أستاذه. وبعد عودته من المدرسة، رأى الأستاذ نعيم يقف مع عبلة أمام الفرن في انتظاره، وكانت ابتسامة الأستاذ هي الدليلَ على أنَّ الصفقة تمَّت.

وافق آدم على اقتراح عبلة أن ينام في الفرن لأنَّها لا تستطيع أن تستقبل شابًّا غريبًا في بيتها: «أنا ما عندي مانع، بس أنت بتعرف، كلام الناس برحمش». وقالت إنَّها أعدَّت لآدم مكانًا يبيت فيه، شرط أن تساعدني في العجين في الصباح الباكر. يعني منبلِّش الساعة ثلاثة الفجر.»

وافق آدم، فهو لم يكن يملك خيارًا آخر.

وهكذا، طوى صفحة الكاراج ووادي الصليب، وبدأت حكاية جديدة.

من الغيتو إلى الغيتو

في وادي النسناس، استعاد آدم نكهة طفولته.

في حيفا، حين انتقل مع والدته ليعيشا مع زوجها، شَعَرَ الفتى بالضياع. ترك الغيتو الذي عاش فيه طفولته ليجد نفسه وحيدًا في مدينة جعلته يشعر بالاختناق. كوخ ضيِّق لا يشبه البيت الكبير الذي عاش فيه سبعة أعوام، ورجلٌ ينشر من حوله رائحةَ النفايات التي كان البحثُ فيها عن الزجاج والأواني النحاسيَّة المرميَّة وسيلتَه لتحصيل قُوْته وقُوْتِ أفراد عائلته الصغيرة. شعور بالوحدة في المدرسة التي كان يمشي إليها كلّ يوم أكثرَ من نصف ساعة، ويضيع في كثير من الأحيان في الأزقَّة والشوارع، وإحساسٌ بأنَّه فقد أمان الغيتو.

قرأ آدم عبارة أمان الغيتو وضحك من كاتب هذه السطور الذي يختبئ في الغياب كي يتمكَّن من استحضار طفولته التي ينظر إليها بصفتها طفولةَ شخص آخر.

كيف تجرؤ الذاكرة على أن تصف أيَّام غيتو اللدّ بالأمان؟

للذاكرة تركيبها الخاصّ الذي يُحيل الحياة على ما يشبه المنام. يمحو الزمَن ويحوّل الأحداثَ إلى ظلال تصنع صُوَرًا متلاحقة وغير مترابطة. غيتو اللدّ لم يكن سوى منام. وآدم الطفل، الذي عاش بين همسات أمّه ودروس مأمون الأعمى، ليس سوى صورة تنبثق من ضباب الذاكرة، محمولة على حكايات ممزَّقة لم يستطع الطفل جمع مِزَقها إلّا عندما دخل في مشارف الكهولة، في مدينة بعيدة، يجلس في إحدى شققها الصغيرة، كي يتمرَّن على صَوْغ حياة لم يعشها إلّا حين صارت كلمات مكتوبة، كأنَّ الكلمات هي صمغ الذاكرة.

الغيتو هو الطفولة، والغيتو ذاكرة حاضر اكتشفه في وادي النسناس.

حكاية الوادي تختلف عن حكاية اللدّ وتُشبهها في الآن نفسه. فعلى غرار اللدّ حيث سيَّج الجيش الإسرائيليّ المنتصرُ حيًّا صغيرًا يقع في مثلَّث الجامع ـ الكنيسة ـ المستشفى، قام الجيش بتسييج الوادي بالأسلاك الشائكة، بعدما أمر جميع مَن تبقَّى من سكَّان حيفا بترك منازلهم والتجمُّع في وادي النسناس. عبلة الفرَّانة روت أنَّها شهدت كيف تحوَّل الحيّ إلى غيتو، وكيف جاء الناس من الحليصة والهادار وشارع عبَّاس، يحملون ما تيسَّر من متاعهم ليُقيموا ببيوت الغائبين الذين ركبوا سُفُنَ التيه إلى عكَّا، أو إلى بيروت.

«إيش بدِّي أخبّرك يا ابني، أنا لا أذكر الناس إلَّا والدموع في عيونهم؛ دموع تجمَّدت على أطراف العيون، ووجوه تائهة، وألم.»

قالت عبلة إنَّ الله سترها عليها، «أنا بقيت مع أمِّي الكسيحة. قلت لزوجي إنتم روَّحوا بس أنا بقدرش، ببقى بلحقكم بعدين. بقيت

بالبيت، وسكَّرت الشبابيك حتى ما شوف، وبعدين شفت كلّ إشي. لمّا أجوا جماعة الهاغاناه وأجبروني أفتح الشبابيك وفتَّشوا الدار.»

«وليش ما لحقت زوجك؟»

«فين ألحقه يا حسرتي، بعتولي كيف عايشين زيّ الكلاب في ضواحي بيروت. قلت بنطر، وبعدين برجَّعهم لما بِصير لَمّ شمل، وعشت هون بالغيتو. وكنت وحدي. والكلام بيناتنا، حسَّيت إشي غريب، الله يسامحني، متل إشي تقيل انزاح عن صدري. بتعرف رجّال البيت بيلبّك وبِخلّي المرا متل الخرسا: بتحكيش إلّا لتقول نعم، بتقعد بالدار وبتنطر. لمَّا روّحوا وصرت لحالي لأنَّه أمّي المقعدة توفَّت في شهر 7، يعني بعد ثلاثة شهور من سقوط المدينة، وفتحت الفرن، حسّيت إنّي حرَّة؛ حرَّة وساكنة بحبس. إشي مش مفهوم، بس إنت أكيد فهمت عليّ.»

«ولَمّ الشمل؟» سألها آدم.

«بعد سنة التلجة، حسَّينا بشويَّة حرّيَّة، ووقتها فكَّرت بلّش بإجراءات لَمّ الشمل، بس كان كلّ إشي تغيّر.»

قالت إنَّها لم تخبر زوجها عن وفاة والدتها كي لا تضطرّ إلى اللّحاق به، وعندما وجدت أنَّه صار من الممكن البدء بإجراءات لَمّ الشمل من أجل ولديها، اكتشفت أنَّ الآوان فات.

«رحت عند المحامي. كان اسمه حنّا، الله يسهِّل عليه. قال إنَّه بحاجة لهويَّة زوجي والأولاد، وبلَّشنا التفتيش عن الرجّال، كأنَّه فصّ ملح وذاب. المحامي ساعدني بالتفتيش. بحث بكلّ مخيَّمات لبنان من دون نتيجة. وبعد حوالى ستَّة أشهر، اتَّصل المحامي وقال لي العصفور

طار. ما فهمت شو يعني. بلَّش المحامي يضحك، وقال الرجَّال تزوَّج وعايش بالشام، وبدُّوش يجي عَ حيفا.»

«والأولاد؟»، سألها آدم.

«بعرفش إشي عنهم. عندي ولد وبنت، وردة وعلي، يمكن أبوهم خبَّرهم إنِّي متت، بعرفش. بس ما قدرت أتواصَل معهم، وهمَّ ما اتَّصلوا، منشان هيك خلِّيت اسمي عبلة. الناس كانوا يندهولي أمّ علي، قلتلهم خلص، حطِّيت اسم جديد للفرن. كان اسمه فرن أبو علي، وإسّا صار اسمه فرن عبلة.»

«وليش ما تزوّجتِ؟»

«أنا إتزّوج، يفتح الله. أنا هيك حرَّة، فشّ حدا فوق راسي. وبعدين بيني وبينك بقدرش إتزوَّج. بعدني على ذمَّة أبو علي. هو تزوَّج وعاش حياته وحبسني عنده، وما بعتلي ورقة الطلاق.»

«يعني مبسوطة إنَّك تكوني حرَّة؟»

«خلِّيها على الله، يا زلمي. دقنا المُرّ بالغيتو. كان أفيناش نخرج إلَّا بإذن الحاكم العسكريّ، ولك حتى أجيب كمشة طحين كان لازم أتذلَّل وإنهان. كلّ يوم إهانة. تْفُو على الذلّ. أذلُّونا وبعدنا ذليلين. بسّ خلِّيها على الله.»

عبلة علَّمت آدم أن يميِّز بين ثلاثة أنواع من البشر يعيشون في الوادي، «بعرفهم من أكتافهم»، قالت. «سكَّان الوادي الأصليين، يلّي بقيوا ببيوتهم، ناس عاديِّين، تبهدلوا بس عالقليلة ما تركوا مطارحهم، هيدول بيمشوا في الشوارع عادي، أكتافهم مرفوعة وما بتنحني إلَّا للعمر. أمّا سكَّان أحياء حيفا يلِّي أجبروهم على ترك بيوتهم والعيش

ببيوت الغايبين، فبتحسّ من أكتافهم المنخفضة ونظراتهم يلّي دايمًا على الأرض إنَّهم حاسّين حالهم مبهدَلين. والفئة الثالثة هي الناس يلّي إجت على حيفا من القرى المجاورة، من الطيرة وغيرها، هادول إشي بقطّع القلب، كأنَّهم ضايعين بالمدينة. فلّاحين بلا أرض، فقدوا كلّ إشي، وبيشتغلوا عمّال بالِبنا وبتعبيد الطرقات وبالبُوَر. الله يساعدهم.»

التفتت عبلة إلى آدم، وسألته «وإنت من أيّ فئة؟»

«أنا غريب»، قال آدم.

«من أيّ قرية؟ أنا بقولك إنت من صفّوريّة، زيّ سهام.»

«سهام؟»

«تلميذتك يلّي بتعطيها المناقيش ببلاش، وأنا بعمل حالي مش شايفة. صحتين على قلبك وقلبها. بنت فقيرة، وأبوها عتّال بالمينا، ودايمًا يخبّرني عن الناصرة.»

«الناصرة؟ ما هو من صفّوريَّة.»

«ما قلتلّي، إنت من فين؟»

«أنا من الفئة الرابعة.»

شرح لها آدم أنَّه لا ينتمي إلى فئاتها الثلاث. قال إنَّه من اللدّ، وجاء إلى حيفا كي يدرس.

«ليش حيفا؟ الناصرة أحسنلك.»

قال إنَّ قصَّته طويلة، وبالمختصر فهو يتيم. زوج أمّه حيفاوي عاد من لبنان متسلّلًا إلى المدينة.

«يعني بيت أمّك بحيفا. وليش يا مشحَّر ساكن عندي بالفرن؟ يبدو

أنَّ زوج أمّك طردك من البيت. تفُو على الرجال.»

اعتبرت عبلة أنَّ صمت آدم دليلٌ على الموافقة على كلامها، ولم تُرِدْ أن تُحرجه أكثر، فتابعت حكايتها عن والد سهام، وأنَّها لم تفهم لماذا يحنّ الرجل إلى العودة إلى الناصرة بدلًا من أن يحنّ إلى قريته.

وعندما توثّقت علاقة آدم بسهام بعد دخولهما جامعة حيفا، هي من أجل دراسة علم الاجتماع، وهو من أجل دراسة الأدب العبريّ، سألته الفتاة لماذا يدرس الأدب العبريّ، «ليش أولاد عمّنا عندهم أدب؟» أجابها ضاحكًا «وإنت ليش بتدرسي علم الاجتماع؟ ليش إحنا الفلسطينيَّة بإسرائيل عندنا مجتمع عن حقّ وحقيق؟»

هكذا بدأت صداقتهما القصيرة التي أصرّ آدم على أن يحفرها في ذاكرته بصفتها حبًّا.

«أنا ما بآمن بالحبّ، سِيبك من هالقصّة وخلّينا أصدقاء»، قالت له وهو يهمّ بتقبيلها بعدما أقنعها بأنَّ المشهد من ستيلّا مارس هو أجمل مشهد في العالم.

تراجعت الفتاة إلى الوراء، وقالت إنَّ المشهد جميل، لكنَّه لا يقارَن بنبع صفُّوري.

«أبوي صبحي ناصر، بتعرف شو عمل فينا أنا وإخوتي؟ لمَّن الولد يصير عمره سبع سنين كان ياخده على نبع صفُّوري، يشلّحه تيابه ويغطّسوا بالميّ المتلّجة، وكان تاريخ معموديّتنا كلّنا عَالفصح. صحيح كانت الدنيا ربيع، بس فيك تتخيَّل لَسعة برد نيسان وأنا واقفة زَلْط مَلْط وعم إرجف وهو يغطّس جسمي وراسي تلات مرَّات، ويقول عَمْ عمّدك بصفُّوريَّة، حتى ما تنمِحي البلد عن جِلْدك؟ هيك عمل معي ومع

خَوَاتي وإخوتي. أنا كبيرة ستّ أولاد، يعني رحت ستّ مرّات عالمعموديَّة المجنونة هذه. بالأوَّل كنت أكرهها، بعدين فهمت. صرت وأنا عم إتفرَّج على عمادة إخوتي حسّ بروح البلد عم تتحرَّك تحت جلدي. والسنة الماضية، بمعموديَّة أخي الصغير ناصر، حسّيت بدِّي إنزل عَ المي، وبلَّشت إخلع تيابي، فصرخ فيّي أبوي: «إيش عم تعملي يا مجنونة»؟ «بدِّي إتعمَّد» جاوبت، «ممنوع» قال، «العمادة مرَّة واحدة. العمادة مش حمَّام، العمادة شي مقدَّس.»

«غريب»، قال آدم، «على علمي إنتم مسلمين، والمعموديَّة طقس دينيّ مسيحيّ.»

«إيش بعرِّفني، أكيد نحن مسلمين، بسّ زيّ ما قلت لك أبوي مجنون.»

أشعل آدم سيجارته، ونظر إلى البعيد واتَّخذ شكل الأستاذ وقال إنَّه يعتقد أنَّ هذا التقليد من بقايا الصليبيِّين، فصفُّوريَّة كانت مدينة صليبيَّة تابعة لمملكة القدس، وفيها بنى الصليبيُّون قلعة شهيرة أعاد ظاهر العمر تجديدها. المسألة معقَّدة، ففي التقليد المسيحيّ، البلدةُ هي المكان الذي وُلدت فيه مريم العذراء، أمُّ يسوع الناصريّ، وفيها بقايا كنيسة صليبيَّة باسم القدِّيسة حنَّة والدةِ يوحنَّا المعمدان، والتي يُقال إنَّها كانت تُقيم بها مع زوجها زكريّا، «يعني، يا عزيزتي، هذي بقايا معتقدات مسيحيَّة، لا أكثر ولا أقلّ.»

«بلاش فلسفة هلَّق»، قالت سهام، «أبوي قلّنا هادا تقليد بصفُّوريَّة، وهو اتعمَّد لمَّا كان عمره سبع سنين. سألت رفقاتي بحيّ الصفافرة، وفهمت أنَّه ما حدا سامع بهالتقليد. هيك أبوي، بيألِّف تاريخ على ذوقه. مش معقول هالرجّال، بتعرف إنَّه بصومش رمضان؟

نحن العيلة الوحيدة بالعالم يللي منصوم شعبان بدل رمضان.»

«شو هالحكي؟»

«إي والله، مجنون، بس أنا بحبّ هالجنون.»

«ليش؟»

«بتعرف إيمتى قصفوا صفُّوريَّة بالطيران؟»

«لا.»

وروت أنَّ والدها روى أنَّهم كانوا إلى موائد الإفطار في شهر رمضان عندما حلَّقت طائرتان إسرائيليَّتان فوق القرية، وبدأتا برمي براميل ملأى بالمتفجِّرات. كان ذلك في 15 تمُّوز 1948، والناس كانوا فارشين مائدةَ الإفطار في حواكير البيوت هربًا من الحرّ. قال صبحي إنَّهم كانوا يفطرون كبَّة بلبن، واختلط الدم باللبن. لم يسلم أحد من أفراد عائلته سوى هو وجدّه الضرير. قال إنَّ جدَّته كانت واقفة أمام طنجرة كبيرة تسكب، «لم نسمع صوت الانفجار، أحسسنا كأنَّنا وسط الريح. طرنا في الهواء. وعندما استفقت من هول الصدمة، رأيت جدِّي يدبدب على الأرض والدم يغطِّيه، أنهضته عن الأرض وقلت يلّا نمشي. يومها احتقرت نفسي. كانت ركبتاي ترتجفان من الخوف. كنت أريد فقط أن أهرب. التفت جدِّي صوبي وقال بصوت مرتعش: وين نروّح؟ وين المرا والأولاد؟

«نظرتُ فلم أرَ سوى الأشلاء، ولم يكن أحد حيًّا.

قال جدِّي إنَّه لن يمشي، «لازم ندفنهم قبل ما نروّح.»

«هل تستطيع أن تتخيَّل مشهد أبي يترك جدّه وأشلاء جميع أفراد عائلته، ويهرب؟»

قالت سهام إنَّ والدها لم يخبرها الحكاية دفعة واحدة. كانت الحكاية في البداية عن البراميل التي جعلت أفراد العائلة يشردون، وكيف أضاع الجميعَ، ولم يجد سوى جدّه الأعمى الذي رفض أن يهرب معه إلى الحقول حيث التجأ الناس، ثم كيف وجده جثَّة هامدة بعد عودته مع أبناء القرية.

قال إنَّهم عادوا في شهر أيلول، وإنَّه صار وحيدًا، «كنت في السادسة عشرة، لكن شكلي يوحي بأنَّني أصغر سنًّا. أنا مثل والدي، لم ينبت شعر لحيتي إلَّا عندما صرت في العشرين، كنت أبدو كطفل.» كان على ذلك الطفل أن يجرّ جثَّة جدِّه المنتفخة بالموت، ويدفنها قرب البئر في الحاكورة، «كان جدِّي يخاف من نفاد المياه، على الرَّغم من أنَّ قريتنا مشهورة بينابيعها. دفنته قرب الماء، وكنت كالتائه، ثم أتى جيش اليهود وطُردنا من البلد.»

حين كان أولاده يسألونه عن سائر أفراد عائلته، كان صبحي يجيب بأنَّه أضاعهم. لم يُخبر قصَّة موتهم الفاجع إلَّا مرَّة واحدة، كان ذلك في 15 تمُّوز منذ سنتين، «كنَّا نجلس في بيتنا الصغير في حيٍّ الصفافرة المواجه لصفُّوريَّة، حين بدأت الدموع تنهمر على خدَّيه بصمت، وحين سألته أمِّي ما به. قال إنَّه يتذكَّر الآن، كأنَّ عينيه كانتا مغطَّاتين بالسواد. قال إنَّ ذاكرته تؤلمه، وروى الحكاية التي صار يرفض العودة إليها حين كنت أسأله عنها.»

«اِنسَي»، قال.

قالت سهام إنَّها فهمت في تلك اللحظة لماذا لا يصوم والدها في شهر رمضان. كان يقول إنَّه سيصوم رمضان في صفُّوريَّة فقط، «عندما نعود، نرجع إلى الصوم.»

«لكنّكم تصومون في شعبان.»

«أبي رجل مؤمن لا يستطيع ألّا يصوم، لذلك اخترع صوم شعبان.»

قصّة سهام كانت غريبة، لكن آدم صدّقها لأنّه شعر بأنّه يستطيع أن يحبّ هذه الفتاة الممتلئة البيضاء التي يطفح خدّاها باللون الأحمر. الحبّ كان قرارًا. أراد آدم أن يُخرج رفقة من قلبه، فبدأ يقلّد نفسه. أخذ سهامَ إلى ستيلّا مارس، جلسا على المقعد الحجريّ نفسه. روى لها حكايات يعرفها ولا يعرفها، لكنّه كان يقرأ في عينيها أنّها لم تصدّق حبّه.

قالت له أن يتوقّف عن هذه اللعبة لأنّها ترى في عينيه ظلالَ فتاة أخرى.

كانت سهام واثقة بحدسها، لذا لم تستطع جميع محاولات آدمَ خداعَها.

هل كان آدم يخدع ابنة العتّال الصفّوريّ؟

آدم لا يعرف الجواب عن هذا السؤال. كان يشعر بأنّ الحياة تفتح له أبوابها من جديد. فبعد دخوله الجامعة، صار مدرّسًا بنصف دوام للغة العبريّة في مدرسة المطران، الأمر الذي سمح له بالانتقال من فرن عبلة إلى شقّة صغيرة استأجرها في شارع مار يوحنّا، وشعر للمرّة الأولى بأنّه صار سيّد حياته. درس الأدب العبريّ القديم والحديث، وكان ينتشي بقراءة التوراة، وخصوصًا كتاب أيّوب وقصائد داود في المزامير وسِفر أشعياء ومراثي أرميا، لكنّه كان يشعر بالنقصان، كأن لا أحد له. عبلة، صاحبةُ الفرن، قالت له إنّه زيّ

ابنها، وغابرييل قال إنَّه أخوه، ورَفقة قالت إنَّها حبيبته، وسهام قالت إنَّها صديقته، ورفيقه في الجامعة يهودا دعاه إلى منزله في الفصح بصفته صديقَه الأقرب إلى قلبه، لكنَّه في قرارة نفسه كان يعرف أنَّه ناقص، وأنَّ تلك الكلمات التي سمعها كانت مثل أصداف مجوَّفة لا تنقل سوى الصدى. كان يشعر بأنَّه لا أحدَ لأنَّه لم يكن ينتمي إلى أحد، وأنَّ مغادرته لمنالَ كانت من غير عودة. لم يسأل نفسه لماذا لم تبحث أمّه عنه، فهو كان يشعر بأنَّها كانت تنتظر اليوم الذي يخرج فيه من حياتها ولا يعود. فمنذ يوم الضرب الذي تعرَّضت له أمُّه من قِبَل زوجها، لأنَّها أرادت الذهاب معه إلى اللدّ لزيارة قبر والده، انتهى التواطؤ بينهما. لم يعد يستطيع أن يقرأ عينيها، ولم تعد تنظر إلى جبينه كي تقرأ ما يريد أن يقول ولا يقول. صار حبّه لها حنينًا إلى الأمّ التي كانت، والحنينُ يثقل القلب ويصير عبئًا يجب التخلُّص منه.

وعندما وصل في أحد الصباحات إلى الجامعة، ورأى طلّاب صفِّه متجهمرين أمام الباب وهم يناقشون فكرة الصعود إلى الناصرة من أجل المشاركة في مأتم سهام، أُصيب بالخرس. عرف أنَّ الفتاة ماتت في حادث انقلاب الباص الذاهب من حيفا إلى الناصرة. لم يمت أحد سواها. ارتطم رأسها بحافَّة النافذة، وأُصيبت بنزف في الدماغ، وماتت.

وسط ذهول زملائه، أدار ظهره وعاد إلى البيت، ودخل في الصمت.

الممحاة

خلال الأعوام الأربعة التي أمضاها في الجامعة، لم يلتقِ رفقةَ إلَّا مرَّةً واحدة. بحث عنها كثيرًا وانتظرها أيَّامًا لا تُحصى، لكنَّها اختفت. حين يتذكَّر تلك الأيَّامَ يشعر بالاختناق يقبض على صدره وعنقه. أكمل سنته الأولى في الفرن، حيث اتَّخذ لنفسه زاويةً وضع عليها فرشة جلبتها له عبلةُ من بيتها. وفي الحرارة الخانقة التي كان يختزنها الفرن، ذاب حبُّه قطعةً قطعة. شعر بالندم لأنَّه لم يطلب من رفقة صورة كي يعود إليها. لم يكن يمتلك سوى صورة شهلا وابنها. ووسط حرارة الفرن وصقيع الهَجْر بدأت صورة رفقةَ تنحلّ في صورة شهلا، وصارت رفقةُ تشبه شهلا، وحين حاول أن يتذكَّر ملامح رفقة في غربته النيويوركيَّة بعد أربعين عامًا، تراءت له شهلا بشعرها الطويل الأسود وعينيها الواسعتين العسليَّتين وعنقها الطويل المنحني على ابنها. شَعَرُ رفقة كان قصيرًا وأشقرَ، لكنَّها دخلت في الذاكرة بسِماتٍ مختلفة كأنَّها وُلدت من جديد بصفتها شقيقة شهلا أو توأمها.

يستطيع آدم أن يقول، بعد مرور زمن طويل على الحكاية التي انطوت، إنَّه لم يكن جادًّا في البحث عن رفقة، إذ لو بحث بشكل جِدِّي ومتواصل لَوجدها، لكن هذا الرأي الذي استنتجه رجل اقترب من الستِّين يختلف عن الشعور باليُتم الذي حوَّل حياة ابن السادسة عشرة إلى متوالية من الحزن والشعور بالعجز.

كيف استطاعت رفقة أن تمحوه؟

في إحدى ليالي الفرن، رأى رفقةَ في المنام. انبثقت الفتاة النحيلة من لامكان. كانت تجلس إلى جانبه على الفرشة. مدَّ يده كي يمسك بيدها، فسحبتها، وفتحت حقيبتها الجلديَّة وأخرجت منها ممحاة. أمسكت بالممحاة التي كانت بحجم كفِّها وانحنت فوق آدم وبدأت تمحوه. محت يده، ثم محت قدميه، واقتربت الممحاة من شفتيه، فحاول أن يعضّها بأسنانه التي تساقطت عندما لمستها الممحاة. كانت رفقة تعمل بلا كلل كي تمحوَه كلَّه. لم يشعر آدم بالألم، فالمَحْوُ كان يتمّ بسلاسة وبلا وجع. الأعضاء التي تلمسها الممحاة كانت تختفي فجأة كأنَّها لم تكن. الخوف الذي احتلَّه أصابه بالشلل، فلم ينبس أو يحاول الدفاع عن نفسه. اتَّخذت ملامح رفقة شكلًا شيطانيًّا. رأى النشوة في عينيها، واحتلَّت ابتسامة كبيرة ماكرة شفتيها. لم يسألها آدم لماذا تفعل ذلك، وهي لم تكن معنيَّة بالكلام. كانت منكبَّة على ممحاتها التي تقوم بتحويل أعضائه إلى هباء.

في ليلة الخوف تلك، لم يستطع آدم أن يستجمع نفسه كي يتعامل مع المنام بصفته منامًا. حين كان يُقيم مع أمّه وزوجها ويرى منامات مخيفة، كان يستطيع في وسط المنام أن يكتشف أنَّه مجرَّد منام فيفتحَ عينيه ويتخلّصَ من صورة عبد الله الأشهل وهو يقوم بضرب منالَ، أو

من صورة جثّة مأمون التي كان يراها مرميّةً إلى جانب أسلاك الغيتو الشائكة. أمّا هنا، وأمام ممحاة رفقة، فإنَّ آدم استسلم للمحو، وتقوقع داخل خوفه.

وحين وصلت ممحاة رفقة إلى عينيه، رأى نفسه وهو يصرخ خوفًا. انفتحت عيناه وأحسَّ بقلبه كأنَّه سينفجر على إيقاع نبضاته المتسارعة.

نهض آدم مذعورًا من فراشه، واكتشف أنَّ وجهه مبلَّل بدموع صامتة. شرب كثيرًا من الماء، واستلقى من جديد على فرشته وهو يردِّد «آية الكرسيّ»، ولم يُغمض عينيه طوال الليل.

عادت رفقة وسط عتمة الفرن. ركعت إلى جانب آدم. قبَّلت شفتيه. تململ كي يرفع جَذعه إلى الأعلى ويضمَّها إليه، فدفعته بيدها إلى الوراء. مدَّت يدها إلى حقيبتها، وأخرجت ممحاتها واقتربت بها من وجهه. حاول أن يقول «لا»، فأغلقت فمه بكفِّها، ثم بدأت بمحو شفتيه. استسلم آدم لخدر الممحاة. اختفت شفتاه وفمه. احتلَّت فجوةٌ كبيرة مكانَهما، وصار عاجزًا عن الكلام. تراجعت رفقة إلى الوراء وبدأت بمحوه كلِّه. بدأت برأسه ثم انحدرت إلى كتفيه، فصدره، وقبل أن تصل إلى أسفل بطنه، أحسَّ بيد تهزّه بعنف، وسمع صوت عبلة وهي تسخر من نومه الثقيل. قالت إنَّها الرابعة صباحًا وعليه أن ينهض.

قرأ آدم في هذا المنام رسالتين جاءت بهما الرؤيا: الرسالة الأولى من رفقة تقول له فيها إنَّها أخرجته من حياتها بشكل نهائيّ، ورسالة من الله تنبِّهه إلى ضرورة العودة إلى لُبس طاقيَّة الإخفاء،

فشعوره بأمان الغيتو في وادي النسناس ليس سوى وهم، وعليه أن يتصرَّف بصفته إنسانًا مَمْحُوًّا كي يجد لنفسه مكانًا في هذه المدينة.

وقرَّر أن يتوقَّف عن حبّ رفقة.

وصار، عندما يشتاق إليها، يرسم شكلًا أنثويًّا بقلم الرصاص ثم يقوم بمحوه، وينفخ نثار الممحاة في الهواء. وسيبقى آدم مصرًّا على وضع ممحاة في جيبه حتى اللحظة الأخيرة من حياته.

عندما دخل آدم جامعة حيفا، رأى نفسه ورقة بيضاء سيكتب عليها ما يشاء. وانغمس في دراسة الأدب الذي رأى فيه المرآةَ الوحيدة لروحه. هاجر إلى اللغة العبريَّة لأنَّها كانت المكان الوحيد الذي يستطيع الهجرة إليه، وانكبّ على الدراسة في الجامعة والتدريس في مدرسة المطران.

في نهاية سنته الجامعيَّة الأولى، وبعد موت سهام المفاجئ، استعاد آدم اللعبة التي بدأها مع غابرييل حين ادّعى أنَّ اسم عائلته «دانون»، وأنَّه من أبوين ناجيين من المحرقة النازيَّة. اقتضت اللعبة الانتقال من وادي النسناس والإقامة بالهادار، كما اقتضت منه العمل نادلًا في مقهًى من أجل تحصيل قُوْته، لأنَّه توقَّف نهائيًّا عن زيارة الوادي.

استعادة هويَّته اليهوديَّة لم تكن سهلة، لأنَّها فرضت عليه العزلة. كان لا يريد الاندماج في حياة الطلَّاب العرب الذين كانوا في أغلبيَّتهم شيوعيِّين، على الرَّغم من إعجابه بكلامهم وشجاعتهم، كما كان عاجزًا عن الاندماج في الطلَّاب اليهود خوفًا من افتضاح أمره، مع أنَّ لهجته الأشكينازيَّة انطلت على أساتذته الذين رأوا فيه طالبًا متفوِّقًا له مستقبل أدبيّ.

لن تنكسر هذه العزلة إلَّا بعد زيارته لوارسو، كما أنَّ قلبه المقفل لم ينفتح لعلاقة جديدة إلَّا عندما التقى، في سنته النهائيَّة في الجامعة، فتاةً تُدعى كرمى، اعتقد في البداية أنَّها يهوديَّة عراقيَّة، وبنى معها علاقة لم تدم طويلًا، لكنَّها فتحت عينيه على حقيقة مُرَّة عاش في ظلالها ثمانية أعوام من دون أن يُدرك معناها.

في الواقع، لم يلتقِ آدم رفقةَ مثلما ادَّعى، لكنّ ذاكرته تقول له عكس ذلك، واليوم لا يستطيع أن يروي عن رفقةَ من دون أن يروي الفصل الأخير من حكايتهما، وهو فصل صنعه خيال الفتى، لكنَّه صار حقيقيًّا أكثرَ من الحقيقة.

يقول الفصل الأخير إنَّ آدم لمح رفقة في شارع عبّاس. كان في سنته الجامعيَّة الأولى، ورفقةُ لم تدخل الجامعة لأنَّها، مثل جميع الشبّان والشابّات اليهود، التحقت بالخدمة العسكريَّة. كانت الفتاة النحيلة البيضاء تلبس بدلة عسكريَّة، وتمشي في الشارع.

عرفها آدم من كتفيها، فابتعد، لكنَّه رأى نفسه يُسرّع خطواته. وعندما صار في محاذاتها شعر بالدُّوار. اندلعت رائحة الحبّ في أنف آدم، وارتجفت مفاصله، وحاول أن يبطئ خطواته كي ينسحب من المشهد عندما سمعها تناديه.

اقتربت منه. مدَّت يدها الصغيرة فالتقطها بيده. سألته عن الجامعة وعن حياته، فسألها عن غابرييل. ضحكت رفقة وقالت إنَّ والدها طلب من ممدوح أن يقول لك إنَّه يريد أن يراك.

«كي يقتلني؟»

«لا يا مجنون، أبي رجل طيِّب، سامحني وسامحك. بعد مرور

شهرين على الحكاية، دعاني إلى الغداء في مطعم السمك قرب الميناء، وقال إنَّه يفهمني، فأنت شابّ ذكيٌّ ووسيم. قلت له إنَّني لا أريد أن نحكي عنك، آدم صار من الماضي.»

«لا أريد أن أعرف أكثر»، قال آدم وهو يهمّ بالانصراف.

«اسمع»، قالت.

«أنا لا يهمّني غابرييل، ولا أريد أن أراه.»

«أنت حرّ، لكنَّني فكَّرت فيك كثيرًا.»

«أنا محوتك، اشتريت ممحاة، ومَحَوْتك بها.»

وأخرج آدم من جيبه ممحاة صغيرة.

ضحكت رفقة، وقالت إنَّ فكرة الممحاة غريبة.

«لماذا تمحوني؟» سألت.

«أنا لا أحبّ ثيابك العسكريَّة.»

«أرأيتَ؟ كان غابرييل على حقّ.»

«لا، محمود درويش على حقّ.»

«لم أفهم»، قالت.

«لن تفهمي، ولا أريدك أن تفهمي، لأنِّي أخاف عليك.»

أدار آدم ظهره ومضى، وفكَّر في أنَّ عليه أن يمحو البدلة العسكريَّة من الصورة. رَفقةُ ليست ريتا التي سيكتبها محمود درويش، وهو لن يصلّي لعيون عسليَّة تحجبها بندقيَّة، كما أنَّه لا يريد لهذه الفتاة الرقيقة أن تقتل طفلًا عربيًّا كي تفهم.

عتمة القلب

وكانت وارسو

كان ذلك مصادفةً غريبة. لم يخطر في بال آدم يومًا أن يزور بولندا، أو أن يمشيَ في شوارع غيتو وارسو، ويسافرَ إلى كراكوف كي يزور متحف الموت والرعب في أوشفيتز.

وكان للمصادفة اسمٌ: ياكوب إيبنهاينر، مواليد برلين 1930. كان ياكوب في التاسعة من عمره عندما وجد نفسه مع شقيقته دالا على متن باخرة أبحرت بهما من ميلانو إلى حيفا. لا يذكر شيئًا من طفولته الأولى. ذاكرته بدأت في «أرض الميعاد»، كأنَّه وُلد في التاسعة من العمر. كانت شقيقته دالا تكبره بتسعة أعوام. وبعد أشهر من إقامتهما بتلّ أبيب التحقت الأخت بـ«الهاغاناه»، وأُرسل الفتى إلى مدرسة بن شيمين، واختفت دالا من شاشة حياته. وعندما تخرَّج من الجامعة العبريَّة بماجستير في الأدب العبريّ، نال منحة لإكمال دراسته في جامعة أوكسفورد، وهناك تعمَّق في دراسة اللغة الآراميَّة، كما درس اللغة المصريَّة القديمة.

يعيش وحيدًا في منزل صغير في شارع عبَّاس. يمشي بمعطفه الطويل الأصفر الذي يخُبّ على جسمه النحيل من شدَّة اتِّساعه. معتدل القامة، يغطّي رأسَه الكبير شعرٌ أشقرُ كأنَّه قِطَع من الصوف أُلصقت عليه. يبدو زائغ النظرات بعينين صغيرتين، ويمشي ببطء بقدم يسرى عرجاء لأنَّها أقصرُ من شقيقتها. قال لطلَّاب السنة الأولى، الذين كان يدرِّسهم مادَّة اسمُها «مقدِّمة إلى الأدب»، «إنَّ الأدب ليس مادَّة للدراسة كغيرها من الموادّ. ومَن جاء ليدرس الأدب فإنَّني أنصحه بألَّا يبقى في صفّي، فالأدب لا ندرسه بل نعيشه. عليكم التهام الكلمات والسباحة فيها، والعيش في داخل النصّ. يجب أن يصير النصّ الأدبي بيتَكم، وإلَّا فإنَّكم تضيِّعون حياتكم في دراسة ما لا يمكن دراسته.»

في اليوم الدراسيّ الأوَّل أخبر طلَّابه بأنَّه لا يملك ذاكرة عن طفولته الأولى، «كلّ شيء امّحى، وبدأت ذاكرتي تتكوَّن وأنا في التاسعة في مدرسة الأيتام في بن شيمين.» قال إنَّه لا يستطيع أن يقول إنَّ طفولته المبكرة كانت صعبة لأنَّه لا يذكر شيئًا منها. «حتى حرب الاستقلال نسيتها، ولا أعرف أين حاربت، ولا كيف أُصبت في وركي الأيسر. فأنا أكره الحرب، لذا محوتها.» قال إنَّ هذا سمح له بأن يصنع لنفسه ذاكرةً اختارها من الأدب الذي قرأه. «هذا هو موضوعي. الموضوع هو كيف تتحوَّل النصوص الأدبيَّة إلى ذاكرة شخصيَّة. دارس الأدب هو مَن يصير الأدبُ ذاكرتَه.»

كان البروفسور ياكوب يعيش وحيدًا في منزل صغير في شارع عبَّاس، وكانت حياته هي الجامعة. يأتي إلى مكتبه في السابعة صباحًا، ولا يغادر إلَّا في العاشرة ليلًا. يعود إلى بيته منهَكًا، فيأكل وينام. يطبخ مرَّةً واحدة في الأسبوع، مساءَ الجمعة. يُعِدّ لنفسه وجبة من

السمك المشويّ، ويطبخ نوعًا واحدًا من الحساء يأكله بقيَّة أيَّام الأسبوع.

في صفّ هذا الأستاذ الطريف والغريب الأطوار، تعلَّم آدم أن يقرأ أسفار التوراة بصفتها أدبًا، وسحرته مراثي آرميا التي كان الأستاذ يعرفها عن ظهر قلب، جاعلًا منها المقياسَ الأدبيَّ الأكبرَ. «ما دام الأدب العبريّ الحديث لم يصل إلى مرتبة الرثاء، فإنَّه ليس أدبًا، أو لنقل إنَّه لا يزال يبحث عن صوته. الأدب هو فنّ الرثاء»، كان يقول. وعندما اعترضت إحدى الطالبات، وكان اسمها إيزابيلًا، على هذا التعريف، قائلة إنَّ الشعب اليهوديّ يعيش اليوم انبعاثه الحضاريّ، وإنَّ اليهوديّ الجديد يولد في أرض أجداده، فرقعت ضحكة الأستاذ وأجابها باستهزاء، «نحن نعيش في عصر الهولوكوست. عن أيّ انبعاث تتحدَّثين؟»

«لكنَّنا نبني أنفسنا من جديد»، قالت.

«نحن الرماد»، أجابها، «نحن نعيش موت اللغة.»

«لكنّ لغتنا بُعثت من جديد. إنَّها المرَّة الأولى في التاريخ التي يتكلَّم فيها اليهود لغتهم العبريَّة»، قالت.

«العبريَّة ليست لغتنا»، قال، «العبريَّة هي لغة الله، والله مات، وانتهى الأمر. لغتنا بابل، إنَّها لغات شتَّى.»

«لكنَّنا ندرس الأدب الحديث المكتوبَ بالعبريَّة»، قالت.

«كي يصير هذا الأدب أدبًا يجب أن يكتب المراثي.»

كان هذا النقاش هو مدخلَ آدم إلى الأدب. أراد أن يقول إنَّ الأدب العربيّ أيضًا نشأ في البكاء، وإنَّ الكلمات في عُرف الشعراء

العرب القدماء كانت دموعًا. لكنَّه لم يقل، فآدم صار غائبًا، وينتحل لنفسه نَسَبًا جديدًا.

مسألة الانتحال هذه جاءت بلا تفكير كثير أو عناء كبير، فآدم لم يكن يطمح إلى أيِّ دور، وكان يعرف أنَّ هذه الهويَّة الجديدة التي اتّخذها لنفسه هي مجرَّدُ فضول، أو لنقل إنَّها فضولٌ سببُه التعبُ، ومبرِّرُها الوحيد هو اللَّعبُ. تعب آدم من الغيتو، ومن منالَ، ومن عبد الله الأشهل، وكان في قرارة نفسه يعرف أنَّه غريب حتى عن أمّه. في تلك الأيَّام، لم تخطر في باله الحكايةُ العجيبة التي رواها له مأمون عن الطفل الذي وُجد مرميًّا على صدر أمّه الميّتة، لكنّ شعورًا حادًّا كان يسيطر عليه بأنَّه لا أحدَ، وحين لا تكون أحدًا تستطيع أن تكون أيَّ أحد. لذا، صمت عن عقد المقارنة مع الشاعر الجاهليّ امرئ القيس، واكتفى بهزّ رأسه كأنَّه يوافق على رأي الأستاذ.

وعلى الرَّغم من نفور طلّابه من نظريَّة أستاذهم عن المراثي، فإنَّ ياكوب نجح في أن يسحرهم. كان هذا الأستاذ يمزج الماركسيَّة بالفوضويَّة، ويحضّ طلَّابه على قراءة الأدب العظيم بصفته أدبًا يعبِّر عن المراحل الانتقاليَّة في تاريخ البشر. لذا، وعلى الرَّغم من إلحاده المُعلَن، كان يرى في بعض أسفار التوراة ندًّا للأدب الكلاسيكيّ اليونانيّ، ولا يتوقَّف عن مقارنة حكاية إسحق بحكاية أوديب، «الفرق أنَّ أوديب وجد كاتبًا عظيمًا في سوفوكليس، أمّا إسحق فلا يزال إلى اليوم يبحث عن كاتبه.»

لو كان آدم يعرف قصَّته الحقيقيَّة حين كان في سنته الجامعيَّة الأولى، لوقف وقال لأستاذه إنَّه هو الابن القتيل، وإنَّه التجسيد الحقيقيُّ لإسحق، فابن غيتو اللدّ، الذي قتله آباؤه كلُّهم، هو الشخصيَّةُ

التي تبحث عن كاتبها.

لكن آدم كان صغيرًا على الكلام، وسيبقى كذلك. سيتدثَّر بالصمت الذي غرسته فيه عينا أمّه، وسيروي حكايته بطرائق مواربة إلى أن تصير الحكاية بُقَعًا من الحبر، تنتشر على أوراقه.

لو كان آدم يعرف أن يحكي لَقال لأستاذه اليهودي إنَّ الأدب لا يكون أدبًا إلَّا حين يكتب المرثيَّة في لحظة الموت. فزمننا، يا أستاذي العزيز، الذي تنهار فيه القيمُ وتتفكَّك المعاني وتنتشر حقولُ القتل، هو الزمنُ الذي يحلم كلّ كاتب بأن يعيشه. لكنْ، حين يحتلّنا هذا الزمنُ المثاليُّ للأدب، نخاف منه ونهرب إلى الصمت. نعيش بين زمنين: زمنِ الرؤيا الذي يجعلنا نشعر بأنَّنا حين نكتب نقوم باختراع اللغة، وزمنِ الحياة اليوميَّة في ظلال الموت الذي يشلُّنا بالخوف ويمنعنا من الكتابة.

في سنته الجامعيَّة الأولى، عاش آدم تجربة فريدة مع وَحدته. كان يعمل ليلًا نادلًا في مطعم صغير في الهادار، وينصرف إلى القراءة كلَّ ساعات النهار، ويلفّه شعور بامتلائه بوَحدته.

بدأت علاقته بأستاذه تتوطَّد حين قدَّم بحثًا عن الدموع مستندًا إلى الحكاية الرديفة لحكاية إسحق، وهي حكاية دموع إسماعيل التي تحوَّلت إلى نبع من الماء كسر عطش الصحراء. قام بربط النصَّين، التوراتيّ والقرآنيّ، وأعاد تأويلهما.

حين انتهى آدم من قراءة بحثه، صفَّق الأستاذ وطلب من طالباته وطلَّابه التصفيقَ لهذا النصّ الأدبيّ الممتاز. وابتدأت صداقة حميمة بين الأستاذ وتلميذه، كان النقاش الأدبيّ في شوارع حيفا هو موضوعَها الوحيد.

لم يسأل الأستاذ تلميذَه عن حياته. مرَّةً واحدة سأله لماذا لا يبقى معه من أجل متابعة النقاش، فأجابه آدم بأنَّه لا يستطيع لأنَّه يعمل في مطعم في شارع الهادار، وكانت هذه الإشارة العابرة كافية كي ينتقل آدم من حياة إلى حياة، إذ صار يعمل في مكتبة الجامعة بتوصية من أستاذه.

لكن هذه الصداقة التي يعتقد آدم أنَّها كانت عميقة، اصطدمت بإيزابيلًا.

إيزابيلًا التي سخرت من نظريَّات الأستاذ، وكانت تدعوه «صابونيم»، على عادة تلك الأيَّام التي كان الناجون من المحرقة الذين وصلوا إلى إسرائيل بعيونهم الفارغة والملأى بالرعب، يعامَلون فيها بازدراء، ويُطلَق عليهم هذا الاسم التحقيريّ الذي ينسبهم إلى الصابون، وذلك بحسب الأسطورة التي شاعت بأنَّ النازيِّين صنعوا من أجساد الضحايا اليهود صابونًا.

«أنا أكره هذا الرجل»، قالت لآدم، وهما يحتسيان الشاي في كافيتيريا الجامعة.

لا يعرف آدم سببًا لاهتمامه بهذه الفتاة الشقراء التي يمتلئ وجهها بالنمش. حين رآها للمرَّة الأولى أحسَّ بنفور غريزيّ من بياضها الباهت وشعرها القصير ونظَّارتها وعينيها الصغيرتين والنمش الذي يحتلّ وجهها وذراعيها.

لكنَّ شيئًا غامضًا كان يجذبه إلى هذه الفتاة التي كانت تُغويه بلسانها الذي لا يتوقَّف عن الثرثرة، وبقدرتها على التصرُّف كأنَّها صديقته من دون أن تكون كذلك. فاتَّخذت العلاقة شكل صداقة

الكافيتيريا، حيث كانا يجلسان منفردين في إحدى زوايا كافيتيريا الجامعة، ويتكلّمان حتى ينتهي الكلام.

فكّر آدم في أنَّ إيزابيلّا ستكون جسره إلى العبور من نقطة الصفر العاطفيَّة التي أوصلته إليها رفقة، لكنَّه كان حائرًا ومتردِّدًا. النمش لم يكن الحاجز الوحيد بينهما، فشائعة العلاقة العاطفيَّة التي ربطت إيزابيلّا بأستاذها كانت معروفة من الجميع، وآدم لا يريد لصداقته مع أستاذه أن تتحطَّم بسبب نزوة عابرة. لكنَّه كان حائرًا، فتصرُّف الفتاة مع الأستاذ ياكوب واعتراضُها على أفكاره كانا يوحيان بأحد أمرين: إمَّا أنَّ هذه العلاقة مجرَّد شائعة، وإمَّا أنَّها متعثِّرة.

وكانت إيزابيلّا تعرف كلّ شيء عن الطلّاب والأساتذة. وحين قالت له إنَّها اكتشفت أنَّه عربيّ عن طريق المصادفة، كونها تعمل بنصف دوام في مكتب التسجيل في الجامعة، ورأت صورة لهويَّته الإسرائيليَّة التي كُتب فيها، في خانة القوميَّة، أنَّه عربيّ، امتقع وجه آدم ولم يجاوب.

«وماذا أتى بالعربيّ إلى قسم الأدب العبريّ؟» سألت.

«ألا يحقّ للعربيّ أن يحبّ الأدب؟»

«بلى... لكن.»

«لا تَخَفْ، لن أبوح بسرِّك لأحد.»

بقيت هذه العلاقة الناقصة تدور في مكانها داخل كلام يشبه الصمت، إلى أن وجد آدم نفسه يمتلك الجرأة ويقتحم السؤال المؤجَّل، ويسألها عن شائعة علاقتها بالأستاذ.

قالت إيزابيلّا إنَّها مجرَّد كلام، فهي لا يمكن أن ترتبط بعلاقة مع هذا الأستاذ المعتوه. ثم روت له ما ادَّعت أنَّها سمعته من طالبة كانت على علاقة بهذا الرجل الغريب الأطوار، والذي لا يُطاق.

قالت إنَّها تعرف كلَّ شيء عن ياكوب، «لكن أنا لا، مستحيل، لا يمكن، هذا مريض نفسيًّا.»

روت ما قالت إنَّه حكاية إحدى صديقاتها مع الأستاذ، لكن آدم لم يصدِّقها.

هل صحيح أنَّ ياكوب مُصاب بُرهاب النظافة الذي يجعله عاجزًا عن ممارسة الحبّ؟

هل صحيح أنَّه يمسح أعضاءه بالسبيرتو قبل ممارسة الجنس، وبعدها؟

هل روت إيزابيلّا حكايتها، أم حكايةَ صديقتها؟

اهتزَّت صورة الأستاذ في وجدان آدم. لكنّ آدم، الذي كان مدهوشًا أمام غزارة علم أستاذه، اعتبر حكاية إيزابيلّا كاذبة وبلا معنى، وقرَّر الابتعاد عن هذه الفتاة، لكن إيزابيلّا كانت السبب الذي قطع علاقته بأستاذه، وجعلته يشعر طوال الأعوام الأربعة التي أمضاها في جامعة حيفا بأنَّ مصيره هو أن يبتعد عن الجميع ويتدثَّرَ بالغموض.

ليلةَ مغادرة المجموعة الطلَّابيَّة لوارسو، فضحت إيزابيلّا سرَّه أمام الأستاذ.

لا يدري آدم ماذا كان يجري. عاش في وارسو تجربة مذهلة، إلى درجة أنَّه بعد لقائه ماريك إديلمان، أحسَّ بأنَّه يعيش المأساة ليس كحكاية يسمعها، بل كتجربة شخصيَّة.

لكنْ يبدو أنَّ لحظة وارسو الملأى بتوهُّج الأسى، جعلت الأستاذ يستعيد علاقته بتلميذته، وأنَّ هذه العلاقة التي لم ينتبه لها آدم وضعته في موقف حَرِج، ودمَّرت علاقة الصداقة التي ربطته بأستاذه.

بدأت الحكاية حين تملَّك المرحُ الأستاذَ. كان الدرس مخصَّصًا لمناقشة قصَّتين قصيرتين: «البدويّ والأفعى» لعاموس عوز، و«في مواجهة الغابات» لِ أ. ب. يهوشع. قرأ آدم النصَّين بشغف، وأُصيب بالحيرة أمام عجز البدويّ، في قصَّة عوز، عن الكلام، وتحوُّله إلى ما يشبه عضَّة الأفعى، وأمام خَرَس الفلسطينيّ في قصَّة يهوشع، والتوتُّرِ الوجوديّ الذي عاشه الإسرائيليّ وهو يكتشف غابات البلاد التي صارت بلادَه، واستحالةَ تملُّكها إلَّا عبر النار التي يضرمها الفلسطينيّ المقطوع اللسان.

قرأ كثيرًا عن الأدب الوجوديّ الذي يبدو أنَّ الكاتبين كانا واقعين تحت تأثيره، لكنَّه لم يفهم المغزى الوجوديَّ الكامن خلف حَجْب الفلسطينيّ وتحويله إلى ظلٍّ لرغبة الإسرائيليّ. أجاب آدم الأستاذ حين طلب منه أن يقوم بشرح العلاقة بين القصَّتين، بأنَّه قرأهما كنصَّين جميلين، لكنَّه لم يفهم إلى أين يريد الكاتبان أخذنا.

«إنَّهما يبحثان عن المعنى في اللّامعنى» قال الأستاذ. «اسمعوني جيِّدًا، النصّ الأدبيُّ الإسرائيليُّ الوحيد الذي يستحقّ أن نُطلق عليه صفةَ الأدب، هو نصّ يزهار «خربة خزعة»، لأنَّه يقترب من المراثي، ولأنَّ ضحاياه كالأشباح، ولأنَّ صمتهم تلقائيٌّ ونابعٌ من الألم. أمّا أن نقطع لسان أحدهم، أو نقول إنَّنا لا نفهم لغته، فهذا ليس صمتًا. هذا إخراس للضحيَّة وقتلٌ متعمَّد داخل لعبة تقترب من الوجوديَّة والتباساتها الأدبيَّة. الأدب الوحيد الذي كُتب بعد الحرب العالميَّة الثانية هو أدبُ

صموئيل بيكيت، لأنَّ اللغة فيه تتحلَّل، كما تتحلَّل الجثث.»

وفجأة قفز الأستاذ من فوق النصَّين، وبدأ يتكلَّم على المحرقة النازيَّة.

قال إنَّ القصَّتين ليستا سوى نصَّين هجينين، واستشهد بعالِم الجمال الألمانيّ اليهوديّ تيودور أدورنو الذي قال إنَّ كتابة قصيدة بعد أوشفيتز فعل همجيّ.

ومن الأدب، انتقل الأستاذ إلى مشروع الرحلة إلى بولندا وزيارة الهولوكوست، وقال إنَّ فريدكا مازيا تنظِّم، بالاشتراك مع وزارة التعليم، رحلةً لمجموعة من الطلَّاب إلى وارسو وأوشفيتز، وإنَّها عرضت عليه أن يختار مجموعة صغيرة من طلبة الجامعة ليكونوا في عداد الوفد، وسأل مَن يتطوَّع للذهاب. ارتفعت ثلاث أيدٍ فقط؛ إيزابيلا وفتاتان أُخريان. «أين الشباب؟» سأل الأستاذ، أريد شابَّين، ونظر إلى آدم. لكن آدم خفض بصره.

«أنت، يا آدم، أنا أنظر إليك، ألا تريد الانضمام إلينا؟»

«أنا؟»

«نعم أنت، أنا اخترتك لأنَّك الوحيد المتحدِّر من الغيتو.»

«لكنَّني... لكنَّني لا أملك مالًا كي أدفع نفقات الرحلة.»

«صرتم أربعة، ثلاث طالبات وطالب، هل هناك مَن يريد التطوُّع أيضًا؟»

«يبدو أنَّ آدم لا يريد المجيء معنا»، قالت إيزابيلّا، وهي تنظر إلى آدم، ونصفُ ابتسامة يرتسم على شفتيها.

«نكتفي بالأربعة»، قال الأستاذ، وأعلن نهاية الحصَّة الدراسيَّة وخرج من القاعة.

كان آدم في الثامنة عشرة من العمر، يعيش سنته الجامعيَّة الأولى بمتعة مَن يكتشف العالم من جديد. كانت دراسته الأدبَ العبريَّ هي مدخله إلى تسوير روحه باللغة الجديدة التي بدت له ملجأً يحتمي به. وجاءت رحلة وارسو لتفضح لعبته، فخطر له أن يذهب إلى أستاذه ويقول له إنَّه لا يريد الذهاب إلى وارسو، ويعترف بأنَّه ليس يهوديًّا ولا علاقة له بالأمر، لكنَّه تردَّد. وبدلًا من أن يصحِّح كذبته، أضاف إليها خيانته ثقة أستاذه به.

ذهب مع وفد مؤلَّف من عشرين طالبة وطالبًا جاءوا من مختلف الجامعات في البلاد، وكانت تلك الرحلة مدخلًا جعل آدم يكتشف أنَّ الحقيقة لها مُرادف واحد، هو المأساة، وأنَّ غيتو وارسو صار أحد وجوهه الذي رسمه رجل مذهل اسمه ماريك إديلمان.

وكانت وارسو.

المنام

عندما يحاول آدم أن يستعيد وقائع الرحلة إلى وارسو، تختلط الأمور في ذهنه، ويجد نفسه أمام مشهد مغطّى بالنعاس.

كان النعاس رفيقه في هذه الرحلة، كأنَّ الحزن يتسلطن على العيون ويحرقها بالرغبة في العبور إلى العتمة.

لم يفهم آدم سبب نعاسه الذي لم يَبُح به لأحد. خجل من الاعتراف بأنَّ هذه الرحلة كانت تشبه نومًا دائمًا تقطعه أصوات الرواة، وتتغلغل في ثناياه لحظاتٌ كابوسيَّة تأتي كمشاهدَ مصنوعةٍ من العتمة.

والغريب أنَّ هذا النعاس الشامل الذي استولى عليه لم يكن يتوقَّف إلَّا في لحظة الإقبال على الطعام، إذ تنفتح الشهيَّة وتصير المَعِدة بلا قعر.

إنَّها رحلة النعاس والطعام؛ هكذا ستنحفر وارسو في ذاكرته، وهكذا سيُعيد رسم طفولته في الغيتو، حين كان يُعجَب من قدرة مأمون

الأعمى على التهام الطعام بشهيَّة لا تنضب، مع أنَّ الرجل كان نحيلًا ومستطيل الوجه كأنَّه يعاني المجاعة.

مع النعاس والشهوة إلى الطعام، جاء الهمس. يذكر أنَّ الكلام الذي سمعه وانحفر في قلبه كان خفيضًا ومهموسًا. لا أحد امتلك الجرأة على استخدام صوته، أو هكذا ارتسمت زيارة وارسو في ذاكرته، كأنَّها رحلة ملأى بالوشوشة. حتى الدموعُ التي انحبست في عينيه كانت خَفِرة، تُغرق العينين بتموُّجات تجعل الرؤيةَ أشبهَ بصُوَر آتية من منامات غامضة الملامح.

في وارسو اكتشف آدم كيف يتحوَّل الحاضر إلى ذاكرةٍ لحظةَ حدوثه. وبدلًا من أن يحيا اللحظة ويتفاعل معها وبها، كان يشعر بأنَّه يصنع لنفسه ذاكرةً.

حين خرج الأستاذ من القاعة شعر بأنَّ أعين جميع الطلَّاب تنغرس في ظهره، فخرج من القاعة مهرولًا كي لا تلتقي عيناه عيني إيزابيلَّا، فوجد الأستاذَ في انتظاره.

ذهب مع أستاذه إلى المقهى حيث شربا كأسين من البيرة بصمت. لم يجد آدم ما يقوله. كان يشعر بانفعال شلَّ قدرته على الكلام. أمَّا الأستاذ، فكان غارقًا في تأمُّلاته.

قال الأستاذ إنَّه وافق على المشاركة في هذه الرحلة لأنَّه يريد أن يعرف جذوره، «جذور الإنسان هي حيث يموت»، قال ياكوب، «وهناك متنا.»

«لكنَّنا هنا»، أجابه آدم، وهو يبحث عن كلام يقوله.

حكى الأستاذ كثيرًا عن معنى الموت. كان العَرَق يتصبَّب من

جبينه، كأنَّ تعرُّقَ جسمه جاء ليملأ كلماته بالمعاني، «أنا سعيد من أجلي ومن أجلك، عليك أن تعود إلى الغيتو كي تكتشف نفسك، وترسمَ معنى حياتك.»

في تلك اللحظة، أحسّ آدم بأنَّ عليه أن يُخبر أستاذه بالحقيقة، لكنَّه لم يفعل. في ذلك المقهى، اكتشف آدم معنى أن يكون الإنسان جبانًا. جميع الحكايات التي سمعها من منالَ عن جبن أهل الغيتو وخوفهم أمام تجبُّر رجال «الهاغاناه»، بدت تافهة أمام جبنه هو. الجبان هو الذي يخاف عندما لا تكون حياته مهدَّدة. هذا هو الجُبن الذي يندم عليه الإنسان. أمّا الخوف الذي هو كناية عن تفاعلات كيميائيَّة ـ بيولوجيَّة يصنعها شعور الإنسان بالخطر، فهذا ليس جبنًا. إنَّه ظاهرة طبيعيَّة.

قال أستاذه إنَّ أحد أسباب موافقته على القيام بهذه الزيارة هو أنَّه يريد أن يقتربَ من معنى الخوف. فالخوف هو الموضوعة الإنسانيَّة الكبرى التي لم يعالجها الأدبُ إلَّا بشكل جزئيّ، لأنَّ الأدب، منذ الملاحم اليونانيَّة، ركَّز في البطولة، وهمَّش الخائفين. «ألا توافق معي على أنَّ الأدب يجب أن يُعاد تأويله، فيُقرَأ بصفته سجلًا للجبناء، وليس حكايات عن الأبطال؟»

الفكرة أذهلت آدم. وخطر في باله ضرورةُ التمييز بين الخوف والجبن، «الأدب هو سجلّ الخائفين، لأنَّ الخائف يتفكَّك ويفقد السيطرة، أمّا الجبناء فهم الخَوَنة الذين يتحوَّلون إلى أنذال»، قال آدم، لكن فكرته بقيت غامضة لأنَّه لم يجد الكلمات العبريَّة الملائمة للتمييز بين الخوف والجُبن.

لماذا لم يعترف آدم بالحقيقة لأستاذه، وترك نفسه أسير نظرات إيزابيلّا الغامضة التي تخبّئ سرّه؟

هل اختار آدم أن يكون جبانًا؟

حين يحاول آدم، بعد أكثر من أربعين عامًا، أن يستعيد وقائع تلك الرحلة، يشعر بالحيرة. أغلب الظنّ أنّه وافق على الرحلة من دون أن يفكّر في الأمر مليًّا. شعر بأنَّ أستاذه فرضها عليه، ولم يشعر برغبة في الاعتراض، بل اعتقد أنّه يتابع ما بدأه حين ترك منزل منال. فهو، حين غادر البيت، كان يعرف أنَّ وجهته ستكون إلى كاراج غابرييل، وإلى لعبة الهويّة الملتبِسة التي لعبها في السيّارة التي أعادته من الناصرة إلى حيفا.

كان يختنق في بيت زوج أمّه، وسبب الاختناق لم يكن فقر عبد الله الأشهل، أو رائحة الكونياك والنفايات التي تفوح منه، وإنّما كان شعورًا غريبًا بأنَّ البيت لم يعد بيتًا، بل صار مسرحًا لحكاية غامضة لا يستطيع فكّ رموزها.

مَن هو هذا الرجل الذي تزوّجته أمّه؟

لم يسأل آدم نفسَه هذا السؤال، فالرجل ظهر في حياته كأنّه كان هنا منذ البداية. فجأةً، امّحى الغيتو وامّحت همسات مأمون الأعمى، ومنالُ تغيّرت وابتعدت، وصار آدم يتيمًا.

المرّة الأولى التي سمع فيها كلمة يتيم كانت حين أشار عبد الله إليه باسم الولد اليتيم. لا يذكر آدم متى حدث ذلك، لكنّه يذكر الكلمة كأنّها حجر ارتطم به. فهو رضي في البداية بأن يتعامل مع عبد الله بصفته أبًا ثانيًا. «صار عندك بيّين»، قالت منال، «واحد بالصورة

بغرفتك، والثاني عمُّو عبد الله.»

رضي آدم بالأبوين. عبد الله كان صارمًا ومتسلِّطًا، وحسن كان صورة ملفوفة بالحنوّ والصمت اللذين يستطيع الفتى تأويلهما مثلما يحلو له. لكنَّ الحكاية الغامضة التي كان منزل منال مسرحًا لها، لم تعد تتَّسع للأبوين، فبدأ حسن يتلاشى في صورته التي أخفتها منال تحت وسادة ابنها كي لا يراها عبد الله، واحتلّ عبد الله بنزقه ومعاملته الوحشيَّة لمنالَ وابنها، المشهدَ بأسره.

وكانت مغادرة آدم للبيت هجرةً إلى المجهول الذي أراد له أن يكون بدايةً جديدة.

لكنَّ البداية الجديدة ارتطمت برَفقة، وبذلك الحبّ الذي بدَّدها قبل أن يتلاشى، تاركًا في نَفْس الفتى شعورًا بأنَّ الحياة خدعته.

خِدعة الحبّ الأوَّل، هي الاسمُ الذي أطلقه على علاقته برَفقةَ حين روى حكايته لداليةَ، فأقنعته بأنَّ الحياة كلَّها ليست سوى خدعة، وأنَّ عليه أن يخدع الحياة بدلًا من أن ينخدع بها.

وفي الجامعة، لعب خدعته بشكل مختلف. درس الأدب العبريّ ليس لأنَّه يحبّ الأدب فقط، بل كي يذهب في لعبته إلى نهايتها. ومع الأستاذ ياكوب، لاح له احتمال جديد. هنا انفتح أمامه باب الأدب، وهنا يستطيع أن يتخيَّل ماذا يريد أن يكون. شعر، للمرَّة الأولى، بأنَّه حرّ وقادر على تأليف نفسه كما يشاء، ولذا ابتعد عن الجميع. لم يعاشر أحدًا من الطلَّاب. حتى إيزابيلًا، لم تكن سوى حكاية كلام عابرة. ومع أنَّ الفتاة الملأى بالنمش عرفت سرّه، إلَّا أنَّه اعتقد أنَّ علاقته بأستاذه، وتفوُّقَه العلمي في الجامعة، كفيلان بالسماح له بتجاوز هذه العقبة.

وعندما طلب منه الأستاذ الاشتراك في رحلة وارسو، شعر بأنَّها فرصته كي يكتشف أسرار هذا العالَم اليهوديّ الذي اختبأ فيه، لكنَّه شعر بالتردُّد، وفكَّر في أن يذهب إلى أستاذه ويقول له إنَّه عربيّ، وإنَّ الغيتو الذي جاء منه هو غيتو اللدّ، لا غيتو وارسو، وإنَّه مع ذلك يريد الذهاب إلى وارسو كي تكتمل فيه الضحيَّةُ.

تخيَّل مشهد هذا الاعتراف مرَّاتٍ لا تُحصى. تخيَّل الأستاذ يمتلئ بالغضب ويسأله لماذا كذب عليه، فقرَّر أن يجاوب بأنَّه لم يكذب، لكنَّه لم يقل، لأن لا أحدَ هنا كان مستعدًّا التصديق أنَّ اليهود وضعوا الفلسطينيِّين في أقفاص أطلقوا عليها اسم الغيتو. وقاده هذا المشهد إلى خاتمته المنطقيَّة، وهي خروجُه من الجامعة، أو على الأقلّ حرمانُه من متابعة دراسة الأدب العبريّ مع أستاذه.

كما تخيَّل مشهدًا نقيضًا: رأى الأستاذ يضمّه ويقول له إنَّه يرى فيه شقيقًا لم تلده أمُّه، ويسترسل ليقول إنَّه يتخيَّله بطلًا لرواية تراجيديَّة تروي مصائر الخائفين، الذين يُغرقهم التاريخ في عبثيَّة الموت المجَّانيّ.

تخيَّل احتمالاتٍ لا تُحصى، لكنَّه لم يستطع اجتياز عتبة الكلام. ذهب في الرحلة كأنَّها مسألة صنعها القَدَر. وهناك في شوارع كانت، وفي أماكن اندثرت، اكتشف وجوهَه المتعدِّدةَ، والتقى ناديا.

وجه هذه الفتاة البولنديَّة رسم لوحةً انحفرت في عينيه بصفتها جمال الأسى. التقاها آدم مصادفةً وافترقا مصادفة، لكنَّ الضدَّين اللذين اجتمعا في ملامحها كانا محيِّرَيْن: وجهًا أسمرَ وشعرًا أشقرَ، وفتاةً في التاسعة عشرة التحقت بالوفد القادم من الأراضي المقدَّسة

كمترجمة من البولنديَّة إلى الإنكليزيَّة.

قال لها آدم، وهما يشربان البيرة في المقهى، إنَّ هذا التناقض بين لون شعرها ولون بشرتها أثار فضوله منذ اليوم الأوَّل.

«أبي أسمر وأمِّي شقراء»، قالت.

«هل يوجد سُمْر في هذه البلاد؟» سألها.

«يوجد كلّ شيء في كلِّ مكان. أنت مثلًا، شعرك الكستنائيّ أوحى إليَّ بأنَّك الإسرائيليّ الوحيد في المجموعة. أنتم خليط ألوان، ونحن كذلك.»

حكاية ناديا لم يأتِ أوانها بعد، لأنَّها يجب أن تُكتَب كخاتمة لهذه الرحلة الغريبة التي أخذت آدم إلى أماكن لم يكن يتخيَّل وجودها، لكنَّنا لا نزال اليوم في بداية الرحلة. وفي البداية، رأى آدم ذلك المنامَ الذي سيرافق مذاقَه، الأيَّامَ العشرة التي أمضاها الفتى هناك.

كان ذلك في ليلته الأولى في المدينة. فبعد جولة في شوارع الغيتو الذي امَّحت جميع آثاره تقريبًا، وبعد حكايات الألم والمجاعة والأمراض والترحيل، التي استمع إليها الطلَّاب من السيِّدة الخمسينيَّة التي كانت إحدى الناجيات من معسكر أوشڤيتز، ذهب الجميع إلى المطعم حيث أكلوا بشراهَةِ الجائعين.

كان آدم يمشي طوال هذه الرحلة الغريبة إلى جانب أستاذه، ومعهما كانت تمشي إيزابيلَّا وهي مُطْرِقَةٌ كأنَّها لا تريد أن ترى.

صوت ناديا التي كانت تترجم ما روته المرأة وما أضافه رجل عجوز في الخامسة والسبعين من العمر، كان دليلَهم في طرقات الغيتو التي امَّحت.

الكلمات التي استمع إليها الطلّاب وهي تخرج بصوتَي الرجل العجوز وناديا، وكانت تروي حكايات من تلك الأيَّام الرهيبة، قامت بإضفاء اللون الرماديّ على المكان. كلّ شيء كان رماديًّا. حتى الناسُ الذين كانوا يمشون في الشارع لَبِسهم اللونُ الرماديُّ كأنَّهم أشباح، وكانت كلمات الدليل المترجِمة تتحلَّل قبل أن تصل إلى الأذنين. وفجأة، بدأت أصوات كلّ شيء تخفُت، ولم يبقَ سوى همسات ترتطم بجدران الذاكرة الملطَّخة بالأنين.

وصلت البعثة الإسرائيليَّة في السادسة صباحًا إلى مدينة مغطَّاة بالضباب. وبعد استراحة في الفندق، بلَّغتهم السيِّدة فريدكا مازيا، أنَّ اليوم الأوّل سيُخصَّص للقيام بجولة سريعة للتعرُّف إلى ملامح غيتو وارسو، وطلبت منهم الانضباط والهدوء احترامًا لذكرى الذين ماتوا.

«أنت تمشي فوق القبور»، همس إليه الأستاذ وهما يمشيان في شوارع صارت عريضة بعدما قام النازيُّون الألمان بتدمير الغيتو وجرفه.

«هذه مقبرة الغيتو؟» سأل آدم.

«وطِّ صوتك»، أجابه الأستاذ الذي قال هامسًا إنَّ القبور اختلطت بالركام بحيث لم يعد من الممكن التمييزُ بين القبر والطريق إلى القبر.

كان آدم يتوقَّع من السيِّدة فريدكا أن تروي حكايات عن الغيتو، لكنَّه فوجئ بالصمت الذي لم يقطعه سوى الرجل العجوز الذي كان يقرأ بصوت مرتفع أسماءَ الشوارع، ونظراتِ ناديا التي ارتطمت بعينيه أكثرَ من مرَّة.

وفي المطعم بعد مسيرة صامتة دامت نحو أربع ساعات، انفجر الكلام الذي امتزج بجوع وحشيٍّ إلى الطعام.

حتى الأستاذ ياكوب الذي كان يتعفَّف عن الطعام في حياته اليوميَّة، كان يأكل بشهيَّة عارمة، وهو يَغرق مع فريدكا في كلام على لغة اليديش التي باتت مهدَّدة بالانقراض في الدولة العبريَّة.

وبدلًا من الكلام على موت الناس في هذه المقبرة الجماعيَّة الشاسعة، تكلَّم ياكوب على موت اللغة. وفجأة، تخلَّى مع محاورته عن الكلام بالعبريَّة، واستخدما اليديش التي لم يكن يفهمها أحد سواهما. وفرضت هذه اللغة، التي أتت من المجهول، الصمتَ على الجميع، فنظر آدم إلى ناديا مستفسرًا علَّها تترجم ما يُقال، لكنَّ الفتاة أشارت بعينيها العسليَّتين إلى أنَّها لا تفهم.

وفي تلك الليلة انعجن آدم في منام رأى فيه تلك المرأةَ التي يعرفها ولم يرَها.

حين فتح عينيه المبلَّلتين بالمنام، تذكَّر التفاصيل كلَّها، كأنَّه لم يكن منامًا بل كان رؤيا. تذكَّر كلّ شيء كأنَّه رأى، وشعر بالوقت يجمد أمام صورة تلك المرأة التي لا يعرفها. لكنَّ الغريب أنَّ هذا المنام بقي حيًّا في ذاكرته، وكان رفيقه في الرحلة كأنَّه لم يكن منامًا، وإنَّما كان ذاكرة شخصيَّة لا تمَّحي.

حين تعود به الذاكرة إلى الليلة الأولى في وارسو، تنتصب المرأة المستلقية على فراش أبيض أمامه، يراها تزيح الشرشف عن جسد ممتلئ مغطًّى بقميص نوم أبيض.

كلّ شيء أبيضُ. امرأة بيضاء البشرة تتمدَّد على فراش أبيضَ، وتلبس قميص نوم أبيضَ، تتَّكئ على يدها اليمنى وتنظر إلى حيث يجلس شابٌّ يشبه آدم، ثم تمتدّ في اتِّجاهه كأنَّها تدعوه إليها.

يحاول آدم أن يقترب، يراه في المنام وهو يمسك بيد المرأة. المرأة تتقلّب كأنّها تتدحرج في اتّجاهه. يقترب وجهها منه، فلا يرى سوى دموعها؛ دموعٍ تتدفّق على وجه الشابّ وتغطّي عينيه، ويغرقان في الماء، كأنّهما يمارسان الحبّ بماء العيون. المنام مغطّى بالصمت، لا يسمع الفتى أيّ صوت، لا صوت بكاء ولا صوت متعة، كأنّ المكان مغطّى بغلالة تجعل المشهد يتماوج ولا يمكن القبض عليه.

امّحى من ذاكرة آدم التلخيصُ الذي تقوم به الذاكرة حين لا تستحضر من المنام سوى شذرات متفرّقة تتكسّر في فيض الانتقال من لحظة إلى أُخرى، فبقي هذا الحلم كاملًا وحاضرًا بعناصره الغريبة كافّة.

السرير لم يكن سريره في الفندق أو في البيت أو في الطفولة، والمرأة لم تكن رفقة أو ناديا أو شهلا. كانت امرأة أُخرى. امرأةً طالعةً من مكان لا يعرفه؛ امرأةً يغطّي ماء العيون وجهها وجسدها، كأنّه يعرفها مع أنّه لا يعرفها. هذه ليست منالَ ولا تشبهها. حين ترك منالَ في حيفا أعادتها ذاكرتُه إلى اللدّ امرأةً للعطش، ووجهًا حفرت فيه الدموعُ الناشفةُ مساراتِها التي لم يرها أحدٌ سواه، أمّا هذه المرأة التي لا اسم لها، فلقد نبتت هنا في هذه المدينة وهي تغسل الدموع الناشفة بدموعها.

كمَن يمشي على الكلمات

كمَن يمشي على الكلمات؛ هكذا ستنحفر الزيارة في ذاكرة آدم ووجدانه. شوارعُ من كلمات، وأسماءٌ تقفز أمام العيون قبل أن تتلاشى، وحياةٌ كانت، وموتٌ يكون.

إذا أراد اليوم أن يكتب عن وارسو، فلن يجد أمامه سوى شوارعَ مرصوفةٍ بكلمات الدليل العجوز الذي كان لهاثه يحجب نصف كلماته، فتضطرّ ناديا إلى أن تطلب منه أن يُعيد، فيُعيد وهو يتأفّف، وصوته يخرج من أنفه الكبير المليء ببُقَع حمراءَ وسوداءَ، يغطّيها بمحرمته التي لا تتوقّف عن مسح أنفه وعينيه.

مشى آدم إلى جانب مجموعة الطَّلَبة وهم يحاولون تخيُّل المشهد الذي لم تبقَ منه سوى علامات قليلة ساعدت الدليل على رسم خريطة المكان الذي فَقَدَ خريطته. شعر الجميع بالتعب، لأنَّ الخيال كان عاجزًا عن التحوُّل إلى حقيقة. مشوا برؤوس منحنية في شوارع مصنوعة من كلمات، وكانت الأسماء تتطاير من حولهم: أومشلاغ

بلاتس؛ شارع خلودنا؛ الغيتو الصغير؛ الغيتو الكبير؛ شارع بروزنا؛ شارع سيينا؛ شارع زلوتا. أسماء وأسماء يحاول الدليل الإشارة إليها كي يرسم ملامح الغيتو الذي كان، لكنَّ الملامح تذوب في الأنين الذي ينبعث من الأسفلت والأرصفة والشوارع. كأنَّ هذا الأنين المكتوم صار الشاهد الوحيد على الكارثة.

«نحن نمشي في أكبر مقبرة يهوديَّة. هنا مات مئة ألف يهوديّ من الجوع والأمراض والأوبئة. أمَّا الآخرون فنُقلوا بالقطارات إلى معسكرات المحارق»، قال دليلنا العجوز.

«لا، نحن لسنا في مقبرة يهوديَّة»، قال الأستاذ ياكوب، «نحن في مقبرة الحضارة الإنسانيَّة.»

«أبدًا، يجب ألَّا يتكرَّر هذا أبدًا»، صرخت إيزابيلَّا.

كانوا يمشون على إيقاع صوت رتيب. كان صوت ناديا يتسلَّل من ثناياه كي يترجم كلامًا متقطّعًا يتطاير في الهواء قبل أن يسقط أرضًا.

قال آدم لناديا، بعد انتهاء الجولات في الغيتو، إنَّ ترجمتها لم تكن ضروريَّة، فإيقاع صوت الدليل كان يكفي لنفهم كلَّ شيء. صوت يكاد يختنق، يعلو ثم ينخفض، وهو يروي عن تاريخ مكان تمَّ محوُه. قال لها إنَّه شعر بالاختناق عندما وصلوا إلى بقايا الجدار الذي حجب الغيتو عن المدينة، في 55 شارع سيينا، و62 شارع زلوتا، جدار سيَّج الغيتو وكان ارتفاعه ثلاثة أمتار، وتعلوه الأسلاك الشائكة. قال إنَّ الأطفال كانوا بداية البطولة في الغيتو، لأنَّهم تولَّوا تهريب بعض الموادّ الغذائيَّة من المنطقة الآريَّة إلى داخله.

قال إنَّ الأطفال هم حاملو الحياة، لذلك فهم أوائل الموتى.

قال إنَّ الحياة التي يجعلها القاتل تبدو بلا معنى، وسط المذلَّة والجوع والأوبئة، تتَّخذ معناها من ذاتها، فهي لا تعود في حاجة إلى أيِّ كلام. معناها موجود في داخلها ولا يحتاج إلى أيِّ معنًى إضافي.

هل قال آدم هذا الكلام لناديا، أم أنَّه يتخيَّل نفسَه اليوم أنَّه قاله؟ أم أنَّه يقوله الآن عندما نضج فيه الموت؟

يحقّ لكاتب هذا النصّ، وهو يروي سيرته، أن يسأل نفسه لماذا يستعيد هذه الرحلة إلى وارسو؟ ولماذا يتلعثم ويفقد حيلته ويجد نفسه عاجزًا عن الكتابة؟ ألم يكن من الأفضل له أن يتجاهلها؟ أليس مجرَّد استعادة وقائع أيَّام الغيتو في وارسو، ثم تلك الرحلة إلى أوشڤيتز، هما محاولة من أجل قول ما لا يُقال؟ وماذا يقول بعدَ كلِّ ما قيل؟

كاتب هذا النصّ يعرف أنَّ شهادته لا تُضيف جديدًا إلى «تفاهة الشرِّ» الذي يتحوّل إلى جريمة. حتى اللهُ الذي يغفر لمَن يشاء، فَقَدَ القدرة على الغفران، وتدثَّرَ بالغياب.

بدأ صوت الدليل يتلاشى، وشعر آدم بأنّه فَقَدَ القدرة على السماع، وغلَّف الصمتُ أذنيه بطنين أخرسَ. صار الصمت شاملًا. حتى دعساتُ الأقدام على الأرض لم تكن تُسمَع. طنين أُفرغ من أصواته، ولم يبق سوى صداه الذي يشبه فراغًا أبيض ثقيلًا. هذا هو الطَّرَش الحقيقيّ. فكَّر آدم وهو يحاول أن يكتب عن ذلك الإحساس الغريب الذي احتلَّه، وهو يمشي على كلمات لم يكن قادرًا على سماعها، ويعرف في قرارته أنَّه لا يوجد مَن يسمعها. حتى الذي يعمل راويًا لها يردِّدها من دون أن يكون قادرًا على الاستماع إلى المعاني التي تخرج من بين شفتيه بصوت مبحوح.

لم يستطع، وهو يكتب في منفاه النيويوركيّ، سوى أن يستحضر قصيدة راشد حسين: «الله أصبح لاجئًا يا سيِّدي»، لكنَّه حين ذهب في تلك الرحلة، لم يكن قد التقى راشد حسين، أو قرأ شعره، كي يستعين به على مواجهة أصداء الصَّمَم الذي أصابه. وحدها قصيدة هذا الشاعر الذي يعلن فيها غياب الله تتسلّل من ذاكرته:

«الله أصبح غائبًا يا سيِّدي / صادِرْ إذًا حتى بساطَ المسجدِ / واطفئ ذُبالات النجوم فإنَّها / ستُضيءُ دربَ التائه المتشرِّدِ / أنا لو عصرتُ رغيفَ خبزِكَ في يدي / لرأيتَ مِنهُ دمي يسيلُ على يدي.»

يعرف آدم أنَّه أحدث تعديلًا صغيرًا على الشطر الأوَّل من البيت الأوَّل في القصيدة، فراشد حسين لم يكتب «الله أصبح غائبًا»، وإنَّما كتب «الله أصبح لاجئًا»، لكن حَدْس آدم قاده إلى استبدال اللاجئ بالغائب. فالله هو الحاضر ـ الغائب الأوَّل. غيابه يبرّر كلّ شيء، وحضوره يضفي القداسة على أيّ شيء. أمَّا الإنسان، الغائبُ ـ الحاضر، فهو السؤال. إنَّه الغريب، والغريب هو مَن تغرَّب عن نفسه، أي مَن صار اسمه تهمتَه، وهويَّته عنوانَ ذلِّه.

المسألة ليست اتِّهام الله، كما فعل ألبير كامو في رواية «الطاعون». فاتِّهام الله هو الخيار الأسهل، لأنَّه فارغ من المعنى. والحكاية التي دفعت الكاتب الفرنسيّ الوجوديّ إلى سؤال الله كيف يسمح بموت الأطفال، ليست سوى هروب من السؤال الحقيقيّ. فالطاعون هنا ليس سوى استعارة تخبِّئ واقعًا كولونياليًّا عاشته الجزائر طويلًا، ولم يجرؤ الكاتب على الاقتراب منه.

بدلًا من اتِّهام الله، يتَّهم الشاعر الفلسطينيُّ الإنسان. وأمام

الهول، يعلن أدورنو موتَ الشعر وهمجيَّةَ الاستعارةَ، وفي الحالَين، نحن أمام الاستحالة: النجوم انطفأت هنا، واللغةُ ماتت هناك. وحشيَّة الإنسان تصل بنا إلى العريِّ الكامل؛ أي إلى التعرِّي من اللغة.

حين كتب آدم عن العريِّ اللغويّ، شعر بأنَّه أقفل جميع الأبواب، فالإنسان يستطيع أن يتعرَّى من كلّ شيء ما عدا اللغةَ. حتى الموتى يرفضون حكاية العريِّ اللغويّ. هذا هو جوهر ما نسمِّيه بالحضارة، فقد اخترع الإنسان الطقوس الدينيَّة والتراثَ الأدبيَّ كي لا تموت اللغة بموت الأفراد، لأنَّها تتحوَّل إلى الأداة الوحيدة التي يستخدمها الموتى للكلام الذي يتَّخذ طابعًا مقدَّسًا حتى إن كان لا صلة له بالدين.

لذا، يبدو إخراس الضحيَّة بالعنف أو القهر بلا معنى، لأنَّ الضحيَّة تعلن احتجاجها الأخير بالتخلِّي عن الكلام. وعندما يخرَسُ القتيل تصير لغةُ القاتل لغوًا لا معنى له.

في شوارع وارسو لم يجد أحد في نفسه القدرةَ على الكلام. وعندما حاول أوري نبراسكي، وهو مندوب وزارة التعليم التي نظَّمت الرحلة، قيادةَ الطلَّاب في إنشاد «الهاتكفاه»، ركض الأستاذ ياكوب نحوه ووضع يده على فمه، وهو يهمس بصوت سمعه الجميع، «اِخرس، هذا ليس مكانًا للغناء، هذا مكان للموت.» فخرس أوري، واختفت جميع الأصوات، ولم يبق مسموعًا سوى إيقاع الأقدام التي كانت تزحف على الأرض.

الأيَّام الأربعة التي أمضتها المجموعة في وارسو بدت بلا نهاية، فالحزن قد يكون إحدى أنبل المشاعر الإنسانيَّة، لكنَّه أكثرها رتابةً. حتى اللقاءُ المسائيّ الذي كان يُعقَد يوميًّا من أجل تقويم الرحلة

واستخلاص دروسها، والذي كان بالنسبة إلى الأستاذ ياكوب «المكانَ الذي نجمع فيه المعرفةَ والأسى كي نستخلص العِبَر»، لم يعد ممكنًا. فالأستاذ الذي كان يريد أن يقرأ المأساة في بُعدها الكونيّ، كتعبير عن همجيَّة الإنسان وعجز الحضارة واستسلامها لغريزة الموت، لم يجد الصدى الملائم لدى منظِّمي الرحلة أو عند الطلَّاب، بل إنَّ أوري نبراسكي أصرَّ على تقديم قراءة مختلفة للمأساة، ووضعها في إطار المسألة اليهوديَّة واللاساميَّة المتجذِّرة في الثقافة الغربيَّة المسيحيَّة. فالمحرقة أثبتت أن لا حلَّ أمام اليهود سوى العودة إلى أرض إسرائيل وبناء دولتهم كي يصيروا أمَّة طبيعيَّة مثل سائر الأمم.

«ما معنى الأمَّة الطبيعيَّة التي تشبه غيرها؟ نحن نور الأمم»، قال ياكوب، «أنت تتبنَّى الخطاب اللاسامي الذي دعا إلى حلٍّ نهائيٍّ، النازيُّون أعلنوا أنَّ وسيلتهم إلى الحلِّ النهائيّ هي إبادة اليهود، وأنت تقول إنَّ الحلّ النهائيّ يكون بهجرة اليهود من بلادهم.»

«بلادهم! هذه مقبرتهم وليست بلادهم، أرض إسرائيل هي بلادهم.»

«لكنَّ أكثريَّتهم كانت تعتبرها بلادَهم»، قال ياكوب.

«لماذا هاجرتَ، إذًا، إلى أرض إسرائيل؟»

«أنا لم أهاجر. بلى، كنت صغيرًا وجئت مع أختي، وكنَّا خائفَين.»

«هل أنت ضدَّ إنشاء دولة يهوديَّة؟» سأل أوري.

«بالعكس»، قال ياكوب، «أنا مع حقّ اليهود.»

«ماذا تريد، إذًا؟»

«لا أريد شيئًا، أريد أن أقول إنَّني متَّفق معك في الجوهر، لكنَّني أختلف معك في طريقة التعبير، فأنا أستخدم لغة أُخرى.»

«لا أهمِّيَّة للغة»، قال أوري.

«الخلاف في اللغة قد يقود إلى كوارث، فأنت تأخذنا إلى لغة قريبة من الفاشيَّة.»

«أنا أنتمي إلى الحركة العمّاليَّة وخدمت في البالماح، هل أنت اشتراكيٌّ أكثرُ منِّي؟»

«أنا أيضًا اشتراكيّ، لكنَّني أعرف أنَّ أهمّ تجربة اشتراكيَّة يهوديَّة كانت هنا في بولندا، وتمثَّلت في حزب البوند.»

«هؤلاء خَوَنة واندماجيُّون، وقادوا اليهود إلى حتفهم»، قال أوري.

«لماذا تستخدم لغة التخوين بهذه الطريقة الفجَّة؟»

«لأنَّني لا أطيق هذه الميوعة الفكريَّة. أنت غريب الأطوار يا عزيزي. ماذا أتى بك إلى هذه الرحلة؟ نحن جلبنا الطلَّاب كي نعلِّمهم أن يشعروا بيهوديَّتهم، وأنَّهم جيل البطولة الذي جاء كي يمحو عار الجريمة بالسيف.»

نظر أوري إلى فريدكا، وقال باستهجان وبصوت مرتفع أراد للجميع أن يسمعه، «أخطأتِ يا عزيزتي. لماذ اخترت هذا الأستاذ الأبله كي يقود الطلَّاب في هذه الرحلة؟ نحن لم نأتِ إلى هنا كي نستمع إلى فلسفة أستاذ أدب فاشل. كلّ نقّاد الأدب هم أدباء فاشلون.»

شعر الأستاذ ياكوب بالعجز عن الردّ. كيف يردّ على تهمة

البلاهة؟ ثم مَن قال إنَّ البلاهة تهمة؟ فبعد رواية دوستويفسكي «الأبله»، صارت البلاهة اسمًا آخر للبراءة، وصار الأبلهُ استعارةً لشخصيَّة المسيح الذي يجسِّد الضحيَّة.

هكذا كان الأستاذ يدرِّس طلَّابه: يريدهم أن يقرأوا النصوص الأدبيَّة بصفتها تحمل لغة مختلفة؛ تستخدم الكلماتِ نفسَها التي يستخدمها كتّاب النصوص الأُخرى، لكنَّها تقلب دلالات المعنى رأسًا على عَقِب، وتجعل القارئ يكتشف المعاني المخبَّأة تحت المعاني.

شعر الأستاذ ياكوب بأنَّ ممثِّل وزارة التعليم قام بتحطيم صورته. لقد صار الأستاذَ الأبلهَ بالنسبة إلى الطَّلَبة، ولم يعد في قدرته أن يشرح لهم فضائل البلاهة، أو أن يدعوهم إلى مرافقته لزيارة ماريك إديلمان في منزله.

بطولة اللابطولة

- 1 -

كانت الحادية عشرة ليلًا. رأى آدمُ من نافذة المهجع الذي كان ينام فيه الطلّاب، الأستاذَ ياكوب يمشي في الحديقة الصغيرة على غير هُدًى، كأنَّه مُصاب بنوبة أَرَق، فقرَّر أن ينزل للكلام معه. لَبِس ثيابه على عَجَل. حمل حذاءه في يده، ومشى على رؤوس أصابع قدميه كي لا يوقظ النائمين.

عندما رآه الأستاذ هرع نحوه، ومشيا معًا من دون أن يتكلّما.

وفجأة، التفت الأستاذ إلى تلميذه وقال إنَّه كان في انتظاره.

«في انتظاري أنا؟»

«كنت محتاجًا إلى الكلام مع إنسان يفهمني، ولم يخطر أحد في بالي سواك.»

فهم آدم أنَّ الأستاذ غاضب لأنَّ أوري نعته بالأبله. طلب منه ألَّا

يزعل: «يجب أن تتفهَّم الوضع، فأوري لم يكن قصدُه الإساءةَ إليك، وإنَّما كان يتكلَّم بسبب الانفعال الذي سبَّبته هذه الزيارة التي حملت قصصًا لا طاقة لأحد على احتمالها.»

«إذا كانت زيارة الغيتو حيث قضى 400 ألف إنسان، تجعله متعصِّبًا وكارهًا للأدب، فماذا سيقول عندما نذهب لزيارة مصنع الموت في أوشفيتز؟»

لم ينتظر الأستاذ جواب تلميذه. توقَّف عن المشي وسأل آدم: «هل تعتقد أنت أيضًا أنَّني أبله؟»

«أنت الوحيد هنا الذي حاول أن يقرأ المأساة بعيون إنسانيَّة. أوري هو الأبله. أرجوك يجب أن تنسى هذه الكلمة.»

«لا، أوري ليس أبلهَ. أنا الأبله، والأمير ميشكين بطل رواية دوستويفسكي كان أيضًا أبلهَ. إذا كانت البلاهة تعني النقاء الروحيّ فهم على حقّ، وإذا كانت تعني ألّا ننجرف مع التيَّار ونبقى مخلصين للمبادئ الإنسانيَّة، فأنا مصرّ على البقاء أبلَه.»

«وهل أستطيع الانضمام إليكم؟» سأل آدم.

«إلينا! مَن تقصد؟»

«أنتم مَجْمَع البلهاء، لأنَّني أشعر بأنَّني أيضًا أبلهُ.»

«أكيد. أنا انتظرتك هنا لأنَّني أعتقد أنَّك مثلنا، لذا أريدك أن تشاركني في سرٍّ كبيرٍ يجب عدم البوح به.»

«ما هو السرّ؟»

«أريد الوعد أوَّلًا.»

«أعدك»، قال آدم.

«السرّ هو أنّنا سنذهب غدًا مساء لزيارة رجل يُدعى ماريك إديلمان، وهو بطل، لكنّهم في إسرائيل يعتقدون أنّه أبلهُ. بطل حقيقيّ لا يريد أمثال أوري الاعترافَ ببطولته.»

قال الأستاذ إنّ خطّته كانت أن يأخذ جميع الطلّاب لزيارة هذا الرجل. وروى أنّه تعب كثيرًا كي يعثر على عنوانه هنا، فالرجل لا أثر لذِكْره في إسرائيل، فاضطرّ ياكوب إلى الذهاب إلى تلّ أبيب للقاء يهوديّ بولنديّ، هو أحد الناجين من الهولوكوست. تكلّم على إديلمان في مقابلة صحافيَّة معه، أشار فيها إلىٰ أنّه لا يزال على علاقة به، فحصل منه على العنوان، وراسل إديلمان، وهو على موعد معه غدًا مساءً.

«ستأتي معي. لن نقول لأحد إلى أين سنذهب. فقط نختفي عن الأنظار. بلّغت أوري بأنّني لن أشارك غدًا في النقاش المسائيّ، فلم يُخفِ الرجل ارتياحه. أمّا أنت، فستدّعي أنّك ستخرج مع الفتاة البولنديّة التي تترجم لنا. تظاهَرْ بذلك، وهذا يكفي.»

«وماذا لو أرادت الفتاة أن تأتي معي؟»

«لا أدري، الأفضل بلاها.»

«ومَن هو ماريك إديلمان؟» سأل آدم.

«إنّه أحد قادة انتفاضة الغيتو، وكان أحد نوّاب القائد العسكريّ للانتفاضة مردخاي أنيلڤيتش. بعد مقتل مردخاي انتحارًا كي لا يسقط

في أيدي الألمان، صار ماريك إديلمان هو قائد الانتفاضة، وتمكَّن مع مجموعة من رفاقه من الفرار عبر المجارير، وصار اليوم الشاهدَ الوحيد على تلك التجربة.»

«ولماذا بقي هنا ولم يغادر بعد نهاية الحرب؟» سأل آدم.

«لا أعرف.»

«لكن، كيف استطاع أن يتحمَّل فكرة البقاء هنا بعد هذه المقتلة الرهيبة؟»

«غدًا نسأله. أنا لا أعرف كثيرًا عنه. أعرف أنَّه كان من قادة الشبيبة في حزب البوند. وكما تعلم، فالبوند كانوا يناضلون من أجل مجتمع ديموقراطيّ وعادل في بولندا، وكانوا يرفضون فكرة الهجرة إلى فلسطين.»

«ولماذا نذهب؟»

«كي نستمع إليه. الدليل يردِّد كالبّبغاء ما حفظه غيبًا، وأنا أريد الحقيقة، والحقيقة يجب أن نستمع إليها من الذين عاشوا التجربة.»

وافق آدم على اقتراح أستاذه من دون أن يقتنع بضرورة البحث عن الحقيقة. لماذا الحقيقة؟ فكَّر الفتى، ومَن هو هذا البطل الذي اخترعه أستاذه؟ فهو، كغيره من الطلَّاب في إسرائيل، حفظ اسم بطل واحد صار أسطورة انتفاضة الغيتو، إنَّه مردخاي أنيلڤيتش الذي أُنشئ كيبوتس ياد مردخاي قرب عسقلان تخليدًا لذكراه. وبالقرب من خزَّان الماء في الكيبوتس الذي دمَّره الجيش المصري خلال حرب 1948، يقف تمثال البطل الذي قضى شابًّا في الرابعة والعشرين، وهو يحمل في يده قنبلة يدويَّة.

«وهل كان يعرف مردخاي؟» سأل آدم.

«ما هذا السؤال؟ ماريك إديلمان كان نائبه، يعني من المؤكَّد أنَّهما كانا صديقين، اتَّفقنا؟» سأل الأستاذ.

«اتَّفقنا»، أجاب آدم.

«نلتقي في الخامسة مساءً، وستكون سيَّارةُ تاكسي في انتظارنا.»

لم يكن آدم يدري أنَّ اللقاء سيكون في مدينة لودز التي تبعد 135 كيلومترًا عن وارسو. وعندما علمت ناديا بأنَّ اللقاء سيكون في هذه المدينة، قامت أوَّلًا بتصحيح الاسم، «اسم المدينة بالبولنديَّة وودج، لكنَّ الأميركيِّين يكتبونها Lodz، فاختلط الأمر عليكما كما على الجميع»، ثم اعتذرت عن الذهاب إلى وودج، لأنَّها مرتبطة بعشاء مع والدها الذي أتى إلى مستشفى وارسو في مهمَّة طبِّيَّة، وعليه أن يعود غدًا إلى أوتفوسك، حيث يُقيم.

«وماذا يعمل والدك؟» سألها ياكوب.

قالت إنَّ والدها يعمل طبيبًا للأمراض الصدريَّة، وإنَّه يعرف الدكتور إديلمان معرفةً شخصيَّة. وروت أنَّها كانت ستكون أكثر من سعيدة لو كان في إمكانها الذهاب معهما، فالدكتور إديلمان أسطورة حيَّة؛ طبيبُ قلب عظيم، وأحد أبطال المقاومة.

وفي الطريق الطويل إلى وودج الذي استغرق نحو الساعتين، استرسل ياكوب في الكلام عن أبطال الغيتو، قال «إنَّ رجلًا مثل ماريك إديلمان أعاد إليه الأمل بالحياة، فبدلًا من أن يحكي عن بطولاته ويحوّل حكايته إلى نمط حياة، درس الطبّ، وصار أشهر جرَّاح قلب في بولندا. حوَّل درس مقاومة الموت والذلّ الذي تعلّمه

في الغيتو إلى عمل يوميّ. فهو، مع كلّ جراحة قلب يُجريها، ينتصر على الموت. هذا النوع من الرجال لا يموت.

«وفي داخل الغيتو، عندما كان ذلّ الموت والمهانة يحاصر الناس، انتفض ضدَّ هذا الذلّ، ولم يقاتل يأسًا، وإنَّما قاتل بالأمل وبروح النصر.

«هذا هو اليهوديّ الجديد الذي صهره الموت كما تصهر النارُ الفولاذَ.»

تكلَّم الأستاذ طوال ساعتين كاملتين، كأنَّه صار شخصًا آخر. فجأة تلاشى تواضعه وامَّحت ابتسامة الحَمَل التي كانت ترتسم على شفتيه، وتحوَّلت عيناه الحائرتان إلى عينين صقريَّتين لا تتلعثمان أمام المعاني، بل تقبضان عليها بنظرات واثقة.

سأل آدم أستاذه من أين يعرف هذه المعلومات كلَّها عن الرجل.

«أعرفها لأنَّني بحثت عنها، وأريد أن أراها اليوم بعينَيَّ وأسمعها بأذنَيَّ.»

تذكَّر آدم أنَّ بعض العبارات التي قالها أستاذه في وصف إديلمان هي العباراتُ نفسها تقريبًا التي سمعها من أستاذ التاريخ الذي توقَّف طويلًا في حديثه عن الكارثة أمام انتفاضة غيتو وارسو، ووصف مردخاي أنيلفيتش، قائدَ المنظَّمة اليهوديَّة المقاتلة الذي فضَّل الانتحار على السقوط في أيدي الجنود الألمان، باليهوديّ الجديد.

«وهل حاول ماريك إديلمان الانتحار؟» سأل آدم.

«ما هذا السؤال؟ أنا أتكلَّم على البطولة وأنت تسأل عن الانتحار.»

«لا شيء، فقط خطر في بالي مردخاي قائد الانتفاضة، وقصَّة انتحاره. يجب أن نسأل ماريك إديلمان عن رأيه في انتحار مردخاي.»

«اسأله ما تشاء، لكن تذكَّرْ أننَّا سنكون بعد قليل في حضرة البطل الذي تابع مقاومة الموت بعد الانتصار على النازيَّة، ويجب أن تتذكَّر أيضًا أنَّه صار قائد المنظَّمة المقاتلة بعد موت مردخاي.»

«ولماذا لا يدرِّسوننا عنه في البلاد؟» سأل آدم.

«لا أدري، ربَّما لأنَّه لم يمت. فالبطل كي يُعتَبَر بطلًا يجب أن يموت أوَّلًا، أو لأنَّه أبلهُ مثلي، إذ أصرَّ على البقاء في بولندا ورفض الهجرة إلى إسرائيل.»

«لكنَّك هاجرت.»

«وأنت أيضًا»، قال ياكوب.

«أنا، لا»، قال آدم، «أنا لم، ولن أهاجر.»

«اسمَعْ، أنا مقتنع بأنَّ العاليه (الصعود إلى أرض الميعاد) ليس خطأً. الخطأ أتى بعد ذلك. الخطأ أتى عندما فشل مارتين بوبر في إقناع بن ـ غوريون.»

«تقصد إقناعه بأن يترك دير ياسين خاليةً من السكَّان بعد المذبحة؟»

«ليس هذا فقط»، قال الأستاذ.

«ماذا، إذًا؟» سأل آدم، «هل تقصد فكرة الدولة الثنائيَّة القوميَّة؟»

«من أين تعرف هذه المعلومات؟» سأل ياكوب.

«بوبر كان صديقًا لوالدي»، أجاب آدم.

«يا إلٰهي، هل تعرف مارتين بوبر؟ هذا أعظم فيلسوف يهوديّ في عصرنا. إنَّه ضمير في صورة إنسان. أتمنّى لو استطعت مقابلته. إنَّه مَثَلي الأعلى، هل رأيته؟ هل استمعت إليه قبل أن يموت؟ خسارةٌ أنَّه مات في العام الماضي. كنت أتمنّى أن ألتقيه وأسأله عن رأيه في البلاهة.»

«كنت أمازحك، أنا لا أعرفه، لكنَّني قرأت له، وقرأت عنه.»

«من أين أتت فكرة دير ياسين الشيطانيَّة الآن؟ أرجوك، لا تحكِ عن الموضوع مع إديلمان. اسأله فقط عن تجربته في الغيتو.»

سكت الأستاذ وسكت آدم. لا يفهم آدم لماذا أصرّ بن ـ غوريون على ضمّ بيوت دير ياسين إلى مستوطنة جديدة أُنشئت في سنة 1949 باسم غفعات شاؤول بيت، وجرى استخدام البيوت كمستشفى للأمراض العقليَّة.

رجاه مارتن بوبر أن يترك القرية المدمَّرة على حالها شاهدًا على ألم الضمير اليهوديّ، لكنَّ بن ـ غوريون كان يملك رأيًا آخرَ، فمقاتلو «الإرغون» و«شتيرن» الذين استباحوا القرية قتلًا وتدميرًا، كانوا يعملون ضمن عمليَّة «نحشون» التي قادتها «الهاغاناه». واللافت أنَّ دير ياسين صارت شهيرة بمذبحتها لأنَّها حظيت بتغطية مباشرة من صحيفة «نيويورك تايمز» الأميركيَّة، بينما لفَّ الصمت مجزرة اللدّ وغيرها من المجازر التي عمَّت فلسطين خلال «حرب الاستقلال».

واليوم، يشعر آدم بالأسى وهو يتذكَّر كيف تداخلت ذاكرة دير ياسين بذاكرة رحلته إلى وودج ولقائه ماريك إديلمان، لكنَّه لا يستطيع سوى التأمُّل في الأقدار التي قادت زعيم «الإرغون» مناحم بيغن ليُنْهِيَ

حياته في مستشفى كفار شاؤول للأمراض العقليَّة، الذي أُقيم على ما تبقَّى من بيوت قرية دير ياسين الأصليَّة. يومها، كان بيغن رئيسًا للحكومة، وأُصيب باكتئاب نُقل في إثره إلى هذا المستشفى، حيث اعتزل السياسة والحياة. وكانت حكومته هي التي قادت حرب لبنان في سنة 1982، والتي وصلت إلى ذروتها في مذبحتي صبرا شاتيلا في أيلول 1982.

- 2 -

استقبلهما الرجل بلطف، لكنَّه حذَّرهما من أنَّه ربّما يضطرّ إلى المغادرة في أيِّ لحظة، «فأنا طبيب قلب كما تعلمان، ولا أستطيع أن أؤجِّل مريضًا إذا أُصيب بأزمة قلبيَّة، لأنَّه قد يموت.»

«مفهوم مفهوم»، أجاب ياكوب معتذرًا، «لا نريد أخذ الكثير من وقتك. جئنا مع وفد وزارة التعليم الإسرائيليَّة لزيارة الغيتو وأوشفيتز، وقلت إنه لا بدَّ من زيارتك، فأنت بطل الغيتو.»

«من أين أنت؟»

«من حيفا.»

«لا، قبل ذلك.»

«من ألمانيا، وهاجرتُ صغيرًا ودرست في مدرسة بن شيمين قرب لُد. والشابّ الذي يرافقني هو طالب عندي في جامعة حيفا، واسمه آدم دانون، وهو في الأصل من هنا، والده هرب من غيتو وارسو.»

«دانون. . . دانون، لا أذكر أحدًا بهذا الاسم في الغيتو، أو حتى في وارسو كلّها.»

سكت إديلمان ثم انفجر ضاحكًا، «لا بدَّ من أنَّ أباك غيَّر اسمه على عادة اليهود الإسرائيليِّين الذين قاموا باستبدال أسماء عائلاتهم الأصليَّة بأسماء عبريَّة. أنا لا أفهم معنى هذا. هل يُعقل أن تنقرض جميع العائلات لأنَّها قامت بتغيير أسمائها بناءً على اقتراحات الصهيونيِّين؟ هذه حماقة. أنا لا أفهم هذا المنطق. لكن غير مهمّ»، ثم نظر إلى آدم وسأله «وماذا تريد منِّي يا فتًى؟»

«أنا، لا شيء، جئت مع أستاذي، وهو الذي أخبرني عنك.»

«وماذا تدرس في الجامعة؟»

«الأدب؛ الأدب العبريّ الحديث.»

«أنا لا أفهم في الأدب، ولا يهمّني سوى الحقيقة. أنا رجل علم وطبّ، لا أعتقد أنَّني سأفيدكم في شيء.»

«جئنا من أجل الحقيقة»، قال ياكوب، «قصَّتك، أقصد قصَّتكم في انتفاضة الغيتو حكايةٌ عظيمة، ونحن نريد أن نسمعها منك، وأن نتعرَّف إلى الحقيقة.»

«لا توجد قصَّة هنا»، قال إديلمان، ثم ترك غرفة الجلوس ليعود بعد دقائق حاملًا أكوابَ القهوة، ويجلس صامتًا.

وخيَّم الصمت، الذي لم يقطعه سوى صوت ارتشاف القهوة.

«هل ستبقيان صامتَين؟» سأل إديلمان.

وبدأ الصمت يتشقَّق. ياكوب لم يجرؤ على فتح فمه بأيِّ سؤال، كأنَّه ترك الأمر لآدم الذي بادر إلى سؤال طبيب القلب عن مردخاي:

«هل كان مردخاي صديقك؟»

وبدأ الكلام. لم يعد الدكتور إديلمان في حاجة إلى أسئلة. حكى كأنَّه يجاوب عن أسئلة سبق أن طرحها أحدهما عليه، وكانت فجوات صمته تفتح الباب أمام أسئلة جديدة. يتنحنح، يمسح أثر القهوة عن شاربيه، ويحكي.

يجد آدم نفسه عاجزًا عن تحويل كلمات ماريك إديلمان إلى نصّ. كيف يمكن أن نكتب التنفُّس، أو نصوغ نبضات القلب؟

كان الرجل يحكي، ثم يتوقَّف عن الكلام. يمازح زائرَيه، يقلِّل من أهمِّيَّة بطولته، ويعبِّئ فراغات الصمت بالتماعة عينيه وارتعاشات رموشه.

«مردخاي، تريدان أن تعرفا عن مردخاي، وأن تستمعا إلى كلمة بطل تخرج من شفتَي وترنُّ في آذانكما؟ نعم، مردخاي كان بطلًا وكان صديقي ومات بطريقة بطوليَّة. ومع أنَّني ضدّ الانتحار، إلَّا أنَّني أعترف بأنَّ انتحاره مع رفاقه كان بطولةً.»

«لا شكَّ في أنَّكما تعرفان قصَّته، فهو بطل في إسرائيل. لكنّ ما لا تعرفونه هو أنَّنا التقينا قبل يوم واحد من حادثة الانتحار. جاء مع صديقته ميرا لزيارتنا في شارع فرانسيسكانزا. وكنت أعرف أنَّه فقد الأمل بعد حادثة الفتى الذي أرسلناه إلى الجزء الشمالي من الغيتو، بناءً على تعليمات الجيش الوطني الذي كان يقود المقاومة البولنديَّة. لكنَّ الفتى اعتُقل، والجيش الوطنيّ لم يظهر، وقام الألمان بإحراق الفتى حيًّا في شارع ميوا، وكنَّا نستمع إلى صراخه طوال النهار. سلينا أخبرتني. قالت إنَّها سمعت مردخاي يتمتم بأنَّنا سنموت جميعًا. أخبرتكم بأنَّ

مردخاي جاء لزيارتنا يوم 7 أيَّار مع صديقته الجميلة الدافئة الشقراء ميرا، وفي الثامن من أيَّار أطلق عليها النار أوَّلًا، ثم على نفسه. يبدو أنَّ يوريك فيلنر أطلق صيحة البداية: فلنَمُتْ جميعًا معًا، وبدأ إطلاق النار. وكانت النتيجة أنَّ ثمانين شخصًا قضوا انتحارًا كي لا يسقطوا في أيدي الألمان. واليوم، أُنشئت حديقة في المكان. وعندما يكون الطقس مشمسًا نرى هناك الأمَّهات والأطفال والعشَّاق.»

«وأنت؟» سأله ياكوب، «كنت تقود أربعين رجلًا، هل خطر لك القيام بالعمل نفسه؟»

«أنا، لا. صحيح أنَّ موتهم كان يعبِّر عن رمز بطوليّ، لكنَّك لا تضحِّي بالحياة من أجل الرمز.»

«لكن، لم يكن أمامكم خيار آخر سوى الموت»، قال ياكوب.

«أنت، يا أستاذ، جئتني كي تبحث عن قصص البطولة وعن التضحيات، لكنَّني أعتقد أنَّ الذين ماتوا بصمت كانوا أكثر بطولة من مئتَي شابّ صنعوا انتفاضة الغيتو. هؤلاء الناس مضوا بهدوء وكرامة. إنَّه أمر رهيب أن يذهب الإنسان إلى موته بهذا الهدوء. هذا الموت أكثر صعوبة بما لا يُقاس من الذهاب إلى الموت ونحن نطلق النار. كان الموت بالنسبة إلينا أكثرَ سهولة، نموت ونحن نقاتل. أمَّا الإنسان الذي ركب العربة، ثم أصعدوه إلى القطار، ثم حفر حفرة، ثم تعرّى في انتظار الموت، وبقي صامتًا، فهو البطل الحقيقيّ. هل تفهمني الآن؟»

«هل أنتما جائعان؟»

«لا، شكرًا، لا لزوم»، قال الأستاذ ياكوب.

«لكنّني جائع، وآدم جائع أيضًا، ما رأيكما في قليل من الجُبن مع الفودكا؟ للأسف، زوجتي ذهبت لزيارة عمّتها المريضة في وارسو، ولا يوجد شيء أقدِّمه إليكما.» غادر إديلمان الصالون وترك الأستاذ وتلميذه صامتَين. قرأ آدم الخوف وخيبة الأمل في عينَي أستاذه، لكنَّه لم يشاركه في الخيبة. شعر بأنَّه أمام شخص يستطيع أن يكون قريبه، وتخيَّل والده حسن دنّون محاطًا بهالة من رماد الهزيمة، وهو يروي لزوَّاره حكاياتِ مدينته. لكنَّه سرعان ما أوقف حَبْلَ ذكرياته، إذ بدا له الأمر كأنَّه خيانة للأستاذ الذي وثق به. أوقف حَبْل الذكريات ودخل فيما يشبه السُّبات الذي أيقظه منه مذاقُ الفودكا الحارقُ. كانت تلك هي المرَّة الأولى التي يتذوَّق فيها طعم الفودكا التي ستكون رفيقته الدائمة، وكان يصرّ في نيويورك على شرب الفودكا البولنديَّة، لأنَّ رائحتها تأخذه إلى نكهة البداية. فاللقاء بإيدلمان كان يستحقّ أن يكون بداية جديدة لحياته، لكنَّ البداية ضاعت منه عندما فشل في نيل منحة دراسيَّة إلى بولندا، بعد تخرُّجه من الجامعة. كانت منحة لدراسة السينما في معهد وودج. ومع أنَّ آدم لم يرَ في نفسه سينمائيًّا محتَملًا، إلَّا أنَّه تقدَّم لنيل المنحة من أجل الذهاب إلى بولندا، والغوصِ في الحكاية العجيبة التي رواها له إديلمان في تلك السهرة التي علَّمته أسرار الفودكا وفضائلها. يومها، كان الحزب الشيوعي هو مَن يوزِّع المنح إلى بلاد المنظومة الاشتراكيَّة، فنال المنحةَ طالبٌ عربيّ من حيّ التراشحة في الناصرة، كان والده أحد كبار المسؤولين في الحزب الشيوعي الإسرائيليّ.

«اسمعوني جيِّدًا»، قال إديلمان، «في ذلك الاجتماع الذي توافقنا فيه على الانتفاضة المسلَّحة، كنَّا نعرف أنَّ عددنا بات قليلًا جدًّا،

مجرَّد 220 مقاتلًا في غيتو لم يبقَ فيه سوى ستِّين ألفًا من أصل أربعمئة ألف، وكنَّا نعلم بأنَّ الدَّوْرِ جاء لترحيلنا إلى تريبلينكا. في ذلك الاجتماع. أيَّدت أكثريَّتنا الانتفاضةَ. لقد توافق البشر على أنَّ الموتَ، والسلاحُ في الأيدي، أكثرُ جَمالًا من الموت بلا سلاح. وفي النهاية، كانت القضيَّة ألَّا نسمح لهم بذبحنا عندما يأتي دورنا. كانت المسألة أن نختار طريقة موتنا.»

«مردخاي كان على حقّ، إذًا»، قال آدم.

«لماذا نناقش مسألة لم يعد لها أيُّ أهمِّيَّة؟»

«لكنَّه كان قائدكم»، قال ياكوب.

«اسمع جيِّدًا»، أجاب إديلمان، «أراد مردخاي أنيلفيتش دائمًا أن يكون قائدًا، لذا اخترناه. كان طفوليًّا قليلًا في طموحاته، لكنَّه كان موهوبًا ومليئًا بالحيويَّة. عاش قبل الحرب في شارع سوليك. كان والده بائعًا متجوِّلًا، وأمُّه تبيع السمك، وعندما كانت لا تبيع كمِّيَّة السمك كلَّها التي في حيازتها، تطلب منه أن يشتري طلاء أحمر يطلي به خياشيمها كي تبدو طازجة.»

«لماذا تحطِّم البطولة؟» قال آدم.

«اسمع، يا آدم. لا أدري مَن تكون، ومَن هو أبوك، وأنا أيضًا لا أعرف أبي. كان أبي اشتراكيًّا ثوريًّا أعدمه البلاشفة في سنة 1924، وماتت أمّي وأنا في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، وعشت طوال حياتي يتيمًا، واهتمّ بي أصدقاء أمِّي في المستشفى حيث كانت تعمل. لم يبقَ لي من أبي وأمّي سوى ذكريات شَبَحيَّة لم تساعدني كثيرًا في حياتي، فصنعتُ نفسي بنفسي، وانضممت إلى حزب البوند، وشاركت

في تأسيس المنظَّمة اليهوديَّة المقاتلة في الغيتو «ج. و. ب». (Z.O.B)، وها أنا هنا، أعمل طبيبًا للقلب في المستشفى في وودج. ألا يكفي هذا؟»

«ولماذا لم تهاجر إلى إسرائيل بعد نهاية الحرب العالميَّة الثانية؟» سأل ياكوب.

«أهاجر! أنا أترك بلادي! وارسو هي مدينتي، فيها تعلَّمت البولَنديَّة واليديش والألمانيَّة. فيها ذهبت إلى المدرسة وتعلَّمت أنَّ على المرء أن يعتني بالآخرين، وهنا أيضًا صُفعت لأنَّني يهوديّ. أهاجر! هنا قُتل ثلاثة ملايين يهودي؛ هنا أُبيد أربعمئة ألف إنسان كانوا يُقيمون بغيتو وارسو، ودُفن بعضهم تحت أنقاض النيران التي أحرقت المكان. سأبقى هنا وأموت هنا، لأن أحدًا ما يجب أن يبقى إلى جانب جميع الذين اختفوا.»

رفع ياكوب كأسه، وقال «لنشربْ نخب الموتى.»

«لا»، قال إديلمان، «لنشربْ كأس الحياة.»

«لِخايم»، قال ياكوب.

«لِحايم»، قال آدم.

«جئتما بحثًا عن بطل فوجدتما طبيبًا لا يتوقَّف عن احتساء الفودكا. لماذا لا تشربان؟»

«يجب أن نذهب»، قال ياكوب، «قلنا للسائق أن يأتي ليأخذنا إلى وارسو بعد ثلاث ساعات، وها قد مضى أكثر من أربع ساعات، ولا بدَّ من أنَّه وصل. سأذهب لتفقُّده»، قال ياكوب.

«اِذهب وقلْ له إنَّنا نحتاج إلى ساعة إضافيَّة، لن أدعكما تذهبان

قبل أن ننهي قنّينة الفودكا.»

خرج ياكوب إلى السائق، بينما عمّر إديلمان الكؤوس الثلاث الصغيرة من جديد، ورفع كأسه ليشرب نخب آدم.

«أنت يتيم مثلي، أليس كذلك؟» سأل ماريك.

«وكيف عرفت؟» قال آدم.

«عيون الأيتام لا تُخطئ. انظر إلى عينَيّ، عرفت أنَّك يتيم منذ اللحظة الأولى التي نظرت فيها إلى عينيك. كيف مات والدك؟»

«في الحرب. قُتل أبي في الحرب.»

«أين؟»

وقبل أن يعثر آدم على جوابه، عاد الأستاذ ياكوب ليقول إنَّ السائق قال إنَّه لا يستطيع أن ينتظر أكثر، وإنَّ عليه العودةَ إلى وارسو.

خرج الدكتور إديلمان وذهب إلى السائق حاملًا كأسَ ياكوب وقطعةَ خبز وقليلًا من الجبن، وحين عاد قال إنَّ السائق سينتظر قليلًا.

نظر إديلمان إلى آدم منتظرًا الجوابَ عن سؤاله.

«دكتور إديلمان، عندي سؤال أخير»، قال ياكوب، «لماذا، وكيف استطعت أن تصبح طبيبًا بعد هذا الهَوْل الذي عشته؟»

«اسمع، يا عزيزي البروفسور، عليك أن تسمع الآن بهدوء لأنَّ السائق لم يعد مستعجلًا بعد أن أقنعته بأن ينتظر. سأخبرك عن طفلة كان اسمها ألجونيا. مصير ألجونيا يشبه مصائر كثيرين، لكنَّ المشكلة أنَّني وعدت والدها زيغموند بالاهتمام بها. وزيغموند مات. كان الغيتو يحترق، فجأة حاصرتنا النار التي أضرمها الألمان الذين قاموا باحتلال

الغيتو عبر إحراقه. اكتشفت أنَّ النار متمركزة في منطقة معمل براش، حيث كانت تتمركز مجموعتنا، فقلت للشباب إنَّ علينا أن نعبر من وسط النار إلى الغيتو الأوسط، لكن آنيا رفضت المجيء معنا لأنَّ عليها أن تبقى مع أمّها المريضة. تركناها تموت، واندفعنا من خلال الباحة الخلفيَّة، ووصلنا إلى الجدار عن طريق شارع فرانسيزكانسكا، حيث وجدنا خرقًا في الجدار، لكنَّ المكان كان مضاءً بكشّاف ضوئيّ. تردَّدنا، لكنَّنا لم نملك خيارًا، غطَّانا زيغموند عبر إطلاق النار من بندقيَّته على الكشّاف الضوئيّ. ونجونا. زيغموند الذي مات قال لي إنَّه متأكّد من أنَّني لن أموت، وطلب منِّي العثور على ابنته ألجونيا في زاموشت، في دير للراهبات.

«أشعر بأنَّني أضعت خيط ذكرياتي. صحيح، لماذ أروي، وما نفع الذكريات؟»

وهل عثرت على ألجونيا؟» سأل آدم.

«عثرت عليها»، قال ماريك بصوت متحشرج.

«وبعدين؟»

«بعدين لا شيء، لا أعرف، تبنّتها عائلة أميركيَّة، ثم عرفت أنَّها انتحرت. وعندما زرت تلك العائلة أخذني أفرادها إلى غرفتها، وقالوا إنَّهم لم يمسّوا أغراضها، لأنَّهم لم يفهموا، ولا يريدون أن يصدِّقوا.»

«أنت لا تتكلَّم إلَّا على الموت»، قال ياكوب.

«طلبتم أن تعرفوا ماذا جرى، فأخبرتكم عن الموت، لأنَّ الموت كان حقيقة الحياة الوحيدة في الغيتو.»

- 3 -

ذهب ياكوب لمقابلة هذا الرجل كي يستمع إلى البطولة ويغسلَ روحه بحكاية الضحايا الذين اختاروا الموت، لكنَّه فوجئ برجل نحيل متواضع قصير القامة، يضع نظّارة طبّيّة، وترتجف الكلمات على شفتيه، وينظر إلى البعيد كأنَّه حين يحكي يقرأ ذاكرته بعينين مرتعشتين.

«إنَّه لا يشبه، لا بالجسد ولا الروح، تمثالَ مردخاي الذي يختزن البطولة»، قال ياكوب، وهما عائدان إلى وارسو.

«لكنَّه بطل»، أجاب آدم، وهو يشعر بأنَّ صوتًا يشبه صوت ماريك إديلمان يخرج من حَنجرته.

كيف يروي ابن غيتو اللدّ لمَن جاء باحثًا عن غيتو وارسو في ذاكرة طبيب بولنديّ، كي يداوي شروخ روحه؟ وماذا يقول؟ ولماذا يشعر آدم بأنَّ حَنجرة إديلمان الملفوفةَ بالأسى تتكلَّم من خلاله؟

كيف يروي لأستاذه عن بطولة الموتى الذين قضوا عطشًا وجوعًا؟

شعر آدم بالعطش وهو يرى أمامه ثلاث صور تنبثق من حكايات

الطبيب اليهوديّ البولنديّ.

الصورة الأولى، هي صورة الممرِّضات القاتلات. ممرِّضةٌ تخنق طفلًا بالمخدَّة بعد ولادته بلحظات، وممرِّضةٌ تكسر أقدام الفتيات الصغيرات بعصًا خشبيَّة من أجل إنقاذهنَّ من قطارات الترحيل، ومجموعةُ ممرِّضات يعطين الأطفال المرضى السمَّ بدلًا من الدواء. كان ذلك عندما دخل الألمان الطبقةَ الأرضيَّة في المستشفى، فاستنتجت الممرِّضات أنَّ دور الأطفال المرضى قد جاء، وكان الموت هو الشكل الوحيد المتاح للبطولة.

الصورة الثانية، نرى فيها إديلمان الذي كان يعمل مراسِلًا في المستشفى، وكانت إحدى مهمَّاته الوقوفَ أمام بوَّابة أومشلاغ بلاتس، واختيارَ المرضى الذين لا يُراد لهم الركوبُ في قطار الترحيل، لأنَّ الوهم الذي أشاعه الألمان هو أنَّهم يحتاجون إلى الأصحَّاء لترحيلهم إلى معسكرات العمل فكانت مهمَّته اختيارَ رفاقه المقاتلين كمرضى من أجل تجنُّب الترحيل. وفي أحد الأيَّام، وُضع أمام خيار صعب، وكان بلا رحمة، كما وصف نفسه. تقدَّمت منه امرأة ورجته باكيةً أن ينقذ ابنها الوحيد الذي كان في الرابعة عشرة، لكنَّه لم يفعل، إذ لم يكن يملك سوى أن ينقذ فردًا واحدًا، وكان عليه إنقاذ زوسيا التي كانت أفضل مراسلة في المجموعة.

الصورة الثالثة أتت في اليوم الأخير حين كان يستعدّ مَن بقي حيًّا من المجموعة للانسحاب من الغيتو عبر شبكة المجارير. يومها تقدَّمت منه امرأة، وطلبت منه أن يسمح لها بأن تغادر معهم، فرفض. قال إنَّه لا يعلم لماذا رفض طلبها، فالمرأة كانت إحدى مومسات الغيتو اللواتي اعتنَين بالمقاتلين، وكنَّ يقدِّمن لهم البايغل مع المربَّى. «امرأة

لطيفة وجميلة تستطيع أن تكون أختك، ولم أكن أمتلك أيّ مبرِّر لمنعها من المجيء معنا، لكنّني اتَّخذت قراري بشكل عفويّ ولاواعٍ.»

وحين سأله آدم هل هو نادم، نظر إليه كمَن لم يفهم السؤال، أو كمَن يريد أن يسأل عن معنى كلمة ندم.

كان الحوار مع هذا الرجل ساحرًا. صحيح أنَّ آدم وياكوب كانا واقعَين تحت سطوة أسطورة الرجل، لكن ماريك إديلمان بدَّد الأسطورة منذ اللحظة الأولى. فبعد أن طمأنهما إلى بطولة مردخاي التي جاءا يبحثان عنها، شرح لهما، عبر حكاياته وكؤوس الفودكا التي جعلهما يشربانها معه، أنَّ ما يبحثان عنه لا وجود له. قال لهما إنَّ عليهما أن يبحثا عن شرف الضحايا وليس عن البطولات الوهميَّة، فشرف الضحايا هو الحياة، والحياة هي الكرامة الإنسانيَّة.

قال لهما إنَّه حين ينظر اليوم إلى الوراء، يكتشف أنَّ ما يجب أن نتعلَّمه من التجربة التي عاشها أهل الغيتو الذين قاتلوا، أو الذين ذهبوا إلى موتهم كالخراف، هو كيف حاول الضحايا الدفاع عن شرف موتهم.

يعرف آدم أنَّ هذا هو الدرس الذي تعلَّمه من رجلين، ماريك إديلمان وخليل أيُّوب، وما يكتبه اليوم، في منفاه النيويوركيّ، ليس سوى محاولة لاستيعاب هذا الدرس: الدفاع عن شرف الموت.

لكن، ألا يحقّ له أن يتساءل عن معنى كلمة شرف عندما نصل إلى بوَّابة الموت والعدم؟

ما هي رسالة إديلمان؟ ولماذا اختار خليل أيُّوب أن يموت في أزقَّة نابلس القديمة؟

بدت الأمور بالنسبة إلى الطبيب البولنديّ بالغةَ البساطة والوضوح، فالمقاوم الذي سيصير طبيبَ قلب، تعامل مع التاريخ باحتقار، «عليك أن تحتقر التاريخ كي تحميَ شرف الضحايا من التلوُّث.» لم يوضح إديلمان قصده من احتقار التاريخ، وكان على آدم أن يعبر رحلة الحياة كلَّها كي يكتشف معنى المعنى، الذي يجعل البشرَ وقودًا لقطارات الموت الجماعيّ التي يطلقون عليها اسم التاريخ.

«سألخِّص لكما البطولة بكلمة واحدة: الخراء. نعم إنَّها الخراء، لا أكثر ولا أقلّ. على البطل الذي لم يمت أن يعبر بحر الخراء كي يدافع عن حياته وكرامته.»

وروى إديلمان حكاية خروج آخر مقاتلي المنظَّمة اليهوديَّة المقاتلة، ج. و. ب. من ركام الغيتو. تكلَّم بسرعة كأنَّه يريد أن يتخلَّص من الكلمات، أو كأنَّه يتذكَّر كي ينسى، ويسجِّل كي يمحوَ.

«في 8 أيَّار حاصرت مجموعة من الجنود الألمان والأوكرانيِّين مقرَّ المنظَّمة اليهوديَّة المقاتلة. دام القتال ساعتين، ثم بدأ الألمان برمي قنابل الغاز، وبدا أنَّ معركة رفاقنا صارت يائسة، فقرَّر الجميع الانتحار بدلًا من السقوط في أيدي الألمان. هكذا اختفى 80% من مقاتلينا.

«بعد انتحار مردخاي مع الرفاق، كان عليَّ، بصفتي قائدَ المنظَّمة، اتِّخاذُ القرار بالانسحاب من الغيتو، ولم يكن أمامنا سوى سلوك طريق واحد للعبور إلى الجهة الثانية من المدينة: المجارير. مشينا طوال الليل في العتمة التي لا يخترقها سوى بصيص خافت من بطَّاريتين كنت أحمل إحداهما. كيف أخبركما؟ أحد المجارير كان

علوّه ثمانين إنشًا، وكان من المستحيل الوقوف لأنَّ المياه كانت تصل إلى شفاهنا، التصقت بنا الرائحة كأنَّها صارت جزءًا منّا، ثم اكتشفنا أنَّنا أضعنا إحدى مجموعاتنا، ولم يكن البحث عنها ممكنًا، وكان العطش. عطش وسط مياه عفنة كان علينا أن نشربها كي لا نموت، فيزداد عطشنا. نشرب ونبصق، نختنق بالهواء الذي كان يدخل الرئتين كالسكاكين. نشعر بأنَّنا ننزف من الداخل، ونتابع المشي والسباحة والزفير. نغمض أعيننا على العتمة ونفتحها على العتمة. بقينا على هذه الحال 48 ساعة، كانت دهرًا كأنّه لن ينتهي، لكنَّه انتهى. في العاشرة من صباح 10 أيّار، توقَّفت شاحنتان في تقاطع شارعَي بروستا وتفاردا. أزيلت فتحةُ المجارير، ورأينا ضوء النهار، ولم يكن هناك سوى ثلاثة من رجال الارتباط. كان الضوء يعمي عيوننا التي أَلِفَتِ العتمة، وبدأنا نخرج، واحدًا خلف الآخر، وسط جمهور من المارَّة بدا مندهشًا ومرتعبًا وصامتًا وهو يرى يهودًا مسلَّحين يغطّيهم السواد والأوساخ، يخرجون من قلب العتمة.

«هكذا وضعنا نقطة النهاية على حكاية بطولتنا.»

شرب ماريك إديلمان كأسه دفعة واحدة. عمَّرها من جديد، وقال إنَّ رحلة المجارير تركت في روحه أثرًا لا يُمحى.

«ركبنا شاحنتين صغيرتين كانتا في انتظارنا، واختفينا في المدينة. أقول لكما إنَّ عطشي لم يتوقَّف. في ذلك اليوم شربت وشربت، حتى وأنا أستحمّ في تلك الشقَّة التي جعلها رفاقنا في المقاومة البولنديَّة مخبأً لنا. كنت أستخدم ماء الاستحمام كي أشرب. شربت الماء والصابون، كأنَّني أردت تنظيف أحشائي، ولم أشمَّ رائحتي إلَّا بعدما خرجت من الحمَّام ولبست ثيابًا نظيفة. في تلك اللحظة عبقت فيّ

رائحةُ الخراء، وفهمت أنَّ لا شيء سيزيل هذه الرائحة التي ستبقى معي حتى أموت.»

«وهل لا تزال تشمّ هذه الرائحة؟» سأل آدم.

«أنت أبله يا ابني، أبله أم بريء؟ هل عليَّ أن أعلِّمك معنى الكلام، أنت الذي يدرس الأدب؟ قل لأستاذك أن يشرح لك أن الكلام ليس سوى مَجاز، وإنَّني قلت إنَّ هذه الرائحة ستبقى معي، كي لا أنسى أنَّ ثمن الحياة الذي دفعناه لوَّثنا برائحة لا تمحى، وجعلنا نحتقر جميع أشكال الاستعباد تحت أيِّ شعار أو مبرِّر. لا تزعل. أنا لا ألومك أو أهينك بعبارة أبله، فأنا أيضًا ينظر إليّ كثيرون، وخصوصًا من اليهود البولنديِّين الذين هاجروا إلى إسرائيل، بصفتي أبلَه، وهم على حقّ ربَّما، فأنا لست مستعدًّا للتخلِّي عن هذه البلاهة التي جعلتني في حرب دائمة مع القدر.»

- 4 -

فوق قبور ميخال كليفيتش وإبرازا بلوم والآخرين الذين قُتلوا في جيلونكا، هناك نُصُب يمثّل رجلًا واقفًا يحمل بندقيَّة في يد، وقنبلةً يدويَّة في اليد الثانية، وهناك جعبة حول خصره وحزامٌ فوق صدره، وإلى جانبه حقيبة ملأى بالخرائط.

هكذا بدا مشهد النُّصُب التذكاريّ لأبطال الغيتو: جميلًا، وناصعًا، ويختزن الإرادة وينبض بالحياة.

سيروي ماريك أنَّ النُّصُب لا يعبِّر عن حقيقة المقاومين الذين قضوا في الغيتو. لم يكونوا يمتلكون البنادق والخرائط وجُعَب الرصاص. كانوا قذرين، يغطّيهم اللون الأسود، لكنَّ النُّصُب يروي حقيقة أُخرى، هي حلمهم بأن يكونوا كما يشاهدهم الناس اليوم. يأتي الناس في يوم الذكرى لقضاء وقت جميل أمام العشب الأخضر ووسط الأزهار، وليتخيَّلوا لأبطالهم حياةً لم تسمح لهم الحياة بعيشها.

«هذا هو معنى الاستعارة»، قال ماريك، «لكنَّني وجدت لنفسي

استعارةً أُخرى مختلفةً، ولهذا حدَّثتكما عن الرائحة التي لا تفارقني. الحقيقة أنَّ الرائحة فارقتني، لكنَّني أريد استعادتها، كي لا أتحوَّل أنا أيضًا إلى نُصُب حجريّ. أريد متابعة العمل الذي كنت أقوم به أمام بوّابة أومشلاغ بلاتس، حيث كان عليَّ أن أحرس ما تبقَّى من الحياة، وأسحب العدد القليل من الناجين من فم الموت بذريعة أنَّهم مرضى. أشعر بأنَّني سأبقى طوال حياتي هناك، أمام هذه البوَّابة.»

قال إنَّه لا يستطيع استعادة الرائحة. فالروائح لا ذاكرة لها، ولا تُستعاد إلَّا حين نلتقيها من جديد، لكنَّنا نستطيع أن نستعيد جزءًا من المشاعر التي كانت تأتينا مع الروائح القديمة.

عندما روى إديلمان حكاية الخروج من الغيتو من خلال المجارير، أخبر آدم وياكوب عن ثمانية من الرفاق تاهوا في العتمة، ولم يكن من الممكن انتظارُهم.

تلعثم الطبيب أمام هذه الحكاية، وفَقَدَ السيطرة على كلماته.

«لكنَّك لم تكن تملك خيارًا آخر»، قال ياكوب، «كان عليك أن تَمْضي بالناجين بسرعة، وهذا لا يرتِّب عليك أيَّ مسؤوليَّة.»

حدَّثهما ماريك إديلمان عن الاستعارة، لكنَّه كان في الواقع يحكي عن الذاكرة، «مشكلتنا هي الذاكرة. حتى أنا، الذي عاش هذه التجربة بتفصيلاتها، صرتُ أتذكَّرها في أغلب الأحيان كأنَّها تُشبه النُّصُب الأبيض المُحاط بالأعشاب، وتغتسل عيناي برخام الأسطورة التي تمحو الذاكرة أو تنتصب فوقها.»

في لحظات الانتظار الطويلة تحت شارع تفاردا، كان على المقاتلين انتظارُ الضوء الذي سيأتي به الرفاق من فتحة المجارير.

وخلال هذا الانتظار الطويل، وسط مجرور ضيِّق ومكتظّ، بدأ المقاتلون يشعرون بالاختناق، فأمر إديلمان مجموعة مؤلَّفة من ثمانية مقاتلين بالذهاب إلى مجرور آخر والانتظار. وحين فُتح المجرور وانبثق الضوء، بدأ البحث عن المجموعة الأُخرى. صرخوا لهم بأسمائهم، فلم يُجِبْهم سوى الصدى. بدا الجميع مرهَقًا ويترنَّح أمام فيض الضوء والأوكسجين، ولم يكن الانتظار ممكنًا، فأمر إديلمان القافلة بالتحرُّك، وترك ثمانية مقاتلين لمصيرهم.

هذه هي الحكاية المسكوت عنها، كأنَّ تواطؤًا سرِّيًا تَشَكَّلَ بين الناجين، على أن يُسدل الصمت على هذه الحكاية.

لكنَّ الصمت لم يكن خيارًا، كما يبدو للوهلة الأولى. فالموت كان في انتظار أغلبيَّة الناجين. بعضهم قضى غرقًا في النهر قبل أن يصل إلى موقعه الجديد، وبعضهم الآخر مات في المعركة الأولى التي أعقبت انتفاضة وارسو ضدَّ الاحتلال الألمانيّ.

كانت حكاية مسوَّرة بالموت. مَن يستطيع أن يروي حكاية مات أبطالها، بينما يصرّ شاهدها شبهُ الوحيد على موقفه بأنَّه يتابع الحكاية نفسها بطريقة جديدة عبر تصدِّيه للموت في غرفة العمليَّات في المستشفى؟

مَن يجرؤ على تحدِّي الموت؟

من المؤكَّد أنَّ هذا البطل الذي هبَّ ياكوبُ وآدمُ للقائه شعر، كما يشعر جميع الناجين من كارثة، بأنَّه يريد أن يستريح، لكنَّه وجد نفسه مع رفاقه في أتون الحرب. سقط الغيتو الذي احترق في أيَّار 1944، لكن الحرب لم تنتهِ.

ذاكرة الغيتو هي ذاكرة النيران المشتعلة والحريق الذي التهم كلّ شيء. «لم نتخيَّل لحظة أنَّ الألمان سيلجأون في النهاية إلى خيار إبادة ما ومَن تبقَّى من الغيتو بالنار. لا شيء يمكن مقارنته بالحرائق. الألمان لم يهزمونا، لكنَّ النار هزمتنا. كنَّا نحترق وسط أبنية تحترق. هذه هي اللحظة التي صنعها الألمان من أجل محو ذاكرة الألم.

«أنا لم أحكِ عن الألم؛ لم أحكِ عن الجوع والفقر والأمراض؛ لم أحكِ عن الترحيل؛ لم أحكِ عن القطارات التي لا أزال، حين أستمع إلى ضجيجها، أشعر بأنَّ الدواليب الحديديَّة كانت تمشي على أجساد الناس، لا على سكَّة الحديد؛ لم أحكِ عن الدموع؛ لم أحكِ سوى عن مجموعة صغيرة من المقاتلين الذين اختاروا موتهم. الاختيار الوحيد المتاح أمامنا كان الموتَ: ليس أن نموت أو لا نموت، بل كيف نموت؟ وأطلقنا على هذا الخيار اسم البطولة. لكن، بعد نهاية الحرب، وبعدما لم يتبقَّ في قيد الحياة من مجموعتنا سوى ثلاثة رجال تفرَّقوا في أنحاء العالم، اكتشفت أنَّ الحياة عبء ثقيل لا يمكن تحمُّله إلَّا حين نضعه في صراع مع الموت. الدرس الذي تعلَّمته هو أن أختار بين الموت والحياة، ليس بين موتي وموتي، أو بين موتي وموت إنسان آخر، بل بين موت المريض الذي أعالجه وحياتِه، لذلك بقيت هنا، وصرت طبيبًا، ولا أزال إلى اليوم، أخوض هذه المعركة.»

وقف إديلمان، وقال إنَّ الكلام انتهى.

ووقف ياكوب في مواجهة الطبيب، وقال لآدم الذي بقي جالسًا في مكانه: «انهض، يا عزيزي، علينا أن نَمْضي.»

بقي آدم مطرقًا إلى الأرض، ولم يُجِب.

صافح ياكوب الطبيبَ وشكره على هذه المقابلة، وقال إنَّ الكلمات التي سمعها سترافقه طوال حياته.

همهم الطبيب ولم يقل شيئًا.

انحنى ياكوب على آدم وهزَّه من كتفيه: «ما بك، انهضْ. الرجل يريدنا أن نمضي.»

«إلى أين؟»، قال آدم بصوت منخفض.

«أرجوك تعالَ»، قال ياكوب.

«لكنَّني لا أريد أن أذهب، أريد أن أبقى هنا.»

نظر إديلمان إلى الشابّ الذي جلس على الكرسيّ متقوقعًا على نفسه. اقترب منه وربَّت على كتفه، وطلب منه أن ينهض. وحين نهض آدم، احتضنه الطبيب.

تقدَّم آدم من ياكوب، ووقف إلى جانبه استعدادًا للمغادرة.

«شكرًا»، قال ماريك وهو يودِّع الرجلين.

وفي السيَّارة، صرخ الأستاذ غاضبًا «ما هذه الحركات؟ لماذا صنعت هذا المشهد الميلودراميّ في نهاية المقابلة؟ هل أردت إثارة شفقة الطبيب البولنديّ، أم اعتقدت أنّك بطل؟»

كيف يشرح آدم لأستاذه أنَّه شعر بأنَّه يفضِّل البقاء، وأنَّه لا يريد العودة إلى وارسو ومتابعة الرحلة مع الطلَّاب إلى أوشفيتز، كما أنَّه لا يريد العودة إلى بلاده ومتابعة اللعبة التي وصلت إلى ذروتها هنا في وارسو؟ صِدقُ الرجل وشفافيَّته جعلاه يشعر بالعار. كان يريد أن يعترف لإديلمان بأنَّه ليس ابن هذا الغيتو، بل ابن غيتو آخرَ، وأنَّ الغيتويَين يتشابهان على الرَّغم من أنَّهما مختلفان في كثير من الأوجه،

لكنَّه لم يقل. تقوقع على الكرسيّ في الصالون، وفَقَدَ القدرة على استحضار الكلمات، وشعر بأنَّه أُصيب بالخَرَس.

«لماذا لا تجاوب»، صرخ ياكوب.

«لكنّني... لكنّني... لا...»

«ماذا تقول، ما هذا الهراء؟»

وبعد نحو نصف ساعة من الصمت، التفت آدم إلى أستاذه، وقال «أنا أبلهُ. لم يكن قصدي، لكنّني لا أعرف. الأرجح أنَّك على حقّ، أعتذر.»

قال ياكوب لتلميذه إنَّه طلب منه مرافقته في هذه الزيارة كي يجد مُحاوِرًا، «أشعر بأنّني وحيد هنا، وأنت اليوم خيَّبت أملي. أشعرتني بمزيد من الوحدة، ولذلك لا أعلم ماذا أقول. هذا الرجل جعلني عاجزًا عن رؤية الأشياء بشكل واضح. فبدلًا من أن يروي لنا المأساة بلغة مأسَوِيَّة، رواها بلغة كأنَّها لامبالية. جئت إلى هنا كي أرى كيف نتذكَّر المأساة، فرأيت رجلًا لا يهمّه الماضي، مشكلته هي كيف ينقذ مرضاه من الموت، بدلًا من أن يحتضن ذاكرة تلك الأيَّام برموش عينيه. بدا لي أنَّه لا يريد أن ينظر إلى الوراء، وأنَّه تخلَّى عن الموتى بحجَّة الدفاع عن الحياة.»

«لكنَّه يجسِّد ذاكرة الألم في شخصه»، قال آدم، وهو يستعيد قدرته على الكلام.

«لا أدري»، قال ياكوب.

«وأنا أيضًا لا أدري.»

أراد آدم أن يقول لأستاذه إنَّ لذاكرة الألم لغةً خاصَّة بها،

وكلماتٍ لا تشبه كلماتِنا، وإنَّ إديلمان، الذي دخل في صمت شامل دام سنتين بعد نهاية الحرب، جعل الألم جسدًا لجسده. لم يقل آدم إنَّه أراد البقاء هنا من أجل الصمت، «أنتم تملأون الدنيا صخبًا بحجَّة الذاكرة، لكن ذاكرة الألم لا تحكي، وهي إن حكت فستكون مبقَّعة بالصمت، وتستخدم مِزَقَ الكلمات. لقد سمعت كلّ ما لم يقله هذا الرجل، ورأيت ركام البشر تحت ركام المكان، وهذا يكفي.»

لم يقل آدم شيئًا. اكتفى بأن قال «لا أدري»، وسمع صوت أستاذه وهو يحلِّل الزيارة. لكن هذه الكلمات كانت ترتدّ عن أذنيه وتتفكَّك قبل أن تصبح طنينًا لا يقول شيئًا.

- 5 -

هل روى إديلمان لزائريه عن عامَيِ الصمت اللذين أمضاهما مستلقيًا على سريره لا يرى سوى طلاء الحائط الذي يتقشَّر أمام عينيه، راسمًا صُوَرًا لأشباح الموتى الذين ملأوا المكان بوشوشاتهم الغريبة؟ أم إنَّ حكاية الصمت ارتسمت أمام آدم حين قرأ كتابًا بالإنكليزيَّة بعنوان «حماية اللهب» *(Shielding the Flame)* كان قد أخذه من صديقه المخرج حاييم زيلبرمان.

لا يستطيع آدم أن يكمل حكاية لقائه إديلمان من دون أن يتذكَّر صديقه المخرج الذي اختفى من حياته بعد ذلك العرض السينمائيّ الذي جعل بطل هذه الحكاية وراويهَا ينفجر غضبًا، وينصرف إلى كتابة هذه النصوص المتناثرة بصفتها قصَّةَ حياته. والحقيقة أنَّ هذه النصوص، التي لن يطلق عليها مؤلِّفُها اسمَ رواية، هي محاولةٌ اعتراضيَّة على الأدب أكثر ممّا هي عمل أدبيّ. صحيح أنَّ آدم حاول أن يروي تجربته الشخصيَّة، لكنَّه ليس متأكِّدًا من أيّ شيء.

مشهد إديلمان مستلقيًا على سريره يأتيه من مكان غامض في ذاكرته. كان وهو يقرأ الكتاب يشعر بأنَّه يستمع إلى صوت الطبيب البولنديّ، يخرج متلعثمًا ومتردِّدًا. يغلق آدم الكتاب (وهو ترجمة إنكليزيَّة لحوار أجرته الصحافيَّة هانا كرال مع إديلمان، ونُشر بالبولنديَّة في سنة 1977 بعنوان: «كي تكون أسرع من الله»)، ويغرق في الصمت.

الكتاب الذي قال حاييم إنَّه اشتراه مستعملًا لأنَّ نُسَخه نَفَدَتْ، يجلس على طاولة آدم كأنَّه نافذة مفتوحة على الذاكرة. حاييم جاء إلى مطعم «بالم تري»، وطلب سندويش فلافل. جلس على المقعد الخشبيّ في المطعم يلتهم طعامه ويقرأ، وجلس آدم في مواجهته وسأله ماذا يقرأ.

«هذا أهمّ كتاب قرأته في حياتي.»

وعندما سأله آدم عن ماهيَّة الكتاب، لم يُجِب حاييم. همهم بكلمات غير مفهومة وتابع القراءة.

ترك آدم صديقه جالسًا وعاد إلى عمله، ليُفاجَأ بعد نحو ساعتين بحاييم يمدّ يده ويعطيه الكتاب:

«خذه يا صديقي، واقرأ. هذا الكتاب هو صوتي الذي بحثت عنه طويلًا.»

أخذه آدم، حتى من دون أن يقرأ العنوان.

وعندما عاد إلى بيته قرأ اسم إديلمان، ورأى نفسه خلال زيارته بولندا مع مجموعة الطَّلَبة. عاد به الزمن إلى هناك. جلس إلى جانب

أستاذه ياكوب بين يدي الطبيب وعبيرُ الفودكا الممزوجُ برائحة الخشب يعبق في المكان.

أخرج زجاجة الفودكا البولنديَّة من البرَّاد. صبَّ لنفسه كأسًا وشرب كأس وودج وحلمَه المجهض بالذهاب لدراسة السينما فيها.

نحَّى جانبًا كتاب «الأغاني» الذي كان دليله على مشروع روايته عن الشاعر الأمويّ وضّاح اليمن، وغرق في الكتاب، ولم ينم إلَّا بعد أن أنهاه.

حاييم أخذه إلى الكتاب وإلى ذاكرة أراد أن ينساها، فهذا المخرج السينمائي قاده، من دون أن يدري، إلى ذاته التي تخلّى عنها حين قرَّر مغادرة يافا، ونسيانَ دالية، والهجرةَ إلى الفلافل والشعرِ العربيّ القديم.

حاييم لا يعرف دوره الخفيّ في هذا النصّ، فالحكايةُ كلُّها بدأت بعد ذلك النقاش العاصف في قاعة السينما مع مؤلّف رواية «باب الشمس»، الذي وقف إلى جانب المخرج الإسرائيلي، كي يتكلَّم على بداية الانتفاضة الفلسطينيَّة الثانية في سنة 2000. تكلَّم المؤلّف اللبناني، بثقة عالية بالنفس، من دون أن يخطر في باله أنَّ هناك دائمًا حكايةً قبل الحكاية، وأنَّ الراوي لا يستطيع أن يروي الحكاية بصدق ما لم يأخذنا إلى الحكايات التي تقع خلف حكايته.

والحكاية التي تقع خلف الفيلم هي داليةُ، وداليةُ هي السرّ الذي عجز آدم عن كتابته لأنَّه لم يستطع أن يجد الكلمات الملائمة، التي تصف نهاية الحبّ.

وعندما بدأ آدم في كتابة حكايته جاعلًا منها ملخَّصًا لجميع

الحكايات التي عاشها وقرأها، بحث عن كتاب إديلمان فوجده تحت سريره وسط تلال من الكتب التي يعلوها الغبار.

فتح الكتاب وقرأ كمَن يتذكَّر، ورأى الطبيب يحتضن لهب الحياة التي يحاول الله أن يُطفئه، وأحسّ بأنَّ صراع الطبيب مع الله، يُعيد صراعاتِ الإنسان مع الإنسان إلى حجمها بصفتها صراعاتٍ تفتقر إلى المعنى.

لكنَّ الحكاية التي تقع خلف تجدُّد لقاء إديلمان أكثر تعقيدًا من ذلك، لأنَّها جرت في سريره في مواجهة حائط غرفته المطليّ بلون أبيض حائل، يميل إلى الرماديّ.

على هذا السرير استلقى آدم سبعة أيَّام بعد شفائه من الحمَّى التي ضربته بعد ليلة اليأس النيويوركيَّةِ التي أعقبت مشاهدته فيلمَ «نظرات متقاطعة» في قاعة «سيني فيلدج» في الشارع الثاني عشر في نيويورك. صديقته الكوريَّة، سارانغ لي، التي اعتنت به خلال أيَّام الحمَّى، قالت له إنَّها لا تفهم ما يجري، فأجابها بأنَّه هو أيضًا لا يفهم. لم يروِ لها أنَّ انهياره النفسيَّ الذي قاده إلى الصمت أمام الحائط، لم يكن فقط بسببِ الفيلم، بل إنَّ الفيلم كان النقطةَ التي جعلت الكأس تفيض. أمّا الكأس فكانت: مأمون، صديقَه ووالدَه الرمزيّ الأعمى الذي أخبره بأنَّه ليس ابن منال وحسن دنُّون، بل هو ابن شجرة الزيتون، وأنَّه وجده مرميًّا على صدر أمّه الميّتة تحت شجرة زيتون في الفلاة، خلال مسيرة الموت الفلسطينيَّة الكبرى.

على الحائط الذي احتلَّته أشباح اللّدّ، قرأ آدم حياته من جديد، وقرَّر أن يكتبها.

فكرته الأولى كانت أن يبدأ بالحائط جاعلًا منه شاشةً تمرّ فيها الصُوَر كفيلم سينمائيّ صامت. سوف يبدأ برحلته إلى وارسو جاعلًا منها نقطةَ التقاطع التي تضمّ إليها تناقضات حياته كلّها، فيبدأ النصّ بماريك إديلمان خارجًا من البطولة إلى اليأس، وهو يستلقي في سريره في مواجهة الحائط، وينتهي بآدم مستلقيًا في سريره في المنفى في انتظار موته.

إديلمان ظلّ على هذه الحال عامَين كاملين. هذا ما رواه الطبيب البولنديُّ في حواره مع هانا كرال. أمّا آدم، فاستلقى سبعة أيّام كانت بمثابة رحلة إلى الماضي والحاضر، سمحت له بأن يتخلّص من وهم كتابة استعارة عن صمت شاعر أمويّ، كي يشرع في كتابة صمت الضحايا الذي جسّده صمتُ أمّه البيولوجيّةِ التي ماتت هناك، وتلعثُمُ أمّه الثانيةِ منالَ التي لم تستطع أن تكون أمًّا كالأمّهات.

النصُّ، كما رآه آدم على شاشة الحائط، يبدأ بإديلمان وينتهي بآدم: الاثنان مستلقيان وصامتان. الأوّل سينهض كي يعالج المرضى، والثاني سيموت. لكن آدم عدل عن المشروع، وفكّر في أنَّ بداية كهذه ستقوده إلى الغرق في البحث عن بنية متماسكة، وتأخذه من جديد إلى محاولة كتابة رواية تشبه الروايات، وهو لا يريد ذلك، بل يسعى لعكسه.

هكذا وُلد هذا النصُّ واتّخذ مساراتِه محكومًا بذاكرة مشوَّشة تمزج الحقيقيَّ بالمتخيَّل.

يجلس آدم دنُّون أمام زجاج نافذته، الذي يعكس إيقاعات نيويورك، فلا يرى المدينة. يرى الطبيب البولنديَّ مستلقيًا في سريره في

مواجهة الحائط، بينما تقف زوجته آلا إلى جانبه وهي تحثُّه على النهوض من الفراش.

روى إديلمان عن أيّام ما بعد البطولة، وقال إنَّه لم يختر دراسة الطبّ. آلا، التي أصبحت زوجته بعد لقائهما خلال الانتفاضة الشاملة ضدَّ الألمان التي حدثت في وارسو في سنة 1944، هي التي سجَّلته في كلِّيَّة الطبّ. قال إنَّه يستطيع الآن القول إنَّ دراسة الطبّ هي التتمَّةُ المنطقيّةُ لعمله في الغيتو، قبل الانتفاضة وخلالها. قبل الانتفاضة، كانت وظيفته أن يقف أمام بوّابة أومشلاغ بلاتس وينقذ أفرادًا قلائلَ من مصير الإبادة في تريبلينكا. أمّا خلال الانتفاضة، فكانت مهمَّته أن ينقذ ستِّين ألف إنسان من الموت المُهين في أفران الغاز، وها هو اليوم يتابع مهمَّة الصراع مع الموت كطبيب. قال إنَّ آلا جعلته طالبًا في كلِّيَّة الطبّ من دون أن تستشيره، لكنَّه كان يشعر بأنَّه غير معنيّ بأيِّ شيء، ولهذا أمضى سنتين من حياته مستلقيًا في سريره لا ينظر إلَّا إلى حائط غرفته، ولا يرى سوى فراغ أبيضَ يُحيط به من كلِّ جانب.

«كما قلت لكم، سجَّلَتْني آلا في كلِّيَّة الطبّ، فبدأتُ بالذهاب إليها، لكنَّني لم أكن مهتمًّا بالموضوع. وكنت، حين أعود إلى المنزل، أرمي بنفسي على السرير، وأُدير ظهري للعالم.»

قال إنَّ احتكاكه بدراسة الطبّ يعود إلى قيام بعض زملائه، الذين كانوا يأتون لزيارته، برسم أعضاء الجسم البشري على الحائط، وهكذا تعرَّف إلى القلب والمَعِدة والرئتين. لكنّ هذه الرسوم لم تُثر فيه أيَّ شهيّة إلى الدراسة. قال إنَّه كان يُدعى في تلك المرحلة إلى المشاركة في مناقشات بشأن الغيتو، لكنَّه كان يشعر بنفسه مكتومًا وغيرَ فاعل، «كأنَّني أُصبت بالعجز عن الكلام.»

لا يشرح لنا إديلمان سبب عجزه وصمتِه. ربَّما يعود ذلك إلى الصدمة التي احتلَّته بعد نهاية الحرب، أو ربَّما أيضًا لأنَّه وصل إلى قمَّة حياته وهو في الثانية والعشرين، ولم يعد يدري ماذا يفعل بما تبقَّى له من عمر.

ليس هذا مهمًّا. المهمّ أنَّ الرجل خرج من صمته فجأة وانخرط في الدراسة، وكان ذلك بسبب عبارة سمعها من أحد الأساتذة في الكلِّيَّة. قال الأستاذ: «الطبيب يستطيع تشخيص المرض بمجرَّد النظر إلى عينَي مريضه وجِلده ولسانه.»

«يومها، اكتشفت أنَّني أمام لغز عليّ حلّه»، قال إديلمان، «وفي تلك اللحظة أصبحت طبيبًا.»

يمتلك هذا الطبيب تعريفًا خاصًّا لمهنته، فهو يرى في نفسه رجلًا يصارع المَلاك. لم يكن مارك إديلمان متديِّنًا كي يشبِّه نفسه بيعقوب الذي صارع الله مثلما كُتب في التوراة، لكنَّه حوّل تجربة الموت في غيتو وارسو إلى صراع من أجل حماية لهب الحياة، «يحاول الله أن يطفئ الشمعة، وأنا أحاول أن أحميَ اللهب، مستغلًّا فترةَ عدم اهتمامه القصيرة، فأُبقي ومض اللهب مشتعلًا أطولَ قليلًا ممّا كان يتمنّى.»

هذه هي المعركة الجديدة التي انخرط فيها الطبيب بعد أن أسدل الموتُ الستارَ على ثلاثة ملايين ضحيَّة في بولندا وحدَها، كأنَّه لا يزال واقفًا أمام البوَّابة في أومشلاغ بلاتس، كي يسحبَ أفرادًا من شِدْق الموت، «وحين لا أستطيع أن أنجز المهمَّة، يبقى أمامي أن أؤمّن موتًا مريحًا للمرضى، كي لا يتألَّموا ولا يخافوا، والأهمّ من ذلك كلّه كي لا يُهينوا أنفسهم.»

قال إنَّ هذا هو الدرس الأهمّ: ألَّا يهين الإنسان نفسَه أمام الموت.

«ولماذا تعتبر ذلك مهمًّا؟ الموت يتشابه في النهاية. الموت هو الموت، لا أكثر ولا أقلّ»، قال آدم.

«لا، يا ابني، الموت لا يتشابه، فالحياة لا تأخذ معناها إلَّا في مقاومة ما لا يمكن مقاومته، أيْ مقاومة الموت، وهذا ما حاولناه في انتفاضة الغيتو: أن نقاوم الموت مع أنَّنا كنَّا نعرف أنَّنا سنموت، وهذا ما أحاوله الآن في عملي. وفي الحالين على الموتى أن يدافعوا عن كرامة موتهم.»

«ولماذا لم تغادر بولندا؟» سأل ياكوب، «فمقاومة الموت ممكنة بصرف النظر عن المكان.»

«هذا صحيح»، قال إديلمان، «لكنِّي لا أستطيع، فأنا قبل الحرب، كنت أقول لليهود إنَّ مكاننا هنا، وعندما بدأت الحرب، وحدث ما حدث، كيف كان في إمكاني أن أغادر؟ لم ولن أغادر، لأنَّه يجب أن يبقى أحد هنا كي يؤنس الموتى.»

قال ياكوب

كان ليل العودة إلى وارسو موحشًا؛ ظلامًا لا تشقُّه سوى الأضواء الأماميَّة للسيَّارة التي كانت تخترق عتمة الطريق. وكان الصمت. لم يجد الرجلان ما يُقال. غرقا في سكون ما لبث أن بدَّده سؤال الأستاذ الغاضب لتلميذه عن سبب الموقف الميلودراميّ الذي وضع نفسه فيه، في نهاية اللقاء مع الطبيب البولنديّ.

وكان الطريق طويلًا، وفهم آدم، في تلك اللحظة، معنى بيت المتنبّي الذي يتحدَّث فيه الشاعر عن طريق يطول:

«نحن أدرى وقد حَلَلْنا بنَجْدٍ / أَطويلٌ طريقُنا أم يطولُ»

فالطريق الذي يطول يأخذك إلى لامكان، أو إلى المكان الذي لا تريد الذهاب إليه. قام الشعر بتحويل الصفة التي جاءت بصيغة سؤال، إلى سؤال بصيغة فعل، فالطريق ليس طويلًا إلَّا لأنَّه يطول: الشاعر يريد الذهاب إلى حلب، لكن حلبَ التي غادرها المتنبّي صارت مستحيلةً بعدما انهار جسر الشعر الذي بناه كي يصل إليها. أمّا آدم

فطريقه إلى وارسو يطول لأنَّه لا يريد العودة إليها، بل هو في الواقع لم يعد يدري إلى أين يريد الذهاب، فالرحلة التي تنتظره إلى أوشفيتز، حدثت من دون أن تحدث. رأى فتى غيتو اللدّ كلَّ شيء من دون أن يراه. أحسّ بأنَّ داخله يتفكَّك أمام عبثيَّة التاريخ ووحشيَّتِه.

عندما سأله ياكوب إذا كان جِدِّيًا في كلامه على أنَّه يريد البقاء في وودج، تلعثم آدم ولم يُجِب لأنَّه كان لا يعرف الجواب.

«ما رأيك في الرجل؟» سأل ياكوب.

«رأيي! هذا إنسان حقيقيّ. والإنسان هو الكائن الأجمل»، أجاب آدم.

«لكنَّني لم أفهم لماذا لم يهاجر إلى أرض الميعاد؟»

فكَّر آدم في أنَّ إديلمان أجاب عن هذا السؤال بشكل واضح حين قال إنَّ مهمَّته هي حمايةُ لهب الحياة من الانطفاء، إذ من الطبيعيّ أن يرفض رجل يساريّ وإنسانويّ أن تكون المجزرة ردًّا على مجزرة. الأفق الإسرائيليّ، كما يعتقد آدم أنَّ إديلمان رآه، لم يكن سوى أفق دمويّ، فالسكاكين كانت تُشحذ في «البيت الأحمر» الذي اتَّخذه بن - غوريون مقرًّا لقيادته في تلّ أبيب.

لكن آدم بدلًا من أن يُجيب، قال إنَّه لا يعرف.

«وأنا أيضًا لا أعرف»، قال ياكوب، «لكنّ هذا رجلٌ خطير، هزَّني من أعماقي وخلخل قناعاتي.»

اتَّخذت الرحلة شكلَ مونولوغ طويل مبقَّع بفجوات الظلام، وكان الكلام مليئًا بالتناقضات، ومن الصعب صَوْغُه في سياق متماسك.

قال ياكوب إنَّ إسرائيل ضرورة وجوديَّة، «لقد عاش اليهود طوال

قرون في المنافي والشتات، شعبًا أو شعوبًا بلا لغة. ولولا لغةُ التوراة لضاعوا وامَّحوا كما امَّحت شعوب كثيرة. الكنعانيُّون امَّحوا، والأشوريُّون امَّحوا، أمَّا شعب الكتاب فقد أنقذه الكتاب من الاندثار. وكان في استطاعة اليهود البقاءُ كما كانوا في بابلهم اللغويّ، بعضهم يتكلَّم اليديش والبعضُ الأخير يتكلَّم العربيَّة، وبعض ثالث يتكلَّم اللادينو أو الألمانيَّة، وإلى آخره... لكنَّهم اكتشفوا في النهاية أنَّ خلاصهم لا يكون إلَّا عبر تبنِّي منطق قَتَلَتهم. نحن الألمان الجدد يا عزيزي، الألمان لم يعودوا ألمانًا بعدما سُحقوا في الحرب العالميَّة الثانية، أمَّا نحن فكان خيارنا الوحيد أن نصير ألمانَ الشرق.

«كنت أقرأ مؤخَّرًا كتابًا عن تاريخ العرب الحديث، واكتشفت أنَّ بْرُوسيا احتلَّت مخيِّلة كثير من القوميِّين العرب. مَن هي الدولة التي ستكونْ بُروسيا وتُوحِّد العرب: العراق، أم مصر؟ مساكينٌ العربُ، لأنَّ بْروسيا الحقيقيَّة كانت دولتَنا. لقد تعلَّمنا من الألمان كيف نكون بروسيا التي ستجمع الشتات وتنفي المنفى.»

قال ياكوب إنَّنا لم نكن نملك خيارًا آخر، «بعد الهولوكوست أُقفلت أبوابُ الهجرة في وجوه الناجين التعساء. بريطانيا أقفلت أبوابها، وكذلك فعلت الولايات المتَّحدة، ولم يكن أمامنا سوى خِيار فلسطين. أردنا أن نصنع بلدًا يكون منارة للشعوب، نأخذ التنوير من أوروبا ونمزجه بروحانيَّة أنبياء إسرائيل، لكن انظر ماذا صنعنا بأنفسنا؟ هل نحن نحن، أم صرنا شعبًا آخر؟ لا أدري.»

قال ياكوب «سأُخبرك عن أختي. عندما وصلنا إلى هنا، قالت أختي إنَّها تكره هذه البلاد. بلاد حارَّة لا تصلح إلَّا للشرقيِّين الكسالى، ثم اختفت. وضعوني في مدرسة الأيتام في بن شيمين،

وهناك شعرت بالغربة. كنت كمَن لا أهل له، كأنَّني طفل وُلد من الحائط. وحين ذهبت إلى الأدب، اكتشفت أنَّ هناك دائمًا خيارًا آخرَ، لكنَّ الأدب خيار وهميّ، يأخذك إلى مكان شاهق فتصير كأنَّك فوق التاريخ. كلّ أدب حقيقيّ. حتى لو كان نصًّا مستوحًى من التاريخ، يصير مع الزمن فوق التاريخ. الأدب مثلُ الأساطير والأديان. حين يقوم الناس بإنزال الأساطير والديانات إلى أرض التاريخ، فإنَّهم يذهبون إلى الجريمة. وهذا ما أخشاه. أخشى أن يدخل مشروعنا، المستندُ إلى أسطورة أرض الميعاد، تاريخَ العالم بصفته جريمةً.»

قال ياكوب إنَّه يشعر بأنَّه أضاع القدرة على صوغ أفكاره، «كيف أحكي، وأنا لست سوى واحد من الصابونيم؟ عندما كنت في بن شيمين وبدأ التدريب على السلاح، أحسست بأنَّني لا أستطيع حمل بندقيَّة. أنت لا تعرف معنى هذا الكلام. صحيح! لم تقل لي لماذا لم تذهب إلى الخدمة العسكريَّة في الجيش؟ الشبَّان في عمرك يذهبون إلى «تساهال» قبل الالتحاق بالجامعة، هل أنت متديِّن؟ لكن شكلك وتصرُّفاتك لا توحي بذلك. لا يهمّني مَن تكون... كنت أخبرك عن التدريب العسكريّ، كان جحيمًا لأنَّني كنت أتفركش وأقع طوال الوقت، ولم أشعر يومًا بأنَّ البندقيَّة جزء من جسدي. كان المدرِّب يأمرنا بأن نتعامل مع الرشَّاش كأنَّه يدُنا الثالثةُ، وأن نشعر به في داخل خلايانا، لكن بدني كان يقشعرّ من ملامسة حديد البندقيَّة، وكنت غالبًا ما أُصاب بالإعياء والدُّوار. وبعد ذلك، وخلال فترة دراستي الجامعيَّة، كنت وحيدًا ومعزولًا. أختي اختفت، لا أعلم ماذا حلَّ بها، وأنا كنت منزويًا على نفسي، فأطلقوا عليَّ لقبَ صابونيم، وعيَّروني بأنَّني يهوديّ. تخيَّل: صارت صفة اليهوديّ شتيمةً، وصار

الناجون من الهولوكوست محلَّ احتقار. هل تعلم ماذا تعني كلمة صابونيم؟ كانت هذه الكلمة مرادفًا لاحتقار يهود الشتات الذين ذهبوا إلى موتهم كالنَّعاج. ومع أنَّني هاجرت إلى هنا قبل الكارثة، إلَّا أنَّه يبدو أنَّني كنت أشبه الناجين، ربَّما لأنَّ ظهري منحنٍ. أكيد أنَّك لاحظت انحناءة ظهري. قالوا إنَّني أشبه اليهود، وعيَّروني بالصابونيم. كلّنا يعرف أنَّ تحويل أجساد اليهود في معسكرات الاعتقال النازيَّة إلى صابون، بعد قتلهم، لم يكن صحيحًا، لكنَّني صرت صابونًا، ولا أزال أشعر بأنَّني أنزلق على أرض صابونيَّة، ولا أعرف كيف أمشي. لذا، أطلقوا عليَّ هنا صفةَ الأبلهِ. هل أنا أبلهُ؟ لا أدري.»

قال ياكوب إنَّ عليه أن يتوقَّف عن هذا الهراء، «أنت تتركني أحكي ولا تقول شيئًا. هل تعتقد أنَّ هذه الزيارة أصابتني بمَسّ من الجنون، وخلخلت قناعاتي؟ لا، يا عزيزي. يجب أن نتماسك. حكايات غيتو وارسو تجعل المرء يفقد ثقته بالإنسان. هل الإنسان ذئب؟ يجب أن أوضّح الأمور لنفسي: إسرائيل حقيقة، وأنا أنتمي إليها. قد تكون الصهيونيَّة مِصيدة سقطنا فيها كلُّنا، كما يدّعي إيدلمان، لكن هذا لم يعد مهمًّا الآن. المهمّ هو أنَّنا نعيش هذه الحقيقة، وعلينا أن ندافع عنها. وجودنا مهدَّد بشكل دائم، وليس لنا مكان نذهب إليه. إيدلمان وجميع المثاليّين، مثل حنَّة أرندت ومارتن بوبر، قالوا إنَّنا نُنهي مأساتنا بمأساة جديدة ضحيَّتها الفلسطينيُّون العرب. هذا كلام مثاليّ ولا معنى له. هل كُتب علينا أن نبقى ضحايا إلى الأبد؟ وإذا كان ثمن خلاصنا هو التضحيةَ بشعب آخر، فلَم لا، ألم تقد الحكاية إبراهيمَ إلى التضحية بابنه؟ الحكاية أكثر جمالًا من الواقع لأنَّ الله أرسل الخروف وجنَّب إبراهيمَ ارتكابَ مجزرة، لكنَّ الخروف لا وجود له في الواقع.

الخروف مجرَّد حكاية. أمّا في واقعنا، فلم يرسل إلينا الله خروفًا. تستطيع أن تقول إنَّني مليء بالتناقضات، وهذا صحيح. يستطيع صاحبك إيدلمان أن يُعطيني دروسًا في الأخلاق، وهذا حقّه. لكن حقّي من الحياة هو أن أعيش، وهذه مسألة لا أستطيع التنازلَ عنها. أشعر بالانزعاج لأنَّ شرط حياتي هو أن أنحّي الأخلاق جانبًا، أو أن أتنازل عن جزء منها؛ أتنازل عن الجزء كي أحافظ على الكلّ، والكلّ هو إيماني العميق بالمساواة بين البشر، واقتناعي الراسخ بأنَّ دروس الهولوكوست هي دروس إنسانيَّة. فما جرى في أوشفيتز يجب ألّا يتكرَّر، وعلينا أن نمنع تكراره بكلّ ما أوتينا من قوَّة.»

قال ياكوب إنَّه يشعر بالاختناق، «طوال اللقاء مع إيدلمان كدت أختنق. ما هذا الهراء؟ قال إنَّه يحمي الحياة. على أيّ حياة يتكلَّم هذا المعتوه؟ أراك تبتسم، يا عزيزي. تضحك منّي لأنَّني أقلّد أوري نبراسكي، هذا الذي اتَّهمني بأنَّني أبلهُ. لاحِظْ أنَّني لم أقل عن إيدلمان إنَّه أبله. قلت إنَّه معتوه، وهناك فرق كبير بين العبارتين. فهذا الطبيب البولنديّ مُصرٌّ على البقاء في الماضي. صحيح أنَّه يعيش اليوم حياة طبيب عادي، لكنَّه في أعماقه يعتقد أنَّه لا يزال واقفًا أمام بوّابة أومشلاغ بلاتس، متناسيًا أنَّ أهل الغيتو كلَّهم ماتوا، وأغلب الظنّ أنَّه مات هو الآخر، لكنَّه لا يريد أن يعترف بموته. أنا لا أقلّد أوري، ولا أتبنَّى خطابه، لكن يجب أن نعترف بأنَّ أوري يملك جزءًا من الحقيقة. يجب أن توافقني على ذلك: هناك زمن انتهى. لقد نجح هتلر في تطبيق الحلّ النهائيّ في أوروبا. أوروبا لم تعد موجودة بالنسبة إلينا، وعلينا أن نفهم أنَّ حياتنا صارت مرتبطة بوجود إسرائيل. الحنين إلى الماضي وإلى حزب «البوند»، صار بلا معنى. فاليهوديّ الجديد

وُلد في مصهر حرب «الاستقلال». أعرف أنَّ شخصًا مثلي يكره الجيوش والحروب لا يحقّ له أن يحكي هذا الكلام، لكن صاحبك استفزَّني، وأَخرجَ من أعماقي هذه المشاعرَ التي لم أشعر بها يومًا.»

قال ياكوب إنَّ صوت الصمت في شوارع الغيتو التي تختزن أنين الضحايا يجب أن يكون كافيًا كي يفهمنا العالم، ويفهمَ أنَّ بطلنا هو مردخاي، وليس إديلمان. «كان على إديلمان أن يموت مع أبطال الغيتو كي يبقى بطلًا، لكنْ من سوء حظِّه أنَّه لم يَمُتْ. وبدلًا من أن يأتي إلى بلادنا التي اكتملت فيها البطولةُ، قرَّر أن يُمْضي بقيَّة حياته هنا. هذا اليهوديّ سيبقى يهوديًا مهما يُقدِّم من إنجازات علميَّة وطبِّيَّة. كان يجب أن نسأله كيف يشعر في خضمِّ هذه الكراهية لليهود التي يُعيد إنتاجها النظام الشيوعيّ في بلاده. ألم يكتفِ بمقتل والده الاشتراكيّ الثوريّ على أيدي البلاشفة لأنَّه رفض أن يخضع لطقوس عبادة الحزب الواحد؟ اللاساميَّة في كلِّ مكان. لم أكن أفهم معنى اللاساميَّة قبل أن أستمع إلى حكايات الغيتو؛ فأنا جئت إلى البلاد صغيرًا، لكنَّني فهمت الآن.»

«لماذا لا تقول شيئًا؟ قل أيّ شيء»، صرخ ياكوب.

«ماذا تريدني أن أقول؟» أجاب آدم.

«قل إنَّك توافقني في الرأي، أو تختلف معي فيه، أو قل ما تشاء.»

«سأقول... ماذا أقول؟ أختلف معك في نقطتين: الأولى هي الخروف، لا أدري لماذا أرسل الله الخروف إلى إبراهيم ولم يرسله إلى قايين. قايين كان أَوْلى بالخروف، لأنَّه مع مقتل هابيل بيد أخيه

اتَّخذ التاريخ البشريّ شكل المجزرة. أنا لا أرى أيّ فائدة في افتداء إسحق. إسحق كان يجب أن يموت كما مات هابيل، ثم إنَّ افتداءه جاء متأخِّرًا، لأنَّه لم يستطع أن يمحو لعنة قايين التي ستبقى تلاحق البشر إلى النهاية.»

«لن أناقشك في تشبيه رمزيّ جاء عَفْوَ الخاطر»، قال ياكوب، «وأنت تعلم بأنَّني أتعامل مع النصوص الدينيَّة بصفتها حكاياتٍ أدبيَّةً رمزيَّة. ربَّما كان الحقّ معك. القصَّة بدأت بقايين الذي رفض الله ذبيحتَه لا لشيء إلَّا لأنَّه قدَّم ثمار الأرض، بينما قَبِل ذبيحة شقيقه الذي قدَّم قربانًا حيوانيًا. والمسألة لا تكمن في حبّ الله لرائحة اللحم والدم، كما يعتقد بعض السُّذَّج. القصَّة ليست سوى استعارة رمزيَّة للصراع بين الفلَّاحين والبدو. كما أنَّ قصَّة إبراهيم هي حكاية رمزيَّة عن ضرورة التوقُّف عن تقديم الابن البِكْر ذبيحةً إلى الآلهة، وكان من الأفضل لي عدمُ استخدامها.»

«والثانية؟» سأل ياكوب.

«نسيتها»، قال آدم.

«لا، لم تَنْسَها، لكنَّك لا تريد أن تقول لسبب لا أعرفه. ربَّما كنت تريد الدفاع عن صديقك المغفَّل.»

«صحيح»، قال آدم، «لقد انتبهت لتمييزك بين الأبله، وهي الصفةُ التي ألصقها بك أوري، وبين المغفَّلِ، وهي الصفة التي أطلقتها على إديلمان، لأنَّك تعتقد أنَّ دوستويفسكي أعطى كلمة الأبله معنى ساميًا حين جعلها صفةً لبطل روايته الأمير ميشكين، بينما تحمل كلمة مغفَّل معنًى تحقيريًا. وأنت مخطئ هنا، فالأبله هو المغفَّل. وبالنسبة إليَّ،

فإنَّ إديلمان أكثر جمالًا من الأمير ميشكين، وهو يصلح لأن يكون بطلًا لرواية كبرى عن الغيتو.»

«هذا كلّ شيء؟» سأل ياكوب.

«تقريبًا»، أجاب آدم، «كما أنَّني لا أوافقك في أنَّ ميزة الأبطال هي موتُهم. الموت هو سمة الضحايا الذين يدخلون في صمت الألم، حتى لو بَقَوا في قيد الحياة.»

«لكن إديلمان ليس صامتًا كي يحوزَ شرفَ البطولة.»

«صمت الرجل سنتين، صمت أمام حائط احتلَّته ظلال الموتى، وهذا يكفي. الصمت، يا أستاذي العزيز، هو الحكايةُ كلُّها.»

«من أين جاءتك هذه الحكمة؟»

«لأنَّني متّ في الغيتو»، أجاب آدم.

«أنت لم ترَ الغيتو سوى من ثلاثة أيَّام!» قال ياكوب.

«أنت لا تعرف شيئًا»، أجاب آدم.

التماعة العينين

رأى آدم في عينَي ناديا التماعةَ الماء. كان في عينَي هذه الفتاة ضوءٌ يخبِّئ حزنًا خفيًّا ينتشر على البؤبؤين العسليَّين، موحيًا بأنَّ هذه الفتاة البولنديَّة تحوِّل الألم إلى وَشْمٍ في العينين.

قالت له، وهما يمشيان في مدى معسكر أوشفيتز، إنَّها في العادة تكتفي بالترجمة في الغيتو، ولا تأتي مع السائحين إلى هنا لأنَّهم لا يحتاجون إلى ترجمتها، ولأنَّها تخاف.

«لكنّني أتيت من أجلك»، قالت.

«من أجلي؟»

«شعرتُ بأنَّك تختلف عن الجميع، فقلت أرافقك.»

«كان يجب أن أترجم لكِ. هل فهمتِ شيئًا من كلام الدليل بالعبريَّة؟» سأل آدم.

«في مكان كهذا لا لزوم للكلام، ولا حاجة إلى الترجمة، فالحجر ينطق.»

ينتظم السائحون في طوابيرَ متعدِّدة يقودها أدلّاء محترفون. التحق آدم ونادیا بالطابور الإسرائيليّ الذي كان يقوده دليل يُتقن العبريَّة، وعندما وصل إلى اللوحة الزجاجيَّة، التي وُضع في داخلها نماذجُ من شَعرَ الضحايا الذي كان النازيُّون يستخدمونه لأسباب شتَّى، انهارت نادیا. جلست أرضًا وبدأت تنوح. انحنى آدم وطلب منها النهوض لإكمال الجولة مع المجموعة الإسرائيليَّة، فهزَّت برأسها أنْ لا.

جلس آدم إلى جانبها على الأرض، ووضع وجهه بين يديه.

«انهضْ، يجب أن تلتحق برفاقك»، قالت.

هزَّ رأسه، وبقي إلى جانبها. جلسا صامتَين، وأمامهما كانت تمرّ طوابيرُ الناس الذين كانوا يقفون لحظات، ثم يديرون ظهورهم كي يتابعوا سياحة الموت.

أمسكت نادیا بیده وقالت إنَّها لا تستطيع، فأجابها آدم بأنَّه هو أيضًا لم يعد يستطيع. «كان يجب ألّا نأتي»، قالت، «الموت ليس مكانًا للسياحة، وتحويلُ هذا المعسكر إلى متحف أمرٌ محزن ولا معنًى له.»

قال آدم إنَّه لا يوافق على هذا الرأي، «يجب أن يرى جميع الناس ماذا جرى هنا، كي لا ننسى.»

«لكنّ المتاحف موجودة من أجل تنظيم النسيان»، قالت، «أُنظر إلى هذه الجموع كأنَّهم في رحلة، يأكلون ويتحدثون ويضحكون وسط الجثث، أنا لا أستطيع.»

لم تكن نادیا على حقّ، فآدم شعر، وهو يمشي وسط ما تبقَّى من المهاجع، وأمام الأفران المهدَّمة، وفي جوّ الكلام على الأشغال

الشاقَّة والجوع والأمراض والغاز، بأنَّه في جهنَّم. «نجح هتلر في بناء الجحيم، هذا هو الجحيم الحقيقيّ. تفوّق هتلر على خيال الأنبياء، وبنى مصنعًا جحيميًا يتلاشى فيه الزمن، ويتحوّل فيه الإنسان إلى مجرَّد غريزة حياة تحاول ألَّا تموت.»

في أوشفيتز، عرف آدم معنى المسافة الصفر من الموت. هنا يتجرَّد الإنسان من كلِّ شيء، ويصير أشلاءً تبحث عن البقاء. رأى كيف تتلاشى الأرواح قبل الأجساد، وكيف تكبو الأجساد؛ بعضُها فوق بعض، بحثًا عن لحظة دفء وسط البرد، وكيف يحتلّ الجوعُ العيونَ، فتصير العيون أكبرَ من الهياكل العظميَّة التي تحملها، كأنَّها تختزن في داخلها حشرجاتِ الروح.

وقف عاجزًا عن الكلام أمام جبروت الجحيم. قال لناديا إنَّ الأنبياء جميعًا على خطأ، فالجحيم يجب أن يكون جليديًّا. البرد هو الجحيم، وهنا كان على نزلاء هذا الجحيم أن يرتجفوا بردًا، بحيث يفقدون القدرة على التمييِّز بين البرد والخوف؛ بين ارتجافة الرُّكَب وصريرِ الأسنان. قال إنَّه لا يفهم كيف استطاع العالم أن يتابع حياته بعد أوشفيتز. هنا مات الإنسان ووُلد الوحش.

قالت ناديا إنَّ الله مات هنا، «أين كان الله، وماذا كان يفعل؟ وكيف سمح لهؤلاء الوحوش ببناء معبد الجريمة هذا؟»

أراد أن يقول لها إنَّ الذي مات هنا هو الإنسان، موت الله هو النتيجة الطبيعيَّة لموت الإنسان. جريمة قايين اكتملت هنا، والخروف المذبوح، بحسب نبوءة أشعياء، يُشير إلى حتميَّة موت الله بعد موت الإنسان.

أراد أن يقول إنّه يشعر بالعار. المسألة لا تتعلّق بالغفران، فالذي يملك سرّ الغفران مات، والحسابُ كان شكليًّا. ماذا تعني محاكمة المجرمين النازيّين الألمان، بعد هيروشيما؟ هيروشيما هي الفصل الأخير في كتاب أوشفيتز الذي كُتبت حروفُه بآهات الضحايا وأشلائهم.

أراد أن يقول إنَّه يعيش في الكذب، وإنَّه يريد أن يعترف للضحايا بأنَّه ضحيَّة تخبِّئ مأساتها وتختبئ فيها، وحين تختبئ المأساة في ضلوع الضحيَّة، تصير الحياة رقصةَ موت مؤجَّل.

لا يستطيع آدم أن يصف ما رآه، فالوصف خيانة للموصوف. كلّ وصف لمذلَّة الروح؛ كلّ حكاية عن الرعب أمام القبور الجماعيَّة المفتوحة؛ كلّ اقتراب من حمّامات الغاز، كلّ كلام على حرق الجثث، خيانةٌ.

اللغة هي الخائن الأكبر للإنسان. اخترع الإنسان اللغة كي يسيطر على الأشياء ويسمِّيَها، لكنَّ اللغة خانته وخانت نفسها عندما امتلكت الجرأةَ على وصف ما لا يوصف، وتسميةِ ما لا يُسمّى، فَفَقَدَتِ المعنى.

كيف تروي الضحيَّة التي سُرق منها الكلامُ؟

ومَن يروي؟

أراد آدم أن يُخبر ناديا عن فجوات الصمت التي كانت ترسم المعنى في كلمات إديلمان، لكنَّه لم يستطع. رأى نفسه يرتعش من البرد تحت شمس أوشفيتز، وكانت ناديا تنظر إليه بعينيها الملوَّنتين بماء يشبه الدموع، وأحسَّ بالاختناق، وفهم كيف كانت دموع أمِّه منالَ

تنحبس في حَنجرتها، فتتغرغر كلماتها المتقطِّعة بدموع بلا ماء، ولا تبكي إلّا صمتًا.

الوصف خيانة للموصوف، همس آدم لروحه وهو يحاول أن يكتب عن تلك الزيارة.

كتب، مع أنَّه كان يعرف أنّه ليس مؤهَّلًا لذلك. فبعد بريمو ليفي الذي وصف أوشفيتز بكلمات مقتضبة، والذي وقف واستوقف قارئه أمام مشهد ذلك اليهوديّ الذي صعد إلى حبل المشنقة في المعسكر، وصرخ وسط ضجيج فرقة موسيقيَّة كانت تعزف، «أيُّها الرفاق، أنا هو الإنسان الأخير.»

«مَن هو الإنسان؟» همس لناديا.

«ماذا قلت؟»

«لا شيء، أريد أن أغادر هذا المكان. إنَّني أختنق.»

مشيا بعيدًا عن المجموعات التي كانت تلهث خلف مَشاهد الرعب، ودخلا مهجعًا يبدو من شكله أنّه كان مكانًا للنوم، وجلسا على حجر. أخذت ناديا سيجارة، وهمَّت بإشعالها.

«بَلاها أرجوكِ»، قال آدم، «لا يجوز أن ندخِّن في حضرة الموت.»

أعادت الفتاة البولنديَّة اللفافةَ إلى العلبة، وهمَّت بأن تقول شيئًا، لكنَّها لم تقل.

قال آدم إنَّه يشعر بالجوع، وإنَّه يحتقر نفسه، ويريد العودة إلى حيفا.

وفي المطعم المحاذي للمعسكر الذي كان يقدِّم البيرة والبيتزا،

التقى آدم أستاذَه ياكوب محاطًا بأفراد المجموعة وهم يلتهمون البيتزا ويشربون البيرة. نهض الأستاذ وقال إنَّه سيجلب لهما الطعام والشراب.

«هل رأيتم ماذا فعلتم بنا؟» قالت إيزابيلًا وهي تنظر إلى عينَي ناديا.

«تتكلَّمين معي؟» سألت ناديا.

«أتكلَّم معكما»، قالت إيزابيلًا، «أرجو أن تكونا مستمتعين بهذه الإجازة.»

«أنا بولنديَّة ولا علاقة لي،» قالت ناديا.

«كلّكم نازيُّون»، أجابت إيزابيلًا، «كلّ أوروبا مسؤولة، كلّ العالم مسؤول، والعرب مسؤولون أيضًا، وأنا أكرهكم كلَّكم.»

في تلك اللحظة عاد الأستاذ ياكوب حاملًا قطعتَي بيتزا وكأسين من البيرة ووضعهما أمام آدم وناديا. «زيارة مريعة»، قال الأستاذ، «الآن فهمت كلّ شيء: لا مكان لنا سوى في أرض الميعاد، هذا ما رواه لي الموتى في أوشفيتز. صديقك إديلمان مخطئ، يا آدم، لا أفهم ماذا يُبقيه وسط هؤلاء القَتَلَة.»

«من أين يأتيك الكلام، يا أستاذ، وسط هذه المشاهد المروِّعة؟» قالت ناديا. أزاحت طبق الطعام من أمامها، وقالت إنَّها ليست جائعة، وستنتظرهم في الباص.

«لماذا لا تأكل يا عزيزي؟» سأل ياكوب تلميذه، «ألست جائعًا؟»

«لا أدري، لكن كلام إيزابيلًا يسدّ النَّفْس.»

«أنت لا يحقّ لك أن تحكي. اِخرس.»

نهض آدم. غادر المكان من دون أن يأكل، وركض نحو ناديا.

«لماذا؟» سألته ناديا.

«لا أدري، إنَّها التروما، يجب أن نتفهَّمهم.»

«التروما تجعل الإنسان عاجزًا عن الكلام. أمّا أستاذك وصديقته فلا يشبهان الضحايا»، قالت ناديا.

ظلال الحكاية

التقى آدم ناديا في شوارع غيتو وارسو. تعب من جوّ زيارة وارسو مع مجموعة منتخَبة من الطلّاب الإسرائيليّين الذين أتوا في رحلة نظَّمتها وزارة التعليم من أجل تعريف الشابّات والشبّان بتاريخ المحرقة النازيّة، ودروبِ الألم في قطارات الموت، فتسلَّل وحيدًا، ودخل أوَّل «ميلك بار» وجده، وكانت هناك.

جلس إلى جانبها وأكلا من دون أن يتكلَّما.

فجأةً التفتت إليه وقالت: «أنتَ! ماذا تفعل وحدك، أين الجماعة؟»

وبدأت الحكاية.

لم تكن حكايةَ حبّ، كانت حكاية لقاء، هكذا ستبقى ناديا في ذاكرة آدم. فالفتاةُ البولنديَّةُ السمراء، ذاتُ الشعر الطويل الأشقر، كانت تمتلك صوتًا أنثويًا مبحوحًا، كأنَّ وقائع الحياة في غيتو وارسو،

التي كانت تترجمها للمجموعة الطلَّابيَّة إلى الإنكليزيَّة، صارت جزءًا من صوتها الذي كانت البحَّةُ الخفيفةُ علامةَ الأسى التي استوطنته.

تكلَّما على كلِّ شيء، ولا شيء. قالت إنَّها تدرس الصحافة في الجامعة، وتعمل في حقل الترجمة بين وقت وآخر، وإنَّها تتوق إلى السفر، وتتمنَّى زيارة إسرائيل، لأنَّ والدها أخبرها عن جمال مدينة طبريَّة.

لن يستطيع آدم أن يشرح لنفسه طبيعةَ العلاقة العابرة التي جمعته بناديا، والتي وصلت إلى ذروتها عندما دعته إلى العشاء في منزل والديها في أوتفوسك.

قالت إنَّ أوتفوسك تبعد ثلاثين كيلومترًا عن وارسو، وإنَّها ضاحية ساحرة، «وإذا كنت قد جئت إلى هنا بحثًا عن ذاكرة المحرقة، فستجد في هذا المنتجع الجميل أكثرَ ممَّا تتوقَّع.» قالت إنَّها حاولت إقناع الأستاذ ياكوب بتخصيص اليوم الأخير من الرحلة لزيارة الغيتويَيْن والمقبرة اليهوديَّة في أوتفوسك، لكنَّ الأستاذ أصرّ على أنَّ برنامج اليوم الأخير سيكون حُرًّا، لأنَّ الطلَّاب في حاجة إلى التجوُّل بحرِّيَّة في المدينة قبل أن يعودوا في اليوم التالي إلى بلدهم.

قدَّمت ناديا هذا العرض إلى آدم في يوم عملها الأخير مع المجموعة، قالت إنَّهما سيذهبان في الخامسة من مساء الغد في القطار، «تتعرَّف إلى أبي، وهو شخصيَّة عجيبة ستبهرك. تنام في منزلنا، وأنظِّم لك جولةً قصيرة في الصباح، ثم تعود بعد الظهر.»

كان آدم مرهَقًا. الكلام القاسي الذي قالته إيزابيلَّا أمام أستاذه، وشعوره بعدم القدرة على الردّ خوفًا من افتضاح سرّه أمام ياكوب،

جعلاه يشعر بالوحدة، فأتت ناديا لتنقذه من يوم إضافيّ مع المجموعة، لذلك وافق على دعوتها، ثم قال لا. لم يكن يريد أن يرى شيئًا. أحسّ بأنّه ارتكب خطأً فادحًا لأنّه لم يجرؤ على رفض دعوة أستاذه، «ما كان يجب»، قال لناديا.

«لماذا تحكي بهذه الطريقة؟» سألته.

شعر بالحاجة إلى أن يعترف لها بكلِّ شيء. قال لها إنّه لا يريد أن يرى مشاهد إضافيّة عن المحرقة، لأنَّ قلبه يعتصره الحزن، ولم يعد يستطيع أن يتحمَّل، لكنَّه أراد أن يقول شيئًا آخر أيضًا. أراد أن يقول إنَّ إيزابيلّا ربَّما كانت على حقّ، فهو مجرَّد متطفِّل لا يحقّ له. ودَّ أن يقول إنَّ عليه ألّا ينسى أنّه غائب حتى إن حضر، وإنَّ قدره أن يعيش لامرئيًا، لكن ماذا يقول، وكيف؟ هل تستطيع هذه الفتاة البولنديَّة أن تتفهَّم حكايته وسط عاصفة الموت التي عاشتها المجموعة في هذه الرحلة؟

كان آدم يشعر بالندم لأنَّه شارك في هذه الرحلة، وهو يحتقر الندم. تعلَّم احتقار الندم عندما رأى كيف أذلَّ الندمُ أمَّه بعد زواجها بعبد الله الأشهل وهجرتِها إلى حيفا. الندم غطَّى صمتَ منالَ، فبدأت المرأة الصغيرة تفقد جمال صمتها، واحتلَّها احتقارُها لنفسها إلى درجة أنَّها أُصيبت بما يشبه الشلل عندما رأت ابنها يغادر إلى المجهول، ولم تفعل شيئًا. اكتفت بتقليد صمتها الذي كان يختزن الألم، فصار صمتها عارًا.

فكَّر آدم في أنَّه لا يحقّ له أن يندم. مَن قال لإيزابيلّا إنَّه يحقّ لها أن تطلب منه أن يخرس لأنَّه فلسطينيّ؟ مَن قال إنَّ مأساة الهولوكوست

هي مُلكٌ لليهود الإسرائيليِّين وحدَهم؟ وهل يحقّ للذين شرّدوا شعبًا بأكمله أن يدَّعوا أنَّهم وَرَثَةُ الضحايا؟

أحسّ، وهو يقلِّب الحكاية كي يتخلَّص من شعوره بالندم، بأنَّه ذهب بعيدًا، وأنَّه يُعمِّم. تعلَّم من أستاذه ياكوب أنَّ ميزة الأدب الكبرى أنَّه لا يُعمِّم، «التعميم يقتل روح المعنى، فالمعاني تولد من التفاصيل العينيَّة في الحياة اليوميَّة، أمّا التعميم فيُسقط الأدب في الأيديولوجيا التي تقتل التجربة».

قال لناديا إنَّه تعب ولم يعد يستطيع تحمُّل مشاهد إضافيَّة. يكفيه غيتو وارسو وأوشڤيتز كي يهيمن عليه شعور جامح بوحشيَّة الإنسان.

اتَّفقا على أن يُمْضيا النهار في وارسو بعيدًا عن المجموعة، وقالت إنَّها ستمرّ به في العاشرة صباحًا.

كان يومًا غريبًا. قال لها آدم، وهو يودِّعها أمام غرفتها في السكن الجامعيّ، وكانت الساعة تشير إلى العاشرة ليلًا.

«كيف ستعود؟ تستطيع أن تُمْضي الليلة عندي في الغرفة، على الرَّغم من أنَّها غرفة صغيرة لا تتَّسع، لكنَّنا نستطيع أن ندبِّر حالنا»، قالت.

«سأمشي، أشعر بحاجة إلى المشي.»

«لكنَّك قد تضيع.»

«يا ريت أضيع، وأخلص من هالعيشة»، أجابها.

ضمَّته إلى صدرها مودِّعة، «نلتقي في حيفا قريبًا»، قالت.

بعد نحو أربعين سنة، سيكتب آدم أنَّ عدم الذهاب إلى أوتڤوسك جنَّبه مشهدًا عاطفيًّا سخيفًا.

آدم يكره الميلودراما في الأدب. ومع أنَّ الحياة الواقعيَّة تبدو مسلسلًا ميلودراميًّا بلا نهاية، إلَّا أنَّه يعتقد أنَّ على الأدب أن يحرِّر الحياة من الميلودراما وينقلها إلى المستوى التراجيديّ كي يكون هناك معنًى.

هذا لا يعني أنَّه لم يعش لحظات ميلودراميَّة ثقيلة، لكنَّه يفضِّل أن يمحوَها من حياته. يريد لحياته أن تكون من دون نوستالجيا، ولا ميلودراما، ولا دموع.

بدأ اللقاء في ذلك اليوم الغريب بأن روت له عن القرية التي رفض زيارتها.

«أنا وُلدت في أوتفوسك. أبي يختصّ بالأمراض الصدريَّة وأمِّي طبيبة تحليل دم، التقيا في الجامعة. هي شقراء وهو أسمر، وتزوَّجا بعد قصّة حبٍّ، وانتقلا إلى الإقامة بأوتفوسك قرب المستشفى الذي عملا فيه، فهذه البلدة مشهورة بمناخها الجميل وهوائها الصنوبريّ الذي جعلها منتجَعًا للمصابين بالأمراض الصدريَّة. وأنجبا ثلاث بنات، أنا وإيفا وماريَّا. حاول أبي أن يُبعدنا عن كلِّ شيء له علاقة بماضي المدينة، وعندما كنت أسأله عن الغيتو ومقتل جميع اليهود في المدينة. كان يقول إنَّ هذا الماضي البشع يجب أن يُمحى من الذاكرة. لكن لكَ أن تتخيَّل ماذا كانت ردَّةُ فعل فتاة حشريَّة مثلي، صنعَت مع شقيقتيها خليَّةً للبحث. جمعنا الحكايات وزرنا موقع الغيتويين، واكتشفنا جنون القتل والاضطهاد. الحقيقة أنَّ أبي لم يتوقَّف عن البحث عن عمل خارج أوتفوسك. قال عندما عرف أنَّنا كسرنا جدار الصمت، إنَّه لا يريد أن يعيش هنا، فالمكان، على الرَّغم من جماله ورائحة الصنوبر التي تغطِّيه، ليس مكانًا لنا. لكن أنت تعرف ظروف

الحياة الصعبة في هذا البلد، وأنَّ الطبيب لا خِيار له، لذا بقينا. كنت أريدك أن تأتي لزيارة البلدة كي ترى بعينيك أين فتح الجنود الألمان والأوكرانيُّون النارَ على الناس، وكيف تركوهم للموت بالتيفوس والأمراض في الغيتو، وكيف ساقوهم إلى تريبلينكا من محطَّة القطارات التي كانت ستستقبلنا لو رضيت بأن تأتي معي. هل تعلم بأنَّ سكَّان البلدة، في أغلبيَّتهم، كانوا يهودًا قبل المذبحة؟»

«وهل عادوا بعد نهاية الحرب؟»

«هل يعود الموتى؟» أجابته.

«أنت يهوديَّة؟» سألها.

«لا، أنا مسيحيَّة كاثوليكيَّة، لكن تستطيع أن تقول إنَّني عشت في عائلة ملحدة. أبي كان شيوعيًّا في شبابه.»

«هل أنت شيوعيَّة؟» سألها.

«أنا لاشيء»، قالت.

«وأنت؟» سألته، «أنا أخبرتك قصَّتي، ما هي قصَّتك؟»

«أنا؟»

«نعم، أنت. أنا صحافيَّة، ومهنتي أن أستمع إلى قصص الناس. الحقيقة أنَّني فكَّرت في أن أحوِّل عملي مع مجموعتكم إلى ريبورتاج أقدِّمه كورقة نهاية الفصل الدراسي في الجامعة.»

«أنا لا أملك قصَّة تستحقّ أن تُروى.»

«أنت لا تقول الحقيقة.»

«ولماذا أقول الحقيقة؟ أنا أمرّ بأزمة كبرى. وحتى لو أخبرتك،

فلن تكوني قادرة على كتابتها، لأنَّها حكاية معقَّدة تعصى على التحوُّل إلى ريبورتاج صحافيّ.»

لا يدري آدم كيف مرَّ الوقت خاطفًا، فالفتاة لم تلحّ عليه كي يروي، لكنَّ الكلام يجرّ الكلام، كما تقول العرب. والكلام أخذ الشابَّين إلى مطارح لم يكونا راغبين في الذهاب إليها.

قالت إنَّها لا تعتقد أنَّ في إمكانها أن تكتب ريبورتاجًا عن زيارة أوشفيتز والغيتو مع المجموعة، فالأمور معقَّدة هنا، كما تعلم، والكتابة عن اليهود، في ظلِّ المناخ السياسيّ السائد، صارت أمرًا محرَّمًا لا يمكن لأحد اختراقه؛ ثم إنَّها لا تستطيع أن تكتب نصف الحقيقة، فهناك نصفٌ مغيَّب، هو مسؤوليَّة البولنديين في المحرقة، وهذا لا يمكن الاقتراب منه.

مشيا في الشوارع كتائهَين، كأنَّهما خارج الوقت، فالكلام حين يتحوَّل إلى شبكة للتواصل يجرف معه الزمنَ، فيمضي النهار كأنَّه يبدأ. كانا يجلسان على المقاعد في الشوارع، أو يجدان مكانًا بين الأشجار، يشربان الماء، ويتكلَّمان كأنَّهما يمتلكان الكلام كلَّه.

وفجأةً، بدأت الشمس تغيب.

«نسينا أن نأكل»، قالت، «أكاد أموت من الجوع.»

دخلا مطعمًا، وجلسا. طلبت كأسًا من البيرة، وطلب كأسًا من الفودكا.

قال إنَّه على استعداد لأن يروي حكايته، شرط ألَّا تكتب عنها، لا الآن ولا في المستقبل.

وروى، وكانت الفتاة البولنديَّة تنظر مدهوشة بما تسمع. روى عن

حضوره الغائب، وعن الغيتو الذي وُلد فيه. أخبرها حكايات اللدّ، وحدَّثها عن أحزان منالَ، وقال إنَّ مشاعر غريبة انتابته هنا. أحسَّ بأنَّ إديلمان يمكن أن يكون والدَه حسن دنُّون وقد انتقل من اللدّ إلى وارسو، وأنَّ مشهد القطارات ذكَّره بمشهد القوارب التي نقلت الفلسطينيِّين إلى تِيههم من ميناء حيفا، لكنَّه يشعر، من جهة ثانية، بأنَّه لا يحقّ له. «لقد ارتكبت خطأً كبيرًا، ما كان يجب أن أجيء إلى هنا مع هذه المجموعة. إيزابيلّا فضحتني، وأنا أشعر الآن بالعار، فهذا العالم لا يتَّسع لأَلَمَيْن كبيرين. ربَّما كانت إيزابيلّا على حقّ. عليَّ أن أختار بين أَلَمِنا وأَلَمِهم، وأنا هنا في وسط أَلَمِهم، لذا أشعر بالندم، وبأنَّني بخَست المشاعر الإنسانيَّة حقَّها. تمنَّيت، ونحن في وودج، أن يدعوني إديلمان إلى البقاء معه. الرجل اكتشف أنَّني يتيم عندما نظر إلى عينَيَّ، لماذا لم يتبنَّني؟ لو اقترح عليّ أن أبقى لَأَنزلت هذا الحمل عن ظهري، وصارت لي هويّة جديدة. لكنْ، عليّ الآن أن أعود معهم. لا أعلم كيف سينظرون إليَّ. لم أعد أحتمل نظرات الكراهيَّة أو الشفقة، ولم أعد قادرًا على العيش بين هويَّتين، فأنا حاضر وغائب، وهذا يمزِّقني.»

استمعت إليه ناديا بهدوء مغلَّف بالحنان. وضعت يدها على شَعَرِه وهي تستمع إلى حكايات الغيتو، وكادت تبكي عندما روى لها عن اختفاء مأمون من حياته. ارتسم الغضب على عينيها وهي تستمع إلى العنف الذي مارسه عبد الله على منالَ وابنها، وارتجفت شفتها السفلى وهي تمشي معه في ليل حيفا الماطر. ضحكت من حكاية الكاتب الإسرائيليّ الذي التقاه في الكاراج. ابتسمت بحنان وهي تستمع إلى قصَّة حبّه لرفقة...

روى لها كلّ شيء. أكل لقيمات قليلة من صحنه، لكنَّه كان جائعًا إلى الكلام فحكى، وأنهى كلامه قائلًا: «قولي لي، ماذا عليَّ أن أفعل؟»

وبدلًا من أن تحتضنه ناديا ضحكت، «افعل ما تشاء، يا حبيبي. أنت فلسطينيّ، وتختبئ في هويَّة شابّ يهوديّ. يا إلٰهي، كلّكم هكذا، كلّكم كاذبون.»

كانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف مساءً. نهضا، وتابعا مسيرتهما من دون أن ينبسا.

التفتت إليه وقالت «أنت كذّاب محترف، لكنَّك ظريف، الآن فهمت لماذا تكذبون.»

اعتقد أنَّها تعود بضمير الجمع إلى الرجال، فبان عليه الغضبُ وسألها «مَن تقصدين؟ أنا لا أحبّ التعميمات. إذا كنت تقصدين الرجال، فأنا أطمئنك إلى أنَّني لست واحدًا منهم. لو كنت رجلًا لَفعلت كما فعل رباح.»

«وماذا فعل رباح؟»

«انتحر»، أجابها.

«أوَّلًا، أنا لم أقصد الرجال بعبارتي. وثانيًا، أنا لا أحبّ الانتحار. وثالثًا، أنا أقصدكم أنتم الفلسطينيِّين.»

«هل تريدين أن تقولي إنَّنا شعب من الكذَّابين؟»

«بالضبط.»

«ومَن أنتِ حتى تحكمي على شعب كامل؟»

هنا انفجرت ناديا بالضحك من جديد.

«أجيبي»، صرخ بها.

«سأجيب بشرط واحد.»

«ما هو؟»

«هو شرطك ذاته للكلام، ألّا تروي هذه الحكاية لأحد.»

«لكنَّ قصص أوتفوسك يعرفها الجميع.»

«مَن قال إنَّني سأروي لك عن أوتفوسك؟»

«أنا موافق.»

«اسمع»، قالت، «التقيتك هنا، ورأيتك غريبًا، ولا أخفيك أنَّني عندما دعوتك إلى قريتي كنت أخطّط لمغامرة صغيرة مع رجل غريب. لكن، الحمد لله، أنَّك رفضت المجيء، فأنا لا أحبّ القصص التي هي تكرار لقصص سابقة. هكذا أرحتني. الآن فهمت لماذا شغفت بك، فأنت تشبه والدي. أودّ أن أشكرك لأنَّك صالحتني معه، هو كذّاب مثلك.»

«وشو هي القصّة؟» سألها.

«القصّة، يا صديقي، أنَّ هذا الرجل الأسمر الذي كان يدَّعي أنَّه من أصول قوقازيَّة، وأنَّه يتيم فَقَدَ والده حين كان في الخامسة من عمره، ثم فَقَدَ والدته وهو في الثانية عشرة، وعاش وحيدًا بلا أهل ولا أقرباء، لفَّق حكايته من الألف إلى الياء بتواطؤ من أمّي المسكينة التي لا حَوْلَ لها. عشنا طوال حياتنا مع هذه الأكذوبة إلى أن افتُضح الأمر، حين أتى إلى زيارتنا رجلٌ جاء من لامكان، وأقام ببيتنا وسط هلع أبي وارتباكه. كانا يتكلَّمان معًا لغةً لا نفهمها، ويتشاجران. وصل الرجل إلى بيتنا وبدأ

الشجار، وأُصبت أنا وأختايَ بالرعب. كنت في الرابعة عشرة. سألت أمّي مَن يكون هذا الرجل، فقالت إنّه قريب لوالدي، لكن لم يسبق لها أن رأته، وطلبت منّي ومن أختيَّ ألّا نتكلّم معه.

«لكنّه في صباح اليوم التالي، ونحن نفطر، سألني إذا كنت أتكلّم الإنكليزيّة، أجبت بأنّني أتكلّمها قليلًا. أجلسني الرجل إلى جانبه وسألني عن اسمي، ثم نظر إلى أبي وتكلّم معه بالإنكليزيّة، وسأله لماذا لا يعرّف بناته إلى شقيقه توفيق؟

««أنا اسمي توفيق عبد الرحمٰن، وأنا شقيق والدك إسماعيل، وأنا أحبّك وأريدك أن تأتي لزيارتنا في عمّان. نحن نقيم بمخيّم الوحدات. قولي لوالدك أن يجلب معه بناته للتعرُّف إلى أفراد العائلة.»

«لكن اسم والدي هو سامي وليس إسماعيل.

««كمان غيّرت اسمك؟» قال الرجل بالإنكليزيّة، ثم بدأ الشجار بتلك اللغة التي لا نفهمها. تخيَّل ماذا جرى لي عندما سمعت هذا الكلام! ركضت إلى الغرفة، فلحقت بي أختاي، وأقفلنا باب غرفتنا.»

«يعني أبوك فلسطينيّ؟»

«حدث هذا منذ أربعة أعوام، يا سيِّد آدم. هل هذا هو اسمك، أم أنّه اسم مستعار؟ لا يهمّني الأمر، لكنّني يومها فهمت أنّكم تكذبون. وبعد مغادرة الرجل الغريب، جلس والدي بين يدَيَّ معترفًا. كان مكسورًا في أعماقه، وروى لي أنّه فعل ذلك من أجلي، ومن أجل أخواتي، كي يجنّبنا الذلّ، لكنّني لم أصدِّقه. أصررتُ عليه أن يأخذنا إلى عمّان، لكنّه رفض، فذهبت في العام الماضي وحدي. كنت مخلصة عندما قلت لك إنّني سآتي إلى زيارتك في حيفا، فأنا مشتاقة

إلى الذهاب إلى طبريَّة حيث أريد أن أغسل قدمَيَّ بمياه بلدي التي مشى عليها السيِّد المسيح. وأنا الآن أدرس العربيَّة في الجامعة، وأراسل ابنة عمّ لي تدعى سعاد وتُقيم بمخيَّم الرشيديَّة في صور، في الجنوب اللبناني.»

«يعني بتحكي عربي؟»، قال آدم.

«شوي، أحكي فصحى أفضل من العاميَّة.»

«وليش عم نحكي إنكليزي؟»

«لأنَّك كذَّاب. أنتم كلّكم كذَّابون، هل فهمت الآن قصدي؟»

«بس ليش بيِّك عمل هيك؟»

روت له أنَّ والدها سامي، أو إسماعيل، وُلد في طبريَّة في سنة 1918، لعائلة ميسورة كانت تعمل في التجارة بين لبنان وفلسطين. أنهى دراسة الطبِّ في الجامعة الأميركيَّة في بيروت، في سنة 1946، وكانت فلسطين تعيش الاضطرابات. جاءته منحة للتخصُّص بالأمراض الصدريَّة في وارسو، وهنا تعرَّف إلى أمّي وعاشا قصَّة حبٍّ انتهت بالزواج لأنَّ أمّي حبلت بي، وفجأة اختفى الرجل. كان عمري عامًا ونصف عام، قال لزوجته إنَّه ذاهب إلى فلسطين لأنَّ واجبه كطبيب هو أن يكون هناك، وإنَّ عليها أن تنساه. وصل إلى فلسطين عن طريق لبنان في 22 نيسان 1948، وكانت المدينة قد سقطت وطُرد أهلها منها في 19 نيسان. أقام مع اللاجئين ببيروت، وحاول أن يلمّ شتات العائلة. قال إنَّه أُصيب بانهيارات عصبيَّة متتالية، فكلُّ شيء ضاع دفعة واحدة، وعليه أن يعيش كلاجئ في لبنان، لا يحقّ له العمل كطبيب. وفي شباط 1950 عاد إلى وارسو. قالت أمّها إنَّها سمعت قرعًا على الباب. نهضت من فراشها، وكانت الساعة الخامسة صباحًا، فتحت

الباب لتجد الرجل الذي لم تستطع أن تنساه واقفًا أمامها وهو يرتجف من البرد. ضمَّته وقادته إلى حيث تنام ابنته، فانحنى وحملها، فارتفع صراخها. أخذتها الزوجة منه وهدهدتها ثم أعادتها إلى الفراش.

اخترع سامي نفسه من جديد. قال لبناته إنَّه أراد أن يُبعدهنَّ عن المأساة، «فلسطين ضاعت، ولا لزوم لتعب القلب»، قال لهنَّ، «أنتنّ بولنديَّات ولا علاقة لكنّ. كنت أريد أن أبدأ من الصفر، وأنتنَّ كلّ ما تبقّى لي.»

«لم يفهم أبي أنَّ لا وجود للصفر. واللهِ، أنا لا أفهمه، يريد صفرًا ويأتي إلى بولندا! قلت له إنَّني لا أفهمه. ماذا جرى له؟ هل اختلف مع أشقّائه وشقيقاته؟ هل جنّنته النكبة فقام بمحو نفسه؟ انظرِ الآن. أنا أدرس العربيَّة، وشقيقتاي تريدان دراستها مثلي، وأمّي لا تعرف ماذا عليها أن تفعل، وأبي المسكين لا يزال مصرًّا على أنَّه بولنديّ.»

«يعني أنت فلسطينيَّة مثلي.»

«ليش إنت فلسطينيّ؟ لماذا تختبئون؟» صرخت به، «أفهمك، فأنا أيضًا مثلك، كثيرون هنا يعتقدون أنَّني يهوديَّة، وأنا لا أنفي.»

«ليش؟»

«لا أعرف، ربَّما كي أتحدَّاهم وأذكِّرهم بالجريمة.»

«حكايتك رهيبة»، قال.

«تقصد حكاية أبي. لا ليست رهيبة، إنَّها تشبه حكايتك، مزيج من الميلودراما والجُبن.»

«الحمد لله أنِّي لم أقبل دعوتك إلى لقاء والدك.»

«لماذا؟»

«كنَّا انفضحنا»، قال.

«لكنَّنا انفضحنا، في كلِّ حال. مصير أمثالنا أن ننفضح. احذرْ يا عزيزي من مصير أبي سامي أو إسماعيل.»

قالت إنَّها تحبّ والدها وتشفق عليه، «أبشع شيء هو أن تشفق ابنة على أبيها. الآباء يجب أن يكونوا محاطين بهالة من الاحترام. أبي انهار فجأة، ولم يعد يعرف أن يبرِّر نفسه. أنا أعرف أنَّ أبي كان شجاعًا. ذهب إلى بلاده كي يحارب دفاعًا عنها، لكنَّه وصل متأخِّرًا، وأنا أفهمه. أنت، يا سيِّد آدم، جعلتني أفهمه، لكنَّني لا أوافق على خياراته أو خياراتك، أنتما في العمق تحوَّلتما إلى رعديدَين. ما كان يجب أن تخافا وتتصرَّفا بهذه الطريقة الحربائيَّة. لكن مَن أنا حتى أَعِظَكُما؟ أريد أن أغفر لكما. الحقيقة أنَّك، بحكايتك الحزينة، سمحت لي بأن أغفر لوالدي، لكنَّني عندما أنهي دروسي الجامعيَّة، سوف أذهب للإقامة بإسرائيل التي هي أيضًا اسم مستعار لفلسطين. سأذهب كبولنديَّة، ولن يستطيع أحد منعي، وسأعمل مع المهجَّرين الفلسطينيِّين ـ الإسرائيليِّين الذين طُردوا من قراهم وبقوا في بلادهم، والذين تسمِّيهم أنت الغائبين ـ الحاضرين، وسأحضر معهم، ولو في الغياب. هكذا أستعيد اسمي.

«وأنتَ هل تشفق على والدك؟»

«والدي شهيد وبطل اسمه حسن دنُّون.»

«دنُّون وليس دانون، كما تدّعي.»

«نعم دنُّون.»

«ومتى تستعيد اسمك؟»

«من الصعب استعادة الأسماء التي ضاعت»، قال.

«أسماؤنا لا تضيع، فهي مختبئة في ضلوعنا.»

«وهل استعاد والدكِ اسمه؟»

«ما دخل والدي؟»

«هل هو اليوم سامي، أم إسماعيل؟»

«إنَّه الاثنان معًا.»

«هل ستعودين بصفتك فلسطينيَّة؟»

«لا أعلم إذا كنت أستطيع أن أدّعي أنَّني فلسطينيَّة، لكنَّني سأذهب كإنسانة.»

في وحدته النيويوركيَّة، تعذَّب آدم كثيرًا وهو يستعيد رحلته إلى وارسو ويحاول صَوْغها، كي يكتب عن ناديا التي رافقته ظلالُ حكايتها كأنَّها جزء من حكايته. وشعر بأنَّ هذه الرحلة لم تكن كابوسًا، كما ارتسمت في ذاكرته، وإنَّما كانت مدخله إلى إعادة اكتشاف ذاته، وهي عمليَّة طويلة ومعقَّدة، سيقوده إليها شاعرٌ مات في صندوق حبّه، وأعمى رأى ما لم يرَه أحد، وأمّ غابت في دهاليز الصمت والأسى.

يجلس آدم في ذاكرته، ويشعر بأنَّه أنقذ حكايته من موقف ميلودرامي مؤكَّد حين رفض الذهاب إلى أوتفوسك، وأنَّ ناديا صارت صديقته التي لن يلتقيها ولا يعلم شيئًا عنها، وأنَّ هذه الصداقة نَمَتْ في روحه على الرَّغم من أنَّه خان تعهُّده لها حين كتب حكاية وَعَد بأنَّه لن يبوح بها لأحد. لكن ناديا ستسامحه، لأنَّها تعرف أنَّه كان، وسيبقى، كذّابًا.

السرُّ الذي لم يكن سرًّا

في اللقاء الأوَّل الذي أعقب رحلة وارسو، بين آدم وأستاذه ياكوب في الحصّة الدراسيَّة في جامعة حيفا، تأكَّد آدم من أنَّ إيزابيلّا فضحت سرّه، وأنَّه صار عاريًا ومكشوفًا أمام هذا الأستاذ الذي سيبقى، على الرَّغم من كلِّ شيء، دليله إلى قراءة الأدب.

تصرّف الأستاذ في الصفّ، بشكل غريب. افتتح الحصَّة بتقرير سريع عن الرحلة إلى وارسو. روى عن المشاهدات في الغيتو، وعن الرحلة التراجيديَّة إلى أوشفيتز، بلغته الجميلة التي تعرف كيف تقتنص اللحظات الإنسانيَّة، لكنَّه لم يُشر إلى الزيارة التي قام بها مع آدم لوودج. ثم طلب من الطلّاب الأربعة، الذين شاركوا في الزيارة، الكلام على انطباعاتهم. أعطى الكلام لسارة أوَّلًا، ثم لحنّة، ثم لإيزابيلّا، وكان من المفترض أن يكون آدم آخر المتكلّمين.

لكنَّ الأستاذ أنقذ آدم من الكلام، حين استفاض في التعليق على

كلام إيزابيلّا، وتعمّد إضاعة الوقت، وبقي يرواغ ويناقش حتى نهاية الحصّة الدراسيَّة.

لم ينظر الأستاذ إلى تلميذه طوال ساعة ونصف ساعة، وإنَّما كان يتعمَّد تجاهله، كأنَّ القطيعة بين الرجلين، التي أحسَّ آدم بها خلال رحلة العودة بالطيّارة، قد اكتملت ولا عودة عنها.

في نهاية الصفّ، وبينما كان آدم يضبّ أوراقه، اقترب منه الأستاذ، وقال، بنبرة ملأى بالعدوانيَّة، إنَّه ينتظره في مكتبه.

هزّ آدم رأسه وتشاغل بورقة سقطت من ملفّه، بينما مشى الأستاذ مهرولًا إلى الخارج.

وفي المكتب، حدثت المواجهة التي كان آدم يسعى لتلافيها. وقف آدم أمام مكتب ياكوب الذي تركه واقفًا ولم يَدْعُه إلى الجلوس، مطأطئَ الرأس، لا يدري إلى أين ينظر، وماذا عليه أن يقول. فآدم كان يعلم بأنَّ إنقاذ صداقته مع ياكوب صار مستحيلًا، وأن الأستاذ يشعر بأنَّه خُدع.

«أنت تشعر بالخجل، أليس كذلك؟» قال ياكوب.

«ماذا حلّ بك، هل فقدت لسانك؟»

«أَجِبْ: هل تشعر بالخجل؟»

«الخجل، لا.»

«بماذا تشعر؟»

«بالحزن.»

«وعلامَ تحزن يا بطل غيتو وارسو؟»

«أنا لست بطلًا، أمّا غيتو وارسو فقد التقينا بطله معًا في وودج.»

«لم تُجِبْ. أريد جوابًا عن سؤالي.»

«لم أفهم السؤال.»

«هل تشعر بالخجل منّي؟»

«لا.»

«خدعتني طوال هذه السنة الدراسيَّة، وكذبت كلَّ الوقت، وأخذتك معي إلى وودج، واستأمنتك على سرّ تلك الزيارة، ولا تشعر بالخجل؟»

«أنا لم أخن أمانة وودج.»

«هل تعلم لماذا لم أعطك الكلام على رحلة وارسو في الصفّ؟»

«لا.»

«لم أعطك الكلام كي لا أسمح لشخص مثلك بأن يشوّه الحقيقة، ويحوّلَ جميع المعاني النبيلة التي اكتشفها الطلّاب إلى جدل عقيم انطلاقًا من كلام طبيب بولنديّ معتوه معادٍ للصهيونيَّة.»

«إديلمان ليس معتوهًا، إنَّه بطل.»

شعر آدم بأنَّه في غرفة تحقيق، وأنَّ هذا الأستاذ الإنسانويَّ النبيلَ تحوَّل فجأة إلى رجل عنصريّ. تذكَّر لقاءه الأخير بناديا، وفكَّر في سؤالها عن الكذب. الكذبة افتُضحت الآن، وعليه أن يَمضي، فهذا اللقاء لا معنى له، فليفعلِ الأستاذ ما يشاء، وليطرُدْه من الجامعة إذا

أراد، لكنّه ليس مستعدًا للمراوغة. اتَّجه صوب الباب، فلمح الأستاذ يهرول نحوه ويمسك به من كتفيه، ويصرخ بأنَّه لم يسمح له بأن يغادر.

عاد آدم ليقف من جديد أمام طاولة ياكوب.

«اجلسْ إذا شئت»، قال ياكوب.

«لا أريد.»

«ماذا تريد، إذًا؟»

«لا أريد شيئًا. أنت طلبت لقائي. قل لي ماذا تريد أنت.»

«أريد أن أعرف»، قال ياكوب.

«أنت تعرف»، أجاب آدم.

«يعني ما سمعته صحيحٌ؟»

«ربَّما، فأنا لا أعرف ماذا سمعت.»

«أنت عربيّ؟»

«صحيح.»

«ومن مواليد لُدّ 1948؟»

«صحيح، لكن اسم المدينة اللّدّ، وليس: لُدّ.»

«يعني أنت كذبت عليّ وادعيت أنّك إسرائيليّ!»

«أنا مواطن إسرائيليّ»، هذا صحيح.

«ادَّعيت أنَّك يهوديّ».

«أنا لم أدَّع أنَّني يهوديّ.»

«لكنّك لم تقل إنّك لست يهوديًا. وادّعيت أنَّ أهلك كانوا في الغيتو.»

«هذا صحيح. لم أقل إنَّني لست يهوديًّا لأنَّك لم تسأل. أمّا بشأن الغيتو، فأنا فعلًا من الغيتو، غيتو اللِّدّ.»

«بدأ الكذب.»

«أنا لا أكذب.»

«وهل هناك غيتو في إسرائيل؟ هل أسَّسنا دولة اليهود كي نحبس اليهود في غيتو؟»

«اسمع، يا أستاذ، جئتك إلى هذه الجامعة ودرست الأدب العبريّ لأنّني أريد أن أنسى الغيتو، لكنَّك مصرّ على تذكيري به. نعم، كان هناك غيتوات في اللِّدّ والرملة وحيفا ويافا، وكانت مسيَّجة بالأسلاك الشائكة، لكنَّكم وضعتم فيها الفلسطينيِّين وليس اليهود، وأنا ابن أحد هذه الغيتوات. أنا وُلدت في الغيتو، ولا تزال الأسلاك الشائكة تخز عينَيَّ. قلت لك إنَّني جئت إلى الجامعة كي أنسى، لكنَّك مصرّ على تذكيري بالحقيقة. تريد الحقيقة؟ هذه هي الحقيقة.»

«أنت تكذب، لا وجود للغيتوات في إسرائيل.»

«أنت لا تريد أن ترى الحقيقة، بل تسعى لتزويرها. نعم، هنا يوجد غيتوات، وأنتم صنعتم النكبة وطردتم شعبًا كاملًا من أرضه. أعرف أنَّك لن تقتنع لأنَّك لا تريد أن ترى، وهذا ليس مهمًّا، المهمّ أنَّني فشلت. حاولت أن أتناسى ذلك كلَّه، وأصيرَ مثل سائر الناس الذين يعيشون في هذا البلد، وأن أدرس العبريَّة وأتقنها. يبدو أنَّني كنت مخطئًا. الحقيقة أنَّ إيزابيلّا زوَّدتك بمعلومات دقيقة.»

«ما دخل إيزابيلّا؟»

«إيزابيلّا كانت أوَّل مَن عرف بذلك بحكم عملها في قسم

التسجيل في الجامعة. هي قالت لي إنَّها عرفت، وأنا متأكِّد من أنَّها هي مَن أخبرك.»

«إيزابيلًا لا علاقة لها.»

«أنت لا تقول الحقيقة. ألا تعتقد أنَّنا أحسسنا بعد زيارة أوشفيتز بالعلاقة بينكما؟»

«إيزابيلًا أفضل من صديقتك البولنديَّة التي تشبه الآريِّين.»

«ناديا صديقتي يهوديَّة.»

«يهوديَّة!»

«لنقل إنَّها تشبه اليهود.»

«عدت إلى الكذب.»

«صديقتي ناديا مثلي ومثلك مشرَّدة، ولا وطن لها، لكنَّني أحذِّرك من الذين يطلقون عليكم لقب صابونيم، ويقولون إنَّكم أسوأ من العرب.»

«مَن تقصد؟»

«اسأل إيزابيلًا، تُخْبِرْكَ. هل أستطيع أن أمضي الآن؟»

«سؤال أخير.»

«تفضل.»

«لماذا أتيت إلى وارسو؟»

«لأنَّك طلبت منِّي ذلك. أنا لم أكن أريد الذهاب، لكنَّني خفت أن أقول لك الحقيقة، فأفقد ثقتك بي. أنا لست نادمًا على ذلك، فزيارة وارسو انحفرت في أعماقي.»

«أنت ذكيّ.»

«لا، أنا أبلهُ. ما كان يجب أن أخضع لرغبتك.»

«تجاوزتَ الحدّ. لا أريد أن ألتقيك في دروسي مرّة أُخرى.»

«وأنت أيضًا أبلهُ. بدلًا من أن تتعلّم شيئًا من زيارة وارسو، خضعت للابتزاز العاطفيّ من فتاة متعصّبة. إيزابيلّا تشبه الآريّين، وليس ناديا.»

«اسمع نصيحتي، اترك دراسة الأدب العبريّ. انتقل إلى أيّ فرع آخر، لن تستطيع الاستمرار، فالضغوط عليك ستكون كبيرة.»

«شكرًا على النصيحة.»

«هل اقتنعت؟»

«لا أدري، سأفعل ما يحلو لي.»

«هل ستزورني في مكتبي؟»

«لا أعتقد ذلك، فأنا أشعر بالخجل منك لأنّني لم أمتلك جرأة أن أقول لك حقيقتي قبل الذهاب إلى وارسو.»

استدار آدم كي يمضي وقال «الوداع» بصوت مرتعش، وسمع، وهو في الممرّ، صوتَ أستاذه يقول: «الوداع.»

حكاية الحكاية

بائع الفلافل

لم تنتهِ الحكاية بذلك اللقاء الحزين الذي رسم نهاية مغامرة وارسو. فالحكايات لا تنتهي، بحسب رغبة الكاتب، أو حين يضع نقطةَ النهاية بسبب عجزه عن المتابعة، أو عندما يريد لحكايته أن تتحوَّل إلى علامة استفهام في وعي القرّاء.

عندما يُنهي الكاتب قصَّته، فإنَّ هذا لا يعني سوى أنَّ الكتابة ستفيض عن دفَّتَي غلاف الكتاب، وتتابع مسيرتها كما تشاء.

لا يستطيع آدم أن ينهي حكايته في جامعة حيفا بذلك الحوار مع البروفسور ياكوب آيبنهاينر، فهذه نهاية تصلح لمسرحيَّة أو فيلم سينمائيّ، وآدم ليس كاتبًا سينمائيًّا أو مسرحيًّا. وحده غسّان كنفاني يستطيع تحويل الحوار إلى مساحة روائيَّة تراجيديَّة، كما فعل في روايته «عائد إلى حيفا»، حين لخَّص الصراع الفلسطينيّ ـ الإسرائيليّ في حوار مدهش بين الأب سعيد س. والابن البيولوجي خلدون، أو

دوف، جاعلًا منه جوهَر نصّ روائيّ قصير هو أشبهُ بهيكلٍ، على الزمن أن يملأ فجواتِه.

من أين لآدم قامةُ غسّان كنفاني العالية التي رسمها دمه المسفوك في الحازميَّة قرب بيروت، في سنة 1972.

آدم لا يكتب قصَّة كي يبحث لها عن ذروة. إنَّه يروي حياته فقط. وحين تروي الحياة عليك أن تُخضع النصّ لمنطق الحكاية، لا العكس.

يقول منطق الحكاية إنَّ لكلِّ قصَّةٍ قصَّةً سابقة عليها، وقصَّة لاحقة بها. وحين تتورَّط في الكتابة، فعليك أن تنحني لعصف دوائر الحكايات التي لا تنتهي إلَّا لتبدأ من جديد. أيْ أنَّ ما يسمِّيه النقَّاد ذروة لن تجده في الحكاية التي ترويها، إذ من المرجَّح أن يكون في حكاية سبقتها، أو في حكاية لحقت بها. وحين تقترب من كتابة هذه الحكايات ستكتشف أنَّك ترسم مرايا متوازية لا نهاية لها، وأنَّك سقطت صريعَ غوايات هذا العالم الغرائبيّ، الذي ستعجز عن الخروج من متاهته.

يشعر آدم بأنَّه سقط صريعًا، وأنَّه لا يكتب، بل ينكتب. الكلمات تكتبه بدلًا من أن يكتبها، وهذا النصّ يحوّله إلى كائن من كلمات.

قالت له صديقته الكوريَّة الصغيرة سارانغ لي، إنَّه تغيَّر كثيرًا.

«أنا؟ أبدًا»، أجابها وهو يصطنع ابتسامة على شفتيه.

«جميع زبائنك لاحظوا ذلك، جوّ المرح في «بالم تري»، الذي كنت تصنعه بذكاء وحيويَّة، انتهى. صار هذا المطعم يشبه جميع المطاعم في المدينة.»

كانا يجلسان في مقهى «دانتون». هي دعته إلى شرب الكابوتشينو، وقالت إنَّ هناك مجموعة من الطَّلَبة يريدون دروسًا خصوصيَّة في اللغة العربيَّة.

«أنت تعرف، فبعد أحداث 11 أيلول 2001، كبر الطلب على دراسة اللغة العربيَّة. وهناك مجموعة من صديقاتي وأصدقائي الأميركيِّين، يبحثون عن أستاذ يعطيهم دروسًا إضافيَّة في اللغة العربيَّة، كي ينهوا المقرَّر بسرعة. وأنا اقترحتك لهذا العمل.»

«أنا؟»

«نعم، أنت. قد يكون هذا بابًا يحرِّرك من مطعم الفلافل، ويجعلك تنصرف إلى كتابك عن الشاعر الأمويّ العاشق، الذي نسيتُ اسمه.»

«اسمه وضّاح اليمن.»

«نعم وضّاح اليمن، فأنا أنتظر هذا الكتاب الذي حدَّثتني عنه كثيرًا.»

«لكنَّه سيكون باللغة العربيَّة.»

«ليس مهمًّا، سأترجمه إلى الكوريَّة.»

«أنتِ!»

«نعم أنا، فأنا بدأت آخذ دروس اللغة العربيَّة في الجامعة.»

«لكنَّ ما تسمِّينه تزايدَ الطلب على مَن يعرفون اللغة العربيَّة، مرتبطٌ بحاجة أجهزة الأمن الأميركيَّة.»

«أعرف ذلك.»

«أنتِ أيضًا تريدين العمل مع «السي. أي. إيه».؟»

«ما هذا الهراء، أنت لا تفهم شيئًا. العربيَّة قريبة من العبريَّة، ودراستها سهلة لمَن يعرف العبريَّة. لذا أريد دراستها.»

«مَن أقنعك بهذا الرأي؟»

«أستاذي الذي لا تحبُّه. فقد بدأ بعد المشادَّة التي جرت بينكما في «سيني فيلدج» بدراسة العبريَّة، وقال إنَّها أفضل طريقة لفهم الآخر. لا تستطيع أن تفهم الآخر إذا كنت لا تعرف لغته، وأنا أساعده بين وقت وآخر.»

«ولماذا لم تطلبي من أستاذك إعطاءكم هذه الدروس؟»

«طلبنا منه لكنَّه رفض، قال إنَّه مشغول بكتابة رواية جديدة ولا وقت لديه، كما أنَّه يساريّ، ويرفض تدريس مَن سيعملون في «السي. أي. إيه».»

«يعني هو طاهر وعفيف، وأنا ابن كلب؟»

«أريد فقط مساعدتك. يمكن أن يكون هذا بابًا لعمل حرّ يسمح لك بالتخلّي عن العمل هنا، والانصراف إلى كتابة روايتك.»

«لكنَّني توقَّفت عن كتابتها.»

«لماذا؟»

«لأنّني لست كاتبًا، أو ربَّما لأنَّني لا أستطيع الكتابة عن الحبّ، فالحبّ لا يُكتب بل يُعاش. وأنا فشلت في عَيْشه، فكيف لي أن أكتبه؟»

«لكنَّك لا تكتب قصَّتك، بل قصَّة الشاعر.»

«لا أستطيع أن أكتب عن شيء لم أعشه.»

«فكّر في الأمر. أرجوك لا تعطِ جوابًا متسرّعًا. سأمرّ بك غدًا وأتغدّى في مطعمك، وتعطيني الجواب.»

«عندي سؤال.»

«تفضّل»، قالت.

«ماذا يكتب أستاذك؟ كنت أعتقد أنّه لن يستطيع الكتابة بعد رواية «باب الشمس».»

«أستاذي كاتب محترف.»

«لكنّه كذّاب»، قال.

«أستاذي ليس مهمًّا الآن، المهمّ هو أن تكتب أنت. أنا متأكّدة من أنّك ستكون روائيًّا لو أردت.»

«سبق أن سمعت هذا الكلام من قبل، لكنّه ليس صحيحًا.»

«مَن قاله لك؟»

«لا بدّ من أن تكون دالية قد قالته لك.»

«من أين تعرفين دالية؟»

«أنت أخبرتني عنها.»

«أنا؟»

«نعم، أنت، عندما كنت محمومًا ومريضًا بعد خروجك من الفيلم. أخبرتني عن نهاية علاقتك بها، وبكيتَ.»

«لا أذكر.»

«ليس مهمًّا ما نتذكَّره. المهمّ ما انحفر في وجداننا.»

رفض آدم عرض سارانغ لي، لكنَّه أحسَّ بأنَّه كان قاسيًا على صديقته الصغيرة. حاول أن يعتذر على قسوته، وهو يقدِّم إليها سندويشة «عجّة الفلافل» في اليوم التالي، ويقول إنَّه فكَّر كثيرًا في كلامها لكنَّه لا يستطيع التخلِّي عن مطعمه، كما أنَّه يرى لعمله هنا بُعْدًا فنّيًا، لأنَّ العمل على الذائقة فنّ أيضًا، لكنَّها طلبت منه وعدًا بأن يعود إلى الكتابة، فوعدها بذلك، لكنّه لم يخبرها عن النصّ الذي بين يديه، لأنَّه آثر أن يُبقيه نصًّا سرّيًّا بينه وبين روحه.

كانت «عجّة الفلافل» هي إنجازَه النيويوركيّ الجديد الذي أراد أن يجرِّبه على سارانغ لي، بعد اختفاء صديقه حاييم زيلبرمان، في إثر المشادَّة التي جرت في قاعة السينما بعد عرض فيلم حاييم «نقطة تقاطع».

أبدت الفتاة الكوريَّة إعجابها بهذا السندويش، لكنَّها استغربت وضع اللبن بدلًا من الطحينة. وعندما شرح لها أنَّ هذا الفلافل لا يمتّ بصلة إلى الفلافل، وأنَّه كناية عن عجَّة، قالت إنَّها معجبة بقدراته المطبخيَّة، لكنَّها لا تعتقد أنَّ هذا السندويش سيُعجب الأميركيين لأنَّ الذائقة الأميركيَّة اعتادت العجَّة الإنكليزيَّة التي تحوَّلت إلى الطبق الرئيسيّ في أيَّام الآحاد، حيث يحتلّ «البرانش» (الذي هو إدغام لكلمتَي الفطور والغداء)، كلَّ المطاعم، وتتصدَّر المائدةَ كؤوسُ «الميموزا» المصنوعةُ من مزيج الشمبانيا وعصير البرتقال.

وكانت سارانغ لي على حقّ. فهذا السندويش الذي اخترعه أبو غسّان، وكان يُعدّه في مطعمه الصغير في وادي النسناس يوم الجمعة

فقط، اعتُبر مفخرة الوادي، إلى أن أقفل المطعم بعد وفاة صاحبه، واندثرت صناعة هذا السندويش إلى الأبد. كما أنَّه لم يلاقِ الإقبالَ المطلوب من زبائن المطعم اليهود الذين فضَّلوا الفلافل العاديَّة المصحوبة بصحن الحمّص.

لم يدخل أبو غسَّان دائرة هذه الحكاية عبثًا، فقد كان الجسر الذي سمح لآدم بأن يخرج من صدمة فضيحة وارسو، ويتابع دراسته في الجامعة بعد أن عمل بنصيحة أستاذه وانتقل إلى فرع اللغة العربيَّة وآدابها، متخلّيًا عن دراسة الأدب العبريّ. لكن لقاءه الأستاذ العراقيّ حسقيل قصَّاب، أعاد تصويب دراسته، فتخرَّج بماجستير في الأدب العبريّ، وكتب أطروحة كانت أساسَها المقارنةُ بين رواية عاموس عوز: «ميخائيلي»، ورواية س. يزهار: «خربة خزعة»، وهذه حكاية تستحقّ أن تُروى.

تخلّى عن عمله في مكتبة الجامعة، وعاد إلى العمل كنادل في أحد مقاهي حيفا، عندما التقى مصادفة في وادي النسناس أبا غسَّان الذي عرض عليه العمل في مطعمه الصغير الذي كان يقدِّم الفلافل والحمّص.

اللقاء لم يكن صدفة، فآدم قصد هذا المطعم الذي كان يُعتبر أفضل مَن يُعدّ الحمص وسندويشات الفلافل في حيفا، كي يأكل. كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساء، والمطعم فارغ من الزبائن، وأبو غسَّان يقف بقامته القصيرة وصلعتِه التي تلتمع كأنَّها دُهنت بالزيت، وكرشِه المستديرة ووجهِه المنتفخ الذي يفترس أنفه الصغير، أمام المقلاة، يشعل النار تحتها، كي يكون مستعدًّا لاستقبال زبائن المساء.

طلب آدم سندويش فلافل، فقال له أبو غسَّان إنَّ عليه أن ينتظر قليلًا حتى يسخن الزيت، وصبَّ له كبّاية شاي بالميرميَّة.

شرب آدم بصمت وهو يراقب بشغف أبا غسَّان يقلي حبَّات الفلافل في الزيت المغلي. أخرج قرص فلافل وأعطاه لآدم، بينما كان يعدّ السندويش.

لا يذكر آدم كيف قادهما الحديث إلى عرض للعمل في المطعم الصغير قدَّمه أبو غسَّان ووافق عليه آدم من دون تردُّد.

لم يخطر في بال آدم أنَّه سيتمكَّن من متابعة دراسته في الجامعة بفضل الفلافل والحمّص. فهو لم يكن شغوفًا بهذا السندويش. كان يأكله عندما لا يملك سوى القليل من المال كي يسدّ جوعه، وكان يعجب من حبِّ الإسرائيليِّين اليهود للفلافل واحتفائهم بالحمّص. فالفلافل، منذ أدخلها إبراهيم باشا فلسطينَ خلال الاجتياح المصري لبلاد الشام في القرن التاسع عشر، تحوَّلت إلى لُقمة الفقير. فهي مصنوعة من عجينة الحمّص والفول، أو من عجينة الفول التي يُضاف إليها الجرجير أو أيّ نوع متوفِّر من الحشائش، وتُقلى بالزيت. وقد تفنّن الفلسطينيُّون في تزيين سندويش الفلافل بالبندورة والبقدونس والنعنع والطحينة، بحيث صار السندويشَ الشعبيَّ الأوَّلَ في فلسطين.

ومع تأسيس الدولة، تحوَّل الفلافل إلى مفخرة المطبخ الإسرائيليّ الذي كان يتأسَّس ببطء من مزيج غريب من أربعة مطابخ: الأوروبيّ الشرقيّ والشاميّ والمغربيّ والعراقيّ. الاختراق الأوَّل في الذائقة الأشكينازيَّة كان الفلافلَ التي نجح الإسرائيليُّون في إقناع أنفسهم أوَّلًا، ثم إقناعِ العالم، بأنَّها طعام قومي إسرائيليّ.

هذا ليس مهمًّا بالطبع، فالذي سرق الأرض يستطيع أن يسرق الفلافل أيضًا، لكنَّ أبا غسَّان كان مقتنعًا بأنَّ فلافله لا يضاهيها أيّ طعام في الدنيا، وأنَّه حوَّل مطعمه الصغير إلى المكان الأكثر ارتيادًا في حيفا.

أبو غسَّان، الذي ورث الصنعة عن أبيه، قال لآدم إنَّه حزين، فابنه غسَّان لا يطيق رائحة الفلافل، وهو يعمل في ميناء حيفا. أمّا ابنه الثاني عمر فهاجر إلى تشيلي لأنَّه أحبّ فتاة تشيليَّة من أصل فلسطينيّ تعيش في سانتياغو، وأزواج بناته الثلاث لا يريدون أن يُمْضوا حيواتهم خلف المقلاة. قال إنَّه تعب من الحياة، وإنَّه يبحث عن شابّ يساعده في العمل ويتعلَّم الصنعة.

«إيش رأيك؟» سأل أبو غسَّان.

رأيي بإيش؟»

«بالشغل معاي.»

«أنا؟»

«أيوا إنت، كنت أشوفك بفرن عبلة وبعدين اختفيت، إنت إيش بتشتغل؟»

سقطت فكرة الفلافل على آدم كأنَّها قارب نجاته من الغرق، ربع دوام لتدريس اللغة العبريَّة في مدرسة المطران، وعمل إضافي في دكَّان بيع الفلافل، سيحلَّان مشكلته الماديَّة، ويسمحان له بمتابعة دراسته في الجامعة.

كان آدم غريبًا عن عالم الفلافل والحمّص. قال في البداية إنَّه لا يستطيع، ثم قال إنَّه سيفكّر في الأمر، وعندما انتهى من التهام

سندويش الفلافل قال إنَّه موافق، لكنَّه لا يستطيع العمل بدوام كامل لأنَّه طالب في الجامعة.

«اتَّفقنا»، قال أبو غسَّان، «تعمل في الدوام المسائيّ من الخامسة بعد الظهر إلى العاشرة ليلًا، لكن عليك أن تأتي في السادسة صباحًا كي نُعدّ الفلافل معًا.»

«ومتى نبدأ؟» سأل آدم.

«الآن»، أجابه الرجل، «في الأسبوع الأوَّل عليك أن تتفرَّج فقط، لا أريدك أن تعمل شيئًا. تتفرَّج وتأكل وتقبض، وبعدها يبدأ العمل.»

هكذا بدأت قصَّته مع الفلافل التي دامت ثلاثة أعوام، أو على الأقلّ هذا ما يعرفه آدم، لكن ما لا يعرفه هو أنَّ أبا غسَّان سأل عبلة كثيرًا عن الفتى الذي كان يعمل عندها في الفرن، «كانت أنامله سحريَّة، وكانت مناقيشه أزكى مناقيش.» طلب من عبلة أن تبحث عنه، لكنَّ الفرَّانة قالت إنَّها نادرًا ما تراه إلَّا حين تلتقيه عن طريق المصادفة خارجًا من المدرسة.

جاء فتى اللُّدّ بقدمَيه إلى مطعم أبي غسَّان، ولم يكن على الرجل الستِّينيّ سوى أن يقدِّم إليه عرضًا لا يمكن رفضه. وهكذا بدأت المغامرة الفلافليَّة التي لم يَرْوِها آدم لأحد، حتى دالية التي روى لها كلّ شيء عن حياته، بقيت خارج هذا السرّ.

في نيويورك، اكتشف آدم أنَّ خجله من عمله في مطعم الفلافل كان سخيفًا وبلا معنى. فالفصلُ بين الثقافة والمطبخ فكرةٌ تافهة، فالطعام ثقافة، بل يمكن أن نعتبره أرقى أشكال الثقافة. وهنا، في الغرب البعيد، اكتشف أنَّ الإنجاز الثقافيّ العربيّ الوحيد الذي اخترق العالم هو المطبخ الشاميّ الذي يطلقون عليه هنا اسم المطبخ اللبنانيّ،

بسبب حذق اللبنانيِّين في تزيين مائدة صُنعت في دمشق وحلب، وأعطتها الكنافة النابلسيَّة مذاقها الأكثر رهافة.

من أبي غسَّان تعلَّم آدم صنع الفلافل والحمّص، واكتشف سرّ عجَّة الفلافل التي كان يصنعها صاحب المطعم يوم الجمعة فقط، ولاقت إقبالًا كبيرًا، بسبب نكهتها التي تتجلّى حين تُمزَج باللبن.

عجَّة الفلافل كانت الاختراع الجديد الذي جرَّبه آدم على سارانغ لي، وهي مصنوعة من كمّيَّات كبيرة من البقدونس والرشاد والكزبرة والبصل الأخضر والثوم، تُهرَم ناعمةً ثم يُفقَص فوقها البَيْضُ وتُعجَن باليد بعد إضافة الطحين والبهار والفلفل، ثم توضَع في قوالب الفلافل المستديرة وتُقلى بالزيت.

هذا السندويش لم يكن يُحضَّر إلَّا في مكان واحد في فلسطين هو مطعم أبي غسَّان. اعترف الرجل بأنَّ هذه العجَّة ليست فلسطينيَّة، ولم تُصنع في فلسطين قطُّ، فهو ورثها من أمِّه الإدلبيَّة التي جلبتها معها من مدينتها السوريَّة، علاوة على إتقانها صنعَ الباذنجان المكدوس.

قالت سارانغ لي إنَّ هذا النوع من السندويش لن يمشي في نيويورك، وكانت على حقّ. ومع ذلك، فإنَّ آدم لم يعترف لها بأنَّه عشق صناعة الفلافل في حيفا، وأنَّه فكَّر للحظة، عندما تمَّ تعيينه أستاذًا للأدب العربيّ في مدرسة وادي النسناس، في أن يرفض هذه الوظيفة لأنَّها لا تتلاءم مع شهادة الماجستير التي نالها بامتياز في الأدب العبريّ الحديث في جامعة حيفا. لكن قبل أن يتَّخذ آدم قراره الفلافليَّ، مات أبو غسَّان، وباع ابنه الدكَّان، ولم يعد هذا الخِيار ممكنًا.

على الأطلال

- 1 -

اختلطت دراسة الأدب برائحة الزيت المقلي، فصار مطعم أبي غسَّان امتدادًا للجامعة، وتحوَّلت دراسة الوقوف على الأطلال في الشعر الجاهليّ، إلى امتداد للأطلال التي تشكَّلت من دموع أبي غسَّان، التي كانت تحترق في أطراف عينيه بكاءً على أطلال سِبلان وأمّ الزينات. وكانت المفارقة أنَّ أستاذ مادَّة الشعر الجاهليّ، وهو شابٌّ هاجر حديثًا من العراق إلى إسرائيل، كان يبكي على أطلاله هو أيضًا في بغداد، ويرثي شعبه في المعبروت.

صارت مقلاة الفلافل التي يغلي فيها الزيت نقطةَ تقاطع البكاء بالبكاء على أكثر من طَلَل. وكان آدم شاهدًا، لا باكيًا، فقد غادر بيت أمِّه كي يمحوَ أثر الأطلال في روحه، لأنَّ النسيان كان، بالنسبة إليه، المعبرَ الوحيد كي يكون، فإذا به يتحوَّل هنا إلى شاهد على طلل أخرس:

«هلْ بالطلولِ لسائلٍ رَدُّ/ أم هلْ لها بتكلُّمٍ عَهْدُ/ من طولِ ما تبكي الغيومُ على/ عَرَصاتِها ويُقهقهُ الرعدُ»

كان مطلع قصيدة هذا الشاعرِ الجاهليّ المجهول، والذي قُتل وهو في طريقه إلى الأميرة المحبوبة، كما تقول الحكاية، هو جوابَه على سيل الأطلال الذي حاصره هنا في وادي النسناس، وهناك في الجامعة، وهنالك في بغداد.

دائرة مقفَلة صنعتها دموع المنافي.

هل غادر آدم غيتو اللِّدّ ليقع في مِصْيَدة غيتو وارسو؟

وهل غادر وارسو ليجد نفسه في مقام النبيّ سِبلان، هناك في القرية الجبليَّة المدمَّرة، والتي غادرها أبو غسَّان حين كان في التاسعة، وهو يلتقط أطراف ثوب أمّه الطويل، ويركض تحت الرصاص؟

وما علاقته بمنامات أمّ الزينات التي أتت منها أمّ غسّان، وهي تحمل في عينيها صورةَ الرجل الذي وقف فوق سطح منزله، يهدم البيت الذي عاش فيه طوال حياته، ثم يسقط متخبِّطًا بدمائه؟

كان حسقيل قصَّاب، أستاذ الأدب الجاهليّ في جامعة حيفا، يدرِّسهم فنَّ البكاء على الأطلال. كان هذا اليهوديّ العراقيّ، الذي يستعدّ للذهاب إلى باريس لإعداد أطروحة الدكتوراه، مفتونًا بالأطلال، وكانت نظريَّته أنَّ رحلة الإنسان هي رحلة بين أطلال حياته، وأنَّ شعراء العرب القدماء كانوا وحدَهم، بين كلِّ شعراء العالم، مَن التقط حقيقة الأسى الإنسانيّ، فامرؤ القيس بكى واستبكى، وطرفةُ روى عن الوشم الذي يتركه الطلل في الروح، فالإنسان ليس سوى كومة من أطلال روحه.

لكن آدم كان له رأي آخر، فالطلل هو الذاكرة، والذاكرة تقتل.

قال لأستاذه إنَّ الذاكرة هي الداءُ الذي يجب التخلُّصُ منه. إنَّها مرض. الماضي مرض، والبكاء عليه يجعل الدموعَ بحرًا من الأوهام.

قال آدم إنَّ أدب الأطلال بدأ مع الانسان الأوَّل. آدم، عليه السلام، هو من حوَّل الجنَّة، التي طُرد منها، إلى حنين، والحياةَ إلى طلل.

آدم دنُّون مُحاصَر هنا بالأطلال، وهي ليست ذكريات. إنَّها الحاضر الذي يعيشه الناس في حيواتهم اليوميَّة.

أبو غسَّان صار أشبه بطلل. لا يستطيع آدم أن ينسى كيف بكى الرجل يوم استقال جمال عبد الناصر يوم الخميس، أي بعد أربعة أيَّام من اندلاع حرب الخامس من حزيران.

«إحنا انتهينا»، قال الرجل وهو يمسح دموعه بكفَّيه، «يا حسرتي زيِّ المنام، كأنَّها مش حرب كأنَّها كابوس، واللهِ زيّ الثماني وأربعين. واللهِ كانت أوَّل مرَّة بشوف اليهود خايفين، هم خافوا ثلاث أيَّام وإحنا اندبحنا».

النهاية التي جعلت آدم يزداد تقوقعًا على نفسه وخوفًا من كلِّ شيء، كانت بالنسبة إلى صاحب مطعم الفلافل إعلانًا عن اندثار أحلامه التي كان يحتلّها الفارسُ الأسمرُ القادمُ من شطآن النيل ليخلِّص فلسطين من كابوس غربتها عن اسمها.

قال أبو غسَّان إنَّه استعدَّ للعودة إلى قريته، لكنْ بدلًا من العودة صارت سِبلان أكثر بُعْدًا، وقد حُكم عليه أن يموت مِيتَة الغرباء واللاجئين، مثلما ماتت زوجته التي ضاق جسدها بروحها.

وأبو غسّان لا يبكي على أطلال سِبلان إلّا لأنّه يعيش وسط أطلال حيفا، وحسقيل لا يبكي على أطلال بغداد إلّا لأنّه عاش في أطلال المعبروت التي بنتها الدولة لاستقبال اليهود العرب. فالطَّلَل يستدعي الطَّلَل. البؤس في وادي النسناس، والحياة المتجمِّدة في وادي الصليب، وستيلّا مارس التي تطلّ على بحر القوارب التي حملت اللاجئين إلى المنافي، ليست سوى أطلال. لا، ليس الطَّلَل ماضيًا كي نتذكَّره، الماضي يتسلَّل من جروح بؤس الحاضر، ويُعيدنا إلى ذاكرة الألم.

هرب آدم من ذاكرة الألم ليجد نفسه في الألم. وتساءل عن الفرق بين الألم وذاكرة الألم، ليستنتج أنَّ ذاكرة الألم هي بلسمٌ يداوى به الحاضرُ. فأبو غسّان يبكي على الماضي كي لا يبكي على الحاضر. البكاء على الماضي ذاكرة، أمّا البكاء على الحاضر فانتحارٌ.

قال لأستاذه إنَّ الشاعر الجاهليَّ حين وقف على أطلال الماضي، كان يتحايل على أطلال الحاضر. وهذا ما يفعله الفلسطينيُّون كلَّ يوم. يعيشون في بؤس الغيتوات المسيَّجة بالذلِّ، ويبكون على قراهم وبيوتهم التي تهدَّمت. أمّا أنا، فلا أملك أطلالًا أبكيها، بل أريد أن أكون بلا ماضٍ كي أستطيع أن أعيش.

وكان آدم يكذب على نفسه. ولمَ لا، فالإنسان لا يصنع نفسه إلّا كمجموعة من الأكاذيب، أو لنَقُلْ من الخيال. فهو يتخيَّل نفسه كلَّ يوم. هذه هي مرآته التي يصدِّق صورتها فيصيرها، أو هذا ما يعتقده. أليست هذه حالَ امرئ القيس، الشاعرِ الأوَّل الذي بكى واستبكى. لقد تخيَّل حصانه روحًا ثانية لجسده، فصارَ الحصانُ ظلَّ صاحبه. إنَّه أناه الثانية التي لا تصحُّ مخاطبةُ الذات من دونها، فصار المثَّنى هو مدخلَ

القصيدة الذي يفتح الباب على البكاء.

لماذا بكى محمود درويش الحصانَ الذي تُرك وحيدًا وسط أطلال قريته البروة؟ ولماذا عندما رثى نفسه مزج قصيدته بدم الحصان؟

«لم يبقَ في اللغة الحديثة هامشٌ للاحتفاءِ بما نحبُّ/ فكلُّ ما سيكونُ كانْ/ سقطَ الحصانُ مُضرَّجًا بقصيدتي/ وأنا سقطتُ مُضرَّجًا بدمِ الحصانْ».

هنا يقع الطَّلَل الذي، حين نبكيه، نبكي حاضرَنا المصنوعَ من أطلال حياتنا. وهنا صنع الفلسطيني حكايته من ألم نكبته بالحكاية.

كان العمل مع أبي غسَّان ممتعًا. رجل يعيش وحيدًا بعد موت زوجته، يعشق عمله، ويشرب دموع العذراء، هكذا كان يسمِّي العَرَق، وهو يُشرق بدموعه حين يتذكَّر زوجته وهوسَها بأمِّ الزينات التي رفضت أن تزورها، لأنَّها كانت لا تستطيع أن ترى ركام بيتها وحياتها.

لكنَّ الأمور اتَّخذت مسارًا آخر. ففي ليلة عيد الأضحى، سأل أبو غسَّان آدمَ ماذا سيفعل صبيحة العيد.

«ولا إشي»، أجاب آدم.

«مش رح تزور قبر أبوك باللِّدّ؟»

«قاعد بالبيت بدّيش أروح ع اللِّدّ.»

«ليش يا زلمة، هذا واجب.»

«بحبِّش الواجبات.»

«تيجي معاي بكرا على سِبلان، حينشرح قلبك. جبل وتلال، منزور قبر أبوي غسَّان الفاعور، وبعدين مننزل عَ حيفا بعزمك على

السمك بمطعم أبو جورج.»

«أبوك مدفون بسِبلان؟»

«قصّة طويلة، يا ابني، منخرِّفها بسِبلان. كون عندي على الخمسة الصبح ومنطلع سوا.»

وكانت سِبلان. إنَّها الحكاية المنسيَّة؛ فالقرية الصغيرة الجميلة التي تقع شماليَّ غربيِّ مدينة صفد، وتعلو ثمانمئة متر عن سطح البحر، كانت أشبه بمتحف للخراب الذي يُحيط بمقام ضخم لنبيٍّ يُدعى سِبلان، ويُقال إنَّه أحد أبناء يعقوب. اختار مغارة في هذا المكان يعيش فيها ويتعبّد، ثم بُنيت القباب فوق المغارة كما بُنيت الساحات الداخليَّة المسقوفة، فتحوَّل المكان إلى مَزار ومكان للتبرُّك.

وقف أبو غسّان على قمَّة المكان. ملأ رئتيه بالهواء، وقال «انظر، هذا جنوبيُّ لبنان، وهذه جبال الكرمل، وهنا الجرمق، وهو أعلى جبل في فلسطين. هل تعرف لماذا أجيء إلى هنا؟ قلت لك إنَّني جئت أزور قبر والدي، وهذا صحيح، لكنَّني جئت أيضًا من أجل أن أتنفَّس. هنا فقط أستطيع أن أغبّ الهواء، وأستنشق عبير الأرض، يلّا تعال ندخل المقام.»

جاء آدم بصحبة هذا الرجل كي يزورا قبر والده، لكنَّه وجد نفسه داخل المقام. أبو غسَّان يقف خاشعًا، يمدّ يديه ويتلو الفاتحة بصوت مرتفع والدموع تنهمر من عينيه، ثم ينحني ويمسح البلاط بقطعة قماش بيضاء أخرجها من جيبه. يرفع القماشة إلى شفتيه ويقبِّلها بخشوع، ثم يمسح بها دموعه، قبل أن يطويَها بعناية ويُعيدَها إلى جيبه.

«فينا نرجع على حيفا إذا بدّك»، قال أبو غسَّان.

«بس ويمتى بدنا نزور القبر؟» سأل آدم.

«هيّانا زرناه»، قال أبو غسّان.

«ليش أبوك مدفون بقبر النبيّ سِبلان؟»

«تعال معي وأنا بشرحلك.»

مشيا وسط القندول والصبّار. وصلا إلى خرائب مقبرة القرية. جلسا فوق حجارة المكان، وكان نسيم نيسان المحمَّلُ بالبرودة يغلِّفهما، وهناك استمع آدم إلى الحكاية.

استمع آدم إلى حكاية لم يأتِ من أجل الاستماع إليها، فقد سئم حكايات الفلسطينيِّين المليئة بالأسى والتي تتكرَّر إلى ما لا نهاية. لكنَّ أبا غسَّان روى بطريقة تدلّ على أنَّه يعرف كيف يروي حكايته. لقد تعلَّم ذلك، لأنَّه كما يبدو رواها عشرات المرّات، كأنَّ كلامه صُنع كي يتكرَّر، وفي كلِّ مرَّة يبدو جديدًا لأنَّه يستطيع أن يجرح الروح. هذا ما أراد أن يكتبه في بحثه الذي قدَّمه في نهاية الفصل الدراسيّ عن الحصان والأطلال. لقد تعلَّم من أبي غسّان حكمة التكرار. هذا هو جوهر الأدب: أن تصنع من التكرار أعجوبةَ الجديد الذي يبدو كأنَّه وُلد في أفواه الشعراء، وعلى أقلامهم.

«اسمع، يا ابني، أنا بعرفش قصَّتك، بعرف إنَّك من اللّدّ، وأكيد قصَّتك زيّ قصَّتي، بس كلّ ما آجي هون بتطلَّع القصَّة، بعرفش ليش، بحيفا بحسّ حالي أخرس، بس لمَّا أتنشَّق الهوا هون، بحسّ الحكي بيطلع زيّ ما بتطلع الدموع من العين. لازم تزور اللّدّ حتى يصير فيك تحكي يا ابني. بتعرف ليش إحنا شعب صامت؟ لأنَّه كلامنا ناقصه أرض تستقبله. بلا الأرض فِش كلام. إيش رأيك بهالحكي؟»

«بعرفش، بسّ أنا ما بحبّ أتذكّر. الحقيقة أنا ما عندي ذاكرة، ذاكرتي قصص سمعتها وبدِّي إنساها.»

«إسّا بتسمع قصَّتي وبتكتشف إنَّها صارت قصَّتك، إنت سألت، ذنبك على جنبك.»

وبدأ الكلام، ومعه صار أبو غسَّان الفاعور إنسانًا آخرَ. فجأة بدأ شكله يتغيَّر. جسمه الذي أثقله العمر والشحمُ صار خفيفًا كجسد فتًى في التاسعة، وصوتُه المليءُ بسعال التدخين وحشرجات البلغم صار نقيًّا وصافيًا، «لم يخبرني أحد الحكاية، عشتها ولا أزال أعيشها كلّ يوم. بكت أمّي كثيرًا وهي تُحتضَر. كان طلبها الوحيد أن تُدفَن إلى جانب المقام كي تكون بالقرب من دماء والدي، لكنَّني لم أستطع أن أحقِّق أمنيتها، فنحن لا يحقّ لنا أن نعود حتى حين نموت. علينا أن نموت غرباء ونُدفن كغرباء. وعندما رأت في عينَيَّ الجواب، طلبت منِّي ألَّا أزور قبرها لأنَّها ستهرب من القبر وتلتحق بزوجها في سِبْلان.»

- 2 -

كيف يروي آدم الحكاية كما سمعها من هذا الرجل؟ ولماذا وجد نفسه متورِّطًا في كتابتها؟ أليس الأجدى بنا أن ندفن حكاياتنا؟ الإسرائيليُّون يمنعوننا من دفن موتانا في مقابرنا، فلماذا لا نُقيم قبرًا كبيرًا، لا بداية له ولا نهاية، نسمِّيه قبر الحكايات، نضع فيه جميع حكايات فلسطين ونُهيل عليها تراب كلماتنا؟

قال آدم لداليةَ، عندما سألته عن مشروعه المؤجَّل لكتابة رواية، إنَّه لن يكتب لأنَّه يخشى أن يكون في صدد تأليف ضريح للحكايات. كلّ كتابة عن النكبة هي مقبرة، وأنا لست حارسًا للمقابر.

«فكرة مدهشة»، قالت داليةُ، «تذكِّرني بمكتبة بورخيس. بدلًا من المكتبة مقبرة. وبدلًا من أن تضع الكتب على رفوفها، تحفر بالكلمات قبورًا للكلمات.»

«فكرة مرعبة»، قال آدم، «ثم مَن أنا كي أقلّد بورخيس؟ كي تكتب الأعماق، كما كتب هذا الأرجنتينيّ أو كما كتب أبو العلاء، يجب أن تكون أعمى، وأنا لست.»

«لكنَّك أخرسُ. ألم تقل إنَّ أهمّ ما في رواية عاموس عوز أنَّه التقط حقيقة أنَّ الفلسطينيَّ لا يحكي، ثم قام يهوشع بقصّ لسانه؟ هناك كثير من الكتَّاب العميان. أمّا الكاتب الأخرس فستكون أنت.»

«أنا؟ أنت تخترعينني على ذوقك.»

«هذا هو الحبّ. الرجل لا يملك سوى مرآة واحدة هي عينا المرأة التي يحبُّها، أمّا المرأة فتصنع صورتها كلَّ يوم في المرآة. انظر إلى عينَي تَرَ الكاتب الأخرس. اغرق فيهما تَصِرْ ما تراه.»

«أحبّ ذكاءك»، قال.

«أنتَ هو الموضوع الآن.»

«أحبُّك»، قال.

«أخبرني عن هذه المقبرة التي تتردَّد في كتابتها.»

«أنا لا أحبّ المقابر»، قال.

«هذه المقبرة لن تكون كالمقابر. فالحكايات لا تُدفَن إلَّا لتولَد من جديد. لا تَخَفْ. هاتِ أخبرني. أحبّ الحكايات التي ترويها لي عن الآخرين، لأنَّها مرايا حكايتك التي لا تريد أن ترويها.»

جلس الرجلان على حافَّة قبر نصف مهدَّم، وجاء الكلام كأنَّه يولد من رَحِم الموت.

«سألتَني عن أبي، رحمه الله. اسمعْ. سأروي لك حكاية خمسة عشر رجلًا وبقرة سِبلان المُباركة. كان أبي يعمل في غباطيَّة في فلاحة أرض أفنديَّة صفد. أنت تعلم، غباطيَّة هي قرب سَعْسَع، وفي سعسع جرت تلك المذبحة الرهيبة حين تسلَّل الإسرائيليُّون إلى القرية ليل 15 شباط 1948 وزنّروا عشرة بيوت بالديناميت وفجَّروها فوق رؤوس النائمين. يومها مات خلق كثير في بيوتهم، فقرَّر أبي ألَّا ننام في البيت. وجد مغارة في الأرض التي كان يفلحها، وبقينا فيها شهرًا، ثم رجعنا إلى سِبلان، ويا ليتنا لم نعد. إيش بدِّي أخبرك. كان أبي يردِّد ما قالته فاطمة زوجةُ محمود هبَّاش، والتي جاءت إلى غباطيَّة وهي تلطم وتبكي زوجَها القتيل. قالت: على صوت التفجير طلع زوجي من البيت، وبعد شوي إجا وقال قومي يا مَرَا، اليهود عم بيفجّروا البيوت فوق الناس. حملت ابني الرضيع وقلت للبنتين والولد يمشوا معاي، ومشينا. كان زوجي ماسك رسن الحمار، وعم يمشي، ونحن كنَّا وراه. وفجأة شاف عسكري يهوديّ مصوِّب البندقيَّة صوبه، فقال له زوجي «إيش هادا؟» واللهِ ما قال غير هالجملة. فيها إشي هالجملة؟ وسمعت العسكري اليهودي عم بجاوب «هادا إيش»، وأطلق عليه النار. سقط زوجي حدّ الحمار وهو عم ببلعط بالدم، وسمعت اليهوديّ عم يضحك بصوت عالي، وعم بيقول مرَّة تانية «هادا إيش». تركت الرجَّال والحمار. شدِّيت الأولاد وبقالي ساعة عم بركض.»

قال أبو غسَّان إنَّ عبارة العسكريّ بقيت ترنّ في أذنيه منذ ذلك الوقت، ولم يفهم معناها إلَّا حين انتقل من حرفيش إلى الإقامة بحيفا وتعلَّم اللغة العبريَّة. «ابن الملعونة، إيش بتعني بالعبري نار. قال

للرجّال المسكين هدا نار وقوّصه. ابن الملعونة كان عم بلعب بالكلام وبالدم.»

«أبوك خبّرك هالقصّة؟» سأل آدم.

«آه، شو مفتكرني عم بخترع؟»

«وبعدين، وين قصّة البقرة؟»

«هادي حكاية الحكايات. قِصَّة بتتصدَّقش. ولو ما شفت بعيوني وسمعت بِداني ما كنتش بحكي. إسمع وإفهم. أكيد انتبهت على شجرة البلُّوط حدّ المَقام، وشفت الناس معلَّقة شراطيط. كانت أمِّي تِجي كلّ سنة تزور المَقام وتعلِّق شقفة قماش، وتقول هادي نذر لبقرة سِبلان يلِّي خلَّصت الشباب من الموت. المهمّ، لمَّا دخل جيش اليهود على القرية، انهزم الناس وهربوا عالوعر، بقي المختار أحمد الفاعور يلِّي استقبل اليهود هو وحامل عصا عليها قماشة بيضا: يعني إحنا استسلمنا ونطلب الأمان. وين أهل البلد، سأل الضابط اليهوديّ. هربوا عالوعر لأنَّهم خايفين. قل لهم يرجعوا بكرا الصبح ويتجمَّعوا قدَّام المزار، قال الضابط. وهيك صار. تجمَّعت كلّ الناس، رجال ونسوان وأولاد وختياريَّة، قدّام الضريح خلف راية المختار البيضا. وقف ضابط يهوديّ لافف حطَّة على رقبته، وقال عليكم الأمان، بسّ إحنا جوعانين وبدنا نوكل دجاج. وعينك تشوف ملَّا مذبحة حصلت في القرية. إحنا مندبحش دجاج إلَّا على العيد، الدجاج للبَيْض والديوك للذبح بالعيد. بسّ هيديك اللحظة اندفعت النسوان تكمش الدجاج وتذبح. الرجال ضلُّوا واقفين كأنَّهم أُصيبوا بالشلل. النسوان نفّذوا المذبحة، يمكن ذبحوا إشي أربعين دجاجة وولّعوا الحطب وبلش الطبيخ. كانت

النسوان عم تطبخ وتضحك. أمّي قالت إنَّها حسّت إنَّ الدجاج عم يفدي البني آدمين. ولا مرَّة شفت الناس فرحانة بالدم زيّ هداك اليوم. صورة بتنمحيش من راسي، وعينك تشوف كيف هجم اليهود على الدجاج المسلوق، وإحنا الأولاد هجمنا معاهم، بس الجنود طردونا. وحده سعيد صاحبي سرق فخدة دجاج وهرب فيها، لحقته وأكلت لقمة، والله كان أزكى دجاج ذقته بحياتي.

«وبعد ما خلص الأكل اختاروا 15 شاب من بيناتهن أبي، وأخذوهم لداخل المقام.

«ووقف ضابط الحطَّة والدجاج وأطلق رشَّة بالهوا من البندقيَّة وقال يلّا روحوا عند القاوقجي. لمّا كانت أمّي تخبِّرني هالحكاية كانت تضحك وتبكي، تضحك وهي تقول إنَّ الضابط كان عم بكشّ الناس من البلد كأنَّه عم بكشّ الدجاج، ولمّا ما حدا تحرَّك صار يصيّح علينا، وصار صوته كأنَّه صياح ديك. العما أكل الدجاجات وصار يتديّك. وأطلقوا العسكر النار بين أقدام الناس، وانهزمنا. أمّي لاقت مغارة خلف المقام وقعدنا فيها. قالت أمّي إنَّها لازم ننطر تنشوف إيش صار بزوجها. وبعد يومين فهمنا إنُّو أبي انقتل بالضريح، وإنُّو شابّين انقتلوا كمان، وال 12 الباقيين هربوا بسبب البقرة.»

روى أبو غسَّان ما يمكن للمرء سماعه من جميع أهالي سِبلان. قال «إنَّ الرجال أُدخلوا الضريحَ، وهناك رفع أحد الجنود بندقيَّته وبدأ بإطلاق النار، وفجأة دخلت بقرة هائجة الضريح، فاحتار الجنود ماذا يفعلون. أغلب الظنّ أنَّها كانت ثورًا وليس بقرة، لكنّ الناس مصرُّون على تسمية الثور بقرة. هجمت البقرة على الجنود ففرُّوا من أمامها. يبدو أنَّهم تردَّدوا في إطلاق النار عليها، فارتبكوا، وفي تلك اللحظة

فرّ الرجال، كلّهم نجوا ما عدا أبي واثنين آخرين من آل عمر، قُتلوا قبل أن تهجم البقرة على المزار.»

قال أبو غسَّان إنَّ أغلبيَّة الناس انهزمت على لبنان، لكن أمّه أصرَّت على أن تبقى. وجدت لنفسها منزلًا في حرفيش وصارت تعمل في قطف الزيتون. قالت إنَّها لا تستطيع الابتعاد عن الضريح، «هذا ضريح أبوك، منعرفش وين قبروه، بس منعرف وين مات. لازم نزور الضريح ونمسح عنه الدم كلّ ما نجي.»

أمسك أبو غسَّان بيد آدم، وقال له: «تعال أسقيك. أكيد إنَّك عطشان.» ومضى به إلى نبع يقع قرب الضريح يُسمَّى عين الدُّرَّة، «هذا نبع غريب له ثلاثة أسماء، عين الدُّرَّة، وعين الحليب، وعين البزاز.» انحنى الرجل. غسل وجهه، وشرب ثلاث مرَّات بيديه، فانحنى آدم وغسل وجهه وشرب، «اشرب كمان» قال الرجل، «ماء أطيب من العسل، أنا مَدين بحياتي لهذا النبع. فبعدما ولدتني أمّي جفّ حليبها، ففعلت كما تفعل نساء قريتنا عندما يجفّ حليبهنَّ. جاءت إلى هذا النبع وغمست فيه ثدييها فتدفَّق الحليب. لولا نبع الحليب هذا لمتّ طفلًا. يُقال، والله أعلم، إنَّ النبع يدرّ الحليب لأنَّ ماعز النبيّ سِبلان لا تشرب إلَّا منه، والماعز التي لجأت إلى المقام صارت ماعز النبيّ، لا أحد يمسّها بسوء، وهي التي أعطت هذا النبع قدرته العجائبيَّة.»

بعد أن شرب الرجلان من ماء العين العجائبيَّة، قاما بجولة في القرية المهدَّمة التي لم يبقَ فيها حجر على حجر، لكنَّ أبا غسَّان كان يتصرَّف كأنَّ القرية لا تزال قائمة. يحكي مع البيوت، ثم يقف طويلًا أمام شجرة تين ضخمة، «هذه تينتنا، البيت هناك»، وأشار إلى بقايا حجارة متكوِّمة قرب نبتة صبِّير ضخمة، «وأنا كنت في طفولتي حارس

شجرة التين، ولا أزال إلى اليوم حين أزور القرية، أشعر بأنَّني حارس التينة.

«لم نكن نزرع في قريتنا سوى التين والزيتون. يُقال إنَّ النبيَّ سِبلان أمر بزراعتهما هنا، لأنَّ الله قدَّس هاتين الشجرتين وحلف بهما في القرآن.»

«ليش بترجعش عالقرية؟ هيَّاها فاضية، فيهاش مستعمرات ولا يهود.»

«بتقول ارجع! واللهِ أنا طموحي أندفن هون، بس هادا مستحيل، أخدوا البلد، وأخدوا الأراضي، وألحقوها بحرفيش. قال إنَّ النبيّ سِبلان نبيّ درزيّ وأعطوهم كلّ إشي. واللهِ أنا بعرف النبيّ سِبلان، هادا نبيّ للجميع، للمسلمين والنصارى والدروز واليهود كمان. يُقال إنَّه كان أحد أبناء سيِّدنا يعقوب، وعاش بالمغارة على هالجبل حتى يكون قريب من ربّ العالمين. أنا إيش بعرّفني، بس كلّ الأرض صارت أملاك غائبين بعد عمليَّة حيرام يلِّي احتلُّوا فيها الجليل. تعال نرجع، بس قبل خلِّينا نعبِّي هالهوا النضيف بصدورنا قبل ما ننزل نختنق بحيفا.»

- 3 -

لم تنتهِ الحكاية في سِبلان، فالكلام يجرّ الكلام، والحكايات تجرّ الحكايات. في مطعم أبي جورج على شاطئ حيفا، انفجر الكلام. وبدلًا من أن يحكي أبو غسَّان عن سِبلان، قال إنَّه عندما ينزل من قريته إلى المدينة يشعر بأنَّ الهواء يصير ثقيلًا، وإنَّه لا يعود قادرًا على التنفُّس، «هيك ماتت فاطمة، أمّ غسَّان، الله يرحمها، واللهِ إنَّها اختنقت. كنت أحاول أقنعها نطلع على قريتها في أمّ الزينات، وكانت ترفض وتقول إنَّها لا تستطيع، حتى زيارة مقام النبيّ سبلان توقَّفت عنها في آخر أيَّامها. بعرفش إيش صار معاها. بطَّلت تُوكُلْ، وصارت تشرب ماء وحليب، ولمّا تحكي تخبِّر القصَّة نفسها. معقول؟ كأنّ روح سيدها الحاج عبد القادر ركبتها. معقول يا زلمة؟ كأنَّ الموتى بيبعثوا ورا يلّي بدهم يموتوا. فاطمة، الله يرحمها، صارت عبد القادر. إسمعها عم تحكي مع حالها، وتردّد جملة واحدة مرَّات ومرَّات، ولمَّا

إسألها إيش في يا مرا تجاوب ولا إشي، عم قول «وهيدي أرض العرب، وين نروح؟». »

تقول الحكاية إنَّ أمّ الزينات سقطت يوم 15 أيّار 1948 في عمليَّة بيعور خميتس (التطهير في الفصح)، وقد قامت الكتيبة الرابعة في لواء غولاني باحتلالها. وبعد ذلك تمّ تدمير جميع بيوتها في 8 آب 1948، بعد طرد مَنْ تبقّى من أهلها الذين لجأوا إلى أطراف القرية وكرومها. وفي سنة 1949 أُقيم على أراضيها موشاف ألياكيم.

الحكاية التي انحفرت في ذاكرة فاطمة، أمّ غسَّان، هي صورة الشيخ الأبيض، جدِّها الكبير، عبد القادر. كانت فاطمة في الثامنة من عمرها، وجدت نفسها مع إخوتها الثلاثة الصغار ووالدتها سكينة ووالدها عثمان متلاصقين وقد خرجوا من الدار وصاروا في الحاكورة عندما رأوا الجَدّ الكبير، الحاجّ عبد القادر، يهوي أرضًا ويغرق رأسه في بركة من الدم. لا تذكر فاطمة ماذا جرى. والدها عثمان كان يروي الحكاية في دالية الكرمل حيث أقام في منزل الشيخ غيث، وهو صديق قديم لجدّها، وكانت في كلِّ مرَّة تستمع فيها إلى الحكاية، تشعر بدبيب التنمُّل الذي يبدأ من عنقها ويمتدّ إلى ظهرها، فتصير على حافَّة الإغماء.

وقف الحاج عبد القادر أمام باب بيته، بلحيته الكثيفة البيضاء، وجسمه الطويل الضخم، وقمبازه الأبيض، وكوفيَّته البيضاء، ونظر إلى عينَيِ الجنديّ الإسرائيليّ، وسأله: ماذا يريد.

«اِطلع من الدار»، صرخ الجنديّ.

نظر الحاج عبد القادر إلى الوراء، باحثًا عن شخص آخر، يبدو

أنَّ الجندي وجَّه إليه الكلام. وعندما لم يجد أحدًا، ابتسم.

«أنا؟»

«إنتَ، اِطلع برّا.»

«أنا؟»

«برّا، برّا، رُوحوا على بلاد العرب.»

«هذي بلاد العرب.»

«برّا.»

«هذا داري، وهذي أرضي، ومش رح نروّح. إنتَ روّح.»

عندما يصل الأب إلى الجملة الأخيرة، كان يصمت قليلًا قبل أن يقول: «أمسك الحاجّ عبد القادر بالباب ونظر إلى البعيد ولم يتزحزح من مكانه، رفع الجنديّ بندقيّته وصوَّبها إلى رأس الرجل من مسافة أقلّ من نصف متر، لكنَّ الشيخ الأبيض بقي واقفًا، عيناه تبحلقان في البعيد، كأنّه لم يرَ البندقيَّة المصوَّبة إليه، أو كأنّه كان يريد أن يرى الموت بعينيه قبل أن يموت.»

قال أبو غسَّان إنَّ زوجته فاطمة قالت إنَّها رأت الشيخ الأبيض يهوي قبل أن تسمع صوت إطلاق النار. «أبوي قال إنِّي صرخت، وحدها البنت صرخت، وإحنا طلعش صوت حدا منَّا. شفنا كيف سقط، وكيف صار الدم زيّ بركة جنب راسه. جمدنا بمطرحنا، كأنَّا تمسمرنا بالأرض. وبعدين قرَّبت بدِّي أشيل الزلمة حتى ندفنه، وسمعت صوت الرصاص فوق راسي، وما حسِّيت حالي إلَّا وأنا عم بركض. كلّنا ركضنا، وسمعت مرتي عم تصرخ «وين البنت»، اتَّطلعت عَ الاولاد. كانوا كلّهم مع مرتي، ما عدا فاطمة. ركضت صوب

الدار. كانت البنت واقفة مشّ عم تتحرَّك، والعسكريّ مصوِّب البندقيَّة عليها، هجمت وخطفتها وحملتها وركضت. وكان الرصاص فوق روسنا.»

كانت فاطمة، حين تروي هذه الحادثة، ترويها على لسان والدها، فهي لا تذكر سوى صورة شبح أبيض علق في ذاكرتها، ثم تعوَّدت القصَّة وصارت تراها في كلمات والدها. قالت لزوجها إنَّها لا تريد زيارة خرائب القرية.

«بقدرش»، قالت، «مرَّة واحدة رحت مع أهلي، كان عمري أربعتعشر سنة. نزلنا من الدالية في الوعر، وبلَّش أبوي يدلّنا على البيوت يلّي بقاش منها إشي. ورجع خبَّرنا قصَّة سيدي. يومها مدري إيش حسّيت، وبلَّشت الدموع تنزل من عيوني من دون بكي. وصلنا على المقبرة. سألت أبوي وين قبر سيدي؟ ما جاوب. سألت وين اندفن الزلمة؟ كمان ما جاوب. وفهمت إنَّه ما عنده قبر. أمّ الزينات ماتت، كيف بتقول إنَّها بلدنا لما انترك جدّي يتعفّن بالأرض؟ وتركتهم ورجعت وحدي على الدالية.»

«حكاية فاطمة لا نهاية لها»، قال أبو غسَّان.

«أنا رأيي معاها حقّ. لإيش الواحد يفتح جروح الماضي؟» قال آدم.

«وإنت إيش سوِّيت بجروحك؟» سأل أبو غسَّان.

«أنا ما عندي جروح ولا ماضي»، قال آدم.

«إحنا منحكيش عن الماضي. الجروح، يا ابني، مش ماضي.

هيّاك إجيت معي على سِبلان وشفت بعيونك شجرة التين يلّي بحاكورة بيتنا. الشجرة مش ماضي.»

قال أبو غسَّان إنَّ زوجته فاطمة ماتت اختناقًا. خنقتها حيفا، «واللهِ بعرفش. كانت تِصْحى من النوم هي وعمّ ترجف، وإسمعها عم تصرخ، وبعدين فهمت إنَّها عمّ بتشوف بمنامها كابوس ابن عمّها توفيق. بعرفش من قصَّة توفيق إلّا المنام. ولمَّا سألت أهل القرية، مَحَداش أكّد لي الخبر. بس فاطمة قالت إنَّها شافت توفيق عمّ يُوْقَع من سطح الدار.

«يا مرا كنتم بالدالية، مش معقول تكوني شفتيه. البيوت اندمَّرت بعد ثلاث شهور من خروجكم منها.»

تؤكِّد فاطمة أنَّهم لم يخرجوا من القرية إلّا بعد تدميرها. تقول إنَّهم أقاموا بأراضي القرية تحت أشجار الزيتون، وإنَّ اليهود اعتقلوا بعض الشباب وأخذوهم إليها، ثم طردوا بقيَّة السكَّان، «يومها طلعنا على الدالية، بسّ قبل هيك لا.»

قالت فاطمة إنَّها ترى توفيق في مناماتها. تراه وقد صار يشبه جدَّها عبد القادر. يقف لابسًا ثيابًا بيضاء على سطح منزله ممسكًا بالمطرقة، ويبدأ في تدمير بيته، بينما تقف مجموعة من الجنود الإسرائيليِّين وهم يراقبون من الأسفل ويتضاحكون. وفجأة، رمى توفيق المطرقة من يده، وصرخ «بدِّيش أكمِّل، اقتلوني أحسن»، وسقط من الأعلى بعد أن مزَّقه الرصاص.

قال أبو غسَّان إن لا أحد من أهالي أمّ الزينات أكَّد الخبر، لكن

فاطمة كانت مصرَّة على القول إنَّ هذا ما حدث، «معقول يا أبو غسَّان تكذِّبني وتكذِّب مناماتي؟»

في دالية الكرمل، حيث لجأت العائلة، كان عثمانُ، والدُ فاطمة، لا يتوقَّف عن رواية حكاية الشيخ الأبيض. روى أنَّ الرجل نهض باكرًا في الصباح، غرف كثيرًا من الماء من بئر البيت، وتحمَّم بالماء البارد، ثم لبس قمبازه الحريريّ الأبيض، وقال لابنه إنَّه اغتسل، «لا لزوم لغسلي إذا حصل شيء، أموت طاهرًا، وهذا القمباز هو كفني. انتبه على عيلتك يا ابني.» وكان الشيخ غيث، الذي أصرّ على إسكان عائلة عبد القادر في الدُّور الأعلى، ونزل هو وأفراد عائلته إلى الدُّور الأرضيّ، إكرامًا لصديقه الشيخ الطاهر، كما كان يسمِّيه، يهزّ رأسه وهو يستمع إلى الحكاية، ويقول إنَّ عبد القادر نظر إلى مرآة الموت قبل أن يموت. وفي مرآة الموت يرى الإنسان أرواح أجداده، ويكتشف أنَّ جسده ليس سوى قميص.

لم يكتفِ الإسرائيليُّون بطرد جميع سكَّان القرية وهدمِ بيوتها، بل كانوا يعتقلون مَن يتسلَّلون إليها كي يأخذوا ما خبّأوه من مؤُونة يبحثون عنها تحت ركام بيوتهم، ويرسلونهم إلى معسكر الاعتقال في عتليت. ويروي الناس عن أرملة فقيرة كانت تُدعى روحاء، نزلت إلى القرية. وعندما اكتشف الجنود وجودها فوق ركام منزلها وأرادوا اعتقالها، هربت راكضة كي تختبئ في بير الهرامس، وهناك نزلت الدرج إلى المغارة فأطلق عليها الجنود النار. ويقال إنَّ بير الهرامس لا تزال إلى يومنا تفيض دمًا في شهر تمُّوز.

وفي أواخر آب 48، طوَّق الجيش الدالية، وأمر جميع المهجَّرين

إليها بالتجمُّع في ساحة القرية، حيث أركبوهم الباصات التي سارت بهم إلى إجزم. حمل الناس فرشاتهم وثيابهم، وصعدوا في باصات رماديَّة اللون، ومضوا إلى المجهول. لكنَّ الباصات توقَّفت في وادي الملح حيث كان الجيش الإسرائيليّ يُقيم معسكرًا. أُمر الرجال بالنزول من الباصات، وأُخذ 20 رجلًا إلى جهة مجهولة، ثم صعد الجنود إلى الباصات وسط ولولة النساء وبكاء الأطفال، وسرقوا جميع الفرشات، وفتَّشوا النساء والأطفال بحثًا عن المال والمجوهرات، ثم أمروا الباصات بمتابعة مسيرتها.

قالت فاطمة إنَّ الجنود كانوا يعتقدون أنَّ الفلّاحين الفلسطينيين يخبِّئون المال في الفرشات وفي صدور نسائهم، لذلك أغاروا على كلِّ شيء.

«قعدنا بإجزم عند قرايبنا، وانتظرنا، ثم جاءتنا رسالة من الوالد بواسطة الصليب الأحمر بأنَّه مسجون في عتليت. إيش فينا نسوّي؟ وبعدين زيّنا زيّ الناس، سكنّا في الجامع إلى أن جاء الفرج. جاء الوالد بعد فراره من عتليت، وأخذنا إلى أمّ الفحم، ومن هناك عاد بنا إلى دالية الكرمل. قال إنَّها أقرب إلى أمّ الزينات، وإنَّه اشتاق إلى رائحة الزيتون، فعدنا تسلُّلًا، وبقينا هناك. أنا بحبّ الدالية، بس هاي مش بلدي. بلدي ماتت. قتلوها يا أبو غسّان. قتلونا وقتلوها.»

قال أبو غسَّان: «كان عمِّي عثمانُ، رحمه الله، رجلًا حكيمًا. رجع صنع حياته من جديد. اشتغل في المحاجر، وبنى بيت بالدالية، وكان يقول مهما طال الزمن رح نرجع على أمّ الزينات. إذا مش أنا، أولادي. وإذا مش أولادي، أولاد أولادي. وإذا مش همّ، أولادهم. بَسْ الله يرحم ترابه ما قلّي لمَّن طلبت إيد فاطمة، إنَّ البنت عندها

مشاكل عصبيَّة، وبتشوف منامات غريبة. فاطمة، الله يحسن إليها، كانت امرأة ولا كلّ النسوان، عيونها بتساع الدنيا، الله يرحمها. وهي علَّمتني إشي مهمّ، كانت بآخر إيَّامها تقول إنَّ ثيابها ما بقى تساعها، وما فهمت إنَّ هيدا الشعور علامة دنوّ الأجل، الروح بتحسّ حالها محبوسة، والثياب بتضيق مهما اتَّسعت. هلَّق فهمت إيش يعني الموت. شو رأيك إنت؟ إنت بتدرس في الجامعة، وأكيد بتعرف.»

«واللهِ يا أبو غسَّان أنا بحبّ السمك، وثيابي واسعين عَ جسمي، والله يرحمنا جميعًا.»

- 4 -

حكايات أمّ الزينات وحكايات سِبلان، مثلُ حكايات جميع القرى الدارسة، لا نهاية لها. لن يستطيع أيّ كاتب الإحاطة بتفصيلاتها، فهي تتفتّق، كما تتفتّق الجروح في جسد مهشّم. آدم، الذي هرب من جروح روحه والتجأ إلى النسيان، وجد نفسه محاطًا بأطلال ذاكرة لا تتوقّف عن النزف. هرب من حكايات أمّه فوجد نفسه محاصَرًا في غيتو وادي النسناس. حتى الأدبُ الذي رأى فيه مظلّةَ روحه، أخذه إلى غيتو وارسو حيث عاش حصارين: الأوّل ماديّ مع المحاصَرين والموتى الذين استعاروا صوت ماريك إديلمان، والثاني روحيّ تجسّد في عزلته عن أقرانه الطلّاب.

ياكوب الذي طرد آدمَ من غيتو وارسو، جعل الفتى اللّداويّ يلتجئ إلى غيتو آخر، مستعيضًا عن غيتو اللّدّ بغيتو وادي النسناس الذي يعبق بروائح ذاكرة مثلومة ترفض أن تَمْضي.

قال لأبي غسَّان إنَّ عليه أن ينسى كي يعيش، «اِنسَ يا زلمة هاي الخراريف، وفكِّر بالحاضر.»

«إنت ساذج، يا ابني، نيَّالك.»

الساذَج: هي العبارة الملائمة لوصف الحالة النفسيَّة التي عاشها آدم في أعوامه الجامعيَّة الأربعة. وستصل سذاجته إلى قمَّتها بعد حكايته مع كرمى سمعان، شقيقته التي ليست شقيقته، والتي قادته إلى حالة اكتئاب لم يخرج منها إلَّا على إيقاعات مقامات أمّ كلثوم.

فتحت له الموسيقى أُفقَ العبور إلى الحبِّ، وشعر بأنَّ الإنسان يستطيع أن يعيش في اللَّازمان، وأن يتخطَّى المكان، ويصعد إلى أعالي الروح التي تصنعها الموسيقى.

في كتاباته عن أمّ كلثوم، كان يتجاهل كلام القصائد التي غنَّتها الستّ. فعلى الرَّغم من أنَّ أمّ كلثوم أخذت نصوصًا كتبها كبار شعراء مصر، وعلى رأسهم بيرم التونسيّ، فإنَّ الكلام المكرَّر الذي يبدو ساذَجًا، إذا قُرئ، يتحوَّل مع الصوت الذي يصنع مقاماته وسحره إلى معانٍ جديدة تأخذ المستمع إلى ما بعد الزمن، حيث تنبثق أمواج الروح.

وعندما التقى آدم الراهب الأرثوذكسيَّ سلوان، الذي اتَّخذ مغارةً في كفر كنا، حيث يقال إنَّ يسوع الناصريَّ صنع أعجوبة تحويل الماء إلى خمر، صومعةً له، أُصيب بالذهول وهو يستمع إلى الراهب المتوحِّد، والذي كان لا يأكل سوى عشب الأرض النيِّئ والعسل البرِّي، وهو يقول له إنَّه يبكي عندما يستمع إلى أمّ كلثوم.

«أنا لا أسمعها إلَّا في يوم عيد الفصح. هذا هو اليوم الوحيد في

السنة الذي أترك فيه صومعتي. أحضر قدّاس منتصف الليل في القرية. أتناول القربان، ثم أذهب لأمضي النهار مع شقيقي وأفراد عائلته في عيلبون، وهناك يضع أخي أسطوانة لأمّ كلثوم بناءً على طلبي، وتبدأ الدموع.»

قال إنَّه يشعر بأنَّه يخاطب الله عبر صوتها، وإنَّ أمواج الحبّ التي تتدفَّق من حَنجرتها تأخذه إلى اللامتناهي، بحيث يرى نفسه يتوحَّد بالكون كلّه، «الحبّ، يا ابني، ليس فقط أن يحبّ رجلٌ امرأة، أو أن تحبّ امرأة رجلًا، الحبّ هو أن نصير جميعَ العاشقين والعاشقات. هنا نكتشف سرَّ تألُّه الإنسان في النجَّار الفقير الذي خرج من الناصرة.»

خِيار آدم بأن يدَّعي أنَّه إسرائيليّ كان يصطدم في كلّ مرَّة بحقيقة النكبة. واعتقد أنَّه حين سيروي لداليةَ حكايةَ أبي حسن وحجر آدم سيطوي النكبة إلى الأبد، ويبدأ حياة جديدة مع هذه المرأة التي علَّمته، بجسدها وروحها معانيَ الحبّ.

لكن داليةَ كانت خيبته التي قادته إلى ما بعد اليأس، لأنَّها أعادته إلى اللِّدّ، التي أراد أن يهرب منها، وقادته إلى موت صديقها داني، وهو الموتُ الذي أعاد دائرة الحكاية إلى أوَّلها.

أبو غسَّان كان على حقّ، «كيف بدَّك ياني اِنسى وأنا عايش كلّ يوم نكبة؟ هذه حياة يا زلمة، ليش هُمّ خلُّولنا هوا حتى نتنفَّس؟ اسمعْ! إنت بتحبّ حيفا وخبَّرتني عن جمال البحر وهوا الملح، بس هاذي مش حيفا. حيفا هربت من حيفا، وإحنا الفلسطينيِّين يلّي بسمُّونا عرب إسرائيل، إحنا إيش؟ إنت فاكر إنُّو إحنا بشر؟ إحنا ولا إشي. زربونا

بوادي النسناس، وأخدوا بيوت الناس وسكّنوا فيها مهاجرين، وإحنا المهجَّرين عايشين زيّ ما إنت شايف. واللهِ فاطمة كان معاها حقّ، كيف بدها تنسى إيش صار بأبوها وسيدها؟ يلّي صار فيهم هناك في أمّ الزينات عم بصير فينا هون بحيفا، ولّا إنت بتشوفش وبتسمعش؟ شو عم بتدرس قلتلي؟»

«عم بدرس الشعر الجاهليّ.»

«يعني إيش؟ أنا بفهمش بالأدب.»

«يعني الوقوف على الأطلال.»

«شو يعني؟»

حاول آدم أن يشرح لمحدِّثه عن معنى الطَّلَل، وكيف أنَّ الحياة هي تراكم أطلال البشر في الأمكنة، وقال بيتين من الشعر كي يشرح فكرته؛ مطلعَ معلَّقة امرئ القيس: «قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ/ بسِقْط اللوا بين الدَّخول فحوملِ»، ومطلعَ معلَّقة طرفة بن العبد: «لخولةَ أطلالٌ بِبُرقة ثهمدِ/ تَلُوحُ كباقي الوَشْمِ في ظاهرِ اليدِ»، وبدأ يشرح معاني الطَّلَل. فأوقفه أبو غسَّان وقال «هاذا الشعر بحكي عنَّا. هون الطلل مش المكان بسّ، الطَّلَل هو الإنسان. أنا طَلَل وإنت طَلَل، وكلّ هدول الناس يلّي شايفهم بيوقفوا قدّام الدكّان وهمّ عم ياكلوا فلافل وكبيس وفلفل أخضر، كلّهم أطلال. حتى الفلافل أطلال، وجاي تطلب منّي اِنسى؟ إذا كان الشاعر تبعك يلّي كان مَلِك مش قادر يوقّف بُكا على مكان تركته حبيبته، بدَّك ياني ما إبكي على مكان طردوني منه وهو قدّامي وبغدرش أرجع؟ هاي سِبلان فاضية، وهاي أمّ الزينات فيهاش حدا تقريبًا. طيِّب ليش ما نرجع؟ أعطوا المقام للدروز.

صحّتين على قلبهم، بدّيش المقام. بالبيت حدّ التينة يلّي زرعها جدّي، هناك بدّي أسكن، واللهِ فش حدا. وإذا كان بعض أهالي الدالية أخذوا حجارة بيوت أمّ الزينات وبنوا فيها، مفيش مشكلة ياخدوها، بسّ الأرض فارغة وكلّها حشائش، حتى حرج السنديان زيّ ما هو وفيهوش حدا. كانت فاطمة كلّ ما تجيب سيرة حرج السنديان تنجنّ، بتعرف يا زلمة بدناش إشي، منطلع على الحرج ومنحوّش حطب ومنعمل فحم ومنعيش، هيك كانوا الفقرا يعملوا. والله سامحناهم بالبيوت. أمّ غسّان حِكْيِت عن إشيا بصدّقهاش عقل. يا عمّي ليش قتلوا الشباب يلّي كانوا يتسلّلوا على القرية حتى يسرقوا أغراضهم من بيوتهم؟ وبعدين، يا ابني، إنت عايش معانا في الوادي، مش حاسس حالك بسجن؟ حوّلوا الوادي لسجن. إيش معنى هادا؟ إيش بدهم فينا؟ يا أخي مين سلّطهم علينا؟ يحِلّوا عن سمانا عاذْ.»

كاد آدم وسط، عاصفة كلام أبي غسّان، ينزلق إلى رواية حكاياته، لكنّه كبح نفسه، فهو قرّر ألّا يتذكّر. قال لأستاذه حسقيل قصّاب، إنّ الذاكرة هي مرض العرب، وهو لا يفهم لماذا لا نزال ندرس الشعر الجاهليّ ونمجّد البكاء على الأطلال، لكن حسقيل كان له رأيٌ آخرُ.

- 5 -

كان حسقيل قصّاب الذي يعمل مُعيدًا في الجامعة، ويدرِّس الشعر الجاهليَّ، مفتونًا بالوقوف على الأطلال وبصيغة المثنَّى التي حوَّلها امرؤ القيس إلى بنية دراميَّة تقسم الشاعر نصفين، جاعلةً من الشعر حوارًا بين الشاعر وظلِّه.

هذا الأستاذ، بسُمرته الحادَّة وقامته المعتدلة ووجهه الممتلئ، لم يكن أستاذًا. كان يُعطي درسًا واحدًا في الجامعة عن الشعر العربيّ القديم في انتظار أن تجهز أوراقه للسفر إلى باريس من أجل إعداد أطروحة الدكتوراه في الأدب العربيّ، عن الشعر العراقيّ الحديث، مع المستشرق الفرنسي جاك بيرك.

كان حسقيل شابًّا في الثالثة والثلاثين من عمره. بشرة سمراء حادَّة، وشعر مجعَّد، وقامة قصيرة، ولهجة عراقيَّة تحاول أن تَتفلَسْطَن، وشعور حادّ بالغربة.

كان لا يتوقَّف عن القول إنَّه هنا في المنفى: «أنا عراقيّ أعيش في المنفى.»

«إسرائيل منفى؟» سأل آدم.

«إنَّها المنفى»، أجاب حسقيل.

«ولماذا عدت؟» سأله آدم.

«أنا لم أعد، ولا أحبّ استخدام كلمتَي العودة والصعود، الدارجتين هنا. أنا جئت مرغَمًا وفقدت القدرة على العودة إلى بلدي. المنفى هو أن يهرب منك المكانُ. كلّ الأدب منذ جلجامش، هو شكل من أشكال الوقوف على الأطلال. في «ملحمة جلجامش»، لا يقف البطل على أطلال الأمكنة، بل على أطلال الموت. وفي الشعر العربيّ القديم يقف البطل على الطَّلَلين معًا: طَلَل المكان وأطلال الموتى. سنقرأ معًا مرثيَّة مالك بن الريب، إنَّها المرثيَّة الأعظم في تاريخ الشعر، لأنَّ الشاعر لا يرثي، بل يحوّل الحياة إلى أطلال هدمها الموت.

«تذكَّرت مَن يبكي عليَّ فلم أَجِد/ سوى السيفِ والرمح الرديني باكيا/ يقولون لا تبعد وهم يدفنونني/ وأين مكانُ البُعدِ إلَّا مكانِيا».

تلعثم آدم طويلًا قبل أن يجد مع هذا العراقيّ لغةً مشتركة، فهو كان يشعر بأنَّه نُفي إلى قسم الأدب العربيّ، ومُنع من متابعة مشروعه في دراسة الأدب العبريّ، فأتى هذا اليهوديّ العراقيّ كي يعلِّمه أنَّ ما يعتقده مكانًا هو طَلَلٌ، وأنَّ ما يبحث عنه موجودٌ في داخله.

«إذا كانت الهويَّة اليهوديَّة تتحدَّد بالمنفى بالمعنى الوجوديّ للكلمة، فأنتم وَرَثَتُها الحقيقيُّون. اسمع يا آدم، سأساعدك على العودة إلى دراسة الأدب العبريّ. يجب أن تدرسه كي تكتب العربيَّة بالعبريَّة. أنا لا أهذي، علينا أن نكتب بلغة المستعمِر كي ننتصر عليه بلغته.»

كان حسقيل شيوعيًّا ويكتب في صحيفتَي الحزب الشيوعيّ الإسرائيليّ: «الاتّحاد» و«هاكول هعام»، في الأولى يكتب بلغته الأمّ، وفي الثانية يكتب بلغة زوجة الأب. «تركتُ أمّي ولغتها في العراق، وهنا عليّ أن أتعلَّم لغة خالتي، زوجةِ أبي. لا أحد يحبّ خالته التي تلاحق شبح الأمّ وتسعى لطرده من كلّ مكان، لكنَّني لا أملك خِيارًا آخر: عليّ أن أتعلَّم اللغة الجديدة كي أكون. لكن أنت ماذا تريد؟»

«مثلك، أريد أن أكون أنا أيضًا.»

«أنا كنتُ عراقيًّا، واليوم صرت يهوديًّا عربيًّا.»

«وأنا أريد أن أكون عربيًّا يهوديًّا.»

«هذا مستحيل»، قال حسقيل، «كلّ فكرة هذه الدولة قائمة على أنَّ العربيَّ عربيٌّ واليهوديَّ يهوديٌّ، وهذه مشكلتي أيضًا، لكنَّهم لا يستطيعون أن يفعلوا معي شيئًا لأنَّني يهوديّ. أمّا أنت فالله يستر. أنت طَلَل؛ أي أنت لا تعيش في الأطلال كما أعيش أنا. أنت أحد أطلالهم لكنَّك لا تعرف معنى ذلك، وهذا لن تتعلَّمه إلّا من خلال تجربتك. سأساعدك إذا أردت، وأنا أعرف النتيجة مسبَّقًا. أمّا أنا فحكاية أُخرى.»

بدأت الحكاية الأُخرى في الطائرة التي حملت حسقيل من مطار بغداد إلى مطار اللّدّ، «كنّا محشورين في مقاعد ضيّقة، وكان الحرّ

شديدًا. بعض الأطفال تقيّأ، وهناك امرأة أُغمي عليها، لكنَّنا لم نتخيَّل ماذا ينتظرنا في المطار.

«كنت في التاسعة عشرة. وجدت نفسي فيما يشبه الكابوس. كانت أمّي تردّد في المعبرا أنّها لا تدري كيف وصلنا إلى هنا. فجأة صدر ذلك القانون اللعين بتجريدنا من جنسيَّتنا العراقيَّة، ووجدنا أنفسنا نقف في طوابير لا تنتهي كي يأخذوا بصماتنا في كنيس إلياهو في بغداد، ومن هناك إلى المطار.

«كنت لا أريد. كنت أشعر بأنَّني بدأت أكتشف معنى حياتي عندما صرت عضوًا في خليَّة للحزب الشيوعي العراقي، لكنَّني وجدت نفسي أُساق مع أمّي وأفراد عائلتي إلى مكان مجهول. كنت قد بدأت بكتابة القصص القصيرة، وكان رفاقي ينظرون إليَّ بصفتي كاتبَ المستقبل. كنت أحلم بأنَّني سأقف يومًا إلى جانب الجواهري العظيم، وهو يُلقي شعره عن الثورة.

«هل تعلم؟ أصعب شيء أن تنسى لغتك. هنا كان عليَّ أن أنسى لغتي، ولم أستطع. فكتبت روايتي الأولى بالعربيَّة، لكنَّني لم أنشرها. وبدأت أكتب في جريدة «الاتِّحاد»، ثم بالتدريج بدأت اللغة الجديدة تتسلَّل إليّ، فأنهيت ترجمة روايتي الأولى إلى العبريَّة ونشرتها. هل قرأتَ روايتي؟

«الحقيقة أنَّ هذه الرواية، وعنوانها «السَّبْيُ»، لم تكن روايتي الأولى. روايتي الأولى عنوانها «فهد»، وهي عن إعدام مؤسِّس الحزب الشيوعيّ العراقيّ يوسف سلمان يوسف (فهد)، وهي تبدأ بفهد واقفًا

تحت حبل المشنقة صبيحة يوم 14 شباط 1949 وهو يقول: الشيوعيَّة أقوى من الموت وأعلى من أعواد المشانق؛ الشيوعيَّة هي الحياة، فكيف يمكنها أن تموت؟ تربَّيت على كلمات فهد وصلابته وعقله النيِّر، وموقفه المعادي للصهيونيَّة. عندما أعدموه، كنت شابًّا صغيرًا يمتلئ رأسه بغيوم الأحلام الكبيرة، وكنت ألتقي مجموعة من الشيوعيِّين، وكان عملنا سرِّيًا. رأيت الخوف في عيون الرفاق، لكنَّني لم أخف، وصرت أتخيَّل نفسي وأنا أتأرجح على حبل المشنقة كبطل عراقيّ، لكنَّ التضحيات ذهبت هباءً. قتلة فهد، الذين باعوا فلسطين، اتَّهمونا بالخيانة. لا لم نكن خَوَنَة، لكن رفاقنا رضخوا لقرار الرفاق السوڤيات بالموافقة على قرار تقسيم فلسطين. يومها، لم يكن أحد يعلم بأنَّ رفاقنا السوڤيات كانوا غارقين في جرائم ديكتاتور متوحِّش أطلقوا عليه اسم أبي الشعوب. لكن، ما ذنب يهود العراق كي يطردهم الحكَّام الخَوَنَة من بلدهم؟ أرسلونا كالخراف كي نكون وقودًا للصهيونيَّة. واللهِ، التاريخ مضحك. وعلى الرَّغم من كلِّ شيء، فأنا وُلدت عراقيًّا وسأموت عراقيًّا.»

كان لقاء آدم بهذا الرجل، الذي يتكلَّم كلامًا مختلفًا عن كلِّ الناس، مثيرًا للحيرة، فهما التقيا في بداية السنة الدراسيَّة في كافيتيريا الجامعة، وكان آدم قد التقى قبل ذلك كرمى في مطعم أبي غسَّان. جاءت مع مجموعة من أصدقائها لأكل الحمّص والفلافل، وكانوا يتكلَّمون العبريَّة بصوت مرتفع ويضحكون. فَهِم آدم من كلامهم أنَّهم طَلَبة طبّ أسنان. اقترب منهم، وسألهم متى يفتح المستوصف الذي يتمرَّن فيه الطَّلَبة على تطبيب المرضى مجَّانًا. قال إنَّه يعاني آلامًا حادَّة في أسنانه، وإنَّه طالب في الجامعة، فقالت كرمى إنَّه لا يوجد كلِّيَّة

طبّ أسنان هنا في تخنيون حيفا، «تستطيع أن تأتي إلى كلّيّتنا في القدس، وأنا أعالجك.»

«أنت؟ والله فكرة، تعالجني طبيبة جميلة. لِمَ لا؟»

«أنا لست طبيبة، أنا طالبة، لكنّني سأتمرّن بك.»

«لكنّني أخاف.»

«ولا يهمّك، لن أكون وحدي، سيكون أستاذي إلى جانبي، وأنا أضمن لك أفضلَ علاج مجّانيّ.»

«فكرة. لكنَّ القدس بعيدة.»

«لا يوجد شيء بعيد. لكن كما تريد.»

«صبابة، سآتي عندك.»

أعطته كرمى موعدًا في صباح الخميس التالي، وقالت إنَّها ستكون في انتظاره، «نيّالك، يا آدم، رح تكون أوّل مريض عند الدكتورة كرمى سمعان.»

لا يمكن أن تنشأ أيُّ علاقة رومانسيَّة بين المريض وطبيب الأسنان، لكنَّ الأمور مع كرمى اتَّخذت منحًى آخر. فبعدما عالجت أسنانه وهي تطمئنه كي تزيل خوفه من آلة حفر الأسنان التي كان صوتها يُثير في قلبه الرعبَ، نشأت بينهما مودَّةٌ وصحبةٌ بدأتا تتطوَّران إلى ما يمكن أن نسمِّيه أطرافَ الحبّ.

آدم كان متحفِّظًا. فبعد تجربته الحزينة مع رَفقة، قرَّر ألَّا يحاول من جديد إقامة علاقات مع فتاة يهوديَّة. رفقة جعلته يشعر بأنَّه مُهان، وهو ليس مستعدًّا لأن يدخل من جديد في حكاية لا بدَّ من أن تقوده إلى مأزق.

كرمى أيضًا كانت متحفِّظة، تتمتَّع بالاستماع إلى حكايات آدم، وتُعجب من هذا الحبِّ الذي بدأ يحتلّها، ونما بسرعة بعد معالجتها أسنانَ هذا الشابِّ الغريب الأطوار في عيادة الجامعة. حدَّثها عن «مصارع العشّاق» لجعفر السرّاج (يومها وجد آدم هذا الكتاب عن طريق المصادفة في مكتبة الجامعة)، وكانا يضحكان من سذاجة حكايات العشّاق، كأنَّهما يهربان إلى الهزل من احتمالاتهما، التي بدأت ترتسم في العيون.

«هل تريدين أن تعرفي ما هو الحبّ، مثلما روى هذا النصّ المكتوب في القرن التاسع الميلاديّ؟ اسمعي.» قام آدم بترجمة أحد تعريفات الحبّ الموجودة في كتاب السّراج. تردَّد أمام عبارة «عُطْب»، ثم وجدها، وقال: «لم أرَ حقًّا أشبهَ بباطل ولا باطلًا أشبهَ بحقّ من العشق، هزله جِدّ، وجِدّه هزل، وأوّله لَعِب، وآخره عُطْب.»

«أنت تعرف العربيَّة جيِّدًا»، قالت، «هل أنت يهوديّ عراقيّ؟»

«أنا أدرس الأدبين العربيّ والعبريّ.»

«هل التقيت حسقيل قصّاب؟ هذا أستاذ عراقيّ لهجته العبريَّة تشبه لهجتك، يلفظ العين والحاء مثل كلّ الشرقيين، وليس مثلنا. يجب أن أعرِّفك إليه.»

لا يدري آدم من أين تعرف كرمى هذا الحسقيل، لكن حاجبَيه أقفلا، ونظر إلى الأرض.

«هل غرتَ منه.»

«ولماذا أغار؟»

«معك حقّ، لا مبرِّر لسؤالي عن الغيرة. أنت قلت إنَّ الحبّ يشبه

الباطل، ومع ذلك سأخبرك بأنَّ خطيبته صديقتي، والدها صديق العائلة وهي تدرس هنا الفنون الجميلة، اسمها تمار، وهي تُقيم قرب منزلنا في عين هيام. والدها يكره حسقيل لأنَّه شرقيّ وشيوعيّ وفقير، ولا مستقبل له، لأنَّه مهووس بالأدب. ستذهب تمار معه إلى باريس في السنة المقبلة، حيث سيتزوَّجان. حسقيل شابّ ظريف يمتلك السخرية اليهوديَّة، يقول لتمار دائمًا إنَّ البولنديين لا يتمتَّعون بحسّ السخرية الكافي كي يكونوا يهودًا.»

حسقيل شرح له أنَّ كرمى ليست يهوديَّة، بل عربيَّة من حيفا، لكنَّها تدرس طبّ الأسنان في الجامعة العبريَّة في القدس، كما وجد له المَخرج الأكاديميّ الملائم، بحيث استطاع آدم أن يتخرَّج بماجستير في الأدب العبريّ، ويحقِّق أمنيته التي ما لبثت أن تلاشت. فبعد تخرُّجه من الجامعة وجد نفسه أستاذًا للغة العربيَّة في مدرسة عامَّة في غيتو وادي النسناس.

أخذه حسقيل في رحلتين: رحلة إلى اليهود ورحلة إلى العرب. معه اكتشف يهودًا يختلفون عن اليهود الذين التقاهم. فيهود حسقيل كانوا هامشيين ومهمَّشين في مجتمع أُسْقِطوا عليه بالطائرات التي صنعت الهجرة الجماعيَّة من العراق، وأُطلق عليها اسم «عمليَّة عزرا ونحميا» تيمُّنًا بنبيَّين يهوديَّين عادا من السَّبْيِ البابليّ إلى أرض الميعاد.

«نحن لم نكن سبايا في العراق»، قال حسقيل، «لكنَّنا نعيش اليوم السَّبْيَ بالمقلوب، أي نُسبى في أرض الميعاد. هذا هو موضوع روايتي.»

ومعه أيضًا اكتشف العرب، ووقع تحت غواية شاعر شابٍّ يشبه

ممثّلي السينما بقامته الطويلة، ووسامته وعينيه الرماديَّتين الخضراوين المختبئتين خلف عويناته، ورشاقة كلماته. يقول الشعر كأنَّه يغنّي، ويصرخ بأنّه عربيّ في زمن صار فيه الاسم العربيّ معادلًا للشتيمة.

في قاعة نادي كفرياسيف، حين ذهب مع حسقيل إلى أمسية شعريَّة نظَّمها الحزب الشيوعيّ، تبلبلت مشاعر آدم بينما كان الدم يغلي في شرايينه وهو يستمع إلى صرخة الشاعر التي تسجّل هويَّته، لكنَّه خاف من تلك الهويَّة، وأحسَّ بأن محمود درويش يأخذه إلى حافَّة الأسى. وعندما ركض حسقيل كي يسلِّم على الشاعر، رفض آدم الذهاب معه، وخرج من القاعة بحثًا عن الهواء. أحسَّ بأنَّه يختنق، فصرخة الشاعر «سجِّل أنا عربيّ»، تبدو أشبه بصرخة استغاثة. يومَها، لم يفهم آدم أنَّ الهويَّة كانت الصرخةَ الأولى، وأنَّ الشاعر سينتقل بعدها من الشعار إلى الاستعارة، حيث تصير فلسطين قصيدةً كبرى تحتضن الألم وتستنطق الصمتَ.

كان على آدم أن ينتظر أربعين عامًا كي يستمع إلى محاضرة مأمون في جامعة نيويورك، ويكتشف جماليَّات الاستعارة وموسيقى الصمت.

لكنَّه في ذلك الزمن كان لا يزال مهووسًا بفكرة أن يكون، واكتشف من خلال حسقيل كينونةً أُخرى اسمها السبيُ، فحسقيل كان يرى أنَّ حكاية اليهود العرب لها اسم واحد هو السبيُ، «نحن سبايا. ما معنى أن تجد نفسك عالقًا في المعبرا، في كوخ أو في خيمة، قدماك في الوحل ورأسك منحنٍ، لا تستطيع العودة، ولا تعرف كيف تبقى؟»

قال إنَّ روايته تبدأ برشِّ المبيدات على النازلين من طائرات «عزرا

ونحميا»، وتنتهي بموت الطفلة عند ولادتها، لأنَّ الطبيب رفض أن يدخل المعبرا بسبب الوحل والرِّجْس. قال إنَّها محاولة لكتابة حطام مجتمع كامل، وكيف حاول الناس أن يُعيدوا صناعة حياتهم الماضية لكنَّهم فشلوا، «عراقنا مات»، قال حسقيل، «ولم يعد إحياؤه ممكنًا. وحدهم الشيوعيُّون الذين صاروا فلسطينيِّين هنا، وجدوا هويَّتهم عبر إعادة صنعها على شكل التماهي مع الأقلِّيَّة الفلسطينيَّة المضطَهَدة».

«لكنَّهم في النهاية اندمجوا.»

«اندمجوا بعد استبدال ألسنتهم. قطعوا ألسنتنا، وزرعوا مكانَها ألسنةً جديدة. لم نعد نحن نحن.»

«من أنتم؟» سأل آدم.

«لا أدري، سأخبرك ما جرى لي. خرجنا من المعبرا بعدما وجد أخي الكبير زكريًّا وظيفةً في الهستدروت، وأنا بدأت العمل كصحافيّ في «الاتّحاد»، ثم بدأت محاولة الكتابة بالعبريَّة. انتقلت إلى «كول هعام»، وكان عليّ ترجمةُ روايتي إلى العبريَّة. وهنا، يا صديقي، مررت في صحراء الروح. كنت أقرأ كتاب طٰه حسين «الأيّام». هذا الكتاب كان مدرستي الأدبيَّة، قرأته مرّات لا تُحصى، ومعه اكتشفت جماليَّات اللغة. فاللغة تُضيء الروح. إنَّها العين التي رأى هذا الكاتب المصريّ الأعمى العالَمَ من خلالها. من حُمقي، مزَّقت الكتاب وقلت: خَلَصْ، لن أقرأ أو أتكلَّم بعد اليوم سوى العبريَّة. ودخلت في صراع وجوديّ عنيف. كنت أعيش نهاراتي بالعبريَّة، وأنام وأحلم بالعربيَّة. أحسست بأنَّني منفصم، كأنَّني صرت اثنين. ولم ينقذني سوى تمار. هل تعلم ماذا جرى؟ كانت تمار صديقتي. لا أستطيع أن أقول

إنَّني أحببتها. كنت، بعد نهاية خدمتي العسكريَّة في الجيش، أشعر بوحدة قاتلة عندما التقيتها. فتاة بولنديَّة شقراء، كانت عكسي في كلّ شيء. ابنة عائلة صهيونيَّة متحمِّسة، لا أعلم لماذا أحبَّتني، أمَّا أنا فأحببتها مثلما أحبّ سهيل إدريس المرأةَ الفرنسيَّة في روايته «الحيّ اللاتيني». أكيد أنت قرأت الرواية، وتعرف معنى ما أقول. أحببتها هكذا، ثم حين دخلت في صحراء اللغة، صرت أخاف من النوم وأخاف من اليقظة، فطلبت منها أن تنام الليل كلَّه في غرفتي. وكانت تمار هي مَن ساعدني في عمليَّة زرع اللسان المؤلمةِ التي أجريتها لنفسي، كنت، حين أشعر بأنَّ اللغة العربيَّة تهاجمني، أضمّها إلى صدري، أوقظها وأنام معها بلغتي الجديدة.

«لا، لست نادمًا، لأنَّني قمت بعمليَّة زرع اللسان هذه. الآن عدت إلى قراءة الأدب العربيّ. لم أعد أشعر بالانفصام، لكنَّني أشعر بأنَّني غريب هنا، تمامًا كما تشعر أنت.»

«ليس تمامًا»، أجاب آدم.

قال حسقيل إنَّه عربيٌّ مؤجَّل ويهوديٌّ غير مؤكَّد، «أمّا أنت، يا عزيزي آدم، فحكايتك أكثرُ صعوبة. أخبرني عن طفولتك.»

«لا طفولة لي»، قال آدم، «وأنا لا أحبّ الحنين إلى الطفولة.»

«لكنَّك تحبّ الأدب، والأدب طفولة العالم.»

«لا، يا صديقي»، أجاب آدم، «الأدب هو الحوار مع الموت. الأدب هو موت الطفولة، لذلك لم أحبَّ شاعر «سجِّل أنا عربيّ»، فقصيدته ملأى بالحنين، وأنا لا أمتلك شيئًا أحنّ إليه.»

«لكنَّ الشاعر قال الحقيقة.»

«وما معنى ذلك؟ الحقيقة لا تصنع فنًّا. الفنّ يصنع الحقيقة.»

«أين قرأت هذا الكلام؟»

«لا أدري، الأرجح أنَّني لم أقرأه. جاء هكذا ردًّا عليك.»

«أنت تكذب الآن. بس مش مهمّ. هذا كلام أعرج»، قال حسقيل، «صحيح، الحقيقة لا تصنع فنًّا، لكنَّ الفنّ أيضًا لا يصنع الحقيقة. يجب أن يكون الفنّ توأمَ الحقيقة. عندما تجتمع الحقيقة بالفنّ نصل إلى التعبير عن تجربتنا الإنسانيَّة.»

«ومتى يجتمعان؟» سأل آدم.

«يجب أن تسأل محمود درويش»، أجاب حسقيل.

مَن قتل مَن؟

- 1 -

كانت الخامسة صباحًا. شنين المطر يقرع النافذة والشابُّ المستلقي في سريره يتقلَّب في فراشه. فجأة قفز من السرير وهو يحاول فتح عينيه متلقِّيًا أسياخَ الضوء المنبعث من لمبة السقف التي نسي إطفاءها قبل أن يغفو محتضنًا مراثيَ أرميا. كان فمه ناشفًا، ويشعر بالاختناق والحَرّ على الرَّغم من برودة تشرين الأوَّل التي أتت هذا العام على إيقاع ثلاثة أيَّام من المطر الذي لم يتوقَّف.

فتح النافذة، فلسعته البرودةُ التي تشقّ بداياتِ الفجر الممتزجةَ بالظلام. أعدّ كوب شاي وجلس على حافَّة السرير وهو يشعر بانقباض شديد. كانت ليلة أمس مرهِقةً كليالي الخريف التي يكتظّ بها المطعم الصغير. أقفل في العاشرة ليلًا، وهو يشعر بحريق في مَعِدَته وتصلُّبٍ في عُنُقِه وارتجافةٍ في قدميه. فالوقوف خمسَ ساعات متواصلة أمام مقلاة يغلي فيها الزيتَ جعله يشعر بالدُّوار. عاد إلى البيت. شرب

كوب ماء واستلقى في السرير. فتح التوراة، وبدأ يقرأ في المراثي، ثم لا يعرف كيف غفا.

هل يعود هذا الشعور بالانزعاج إلى المنام الذي تراءى له؟

رأى منالَ تجلس في حاكورة البيت في اللِّدّ، تضع وجهها بين يديها وتبكي. لا يذكر ماذا جرى. فقط صورةُ المرأة الباكية التصقت بذاكرته. تذكَّر المنام وابتسم. في الليل حين يكون نائمًا يستطيع أن يتفلَّت من قراره بمقاطعة أمِّه معلنًا شوقَه إلى لمسة يدها. حاول أن يستعيد المنام فلم يستطع. بدت منالُ الباكيةُ كأنَّها صورةٌ فوتوغرافيَّةٌ جامدة بالأبيض والأسود. كانت حزينة وجميلة، وتبكي بصمت. رأسها كان منحنيًا بحيث لم يستطع أن يرى عينيها. لو سُئل آدم عن جمال العيون لأجاب بأنَّ منال تملك أجمل عينين في العالم. لم يكن جمال عينيها بسبب اتِّساعهما أو لونهما، وإنَّما كَمَنَ جمالهما في الظلال التي تشعّ من البؤبؤين وتمتدّ إلى بياض يصير أفقًا لامتناهيًا. أغمض آدم عينيه محاولًا استعادةَ المنام كي يطلب من أمّه رفع رأسها من أجل أن يرى عينيها، لكنَّه لم يستطع اختراق جدار الصورة الفوتوغرافيَّة الجامدة التي علقت في ذاكرته.

فكَّر في أنَّه يجب... لا... لن... ربّما... لِمَ لا يزورها؟

يذهب ويقرع الباب. سيفتح له عبد الله الأشهل ويسأله ماذا يريد. منالُ ستأتي مهرولةً حين تسمع صوت ابنها. عبد الله يغلق الباب في وجه الفتى، لكن آدم يرى العينين المظلَّلتين بالجمال من شقّ الباب. فكَّر في أنَّ هذا المشهد يستحقّ المغامرة، لكن لا، فهو أخذ على نفسه عهدًا بأن يقفل باب الماضي. لا، لن يذهب.

لم يرَ آدم العينين في المنام، لكنَّه رآهما في حلم اليقظة. شعر بآلام مَعِدَته. قرَّر أن يخرج، لكن إلى أين؟ المطر جعل الشوارع تغرق في الماء. حاول أن ينام من جديد. يبدو أنَّه غفا، لكن منالَ لم تأتِ إلى منامه. رأى نفسه يمشي مع أستاذه ياكوب في ستيلَّا مارس ساعةَ الغروب. رأى الأفق الأحمر وهو يحتضن البحر، وسمع صوت أستاذه وهو يقول إنَّ أجمل نصوص الأدب هي المراثي، لأنَّ الأدب ليس سوى كتابة على أضرحة القبور.

استيقظ فجأة كأنَّه سمع صوت ارتطام، هرع إلى النافذة. كان الشارع هادئًا وفارغًا. إنَّها السادسة والنصف صباحًا، سوف يُعدّ فنجان قهوة بالحليب. وضع الماء في الركوة، ووضع الركوة على النار. فتح البرّاد الصغير ليكتشف أنَّ قنّينة الحليب فارغة، فقرَّر أن يخرج لشراء الحليب. أطفأ النار ووقف متردِّدًا. المطر لا يزال ينهمر، فكَّر في أن يستغني عن الحليب ويُعدَّ قهوة تركيَّة. أحسّ بألم معدته. يجب أن يخرج. كانت أمّه تقول لزوجها، حين تصيبه نوبات الألم بسبب الكونياك الرخيص الذي يشربه، إنَّ الحليب هو أفضل دواء للمَعِدة لأنَّه يغلِّفها ويحميها. شعر بأنَّ معدته في حاجة إلى غلاف الحليب، فحسم أمره. لبس معطفه البنّي وخرج واضعًا يديه على رأسه اتِّقاءً من المطر.

في أطراف الهادار، حيث وجد شقَّة صغيرة ينام فيها بعيدًا عن ضجيج وادي النسناس، ركض آدم تحت المطر. كان يعرف أنَّ دكَّان شاوول، اليهوديِّ الأفغانيِّ، هو الوحيد الذي يفتح باكرًا. كانت الساعة تُشير إلى السادسة وخمسٍ وأربعين دقيقة. الشارع فارغ، لا يُسمع فيه سوى وقع قدمَي آدم وصوتِ المطر المنهمر بلا توقُّف. وبعد ثلاث دقائق من المشي السريع الذي يشبه الركض، وصل آدم إلى الدكَّان.

طلب من شاوول وهو يلهث قنّينة حليب.

«هل عرفت ماذا جرى في الأمس؟ المخرّبون في حيفا قتلوا عضو الكنيست العربيّ في منزله أمام زوجته وبناته، وفرُّوا. الآن سمعت على الراديو أنَّه تمَّ اعتقال أحد المخرِّبين في كنيسة مار إلياس، في الكرمل، لكن يبدو أنَّ أفراد العصابة التخريبيَّة لا يزالون هاربين، والبوليس يتخوَّف من عمليَّات تخريبيَّة جديدة».

«مَن؟ مَن؟» سأل آدم.

«عضو الكنيست العربيّ الذي يُقيم بعين هيام. لم أعد أذكر اسمه، إنَّه العمر، صار عمري 65 سنة، أخاف أن أستيقظ غدًا لأكتشف أنّي نسيت اسمي.»

«يا إلٰهي»، قال آدم.

«لا تَخَفْ. عرب يقتلون عربًا. هكذا يفعل العرب. يقتلون بعضهم بعضًا.»

ترك آدم الدكَّان وبدأ يهرول تحت المطر بحثًا عن جريدة «معاريف»، عندما اكتشف أنَّ شاوول يركض وراءه وهو يصرخ: «قنّينة الحليب، نسيت أن تأخذ القنّينة يا سيّدي، دفعت ثمنها وخرجت كأنَّك هارب.»

«شكرًا، شكرًا»، قال آدم، «أنا أبحث عن جريدة.»

«افتح الراديو، الراديو أفضل من جميع الصحف.»

أخذ آدم القنّينة، ومشى. توقَّف أمام بائع الصحف واشترى «معاريف» و«هآرتس» و«يديعوت أحرونوت». غطّى رأسه بالصحف، وعاد راكضًا إلى البيت.

جلس على حافَّة السرير. فتح أوَّلًا «معاريف» التي كانت مبلَّلة بالماء، وبدأ يقرأ. قال في نفسه: هذا خبر عاديّ، فدائيٌّ فلسطينيٌّ من أصل حيفاويٍّ يتسلَّل إلى البلد كي يقتل عميلًا إسرائيليًّا. نهض. أشعل النار وأعدّ قهوته بالحليب، وشرب على مهل، وبدأ يشعر بتحسُّن في مَعِدته. فتح الصحيفة من جديد، وقرأ بهدوء:

المانشيت: «جريمة اغتيال عضو كنيست عربيّ في حيفا». إلى جانب المانشيت صورةٌ للضحيَّة كُتب تحتها: الدكتور نبيل سمعان.

وجاء في تفاصيل الخبر أنَّه فجر أمس الأحد 18 تشرين الأوَّل 1967، سمعت السيِّدة إنعام سمعان قرعًا على الباب. استغربت الأمر، ثم نهضت متثاقلة بالنوم ومشت حافية إلى الباب وفتحته لتجد أمامها رجلًا حادَّ السُّمْرة، يلبَسُ سترة كاكيَّة ويحجب جزءًا من وجهه بكوفيَّة فلسطينيَّة، يصوِّب نحوها مسدَّسه ويأمرها برفع يديها إلى الأعلى وعدم إصدار أيّ صوت، أو الإتيان بأيٍّ حركة، لأنَّه سيطلق النار. ثم أمرها بأن تقوده إلى الغرفة حيث ينام زوجها. مشت أمامه إلى الغرفة، وهناك سمعته يصرخ باسم زوجها الدكتور نبيل. تقلَّب الرجل في فراشه، وعندما فتح عينيه، أطلق الرجل الأسمر ثلاث رصاصات على الطبيب، أصابت إحداها رأسَه الذي تفجَّر بالدم. ثم التفت إلى الزوجة وأمرها بلهجة حازمة بأن تركع على الأرض، وقال إنَّه قتل زوجها الكلب أمام عينيها كي يجعلها تتألَّم، وأنَّ دورها لتموت أتى الآن. قالت المرأة إنَّها أغلقت عينيها وبدأت تصلِّي في سرِّها، وفجأة دخلت ابنتها لُمى التي سمعت صوت إطلاق النار إلى الغرفة وهي تسأل ماذا يجري. في تلك اللحظة صرخ الرجل بالمسدَّس وشتمه لأنَّه رَوْكَبَ، ثم رأت الرجل يرمي المسدَّس فوق جثَّة زوجها القتيل ويفرّ هاربًا. رأت لمى الدم يغطِّي وجه

والدها فبدأت تعول، وغرقت المرأتان في النحيب، ثم جاءت سيَّارة الإسعاف ونقلت الرجل إلى المستشفى. وبعد ذلك جاء رجال الشرطة، وبدأ التحقيق. رفعوا البصمات، وطلبوا الانفراد بالزوجة، وسألوها أسئلة تفصيليَّة عن الحادث، ثم انفردوا بالابنة.

قالت الزوجة إنَّ ابنتها الثانية كرمى لم تكن في البيت لأنَّها تدرس في الجامعة العبريَّة، وتُقيم طوال أيّام الأسبوع بالقدس، ولا تأتي إلى حيفا إلَّا في عطلة نهاية الأسبوع.

اختتمت الصحيفة تقريرها برأي قائد شرطة حيفا، الذي قال إنَّه يعتقد أنَّنا أمام عمل إرهابيّ قامت به شبكة من المخرِّبين تسلَّلت إلى حيفا عبر الحدود اللبنانيَّة.

أمَّا صحيفة «يديعوت»، فأوردت تفصيلات إضافيَّة، إذ نسبت إلى مصدر في الشرطة قوله إنَّه يعتقد أنَّ العمليَّة جاءت نتيجة تخطيط مُحْكَم، وإنَّ المجموعة المنفِّذة كانت تتألَّف من ثلاثة رجال: المنفِّذِ الملثَّم بالكوفيَّة، واثنين في الخارج أمَّنا له طريق الهروب. وأضافت الصحيفة أنَّ الأوامر صدرت إلى حرس الحدود بتشديد الرقابة على الحدود مع لبنان.

صحيفة «هآرتس» كتبت أنَّ وزير الدفاع موشيه دايان زار منزل الضحيَّة وقدَّم واجب العزاء إلى الزوجة، وأضافت أنَّ دايان كانت تربطه صداقة خاصَّة بالمتوفَّى، لأنَّهما كانا يشتركان في هواية البحث عن الآثار، غير أنَّ وزير الدفاع رفض الإدلاء بأيِّ تصريح، ولم يقل للصحافيين سوى أنَّه ينتظر نتائج التحقيق، وأنَّه حزين لأنَّه فقد صديقًا عزيزًا.

كان آدم قد التقى كرمى صباح يوم السبت، أي قبل الجريمة بيوم واحد، في عيادة والدها، وبعدما انتهت من معالجة ضرسه ذهبا إلى «مقهى كريم» في شارع عبَّاس حيث شربا القهوة.

«بتعرفي، أنا بالأوّل كنت مفتكر إنَّك يهوديَّة»، قال.

«عزا، عزا، وأنا كمان كان رأيي إنَّك يهوديّ عراقيّ.»

ضحكا كثيرًا. روت له عن تجربتها مع الأسنان، وقالت إنَّ العمل على الأفواه المفتوحة تقطع قابليَّتها على الأكل وعلى كلّ شيء.

«بعتذر، حقَّك عليّ.»

«إنت غير إشي.»

واتَّفقا على أن يأتي لزيارتها في القدس. «هل زرتَ القدس القديمة؟ إشي ساحر والله.»

«قصدك القدس العربيَّة؟»

«كلّ البلاد هون عربيَّة»، قالت.

«معاك حقّ.»

ووعدها بأن يقنع أبا غسَّان بمنحه إجازةً يومَ الخميس، حيث لا محاضرات في الجامعة، وهكذا يصل ظهرًا، ويُمْضيا اليوم، معًا في القدس.

- 2 -

لم يذهب آدم إلى بيت كرمى لتعزيتها بمقتل والدها. فكَّر في أن لا مكان له. سيكون هناك حشد كبير من الزعماء، وهو يشعر بالقشعريرة حين يسمع أسماءهم، فكيف يستطيع أن يلتقيهم؟ سيؤجِّل الزيارة عدَّةَ أيَّام.

هل حزن آدم على موت الرجل؟

كلمة حزن تبدو غير ملائمة، لكنَّه شعر بخوف الفتاة والأسى الذي لا بدَّ من أن يكون قد ارتسم على وجهها النحيل وعينيها الواسعتين اللتين تخبِّئان دهشةً دائمة، وكثيرًا من الأسئلة.

عندما فتح فمه في عيادة الجامعة، ورأى شعرها الأسود الطويل ملفوفًا بقبَّعة الأطبَّاء البيضاء، أراد أن يطلب منها أن تنزع القبَّعة كي يتهدّل شعرها فوق وجهه. امتزج هذا الشعور المتخيَّل بألم فكِّه الأسفل. توقَّفت الطبيبة عن حفر ضرسه، وقالت إنَّه يجب أن تعطيه إبرة بنج، «عليّ أن أحفر عميقًا ولا أريدك أن تتألَّم.»

عندها قال آدم عبارة «آخ»، فابتسمت الطبيبة. أعدَّت إبرة البنج وطلبت منه أن يفتح فمه من جديد ولا يخاف، لأنَّه سيشعر بوخز الإبرة ثم يزول الألم كلّه. رأى يديها الصغيرتين الناعمتين تحملان إبرة البنج. اقترب وجهها منه. التفت كي يتأمَّل شفتيها الممتلئتين، فصرخت به ألَّا يحرِّك رأسه. أغمض عينيه وتلقَّى الألم الذي سرعان ما تحوَّل إلى شعور بأنَّ فكَّه الأسفل صار قطعة من الإسفنج. أغمض عينيه واستسلم لصوت آلة الحفر التي كانت تملأ رأسه بالضجيج.

«انتهينا اليوم»، قالت. «تحتاج إلى جلسة ثانية كي نرصرص الضرس. موعدنا هنا، يوم الخميس بعد أسبوعين.»

«ألا نستطيع إكمال العلاج في حيفا؟»

«لا توجد كلِّيَّة طبّ أسنان في تخنيون حيفا. لكن بلى، إذا شئت تستطيع أن تأتي إلى عيادة أبي في الهادار. لا أعرف، أبي لا يثق بي، لكنْ، لمَ لا؟ سأخبرك إذا كان هذا ممكنًا في عطلة نهاية الأسبوع.»

«أين نلتقي؟»

أعطته رقم هاتفها في البيت، وطلبت منه أن يتَّصل مساء الجمعة.

اتَّصل بها مساء الجمعة، فسمع صوت رجل يجيب بالعبريَّة، قبل أن يسمع صوتها وهي توشوش.

«بعدني ما طلبت منه الإذن بفتح العيادة يوم السبت، احكيني بكرة الصبح.»

«منقدر نلتقي اليوم؟»

«اليوم!»

«آه، أنا بخلص شغل الساعة عشرة بالليل. مرِّي عند أبو غسَّان

بوادي النسناس نحو الساعة تسعة ونصّ، بعشّيك فلافل وحمّص، وبعدين منروح مناخد كاس.»

«تسعة ونصّ؟ أبوي هون، بعرفش.»

«على كلّ حال، أنا رحّ أكون هناك، وناطرك.»

كان آدم متأكّدًا من أنَّها لن تأتي، فصوتها الخافت المرتعش جعله يصرف النظر عن فكرة الانتظار، وينكبّ على عمله، وينسى الموعد.

وفي العاشرة إلَّا خمس دقائق، وبينما بدأ في تنظيف المحلّ استعدادًا للإقفال، رآها قادمة. كانت تلبَس بنطال جينز أزرقَ ضيّقًا يُظهر رشاقة قدميها وجمال فخذيها، وفوقه بلوزة صفراء يتلألأ خلفها نهداها السخيّان، وكان شعرها ينسدل على كتفيها، وقد وضعت لونًا زهريًّا فاتحًا على شفتيها.

«أنتِ!»

«بدكاش ياني آجي؟ عملت طوشة بالبيت عشانك.»

«أهلًا، أهلًا، بس أنا مش مصدِّق عيوني. يلَّا دقيقة بخلص ونمشي.»

«وين نروّح؟ إنت عزمتني على فلافل وحمّص، بدِّي أدوق أكلك بالأوّل.»

أطفأ آدم الضوء الخارجيَّ الذي يشير إلى أنَّ المطعم لا يزال مفتوحًا. أعدّ صحنَي حمّص، وقلى عددًا من أقراص الفلافل، وطلب منها مساعدته في إعداد السَّلَطة.

«أكلك زاكي، بس معقول هيك بتعشّيني بلا كاس؟»

انتهيا من الطعام. أقفل المحلّ بعد أن رتَّبه بشكل سريع، ومشيا صعودًا إلى الهادار، «وين نروح؟» سألته. «زيّ ما بدّك»، قال.

قالت إنَّها تعرف بارًا صغيرًا في الكرمل.

طلبا كأسَي مرغريتا. رفعا كأسيهما، وشربا نخب الحياة، ثم لحس آدم حبيبات الملح التي غطَّت أطراف كأسه.

«إيش عم بتسوّي؟»

«نكهة الملح بالتاكيلا ساحرة.»

«بتحبّ الملح؟»

«بحبّ النكهة، بتشبه نكهة البوس.»

«إنت أزعر.»

«مالك ساكت؟»

انحنى كي يقبّلها على شفتيها، فأشاحت بوجهها.

عندما يتذكَّر آدم تلك الليلةَ يقول إنَّ الحوار كان جميلًا، لكنَّه لا يستطيع استعادة شيء منه. فالحوار كان نتفًا من الأحاديث التي ما إنَّ تبدأ حتى تنعطف. كانا يحاولان اكتشاف شيفرة الكلام، وكان الكلام ينزلق ويهرب قبل أن يُستعاد في لعبة مليئة بالالتباسات. سيُطلق عليها آدم بعد ذلك اسمَ سوء تفاهم الحبّ.

في ليلة المرغريتا، لم يفكّر آدم سوى في شيء واحد: كيف يستطيع تقبيل كرمى على شفتيها المملَّحتين؟

«بإيش عم بتفكّر؟» سألت كرمى.

«عم فكّر ببكرا. ما قلتيلي، وافق أبوك؟»

«آه، صحيح وافق بصعوبة. أبوي تقاعد، بس ترك العيادة معاه عشاني، وهو ما بيفتحها إلّا ليعالج أفراد العائلة. بسّ كلّ يوم بطلّ عليها خمس دقائق الصبح. انشالله ما يجي معي على العيادة، حتى أعرف أشتغل فيك. مرّ بكرا على الساعة 11 الصبح على العيادة.»

نظرت إلى ساعتها وقالت إنّها يجب أن تمضي، «مش رح أعرف كيف بدّي أسوق، حاسّة إنّي سكرت.»

«وأنا كمان.»

«إنت قلتلي إنّك بتسكرش من الخمر.»

«ومين قال إنّي سكرت من الخمر؟»

مدّ يده فأمسكت بها، «يلّا لازم نمشي، يا ويلي تأخّرت كتير، إسّا رح آكل بهدلة.»

في الحادية عشرة من صباح السبت، قرع آدم على باب العيادة، ففتح له رجل نحيل، قصير القامة، امتلأ رأسه بالشيب، وقاده إلى حجرة العيادة البيضاء التي كان كلّ شيء فيها يلتمع، وكانت كرمى في انتظاره وهي تلبس المعطف الأبيض. أشارت الطبيبة إلى الكرسيّ حيث جلس آدم. وضعت على صدره منشفةً صغيرة ربطتها في عنقه، وطلبت منه أن يفتح فمه. تقدّم الطبيب ممسكًا بملعقة وفحص الضرس بعناية.

«شغل ممتاز، تابعي.»

وقف الطبيب إلى جانب ابنته يراقب عملها. لاحظ آدم أنّ يدَي الطبيبة الصغيرتين كانتا ترتجفان. حين يتنحنح الطبيب، تتوقّف كرمى عن العمل، تستمع إلى أوامره التي كانت تأتي بصوت صارم وناشف،

ثـم تـتـابـع. وبـعـدمـا انـتـهـت مـن الـحـفـر، وبـدأت فـي إعـداد حـشـوة الرصاص، رنّ الهاتف في العيادة، وسمع آدم الطبيب يقول بالعبريَّة إنَّه قادم فورًا.

قال الطبيب لابنته إنَّه مضطر إلى المغادرة الآن، وطلب منها أن تنظِّف المكان بعد أن تنتهي من عملها وتُعيده لامعًا، «ناطرينك على الغدا الساعة واحدة ونصّ»، قال وهو يخرج ويغلق الباب وراءه.

في تلك اللحظة، بدا الانفراج على وجه كرمى، وتوقَّفت يداها عن الارتجاف.

«أوف، شو هالزلمة المتسلِّط. اليوم كان لطيف قدَّامَك. في العادة برجّفنا أنا وأمّي وأختي قَصَبْ. وإمبارح لو ما ترجّته إمِّي ما كان رح يقبل إنِّي أفتح العيادة عشانك.»

عادت الابتسامة إلى وجه الطبيبة. وعندما انتهت من عملها، ساعدها آدم في تنظيف المكان، ثم اقترب منها كي يقبِّلها.

«ممنوع الطبيب يبوس المريض»، قالت، ودعته إلى فنجان قهوة في مقهًى مجاور.

- 3 -

حفلت نشرة الأخبار في الإذاعة الإسرائيليَّة بتطوُّرات جديدة، إذ تمَّ القبض، في ساعة متأخِّرة من الليل، على المخرِّب الذي كان مختبئًا في كنيسة مار إلياس في ستيلّا مارس. وقد أشارت الإذاعة إلى الحرفين الأوَّلين من اسمه ع. أ.، وتعمَّد المذيع أن يركِّز في حرف العين الذي يُلفَظ باللهجة الأشكينازيَّة السائدة في إسرائيل كأنَّه ألف. وجاء في الخبر أنَّ الكاهن حنانيا مرّاش، خادم كنيسة مار إلياس، اتَّصل برجال الشرطة، بعدما شكّ في رجل دخل الكنيسة وبقي فيها طوال النهار، وقد بدا من تصرُّفاته أنَّه ليس مسيحيًا ولا يفقه شيئًا في الطقوس الكنسيَّة. وفي المساء، أقفل الكاهن باب الكنيسة، فخرج الرجل، لكنَّه دار حول المكان ليعود ويجلس أمام الباب.

جاء اتِّصال الكاهن ليؤكِّد أحد افتراضات الشرطة بأنَّ الرجل هرب من وادي الجِمال سيرًا على قدمَيه عبر المنطقة غير الآهلة التي

تصل عين هيام (وهو الاسم العبريّ البديل لوادي الجِمال)، حيث يُقيم الطبيب، بستيلّا مارس.

أقفل آدم الراديو وذهب إلى الجامعة ليكتشف أنَّ الطالبات والطلّاب العرب، في أغلبيَّتهم، لم يأتوا، وأحسَّ بأنَّ المناخ مشحون بالتوتُّر، فعاد إلى منزله.

ومنذ تلك اللحظة بدأ آدم يشعر بالخوف، وبدأت أخبار الجريمة تتَّخذ منحًى جديدًا، وأحسَّ بأنَّه سقط في فخّ.

شهادة الكاهن

صباح الثلاثاء 21 تشرين الأوَّل 1967، نشرت الصحف شهادة الكاهن حنانيا مرّاش، وهو كاهن يتبع مطرانيَّة عكَّا وحيفا والناصرة وسائر الجليل لطائفة الروم الملكيين الكاثوليك التي يترأَّسها المطران جورج حكيم. الكاهن راهب مخلِّصي، أصوله حلبيَّة، التحق بدير المخلِّص في قرية جون الكائنة في جبل لبنان الجنوبيّ في منطقة الشوف، وقد استدعاه المطران حكيم للخدمة في حيفا، لأنَّ المطران أعجب بذكائه عندما كان أستاذه في الكلِّيَّة الإكليريكيَّة في دمشق.

قال الكاهن إنَّه كان داخل الكنيسة يصلِّي صلاة السَّحَر، عندما سمع جَلبةً على الباب، فالتفت ليرى رجلًا حاسر الرأس يدخل الكنيسة، ويسجد على الأرض، ويقيم ما يشبه صلاة إسلاميَّة. «افترضت أنَّه أحد إخواننا المسلمين، جاء ليُوفي نذرًا للخضر (يخلط المسلمون بين مار إلياس ومار جرجس، فيطلقون عليهما اسم الخضر، بينما نحن نميِّز بينهما، فالخضر هو القدِّيس الشهيد جاورجيوس، أمّا النبيّ إلياس فحكايته مختلفة، لكن هذا ليس مهمًّا، المهمّ أن يكون

القلب نقيًّا). لم أتكلَّم مع الرجل الذي أسند رأسه إلى حافَّة المقعد الخشبيّ الذي أمامه، وبدا بائسًا. فكَّرت في أن أذهب إليه وأتكلَّم معه، لكنَّني آثرت أن أتركه مع نفسه ومع تأمُّلاته. في الواحدة بعد الظهر، خرج الرجل من الكنيسة وجلس على الحافَّة الحجريَّة قرب الباب. سألته إذا كان يريد شيئًا، فأجاب بأنَّه يريد قطعة خبز. جلبت له رغيف خبز وقطعة جبنة بيضاء وكبّاية شاي وإبريق ماء، وتركته.

«عندما عدت في المساء من أجل إقامة صلاة الغروب، كان الرجل لا يزال جالسًا في مكانه. أقمت الصلاة التي حضرها نحو عشرين رجلًا وامرأةً من أفراد الرعيَّة. لاحظت أنَّه لم يقف عندما كنت أبخِّر، فقلت إنَّ على الجميع الوقوفَ، فوقف وظلّ كذلك حتى نهاية الصلاة. وعندما عدت في المساء من أجل إقفال باب الكنيسة، طلبت منه الخروج، فخرج. دار حول المكان ثم عاد ليجلس على الحافَّة الحجريَّة. في تلك اللحظة شككتُ في أمره، وخطر لي في البداية، أنَّه يريد سرقة الكنيسة في الليل، فبلَّغت الشرطة التي جاءت إلى المكان وقامت باعتقاله، من دون أن تصدر منه أيُّ مقاومة. وعندما نُشرت المعلومات عن كونه المخرِّبَ الذي قتل الدكتور سمعان، شكرت الله الذي ألهمني استدعاء الشرطة. فنحن في الكنيسة دعاة سلام، وهذه توجيهات سيِّدنا المطران جورج حكيم، بأن نكون قدوة للمواطنين في إطاعة السلطات.»

اعترافات المتَّهَم

نشرت صحيفة «معاريف»، في عدد الأربعاء 22 تشرين الأوَّل، مقاطعَ من محضر التحقيق الأوَّليّ مع المتَّهَم. فالرجل قال إنَّه يُدعى

عبد الله الأشهل، من مواليد حيفا في سنة 1925، وكان يسكن في الماضي في وادي الصليب حيث كان يملك دكّانًا لبيع الأزرار، وأنّه ترك البلد في سنة 1948 على متن باخرة تابعة لشركة غرغور أبحرت من ميناء حيفا يوم 24 نيسان 1948 إلى عكّا، ومن هناك انتقل بسيّارة أجرة إلى لبنان في أواسط شهر أيّار من السنة نفسها، لكنّه لا يحمل أيَّ أوراق ثبوتيّة، الأمر الذي جعل المحقِّق يشكّ في هويّته. ادّعى المخرِّب أنّه تسلَّل إلى البلد منذ عشرة أعوام، وأنّه أقام بكوخ قرب الكرمل، واعترف بأنّه قتل الدكتور نبيل سمعان. وقال المتّهم إنّه نفّذ العمليّة بمفرده.

سرّ الراهبة

في اليوم التالي، نشرت الصحف بيانًا صادرًا عن المطران حكيم، جاء فيه:

«أودّ في البداية تقديم واجب العزاء إلى زوجة الضحيّة وابنتَيها وآل سمعان. تغمّد الله الفقيد برحمته الواسعة. وأريد ثانيًا أن أهنِّئ ابننا الروحيّ الأرشمندريت حنانيا، لأنّه قام بواجبه الدينيّ والوطنيّ، وساعد السلطات في القبض على المجرم تمهيدًا لإحالته على القضاء المختصّ.

«وأريد في النهاية أن أوضح أنّ كلّ ما قيل عن الراهبة المخلِّصيّة مريم، لا أساس له من الصحّة. فمريم هذه ليست سوى راهبة مبتدئة، وفي اللحظة التي حامت حولها شبهات علاقتها بالقاتل، أصدرت أوامري لرئيسة الدير الأمّ بربارة بالسماح للمحقِّقين بدخول الدير وتفتيشه. كما أصدرت الأمر بقطعها من شركة دير المخلِّص، وهي الآن في أيدي القضاء الذي نثق بعدالته.

«إنّني أدعو جميع أبناء الرعيَّة إلى الصلاة لراحة نَفْس الدكتور نبيل سمعان، كما أدعوهم إلى عدم الأخذ بالشائعات، فلقد عُرفت كنيستنا، بإكليريكيّيها وعلمانيّيها، بإخلاصها للدولة والتزامها القانون.»

اعترافات الراهبة

بيان المطران حكيم زاد في سيل الشائعات التي انتشرت في حيفا والجليل والمثلَّث، فسرَّب مصدر أمني موثوق خبرًا إلى صحيفة «معاريف»، تحدَّث فيه عن تفاصيل جديدة من محضر التحقيق مع المتَّهَم. فالمتَّهم كان متزوّجًا بامرأة تُدعى منال عاطف سليمان، تعود في أصولها إلى قرية عيلبون، لكنَّها كانت متزوِّجة قبل ذلك وتُقيم مع زوجها الأوَّل حسن دنُّون في اللدِّ. الزوج الأوَّل مات خلال حرب «الاستقلال»، بعدها نزحت إلى حيفا حيث تزوَّجت القاتل، وأقامت معه تسعة أعوام في كوخه الكائن في سفح جبل الكرمل، لكنَّ المخرِّب طلَّقها. قالت الراهبة، في إفادتها، إنَّ المجرم كان سكِّيرًا، وكان يضربها ويعنِّفها جسديًّا، وإنَّها هي مَن طلبت الطلاق، كي تلبِّي دعوة مريم العذراء إلى الالتحاق بسلك الرهبنة.

الراهبة لا تزال معتقلة رهن التحقيق، بعدما أمرها المحقِّق بخلع لباسها الرهبانيّ، تنفيذًا للقرار الصادر عن مطران الروم الملكيِّين الكاثوليك بطردها من الرهبنة.

راهبة المسدَّس

ادّعى المتَّهم أنَّه لم يُهرِّب سلاحه من لبنان. قال إنَّه عثر على المسدَّس تحت الفرشة التي كان ينام عليها، وأنَّه اكتشف أنَّ المسدَّس كان

في حيازة زوجته، وأنَّه سألها عن مصدره فأجابت بأنَّها ورثته عن زوجها الأوَّل حسن دنُّون. والمذكور كان عضوًا في عصابة حسن سلامة التابعة للمفتي، وقد قُتل في عمليَّة داني لتحرير اللدّ والرملة.

وعندما سُئلت الراهبة عن الموضوع، أنكرت في البداية ملكيَّتها المسدَّس. وبعد تحقيق مطوَّل معها، اعترفت بأنَّه كان ملكًا لزوجها المتوفَّى. وقالت إنَّ عبد الله الأشهل ضربها كثيرًا كي تعترف بمصدر المسدَّس، «لم يكن مسدَّسًا للاستخدام»، قالت، «هذا ذكرى من المرحوم، احتفظت به لأنَّ عليه رائحةَ دمه ودماء رفاقه.» وعند التوسُّع في التحقيق معها، اعترفت بأنَّ زوجها الأوَّل تلقَّى المسدَّس هديَّة من حسن سلامة، عندما كان الأخير على فراش الموت. وقالت إنَّ عبد الله تغيَّر كثيرًا منذ لحظة استيلائه على المسدَّس، وإنَّها بدأت تخاف منه، «صار شاردًا طوال الوقت، يختفي أيّامًا ثم يعود، يسكر ويضربني، ولا همَّ له سوى تنظيف المسدَّس وتزييته. خفت أن يقتلني، فطلبت منه الطلاق، وهدَّدته بأنَّه إذا لم يطلِّقني فسأشكوه إلى الشرطة، وانتهى الأمر بأن طلَّقني، فذهبت للإقامة بمنزل أخي موريس في عيلبون. وبعد أسبوعين لبَّيت دعوة سيِّدتنا والدة الإله مريم والتحقت بالدير.»

المحامي عكيفا سلمون

نشرت صحيفة «هآرتس» في عددها الأسبوعيّ، صباح الجمعة 26 تشرين الأوَّل 1967، حوارًا مع المحامي عكيفا سلمون، تحدَّث فيه عن صداقته للمغدور.

المحامي سلمون هو أحد كبار المحامين الإسرائيليِّين، يمتلك

مكتبًا في شارع حسن شكري، وهو محامي مطرانيَّة الروم الكاثوليك، كما أنَّه كان في الماضي مستشارًا قضائيًا للحكومة.

قال المحامي إنَّ الدكتور سمعان لم يكن فقط عضوَ كنيست، بل كان مثال المواطن الصالح. «عمل معنا قبل حرب «الاستقلال»، وفي أثنائها»، وإنَّه يعتقد أنَّ اغتيال الطبيب جاء بتعليمات من أوكار منظَّمة التحرير التخريبيّة في بيروت، وإنَّ الجريمة كشفت مسألة بالغة الخطورة، هي وجود خلايا تخريبيَّة نائمة في البلد يجب اجتثاثها، وهي تتحرَّك اليوم بعد حرب الأيَّام الستَّة، لأنَّ المخرِّبين لهم هدف واحد، هو تدمير الدولة اليهوديَّة.

قال المحامي إنَّه يفتخر بنجاحه في منع تهجير الدكتور سمعان من الڤيلَّا التي يملكها في وادي الجِمال (عين هيام)، وتشرف على حيكر هيام الذي كان يُسمَّى شاطئ بوتاجي. وأضاف أنَّ قيام الحاكم العسكريّ بتجميع عرب حيفا في حيٍّ واحد كان صائبًا، لكن لم يكن من المقبول أن نكافئ صديقًا خدم الدولة عبر إجباره على ترك منزله، وأنَّه تدخَّل شخصيًّا مع بن ـ غوريون الذي أصدر أوامره ببقاء الدكتور سمعان في منزله وعدم الاقتراب من عيادته في الهدار.

المأتم

وفي اليوم نفسه، الجمعة 26 تشرين الأوَّل، نشرت الصحف خبر المأتم الحاشد الذي أُقيم للضحيَّة، وأبرزت ترؤُّس المطران حكيم صلاةَ الجنّاز، ونشرت مقاطع من خطابه التأبينيّ الذي تحدَّث فيه عن مناقب الفقيد وعن خدماته للناس وحَدْبه على الفقراء، ودعا إلى المحبَّة، مطالبًا بإنزال العقاب بالجاني.

وقد لوحظ حضور كثيف لرجال الدولة، وعلى رأسهم وزير الدفاع موشيه دايان، وعددٌ كبير من أعضاء الكنيست، وشخصيّات من الوسط العربيّ.

وشهد المأتم لحظة حزينة حين أُغميَ على أرملة الفقيد وسط الصلاة، الأمر الذي استدعى نقلها إلى المستشفى، وقد أُفدنا بأنَّ السيِّدة إنعام في صحَّة جيِّدة الآن، وأنَّها خرجت من المستشفى، لكنَّها مُصابة باكتئاب شديد. وبناءً عليه، أصدرت العائلة بيانًا أعلنت فيه أنَّ العزاء سيكون في منزل العائلة للرجال والنساء، لكنَّه سيقتصر على يوم واحد هو السبت 27 تشرين الأوَّل، بين الحادية عشرة قبل الظهر والخامسة مساء.

رئيسة دير راهبات المخلّص

رفضت رئيسة دير راهبات المخلّص في الناصرة الإدلاء بأيٍّ تصريح لمراسل جريدة «معاريف»، نعيم غطّاس، الذي كتب تقريرًا صحافيًّا عن الدير، واستطاع استدراج إحدى الراهبات، الأخت إليصابات، إلى الكلام. وحين سألها عن فضيحة تورُّط إحدى الراهبات في شبكة تخريبيَّة، أجابت بأنَّها لا تعرف شيئًا عن المسألة، وكلّ ما تعرفه هو أنَّ الراهبة المبتدئة مريم، كانت مثالًا للطاعة والتواضع، وأنَّها لا تصدِّق كلّ ما قيل وكُتب، ثم أجهشت في البكاء. وعندما سأل المراسل الرئيسة الأمّ بربارة، قالت إنَّ لا وجود لراهبة تحمل الاسم المذكور في الدير، «منال لم تكن منّا، وأنا أخطأت في قبولها في سلك المبتدئات. كانت مجرَّد خادمة لا أكثر. وفي كلّ حال، فقد

تمّ طردها من الدير، وهي لم يعد لها أيّ علاقة بالرهبنة.»

وعندما سألها المراسل إذا شكّت فيها أو رأت منها أيّ تصرُّف يشير إلى عملها مع شبكة تخريبيَّة، قالت الرئيسة إنَّها غير مخوَّلة بالإدلاء بأيِّ تصريح، «وإنَّ المسألة الآن هي بين يدَي سيِّدنا المطران، تستطيع أن تسأله إذا أردت، فهو الوحيد المخوَّل بالكلام.» ثم طلبت من المراسل عدمَ نشر كلامها، أو حتى الإشارة إليه.

تشكيك

صباح الثلثاء 30 تشرين الأوَّل، نشرت صحيفة «هآرتس» تعليقًا للصحافي دان ياكوف، أشار فيه إلى أنَّه يمتلك معلومات لا تزال غير مؤكَّدة، تُشير إلى أنَّ الجريمة ذات طابع ثأريّ شخصيّ، ولا علاقة لها بالأعمال التخريبيَّة.

اعترافات مذهلة للقاتل

في 2 تشرين الثاني، نشرت صحيفة «يديعوت أحرونوت» تحقيقًا لصحافيّ شابّ يدعى رافي تمُّوز، جاء فيه أنَّه يمتلك معطيات كفيلة بقلب مسار التحقيق رأسًا على عقب، وأشار إلى اعترافات للمتَّهم ادَّعى فيها أنَّه عاد إلى البلاد من مخيَّم برج البراجنة في بيروت، بحثًا عن زوجته التي فرَّت مع ابنتَيه، ليجد أنَّ زوجته سهيلة (هذا هو الاسم الذي أطلقه على السيِّدة إنعام زوجة المغدور الدكتور نبيل سمعان)، متزوِّجة برجل آخر، وقال إنَّه أراد أن يأخذ بثأره. وعندما وُوجه المتَّهم بأقوال سابقة له عن أنَّه تسلَّل إلى البلد منذ عشرة أعوام، فلماذا انتظر هذا الوقت الطويل كلّه كي يرتكب جريمته، لم يجد ما يقوله.

الزوجة تنفي

نفت السيّدة إنعام أرملةُ المرحوم نبيل سمعان أن تكون على أيّ معرفة بالقاتل. وحين سُئلت عن ادّعاء الأخير بأنَّها كانت زوجته قالت إنَّ هذه مجرَّد ادّعاءات كاذبة وهلوسات، وأكَّدت أنَّ لها ثقة كاملة بالقضاء.

المطران حكيم يغادر البلاد

في 5 تشرين الثاني 1967، توفِّي البطريرك مكسيموس الرابع صايغ، بطريرك طائفة الروم الملكيِّين الكاثوليك في سورية ولبنان والأراضي المقدَّسة، وذكرت الصحف الإسرائيليَّة النبأ، وأشارت إلى أنَّ المطران جورج حكيم يستعدّ لمغادرة البلد للمشاركة في مأتم البطريرك. وأوردت صحيفة «معاريف» معلومات خاصَّة تُشير إلى أنَّ المطران حكيم هو الشخص المرجَّح لخلافة البطريرك، وأنَّ علاقاته الخاصَّة بالكرسيّ الرسوليّ في الفاتيكان تجعله المرشَّح الأوفر حظًّا لهذا المنصب.

- 4 -

حين يتذكَّر آدم تلك الأيَّام، يُصاب بتنمُّل في عُنُقه، وشللٍ في قدميه.

تابع الأخبار يوميًّا بحلق ناشف لا يستطيع ماءُ العالم كلُّه أن يبلِّله. لم يكن يدري ماذا عليه أن يفعل: هل يسلِّم نفسه؟ هل يختبئ؟ أم يبقى في مكانه في انتظار الاعتقال؟

تغيَّب أسبوعًا كاملًا عن محاضرات الجامعة، لكنَّه عاد إلى ممارسة حياته بشكل طبيعيّ. صحيح أنَّه لم يتوقَّف عن العمل في مطعم أبي غسّان، لكنَّه كان يعمل بعقل شارد، ويدَين يشعر بأنَّه لم يعد يستطيع التحكُّم فيهما.

منال أمّه في السجن، وهو لن يستطيع إنقاذها، بل هو لا يجرؤ على زيارتها. لماذا اختارت أن تهرب إلى الدير؟ هل أصابتها نوبة إيمان مفاجئة فعادت إلى دين آبائها وأجدادها؟ وماذا ستفعل بذي النون المصريّ؟ هل ستجد لشفيعها وشفيع ابنها مكانًا في دير تغطّي حيطانَه

الأيقوناتُ وصُوَرُ القدّيسين؟ هل ستصلّي باللغة المسيحيَّة التي تعلّمتها في طفولتها، أم بلغة المتصوِّفة المسلمين التي اختارتها كي تجعل ابنها الوحيد يشعر بالانتماء إلى جَدّ عائلة أبيه؟ هذا الجدّ الذي أقام له أهل اللِّدّ مقامًا، وصار المقام مزارًا.

هل اشتركت في الجريمة؟ أم أنَّ عبد الله، الذي أذلَّها وأهانها، يريد اليوم أن يصير بطلًا، فجرجر منال، التي تفترس الطفولةُ عينيها، إلى السجن؟

لماذا تخلَّت منال عن ابنها الوحيد؟ هل صحيح أنَّه كان يريد الهرب منها ومن مناخ السذاجة الذي يشبه البراءة التي غلّفت بها حياتها وحياةَ ابنها؟ أم الصحيح أنَّها طردته من غير أن تقول، لكنَّه فهم أنَّ عليه أن يَمْضي ولا يعود؟

ما هذه الحكاية؟ هل عبد الله الأشهل فدائيّ؟ هنا يسمُّون الفدائيِّين مخرِّبين؟ لكنَّ الأسماء لا علاقة لها بالمسمّيات في هذا البلد. هل يمكن أن يكون ما رآه، من نمط حياة هذا الرجل، مجرَّدَ غطاء؟ هل يمكن أن يكون الرجل ممثِّلًا إلى هذه الدرجة المحترفة؟

بدت الحكاية بالنسبة إلى آدم أشبهَ بخرافة لا تصدَّق.

لماذا لم تعطه أمّه مسدَّس والده عندما غادر البيت؟ من المؤكَّد أنَّه كان سيرميه في البحر ويتخلَّص منه. لكن، لماذا احتفظت به؟

هل يمكن تصديق هذه الأخبار العجيبة التي انتشرت في وسائل الإعلام عن راهبة تشارك في الأعمال التخريبيَّة؟

هل يمكن أن تكون منالُ قد احتفظت بالمسدَّس ولم تعطه لابنها لأنَّ عبد الله أقنعها بالانضمام إلى خليَّته الإرهابيَّة؟

مش معقول. هذا كلّه لا يُصدَّق. كلّه كذب بكذب. لو كانت منالُ جزءًا من الشبكة لما طلَّقت زوجها وغادرت البيت إلى الدير.

قال آدم لروحه إنَّه لا يصدِّق شيئًا. مستحيل أن يكون عبد الله فدائيًّا. وإذا لم يكن، فمَن يكون؟ ولماذا قتل الرجل؟ هل صحيح أنَّه عثر على زوجته الأولى التي لم يطلِّقها بعد بحث طويل؟ وكيف يمكن لامرأة متزوِّجة أن تتزوَّج رجلًا آخر؟

هذا مستحيل، وذاك مستحيل: أين الحقيقة، وأين الخيال؟

تقول الحقيقة إنَّ الرجل مات برصاص مسدَّس ورثه آدم من أبيه. لماذا قتل عبد الله الطبيب؟ يا إلٰه الكون. هذا الرجل كان عثرة في حياة آدم. سرق منه أمَّه، واليوم يقتل والد الفتاة التي بدأت تخاطب قلبه، العمى. كأنَّ القدر أرسله عقابًا لا تفسير له.

أخبار التحقيق اختفت فجأة من وسائل الإعلام، لكنَّ الهمسات والشائعات كانت تدور في وادي النسناس على ألسنة الجميع.

لا بدَّ من أن يصل التحقيق إلى آدم، لكن متى؟ وماذا سيقول إذا سُئل عن مسدَّس والده الذي كان أداة الجريمة؟ هل ينفي علمه بوجوده، أم يقول إنَّه رفض أن يأخذه، أم يقول حقيقة أنَّ منالَ نسيت أن تُعطيه لابنها حين أعطته وصيَّة والده، كما نسي أن يطلبه في غمرة سيطرة حمَّى الذهاب عليه؟ وماذا عن وصيَّة الوالد؟ هل يتكلَّم عليها؟ لا، لن يعطي رجال الشرطة الوصيَّةَ وصحيفة «ناقة الله» التي أرسلها جدّه إلى ابنه وهو على فراش الموت في أقاصي سيبيريا. إذا سُئل عنها، فسينفي في البداية، وإذا اضطرّ إلى الاعتراف بوجودها، سيقول إنَّه رماها لأنَّه رمى كلّ ماضيه.

هل يخون، بهذا الكلام، ذكرى والده، أم يحميها؟ لا يدري.

وضع الوصيّة داخل ملفّ جلديّ، وخبّأها في أحد جوارير المطعم مع بعض الكرّاسات الجامعيَّة، وقال لأبي غسّان إنَّه وضع كراريس المحاضرات هنا كي يعود إليها في لحظات الفراغ حين يكون المطعم خاليًا من الزبائن.

وآدم ينتظر. يدخل الجامعة بعينين مذعورتين، يلتفت وراءه دائمًا، وحين يعود مساءً إلى المطعم، يكون مشلولًا بالخوف ومرهقًا بالانتظار. يضع رأسه في المقلاة أو السندويش الذي يُعدّه، ولا ينظر إلى عيون زبائنه.

مضت ثلاثة أسابيع على الجريمة، ولم يأتِ البوليس لاعتقاله وسَوْقه إلى التحقيق.

كان آدم على يقين بأنَّه مراقَب، لذا لم يتَّصل بكرمى. مجرَّد اتِّصاله بابنة المغدور سيضعه في دائرة الشبهات، ويجعله شريكًا في الجريمة.

كره نفسه وازدرى خوفه، لكنَّ الخائف لا يُلام. «هل أنا جبان؟» سأل آدم نفسه: كيف يكون ابن الشهيد حسن دنُّون جبانًا؟

كانت منالُ تحدِّثه دائمًا عن شجاعة والده، «أكيد مأمون درَّسكم الشعراء الفرسان، كانوا ثلاثة: الشهيد عبد الرحيم محمود وإبراهيم طوقان وعبد الكريم الكرمي، وكان والدك رابعهم، حسن دنُّون كان شاعرًا وفارسًا، وكان يردِّد دائمًا شعر عبد الرحيم محمود، الشاعر الذي مات مقاتلًا ضدَّ الصهاينة، واستُشهد في معركة الشجرة في 13 حزيران 1948:

«سأحملُ روحيَ على راحتي/ وألقي بها في مهاوي الرَّدى / فإمّا حياةٌ تُسرّ الصديق/ وإمّا مماتٌ يُغيظ العِدا / ونَفس الشهيد لها غايتانِ/ بلوغُ المنايا ونيلُ المنى».

«لكن أبي لم يكن شاعرًا.»

«كان فارسًا يحبّ الشعر. يعني كان شاعرًا. لازم تفهم هالإشي. ويا ريتك تصير شاعر زيّ أبوك.»

«أنا؟ مستحيل! أنا بدِّي أصير طيّار.»

«طيَّار بهالبلد؟ مستحيل، يا حسرتي عليك يا آدم.»

لم يستطع آدم تجاوز خوفه، إلَّا حين تخلَّى عن لعبته. نعم، سيقول الحقيقة، ويعلن أنَّه يشعر بالفخر لأنَّ والده هو حسن دنُّون، لأنَّه إذا سُجن فسيصير بطلًا وفارسًا مثل والده.

ضحك آدم من نفسه. ما هذه الأفكار الحمقاء. لن يسمح لعبد الله الأشهل بتدمير حياته كما دمَّر حياة أمّه. سينفي أيّ علاقة بالجريمة، وسيروي أنَّ عبد الله مجنون وساديّ، وأنَّه هرب من البيت لأنَّه لم يعد يستطيع تحمُّل المهانة والذلّ، وأنَّه يلوم منالَ ولن يغفر لها لأنَّها تزوَّجت هذا الرجل وتخلَّت عن ابنها الوحيد.

لم يكن الخوف يذهب إلَّا ليعود من جديد. تعمَّد أن يتصرَّف في الجامعة بشكل طبيعيّ، حتى إنَّه قبل دعوة إيزابيلًا إلى شرب فنجان قهوة معها في كافيتيريا الجامعة. استهجن تهجُّمها على الأستاذ ياكوب، ودافع عنه، وقال إنَّه رجل نبيل وعلَّامة في الأدب.

«لكنَّه شتمك كثيرًا، وقال إنَّك مخادع وكذَّاب.»

«لا يهمّني ماذا قال، فأنا لا أكنّ له سوى الودّ والاحترام. لقد تعلَّمت منه الكثير.»

ضحكت إيزابيلّا وقالت: «معه حقّ أستاذك، فأنت مخادع.»

«ولِمَ لا؟» أجابها، «فالحياة خدعة.»

«ولماذا قبلت دعوتي إلى شرب القهوة؟» سألت.

«لماذا دعيتِني؟» سألها.

«أردت أن أخبرك بأنَّ هذا الأستاذ الغريب الأطوار، يشتمك ثم يتبنَّى آراءك، ولا يتوقَّف عن الحديث عن رحلتكما لزيارة ماريك إيدلمان.»

«هذا شيء جميل.»

«هل ستزور ياكوب في مكتبه؟»

«لست مخادعًا إلى هذا الحدِّ.»

«لماذا قبلت دعوتي إلى شُرب القهوة إذًا؟ أنا كنت السبب في تدمير صداقتكما.»

«لأنَّني مخادع، كما قال الأستاذ.»

اعتقد آدم أنَّ مَن يراقبونه من رجال الأمن سيقتنعون ببراءته عندما يرونه مع الطلّاب اليهود، من أمثال إيزابيلّا، لكنَّه كان مخطئًا.

- 5 -

مساء الاثنين، في 28 تشرين الثاني، وكانت الساعة تُشير إلى التاسعة والنصف ليلًا، دخل رجلان غريبان مطعمَ أبي غسَّان. رآهما آدم بطرف عينه، لكنَّه لم يرفع رأسه عن مقلاة الفلافل.

تقدَّم أحدهما من آدم، وانتظر التفاتة ترحيب أو سؤال من دون جدوى. تنحنح الرجل ثم قال «هل أنت آدم دنُّون؟»

«نعم، نعم»، أجاب آدم متلعثمًا، «هل تريد سندويش فلافل؟»

«انظر إليَّ»، قال الرجل، «أنا لم آتِ من أجل الفلافل، نريدك نصفَ ساعة، تأتي معنا وتشرب فنجان قهوة.»

«أين؟»

«في قسم الشرطة.»

«لماذا؟» سأل آدم بصوت مرتجف.

«أنت تعرف أكثرَ منِّي.»

«لكنّني وحدي في المطعم، والزبائن لا يتوقّفون.»

«متى تقفل المطعم؟»

«في العاشرة.»

«لا بأس، ننتظرك نصف ساعة، ونأكل سندويشَي فلافل على ذوقك.»

«هذا أفضل مكان تُصنَع فيه الفلافل في حيفا.»

«نعرف ذلك، نحن جائعان».

قدَّم إليهما سندويشَي فلافل «سبيسيال»، أَكْثَرَ فيهما من البندورة والبقدونس والفلفل الأخضر المفروم، وتوَّج ذلك كلّه بملعقة كبيرة من الطحينة.

أكل الرجلان بشهيَّة، وامتدحا هذا الفلافل العجيب الذي لم يتذوَّقا شبيهًا له، ثم طلبا كوبَي لبن عيران، شرباهما دفعة واحدة، كأنَّهما أرادا إزالة الأثر الحارق الذي تركه الفلفل على لسانيهما، ووقفا ينتظران بهدوء.

أنهى آدم عمله مع آخر الزبائن. نظَّف المكان ببطء وعناية. تقدَّم منه الرجل الثاني وهمّ بأن يدفع، لكنَّ آدم رفض أن يأخذ، «هذه على المحلّ، أهلًا وسهلًا.»

قاداه بهدوء إلى سيَّارة مدنيَّة مركونة في نهاية الشارع. صعد الرجل الأوَّل وراء المقود، بينما فتح له الثاني باب السيَّارة وجلس إلى جانبه في المقعد الخلفي.

أنزلوه من السيَّارة، وقادوه إلى غرفة شبه معتمة، فيها سرير حديديّ استلقى عليه آدم وهو يشعر بتعب شديد، ثم سقط في النوم.

في الصباح، جاء رجل أمن وأمره بأن يتبعه إلى غرفة مستطيلة رأى فيها رجلًا جالسًا خلف مكتب خشبيّ مليء بالملفّات المكدّسة على جانبَيه.

«اِجلس. هل تعرف لماذا أنت هنا؟»

«أعرف، لكن أنا لا علاقة لي.»

«أجب عن أسئلتي فقط، مفهوم؟»

«مفهوم.»

«قلت إنَّك تعرف، إذًا أخبرني لماذا أنت هنا؟»

«عشان عبد الله الأشهل وجريمة قتل الدكتور.»

«غلط.»

«طيِّب، لماذا؟»

«من أجلِ أمّك. قل لي ماذا تعرف عن أمّك؟»

«أعرف كلّ شيء، هذه أمّي.»

«يعني أنت تعرف أنَّها كانت عضوًا في شبكة تابعة للمخرِّبين، وأنت لم تبلِّغ عنها، وهذا يُعتبر جريمة في عرف القانون.»

«أمّي؟ مستحيل.»

«هي اعترفت.»

«مستحيل.»

«قالت إنَّها ورثت المسدَّس من أبيك، والمسدَّس كان تحت الفرشة التي تنام عليها هي وزوجها. ماذا تعرف عن المسدَّس؟»

«لا أعرف شيئًا.»

«وأبوك؟ مَن أبوك؟»

«أبي هو حسن دنُّون.»

«وكيف مات؟»

«في الحرب.»

«لماذا مات؟»

«لماذا الحرب؟»

«يعني أنت لا تعرف أنَّ أباك كان مخرِّبًا؟»

«أعرف أنَّ أبي شهيد. أنا وُلدت بعد موته.»

«أمّك، في التحقيق، قالت إنَّك تركت البيت منذ أربع سنين، وإنَّها لا تعرف شيئًا عنك.»

«صحّ.»

«لماذا تركت البيت؟»

«لم أعد أحتمل زوجها، فتركت واشتغلت عامل كاراج.»

«كاراج غبريال»، قال المحقِّق، «وسكنت في بيت في وادي الصليب.»

فتح آدم عينيه مستغربًا.

«نحن نعرف كلّ شيء عنك، ونعرف أيضًا أنّك خرجت مع ابنة الدكتور، وحتى إنَّك زرت العيادة قبل يوم من الجريمة.»

دخل النادل حاملًا فنجانَ قهوة عربيَّة للمحقِّق.

«ماذا تشرب؟»

«أنا لا علاقة لي.»

«قهوة أو شاي؟»

«شاي، أنا...».

«نعرف أنَّك لم تشترك في الجريمة، وأنَّك لا تعرف شيئًا عن الموضوع.»

«طيِّب لماذا أنا هنا؟»

«من أجل أن نتعرَّف إليك.»

«شكرًا، هل أستطيع أن أمضي؟»

«تشرب الشاي وتمضي. قل لي كيف كانت رحلتك مع الطلَّاب إلى أوشڤيتز؟»

«رحلة صعبة... لا أعرف ماذا أقول.»

«لا تقل شيئًا. نريدك أن تنتبه على نفسك، وتتخرَّج من الجامعة، وتكون مواطنًا صالحًا.»

«نعم.»

«مع السلامة.»

ماذا جرى لكرمى؟

خرج آدم من التوقيف مُحبَطًا. اكتشف أنَّ شقَّته الصغيرة لم تُمَسّ كما كان يتوقَّع. عاد إلى عمله في المطعم، تفقَّد أوراقه في الجارور فوجدها في مكانها، أخذها إلى بيته وخبّأها في غرفة نومه.

حين صدر حكم المؤبَّد على عبد الله الأشهل، حزن على الرجل على الرَّغم من كلّ شيء. فالكلام الذي كُتب في الصحف على لسان منال بأنَّ الرجل يئس من الحياة بعد اختفاء ابنه الوحيد، انحفر في قلبه. يا لطيف كيف يتقلَّب القلب. في الأمس كان يعتقد أنَّ هذا العبد الله ليس سوى رجل ساديّ يتمتَّع بإذلال زوجته وابنها، أمَّا اليوم فقد تبدَّلت الصورة. هل قال عبد الله الحقيقة؟ وما علاقة هرب آدم الذي ادَّعى أنَّه ابنه من البيت، بانتمائه إلى الفدائيِّين وقيامه بقتل عميل إسرائيليّ؟

من أين له، ولماذا، وكيف صار عبد الله الأشهل أباه أمام المحقِّقين؟

هلِ عليه أن يضُمّ إلى آبائه السابقين أبًا جديدًا اختفى هو الآخر؟

هل هذه هي الحياة؟

هل، وهل، وهل؟

صار آدم أسيرُ الهلهلة. لا يستطيع أن يروي عن نفسه إلّا إذا وضع عبارة هل في مقدِّمة كلامه.

العرب اخترعوا العنعنة كي ينسبوا الكلام إلى مصادر معلومة. هذا هو علم الحديث، كما درسه في الجامعة. أمّا آدم، فلا يستطيع أن ينسب أو ينتسب. إنَّه مجموعة هلهلات هلهلت حياته، وجعلتها هشَّة ومعطوبة.

أمّا منالُ، فمن المؤكَّد أنَّ روحها انكسرت بعد طردها من دير الراهبات، وصدور الحكم عليها بالسجن لمدَّة عام مع وقف التنفيذ نتيجة حيازتها مسدَّسًا أُخذ منها عنوةً. ماذا جرى لمنال؟ أين ذهبت؟ هل عادت إلى منزل شقيقها موريس، أم ماذا؟ وأين يجدها؟ لا، لن يبحث عنها، فهو مراقَب، وعاجز، وخائف.

منال وزوجها توطآ مرَّة واحدة في حياتهما المشتركة، وكان سبب التواطؤ هو إنقاذ آدم من تهمة الاشتراك في الجريمة. منال قالت إنَّ ابنها لم يكن يعرف بوجود المسدَّس مع أنَّها أخبرته عنه أكثر من مرَّة، وعبد الله لم يأتِ على ذكر آدم حين تحدَّث عن مسدَّس منال.

كيف، فجأة، انقلب التوحُّش رحمة، وصارت الرحمة طريقًا عَبَرَه عبد الله إلى جريمته؟

لماذ قتل عبد الله الدكتورَ سمعان؟

نبيل سمعان لا علاقة له بهرب آدم. آدم لا يعرفه، ولم يلتقه

سوى مرَّة واحدة عبر ابنته كرمى، وكان ذلك قبل مقتله بيوم واحد.

أين كرمى الآن؟ لا، لن يتَّصل بها، فقصَّته معها انتهت لحظة بدأت، وهي في الحقيقة لم تكن قصَّة، فهو بالكاد يعرف الفتاة. صحيح أنَّه استحلاها وحاول غوايتها، لكنَّ الغواية ليست حبًّا، وحُبيبات الملح على كأس المرغريتا ليست قبلة.

عليه أن ينسى.

غريب أمر الحبّ. فجأة تبخَّرت الرغبة والشوق من قلبه، كأنَّهما لم يكونا. لا يستطيع الخائف أن يحبّ.

هل بدأ آدم في عمليَّة محو نفسه؟ هل عليه أن ينسى كلّ شيء؟ وماذا سيفعل بحياته؟

اليوم صار يتيمًا. عندما غادر البيت وأدار ظهره لأمّه، كان يعرف، في قرارة نفسه، أنَّه يستطيع أن يعود متى يشاء.

اليوم خَلَصْ. لم يعد يعرف طريق العودة. هنا في عتمة إسرائيل فَقَدَ أمّه إلى الأبد. أحسَّ بأنَّ عليه الآن أن ينخرط في الحياة الرتيبة التي وجد نفسه عالقًا فيها. سخريته وقدراته على حسن التخلُّص في اللحظات الصعبة اختفت، ووُلد من حطامها كائنٌ مكتئب اسمه آدم دانون.

هذا ما كان من أمر آدم الذي بقي على هذه الحالة إلى أن ظهرت كرمى فجأة، وقلبت الأمور رأسًا على عقب.

أمّا ما كان من أمر كرمى، فقصَّة عجيبة تصلح لأن تكون مادَّة لرواية بوليسيَّة. لكن، للأسف، لا وجود في الرواية العربيَّة للرواية

البوليسيَّة. وإذا وُجدت، فإنَّها لا ترقى إلى الروايات البوليسيَّة الحقيقيَّة، أو روايات التشويق كما كتبتها آغاثا كريستي، بعقلانيَّتها الصارمة ومعادلاتها الرياضيَّة المذهلة.

مصير حكاية كرمى سيبقى مؤجَّلًا كرواية بوليسيَّة مع أنَّها مؤهَّلة لأن تكون الرواية العربيَّة الأولى في هذا النوع، ومع ذلك فإنَّ كاتب هذه السطور سيرويها بأسلوبه الذي يفتقر إلى التشويق.

قالت إنعام لابنتَيها بعد شهرين من مقتل زوجها، إنَّها تفكِّر في بيع البيت والانتقال للإقامة بالكرمل الفرنسيّ.

قالت إنَّها لم تعد قادرة على النوم في السرير الذي سال عليه الدم. حتى دخول غرفة زوجها القتيل صار شبه مستحيل. قالت إنَّها امرأة محطَّمة. حياتي صارت ملوَّثة بالدم والجريمة، «يا ريت قتلني أنا بدال ما يقتل نبيل، نبيل إيش ذنبه؟ معقول رجل في عزِّ العطاء والنجاح، بيجي مخرِّب مجنون وبينهي الأحلام؟ يا ويلك يا إنعام، بعرفش كيف بدِّي أعيش.»

كسرت الأمّ الصمت الذي ساد في البيت طويلًا لأنَّها كانت كلَّما سُئلت عن تفاصيل ما جرى، تسكت وتغرق في الأسى.

كانت إنعام قد اتَّصلت بالمحامي عكيفا سلمون وفاتحته بأمر بيع الفيلَّا الكائنة على شاطئ حيكر هيام وشراء بيت في الكرمل الفرنسي، لكنَّ المحامي نصحها بعدم البيع الآن. وقال لها إنَّ معلوماته تشير إلى أنَّ المنطقة مقبلة على ازدهار عمرانيّ، وأنَّه متأكِّد من أنَّ أسعار العقارات هنا ستشهد ارتفاعًا كبيرًا، كما أنَّه يفضِّل تأجيل البيع إلى ما بعد صدور الحكم.

لمى قالت إنَّها موافقة، «لكن فلنؤجِّلْ إلى ما بعد نهاية دَوْشة المحكمة.»

«قبل البيع وغير البيع خلُّونا نفهم إيش صار»، قالت كرمى.

«يلِّي صار صار يا بنتي، الله يرحم بيِّك.»

«بدِّي أفهم، أنا رح أنجنّ.»

«القصَّة كلّ الناس بتعرفها»، أجابت الأمّ. «وبعدين ليش يا بنتي عم تضيِّعي وقتك وتحضري المحاكمة، ومهملة دروسك، وعم بتذوبي متل الشمعة؟ بصرش هيك.»

«لأنِّي ضعت، عبد الله ضيَّعني. القاضي قال إنَّ تهمة الشبكة التخريبيَّة ليست مؤكَّدة، إذًا، ليش قتل، هل صحيح...»

انتفضت لمى، «في إشي مشّ واضح، ليش المجرم ندهلك سهيلة؟ وليش لمَّا شافني صرخ نبيلة ورمى الفرد؟ لمّا شافني صرخ نبيلة وبلَّش يرجف ورمى الفرد على البابا، حسيّت إنَّه بدّه يقرِّب منِّي، وبعدين طلع من الغرفة وبلَّش يركض.»

«ندهلك نبيلة، وسمَّى إمّي سهيلة؟»

«صحيح.»

«غريب»، قالت كرمى، «بعد ناقص سناء، يعني أنا سناء.»

«مين سناء؟» قالت الأمّ.

«إنت لازم تعرفي»! قالت كرمى.

«هذا مجنون، هذي تهيُّؤات»، أجابت الأمّ.

«لنفترض الجنون، طيِّب ليش ما قتلك إنتِ أو قتل لمى؟»

«إنت دايمًا بتعقّدي القصص يا كرمى، خلص. قالت الماما هيدا مجنون، وأنا بصدِّقها»، قالت لمى.

«أنا بدِّي أفهم ومش عم اقدر أفهم، قصَّة لا تُصدَّق، والله صرت كلّ يوم برأي.»

«ليش إنتِ هيكِ يا بنت؟ مع إنّك أكثر وحدة بتشبه أبوها. كنت مدوّقتيه المُرّ. كسرتِ كلمته ورحتِ تدرسي بالقدس غصب عنه، وعم تعملي حكيمة أسنان، مع أنَّه بكلٌ هالدولة فشّ بنت غيرك عم تدرس طبِّ الأسنان. وهو قال هيدي مش شغلة الستَّات، هيَّاها لمى عم تدرس الخدمة الاجتماعيَّة بحيفا. إنت جرحتِ قلبي وقلب أبوك. الله يرضى عليك يا بنتي، نحن بدنا نبيع، الحكم رح يصدر قريبًا والأوراق جاهزة عند المحامي.»

«بدِّي أفهم بالأوَّل وبعدين منحكي.»

خرجت كرمى من البيت، وقالت إنَّها راجعة إلى القدس، لكنَّها لم تقل الحقيقة.

اللقاء

في العاشرة إلّا سبع دقائق، وبينما آدم ينظّف المطعم الصغير قبل أن يقفله، ظهرت كرمى. وقفت بالباب ولم تقل شيئًا، فهرع آدم نحوها، والحيرة ترتسم على وجهه.

مضت سنة على لقائهما الأخير. حكاية موت طبيب الأسنان انطوت، والأحكام القضائيّة صدرت، والقصّة ضاعت في حمّى الحكايات الغريبة التي انتشرت في حيفا عن زيارات يقوم بها حيفاويّون مقيمون بالضفّة الغربيّة إلى بيوتهم، وما رافق ذلك من ذكريات حوّلت وادي النسناس إلى وادي الحكايات.

اقترب آدم منها ومدّ يده، صافحته بيد باردة، وقالت بصوت ناشف إنّها يجب أن تراه، «خلّصْ شغلك وامشِ معاي شوي.»

مشى إلى جانبها، وهو مُطْرِقٌ، قال إنّه يعتذر لأنّه لم يقم بواجب العزاء.

«أنا لازم أخبّرك إشي، وإسمع منك.»

دعاها إلى مقهًى، فقالت «لا. أنا أعرف أنَّك مراقَب. نلتقي غدًا صباحًا في منزل إحدى صديقاتي، أنا أُقيم به الآن بشكل موقَّت. 56، شارع عبّاس، الطابق الثالث. سأكون في انتظارك في التاسعة من صباح الغد.»

لم تترك كرمى لآدم مجالًا للردّ. التفتت إليه ومدَّت يدها، فمدَّ يده وسمعها تهمس «إلى اللقاء»، قبل أن يبتلعها الظلام.

ذهب آدم إلى الموعد متردِّدًا. المسألة لها علاقة بموت والد كرمى، فطالبة طبِّ الأسنان ستسأله عن أمّه، راهبةِ المسدَّس، كما صار الناس يسمُّونها. ذهب مشوَّشَ الفكر، لا يدري كيف سيُجيب عن أسئلتها.

في التاسعة صباحًا قرع جرس الباب ووقف ينتظر. قرع مرَّة ثانية. ربَّما أخطأ العنوان، أو ربَّما غيَّرت كرمى رأيَها. أدار ظهره وبدأ يهبط الدرج ببطء، عندما سمع صوتًا يناديه. التفت إلى الوراء، فرأى كرمى تقف خلف باب نصف مفتوح.

صعد من جديد ودخل وهو يتلفَّت يمنة ويسارًا.

«تْخَفْش، فِشّ حدا غيري بالبيت. بعتذر الغلَّاية فارت على النار، دقيقة وبكون معك.»

الفتاة التي فتحت الباب تشبه كرمى، لكنَّها مختلفة. شعر قصير ووجه نحيل صار أشبه بمثلَّث حادّ الزوايا، ولولا العينان لاعتقد أنَّها امرأة أُخرى.

جاءت كرمى بصينيَّة عليها قهوة عربيَّة تفوح منها رائحة البنّ

العدنيّ والهال. جلست على طرف المقعد المواجه. كانت تلبَس بنطالًا أبيض مشجَّرًا بلون يميل إلى البرتقاليّ، وقميصًا أزرقَ. صبَّت فنجانَي قهوة. فتحت علبة الدخان أخذت سيجارة وأشعلتها، ثم أعطت آدم سيجارة، فأشعلها بشكل ميكانيكيّ مع أنَّه لا يدخِّن إلَّا نادرًا، وانتظر الكلام، لكن كرمى لم تتكلَّم. سألها عن سبب اللقاء.

«فيك تخبِّرني شو بتعرف عن عبد الله الأشهل؟»

«شو القصَّة؟» سأل آدم.

«القصَّة طويلة ومعقَّدة، خبِّرني حتى إقدر أحكي»، أجابت.

روى لها عن أمّه التي وجدت نفسها مضطرَّة إلى إخلاء البيت الذي أقامت به في اللدّ، لأنَّه اعتُبر جزءًا من أملاك الغائبين. روى عن بيت أبيه في المدينة الذي استولى عليه يهودٌ بلغار، وقال إنَّ أمّه، التي شعرت بالخناق يضيق حولها وحول ابنها الوحيد، وافقت على الزواج بعبد الله الأشهل والانتقال للإقامة معه بحيفا.

روى عن أطباع الرجل الغريبة، والذي كان لا يخرج إلَّا في الظلام. أخبرها عن خيبته من منالَ لأنَّها لم تنجب، وعن عنفه وكراهيته لصورة حسن دنُّون. أخبرها عن قراره الهرب من البيت لأنَّه لم يعد يحتمل الحياة مع رجل وامرأة يعيشان توتُّرًا دائمًا: هو يأتي سكرانَ إلى البيت، وهي تحتمل بخنوع لا يُصدَّق.

«عندي سؤال»، قالت.

«بدّك تسأليني عن المسدّس.»

«لا، سؤالي عن عبد الله. هل حكى شيئًا عن لجوئه إلى لبنان، وعودته متسلِّلًا؟»

«لا، بلى، أذكر أنَّه شتم أمِّي مرَّة، وقال كلّ النسوان عاطلين. رجعت من لبنان فتِّش عن مرا سرقت عمري فعلقت بواحدة عاطلة زيّها.»

قال إنَّه لم يكن يفهم عليه، لكنَّه لم يجرؤ على أن يسأل. وحين كان يسأل أمّه كانت تجيبه: «إنت مالك ومال الزلمة؟ هو بيحكي كلام بلا معنى، كلام سكرانين.»

«هذا كلّ شيء تقريبًا، أعتذر لم أستطع أن أفيدكِ»، قال آدم وهو يهمّ بالوقوف، استعدادًا للذهاب.

«بالعكس، كتير استفدت، هيدا يلِّي كنت عم فتِّش عليه. وين رايح؟ بدكاش تعرف القصّة»؟»

«أيّ قصّة؟»

«إسمع، وجرِّب تحطّ حالك محلِّي لتفهم ليش انجنِّيت.»

وروت كرمى حكاية عجيبة، قالت إنَّها لو لم تكن قصَّتها لَما صدَّقتها.

أشعلت كرمى سيجارة ثانية وروت أنَّها شكَّت منذ البداية فيما رُوي لها. قصَّة مقتل نبيل سمعان ملأى بالثغرات، «اكتشفتُ الثغرة الأولى من وصف أمِّي وأختي للجريمة. أمِّي قالت إنَّ الرجل أراد قتلها، وأختي قالت إنَّه رمى المسدَّس حين رآها. ذهبتُ في البداية إلى محامي العائلة عكيفا سلمون، فبدَّد شكوكي. قال إنَّ المحكمة لن تأخذ بأقوال المجرم وهلوساته عن زوجته وابنتَيه، لأنَّه لم يستطع تقديم وثيقة تثبت كلامه. ونصحني بعدم حضور جلسات المحاكمة لأنَّها مضيعة للوقت، فالتهمة ثابتة والرجل اعترف، وما على القاضي سوى

إصدار الحكم. قلت للمحامي إنَّني صرت ميَّالة إلى الشكِّ في كلّ شيء. يبدو أنَّ الرجل صادق. ضحك المحامي، وقال: كبِّري عقلك يا بنتي. هذا معتوه. ثم ما معنى أنَّه صادق؟ هذا ممثِّل، يريد أن يجد تبريرات لجريمته، على أمل أن يخفِّف الحكم، وهذا محال، فالقاضي لا يحكم على النيَّات، بل على الأفعال.»

قالت كرمى إنَّ ما أذهلها هو عبارةٌ صدرت عن المحامي بشكل لاإراديّ، «الصدق لا معنى له. عليه أن يثبت ادِّعاءاته بالوثائق، وهو لا يملك أيّ وثيقة.»

التفتت كرمى إلى آدم وسألته: «وإنتَ، إيش رأيك؟»

«بعرفش.»

«أنا بعرف. ورقتي الأخيرة كانت حضور جميع جلسات المحكمة، وبتعرف إيش صار؟ المدَّعي العامّ طلب تحويل المحكمة إلى محكمة سرِّيَّة بحجَّة أنَّ القضيَّة أمنيَّة، بسّ القاضي ردّ الطلب، وقال إن لا مبرِّر لذلك.»

الوثائق

قالت كرمى إنَّ القصَّة لم تنتهِ هنا، وإنَّها شعرت بأنَّ عليها أن تواجه أمَّها وأختَها بالحقيقة، «كان بدِّي إشي واحد، إتأكَّد من اسمي الحقيقي. منال بالاعترافات قالت ثلاثة أسماء: سهيلة ونبيلة وسناء. سهيلة اسم أمِّي هيدا واضح، نبيلة اسم أختي، يعني أنا سناء يلِّي أنقذها أبوها من الغرق، لمَّا وقعت من إيد أمّها. قفز أبوها من القارب، وكان رح يموت، وأنقذها.»

«مين أبوك؟» سأل آدم بسذاجة.

«والله بعرفش، ساعة بقول عبد الله، وساعة بقول لا. يا ريت بقدر صدِّق أمِّي حتى ارتاح».

«فهمت، فهمت، بسّ لو كان عبد الله صادق كان بيَّن بالمحكمة.»

«بعرفش.»

قالت كرمى إنَّها وضعت افتراضًا بأن يكون عبد الله ومنال كاذبين، وأنَّ هدف القاتل كان تخفيض الحكم، فاخترع القصَّة، وتواطأت معه طليقته.

لكن لا.

قالت إنَّ الرجل روى قصَّة كاملة ومُحكَمة. من غير الممكن أن يكون قد ألَّفها بهذه الطريقة.

«لماذا لم تأخذْ بها المحكمة؟» سأل آدم.

«لأنَّ الرجل لا يملك وثائق يُثبت بها دعواه.»

«هذه مهمَّة محاميه»، قال آدم، «ألم يكن يملك محاميًا؟»

«هناك مُحامٍ شابٌ عيَّنته المحكمة للدفاع عنه، وهو محام مدهش اسمه عاموس تمُّوز. بذل المسكين جهدًا خارقًا. ذهب إلى المحكمة الشرعيَّة في حيفا، لكن يبدو أنَّه لم يعثر على الوثائق. أشار إلى أنَّه يرجِّح أن تكون «الهاغاناه» قد استولت على الوثائق، وطلب إذنًا خاصًا بالوصول إلى أرشيف الجيش، لكنَّ طلبه رُفض. قدَّم المحامي افتراضًا آخر: قال إنَّ عبد الله الأشهل مسلم تزوَّج بمنال المسيحيَّة من دون رضى أهلها، وإنَّ الفتاة كانت قاصرًا، فلم يسجِّل الزواجُ في الدوائر الرسميَّة. وفي المخيَّم، لم يفكِّر الزوجان في قوننة وضعهما نتيجة شعورهما بأنَّهما يعيشان في الموقَّت. قال إنَّه يستطيع، إذا سمحت المحكمة، جَلْبَ إفادات شفهيَّة من سكَّان برج البراجنة تُثبت واقعة الزواج. فعل الرجل كلّ ما يستطيع. وفي مرافعته قال إنَّها محاكمة عبثيَّة، إذ المطلوب من موكِّله وثيقةٌ قانونيَّة تثبت أنَّه موجود، مع أنَّه يقف أمامكم. هذا العربيّ لا يملك وثائق، لكنَّه يملك حقيقته

الإنسانيَّة. الاستيلاء على الوثائق أو غيابها لا يعني الاستيلاء على الحقيقة.»

قالت كرمى إنَّها كانت على وشك تصديق عبد الله عندما وقفت أمّها في المحكمة كصخرة صمّاء، ونفت الحكاية كلّها، «في تلك اللحظة، أحسست بأنَّها كذّابة.»

قال عبد الله إنَّه تزوَّج سهيلة على الرَّغم من اعتراض أهلها، «كانت في الخامسة عشرة وأنا كنت أكبر منها بسبعة أعوام، أنجبنا ابنتنا الأولى لمى، وبعدها بسنة، أنجبنا سناء، ولمَّا إجت النكبة هربنا بالبحر على لبنان. وبالمخيَّم شفنا الهول. ما قدرتش ألاقي شغل. صرت أقعد قدَّام الخيمة طول النهار، وكنت مستعدّ أشتغل أيّ إشي. اشتغلت عتَّال، واشتغلت عامل باطون، بس أنا فلسطينيّ، والفلسطينيّ غريب ووحيد ومظلوم، بيركض ورا القرش والقرش بيهرب. واللبنانيِّين صحيح عطفوا علينا بالأوَّل، بسّ بعدين بلَّشنا نحسّ الكراهيَّة بعيونهم. وصرت كأنّي مش أنا. آجي على الخيمة سكران وأضرب مرتي. حسّيت حالي علقان، وما عندي أيّ خيار. وحسّيت إنّي عم بتبهدَل، كنَّا محشورين زيّ السردين فوق بعض. صبرت كتير وكان الصبر مُرّ. وفي يوم، رجعت عالبيت من البور. كنت تعبان وجوعان، وكان البيت فاضي. اختفت المرا والبنتين. معقول. طفلتين، واحدة عمرها سنة ونصّ، والثانية أكبر منها بسنة، وأمّهم، يختفوا؟

«فتّشت بكلّ المحلّات. سألت كلّ الناس. ما حدا بيعرف.

«قلت أكيد هربت عند بيت عمّتها، كانت عمّتها وأولادها وأحفادها عايشين بمخيَّم الرشيديَّة بصور.

«قلت ما في إلّا ابن عمّتها الكلب منير. رحت لعنده وهدَّدته.

بالأوَّل قال بيعرفش إشي. بعدين اعترف، وقال إنَّه وصَّلها مع البنتين على عين إبل، ودلَّها على طريق الوصول على فسّوطة.

«قال إنَّه تركها على الحدود، «كنت ناوي أقطع معها، بس سمعنا رصاص كتير. قلتلها بَلاها، خلِّينا نرجع. قالت إنَّها مشّ ممكن ترجع، وراحت».

«بقيت أربع سنين قاعد وحدي ناطر. اتَّصلت بالصليب الأحمر. ما خلِّيت حدا ما اتَّصلت فيه. المرا اختفت. انشقَّت الأرض وبلعتها. وكنَّا نسمع عن المتسلِّلين يلّي انقتلوا بعد ما قطعوا الحدود. قلت المرا ماتت. أنا كنت متعلِّق كتير بالصغيرة سناء، سحبتها من تُمّ البحر، وصرت حسّ فيها مع دقَّات قلبي.

«تسألونيش كيف عشت؟

«كنت ميِّت حيّ. أمّي وأبوي يلِّي كانوا ساكنين بمخيَّم عين الحلوة اترجُّوني أسكن معاهم. قلت لا. أنا ناطر. قالت لي أمِّي: شو ناطر يا ولد؟ قلتلها: ناطر المرا والبنات. قالت لي رح تموت فقع وتموِّتنا معاك. نصحوني بالزواج. أمِّي دبَّرتلي بنت أتزوّجها، قلت: لا، مستحيل. قالت لي: مرتك ماتت يا ابني. قلت: لا، حاسس بناتي عايشين، وأنا ناطرهم.

«جرّبت اِتسلَّل على البلاد. اِتسلَّلت ثلاث مرَّات، بأوَّل مرَّتين اعتقلني الجيش اللبناني، وحقَّقوا معاي وعذَّبوني. وبالمرَّة الثالثة نجحت ووصلت على حيفا.

«وهون عشت زيّ اللصّ، بلا أوراق وبلا هويَّة. هون صرت ما حدا.»

قالت كرمى: «في المحكمة، وبعد مرافعة المدَّعي العامّ البليغة، يلِّي حطّ كلّ معرفته ليبرهن أنَّ عبد الله كذّاب، وأنَّه اخترع القصَّة، حتى يبرِّر جريمته؛ بعد هالمرافعة يلِّي اعتبرتها الصحف مرجع قانوني، بطّل عبد الله يحكي. صار ينظر لبعيد كأنَّه أبله، وفات جوّات روحه، واختفى صوته. بعد الحكم، قرَّبت منه. قلت رحّ يعرفني متل ما عرف أختي وقت ارتكب الجريمة. شفت الغياب بعيونه. غياب مطلق. ندهت اسمه. اِتطلَّع صوب الصوت وبعدين وطّى عيونه وصار يهزّ راسه.»

«قل لي شو رأيك؟ قولك القصَّة مزبوطة»، قالت.

«يعني؟»

«يعني يمكن أنا سناء، وأمِّي كذّابة، والمحامي متواطئ. يا إلهي.»

قالت كرمى إنَّها ذهبت إلى البيت، وواجهت أمّها بالحقيقة، لكنَّ المرأة لم تتزحزح عن موقفها.

«دخيل سماكِ قولي لي الحقيقة.»

«هيدي هي الحقيقة»، أجابت الأمّ.

«مش قادرة صدِّق كلامك.»

«هيك بتحكي مع أمّك؟»

«يمكن إنت مشّ أمِّي، نبيل مشّ أبوي. مين إنتِ؟ فهِّميني.»

في تلك اللحظة غرقت الأمّ في الدموع وبدأت تتعرَّق كأنَّها على وشك أن يُغمى عليها. أحاطت بها ابنتَاها، طلبت لمى من كرمى أن تتَّصل بالطبيب. جاء الطبيب وقال إنَّها نوبة قلبيَّة، ويجب نقل المريضة إلى المستشفى.

وبعد ثلاثة أيَّام، عادت المرأة إلى البيت، وطلبت أن تلتقي كرمى. اتَّصلت لمى بشقيقتها ورجتها أن تأتي، «أمّك تعبانة كتير وهي طلبت إنَّها تشوفك.»

قالت كرمى إنَّها تردَّدت كثيرًا، «كانت مشاعري تجاه هذه المرأة ملخبطة، لكنِّي ذهبت بناءً على إلحاح شقيقتي، وما إنَّ رأيت كيف اكتهلت وضمرت حتى تساقطت الدموعُ من عينَيَّ. شعرت بأنَّني أمثِّل في فيلم عاطفيّ. أخذتني في حضنها. جاءت لمى حاملةً أكوابَ الشاي بالميرميَّة، وجلسنا حول سريرها كعائلة جمعتها المصيبة.»

قالت كرمى إنَّ الأمّ دمَّرت هذه اللحظة الحميمة حين طلبت من ابنتَيها الموافقة على بيع البيت، «أنا دبَّرت كلّ إشي. بكرا بيجي المحامي على الساعة عشرة الصبح ومنوقِّع.»

«إنتِ مالك إشي بعقلك؟» أجابت كرمى، «قلتلّك بدِّيش أبيع.»

«خلِّينا نطلع من هون يا بنات، هذا بيت مسكون بالجريمة وبشبح القاتل. والله كلّ ما أغمَّض عيوني بشوف المجرم هو وعم يقتل أبوكم.»

«تقوليش أبونا»! صرخت كرمى، «بعرفش مين أبونا. والله ما عم بقدر صدِّقك وما عم بقدر صدِّق عبد الله الأشهل. صرت حاسّة إنِّي أنا كمان كذبة، وبعرفش إشي.»

«تحكيش هيك»، قالت الأمّ، «أنا مرضت بسببك، يا بنتي أنا خايفة عليك. شايفتك كيف عم تدوبي.»

«الله يخلِّيك يا أمِّي، اهتمِّي بحالك».

«خلُّونا نبيع البيت»، قالت الأمّ.

«جنّنتيني يا مرا! إنتِ مش حاسّة فيّي؟ أنا بعرف ليش بدّك تبيعي. إنتِ بتحبّيش إلّا الفلوس. تخافيش، بكرا لمّا تموتي بحشيلك تابوتك فلوس.»

«تحكيش هيك مع أمّك»، قالت لمى، «رح تروح من بين إيدينا.»

جلست كرمى على طرف السرير وأمسكت بيد أمّها، «يمّا، إنت شجاعة، وأنا بقدّر شجاعتك. معاك حقّ، بسّ أنا حاسّة إنّي ما بعرفك. لنفترض أنَّك هربت من جحيم المخيَّم والذلّ بلبنان، بسّ شوفي لوين جبتي بناتك؟ جبتينا على جحيم تاني، وضيّعتينا وضيّعتِ أسامينا. الله يسامحك. الله يخلّيك بلاش سيرة البيت، بدّيش أبيع.»

«بسّ فهمّيني ليش»؟ سألت الأمّ.

«بالأوَّل، لازم أعرف أنا مين».

«إنتِ انجنّيتِ يا بنت؟ ما بكفّي إنَّا تبهدلنا بالصحف، جايي هلَّق تقنّعينا بقصَّة حكمت المحكمة إنَّها كذب وتلفيق؟»

«قبل ما روَّح يمّا قولي اسمي الحقيقيّ مرَّة حتى أقدر أقول إنَّك أمّي.»

«إنت بنتي وحبيبتي».

«لو بتعرفي يمّا قدّيش بدّي أصدّقك، بس مشّ عم بقدر».

وخرجت كرمى من البيت.

«انتهت حكايتي»، قالت كرمى.

«هذه حكايتي أنا أيضًا»، أجاب آدم.

«بدّي أسألك سؤال، ممكن؟»

«تفضَّلي.»

«ليش سمُّوك آدم؟»

«أمِّي بتقول إنِّي كنت الولد الأوَّل يلِّي خُلق بغيتو العرب باللِّدّ، وعشان هيك سمُّوني على اسم الإنسان الأوَّل.»

«بس آدم مش اسم. هيدا صفة»، قالت كرمى.

«وإنتِ شو طلع اسمك الحقيقي بالأخير؟ سناء؟»

«ربَّما.»

«يعني بدِّك أندهلك سناء؟»

«الحقيقة بعرفش شو فينا نعمل، قَوْلك فينا نعمل إشي بهالقصَّة؟»

«بفتكرش. المحامي قال إنّا عايشين بطنجرة ضعط ومنقدرش نحكي.»

«يعني شو؟»

«بعرفش، الأرجح رح تندفن هالقصّة مع آلاف القصص ببير غميقة بعرفش كيف بتوسع كلّ هالحكايات.»

«يعني منضلّ ساكتين! معقول؟ أنا بدِّيش إشي. مش قادرة أصدّق حدا. إمِّي مسكينة وأبوك أهبل، وأنا ضايعة. شي فظيع.»

«مين أبي»؟

«عبد الله».

«عبد الله مشّ أبوي».

«كأنّه أبوك».

كان يجلسان في صالون مليء بالأثاث. أرضه مرصوفة ببلاط

أبيض مزيَّن بخطوط سوداء، ويتوسَّطه صدر نحاسيّ دمشقيّ مطعّم بالفضَّة. لاحظ آدم الكنبايات الضخمة التي تحتلّ الصالون، والصور التي تنتشر على حيطان البيت، وشمّ رائحة الخشب القديم، وشعر بأنَّه في بيت مسكون بأشباح الغائبين. ذكّره ببيت وادي الصليب.

«نحن في بيت مين»؟

«بعرفش»، أجابت كرمى، «هذا بيت إحدى صديقاتي. همّ من كفرياسيف. أبوها استأجر هذا البيت.»

«هذا بيت عائلة عربيَّة انطردت عام 48. بتعرفيش أسماء أصحاب البيت الأصليّين؟»

«لا.»

نهضت كرمى من مكانها وجلست بالقرب من آدم.

أمسك بيدها الصغيرة، «إيدك صغيرة وناعمة»، قال.

لفّ ذراعه على كتف كرمى، فشعر كيف كانت ترتعش ببكاء صامت. انحنى كي يقبّلها، فدفعته بعيدًا، «لا هيدا حبّ محارم، incest، إنت أخي.»

«أنا؟»

«كأنَّك أخي. عبد الله تبنّاك، وهذا لا يجوز.»

نهض. قبَّلها على وجنتيها ومضى. وبينما كان ينزل الدرج اجتاحه طعم الملح، لكن ملح الدموع لا يشبه ملح المرغريتا.

حجر آدم

نظرتُ بمُقلةٍ غطّى عليها / مِنَ الدمعِ الضليلِ بِها حجابُ

فمِنْ أهلي إلى أهلي رجوعٌ / وعنْ وطني إلى وطني إيابُ

محمد مهدي الجواهري

عندما التقى آدم دنُّون دالية بن تسفي، كانت في الرابعة والعشرين. امرأة فاتنة، ترتسم في عينيها احتمالاتُ البداية الدائمة، وكان آدم في أواسط أربعينيَّاته. رجل وحيد، يرى الحياة كلعب متواصل على حافَّة الأشياء.

عَبَرَ العمرَ أو عَبَرَ به العمر، لا يدري. انزلقت الأيَّام من بين أصابعه، وهو يرمِّم موته المؤجَّل بصخب الحياة في يافا وتلّ أبيب. هنا، في هذا المكان، الذي كان بالنسبة إليه يشبه اللامكان؛ هنا، حيث قادته مصادفة لقاء أمّ كلثوم إلى العمل في الصحافة، أعاد اختراع نفسه كخبير بالموسيقى الشرقيَّة. هجر التعليم، وانصرف إلى العمل الصحافيّ، وانخرط في حياة خُيِّل إليه أنَّها تليق بالمثقَّفين الطليعيِّين من أمثاله.

بعد جريمة عبد الله الأشهل التي أدخلته في اللايقين، وجعلته يقتنع بأنَّ الروح الإنسانيَّة طبقاتٌ متداخلة لا نستطيع فهم كُنْهَها، وبعد

اختفاء منالَ في ثوب الراهبة الذي أُجبرت على خلعه ومعه خلعت اسمها الجديد الذي أرادت أن تختفي في داخله، شعر بأنَّ عليه أن يبحث لنفسه عن مكان ملتبس يصلح للاختباء.

ولم تكن العلاقة بكرمى، وهي علاقة افترسها الخوف من مجهول الجريمة، سوى لحظة عابرة، ملأتها طبيبة الأسنان بالتباسات اسمها وهويّتها، وبتردُّدها في الاختيار بين أب قتيل وأب قاتل.

لعب الحياةَ حتى حافَّة الموت، وقرَّر أن يدفن ماضيَه في صندوق يشبه صندوق الصمت الذي دُفن فيه شاعرُه وضّاح اليمن ومعه دُفنت أجملُ قصائده.

ابتعد كي يصير جزءًا من عالم يعيش في فقّاعة ثقافيَّة صنعتها مجموعات من الفنَّانين والمثقَّفين الإسرائيليّين الهامشيّين، وأعلن نفسه هامشًا يسخر من كلِّ شيء، بما فيه هامشُه هو.

لكنَّ امرأة التقاها مصادفة، سوف تحوِّل المصادفة إلى ما يُشبه القَدَر.

ولم يكتشف آدم، إلَّا بعد فوات الأوان، أنَّ القَدَر الذي صنعته هذه المرأةُ سوف يكون شبيهًا بالأقدار، ولا يمكن الركون إليه.

وكانت دالية.

- 1 -

ليل ينهمر على ليل شعرها الطويل؛ هكذا وصف آدم حكايته مع هذه المرأة. «أنتِ ليلي»، قال لها. سألته عن معنى هذا التشبيه فلم يعرف. قال إنَّه ليس شاعرًا، وحدهم الشعراء يستطيعون ترجمة لغة الليل.

قالت إنَّها لم تفهم قصده.

«مشّ مهمّ»، أجابها. وقال إنَّه منذ أن اجتاحه هذا الشعور، لم يعد يعرف أن يحكي.

«ما هو غير المهمّ؟» سألت.

«الليل»، قال.

«اعتقدت أنَّك تقصد عدم قدرتك على الكلام.»

«هذا أيضًا غير مهمّ»، قال.

«لم أعد أستطيع التمييز بين المهمّ وغير المهمّ»، قالت. «تتكلَّم بجِدِّيَّة، فأعتقد أنَّك تمزح. وتمزح، فأعتقد أنَّك جِدِّيّ.»

«أنتِ أجمل من الليل»، قال.

«تدَّعي أنَّك فقدت القدرة على الكلام، لكنَّك تحكي طوال الوقت، وأنا أحاول أن ألحق بكلامك فأضيع في دهاليزه»، قالت.

كيف يروي لها أنَّه يتكلَّم لأنَّه عاجز عن التعبير؟ كيف يصف لها أنَّه يتغطَّى بالكلام كي يعبِّر عن عجزه؟ الحبّ يُخرس اللسان، فيصير الكلام أحد أشكال الصمت.

«أنتَ تجعلني أضحك، ولهذا أحبّك»، قالت. «أنت تلعب بالكلام مثلما يلعب الموسيقيُّون بالنَّغَم.»

سألته لماذا لا يكتب رواية.

«أنا؟»

«نعم أنت، أنت تملك قصَّة مدهشة»، قالت.

«جميع الناس يملكون قصصًا يعتقدونها مدهشة، لكن من المستحيل أن يتحوَّل الناس كلّهم إلى روائيِّين.»

«ولمَ لا؟»

«لا أدري، ربَّما كي يبقى هناك مَن يقرأ. القارئ كاتب مُحتمَل، لكنَّه لا يكتب. ما نفع الروايات إذا لم يكن لها قرَّاء؟ القرَّاء هم مثلي، يلعبون بكلام الآخرين لأنَّهم وصلوا إلى الصمت الذي هو قمَّة التعبير.»

«أنت تكذب الآن. تخبِّئ كسلك باللعب، مثلما تخبِّئ نفسك خلف شخصيَّة مستعارة.»

«معك حقّ»، أجاب، وقال إنَّه ليس معنيًّا بالكتابة، «لكنَّني طلَّقت شخصيَّتي المستعارة من أجلكِ، فعلت كما تريدين، وستكتشفين أنَّك

أضعت الشخص الذي كنت تحبِّينه، وعليك الآن التأقلم مع شخص آخر. إنَّني أقامر بنفسي وبحبّك فقط لأنَّني أحبّك.»

كيف يشرح لهذه المرأة أنَّه لم يعد معنيًّا سوى بها؟

«هكذا كنت تقول لجميع النساء»، قالت.

ضحك وضحكت. «معكِ حقّ، نسيت أنَّك قلتِ لي إنَّه من المستحيل أن تحبِّيني.»

«لكنَّني أحبّك الآن»، قالت.

كان ذلك منذ تسعة أعوام.

تعشَّيا في المطعم الفرنسيّ حيث شربا نبيذًا أبيض، أتبعاه بالكونياك. خرج إلى الشرفة ليدخِّن فتبعته، وكان المطر. حاول أن يحتمي من زخَّاته. تراجع إلى الوراء. نظر إلى عينيها اللتين تلوَّنتا بعتمة شفيفة يلتمع فيها الضوء. تركته واقفًا وتقدَّمت إلى حافَّة الشرفة. كانت تلبَس ثوبًا طويلًا أبيض. انحنت على الشرفة، فرآها من الخلف، وشعر بأنَّ كلّ شيء فيه يحترق. كان المطر يبلِّلها، والثوبُ يشفّ عن جسد يفيض رغبة. اقترب ليضمّها من الخلف فاستدارت فجأة، طبع على شفتيها قبلة متردِّدة، ورآها تعود مهرولة إلى داخل المطعم وتجلس رافعة كأسَ النبيذ إلى شفتيها. وحين عاد كي يجلس في مكانه، شعر بأنَّ شفتيها تدعوانه. انحنى وقبَّلهما، ثم جلس في مواجهتها.

«ماذا فعلتَ؟» قالت.

«اسألي ماذا فعلنا»، أجاب.

أغمضت عينيها ولم تجاوب.

«لا، لا»، قالت.

لم يفهم قصدها ولم يسألها. اكتفى بتذوُّق التنمُّل الذي اجتاح شفتيه، وبنكهة الحبّ الممتزجة بطعم الكرز.

وعندما أوصلته بسيَّارتها الفيات الصغيرة الحمراء إلى أمام شقَّته في العجمي، انحنى صوبها وضمَّها وغرقا في قبلة البداية.

«خلص»، قالت، «يجب أن أمضي.»

وقبل أن يفتح باب السيَّارة، قالت له بصوت متهدِّج: «هل تعتقد أنَّني سأُغرم بك؟»

«أنا متأكِّد»، أجابها.

«أنت غلطان»، قالت.

كان آدم يعرف منذ لحظة لقائه الأولى بهذه المرأةَ، أنَّه أمام احتمال الحبّ. خاف من هذا الشعور، وقرَّر أن يهرب، لكنّ شيئًا لا يعرف كُنهَه كان يدعوه إلى اللعب على ضفاف الحبِّ مع دالية.

كانت الفتاة العراقيَّةُ الملامح تمرّ في مفترق الخيارات الصعبة. قالت إنَّها تريد أن تفتح صفحة جديدة في حياتها المهنيَّة، لكنَّ الأهمّ هو أنَّها تريد أن تطوي صفحة الحبّ، «تعبتُ من هذا الشعور الذي دمَّرني سنتين، والآن أريد أن أرتاح. لن أكون موديلًا لأحد بعد اليوم.»

«أنا لست رسَّامًا، ولا أبحث عن موديل»، قال.

«لا أريد أن أنتظر أحدًا. الانتظار يعصر قلبي.»

«الانتظار هو فنّ الحياة»، قال.

«وأنا أكره هذا الفنّ»، قالت.

«لكنَّك تريدين أن تكوني مخرجة سينمائيَّة. أليس كذلك؟»

أومأت برأسها.

«أنت، إذًا، تبحثين عن موديل تعملين عليه. ترفضين أن تكوني موديلًا كي تصيري سيّدة الموديل. وأنا مستعدّ، جرّبيني.»

«لكنَّني لن أسقط في حبّك»، قالت.

«أنت سقطت من دون أن تدري.»

ضحكت وضحك. نزل من السيَّارة. أغلق بابها وانحنى كي يودّعها، لكنَّ السيَّارة أقلعت بسرعة. وقف في الشارع. تنفَّس هواء يافا المملَّحَ بنكهة البحر. لحس أثر الكونياك والقبلة عن شفتيه، ومضى.

عندما التقت داليةُ آدمَ للمرَّة الأولى، في ذلك المساء المغطَّى برائحة النبيذ، والذي لا تذكره إلَّا بشكل ضبابيّ، كانت تستعدّ لفتح صفحة جديدة في حياتها. علاقتها بصديقها الرسَّام أمنون انتهت لأنَّها شعرت بأنَّها صارت أسيرة داخل لوحاته وألوانه، وأنّها ليست سوى موديل لا حياة فيه، مرصودٍ لتلبية رغبات صديقها وتهويماته عن جسد المرأة الذي كان يطلق عليه اسم قماشة الحياة. «أنت القماشة وأنا الألوان، أؤلّفك بالزيت وأُعيد خلقك بالماء، وأجعلك تشبهين صورتك في لوحاتي.» صار طعم الحبّ في فمها يشبه طعم الزيت الذي ينتشر على مساحة القماش ويأخذها إلى حافَّة الغثيان، وشعرت بأنَّ أوانها قد آن، وعليها أن تغادر اللوحة كي تستطيع أن تصنع فيلمها الأوَّل. درست الإخراج السينمائيّ في القدس بعد نهاية خدمتها في الجيش، ووضعت مخطَّط فيلمها الأوَّل عن جدّها البولنديّ غوستاف، لكنَّ المشروع كان عرضة للتأجيل الدائم.

في هذا المفترق التقت آدم، وشعرت مع هذا الرجل الذي يكبرها بعشرين عامًا بأنَّها تستطيع أن تلهو معه وتلعب على حافَّة الأشياء. الالتزام العاطفيّ لم يكن واردًا، مجرَّد لعبة سمحت لها بالعبور من علاقة قاسية ومدمِّرة، إلى واحة اللعب بالكلمات والحكايات.

قالت له، بعد لقاء الكونياك بثلاثة أشهر، إنَّ بيت الحبّ منسوج من الكلمات. وروت أنَّها قبل كلّ لقاء يجمعها به تشعر بالخوف من ألَّا يجد الكلمات، «لكن ما إن نجلس معًا، حتى تتصرَّف كحائك ينسج الكلمات من لاشيء. لقد حوَّلت الكلام إلى مِصيَدة جعلتني أدمن عليها وأخاف أن أفقدها. من أين تأتي بهذه الطاقة على الكلام؟» سألته.

قال: لا. وقال إنَّ الكلمات معبر إلى الصمت، «نحكي كي لا يخنقنا الصمت. نلفّ أنفسنا بالكلام لا أكثر.» وذكَّرها بأنَّه قال لها، عندما شربا النبيذ معًا للمرَّة الأولى في بار أشعياء، إنَّها جميلة كالصمت.

«أنا لا أذكر ذلك»، قالت.

«لا تذكرين!» قال متعجِّبًا، «يومها أحسست بأنَّني قلت استعارة أدبيَّة لم يسبقني إليها أحد، وأنت لا تذكرين! غريب!»

وعندما حدَّثته عن جدِّها ومشروع فيلمها عنه، قال لها إنَّها تبحث عن المُحال، فالذاكرة مخادعة وملتبسة. قالت إنَّ جدَّها كنز فنِّي، وإنَّها تحاول إقناعه بالقيام برحلة إلى وارسو، كي يستعيد ذاكرة الغيتو أمام الكاميرا. «تخيَّلْ سنذهب إلى وارسو، وهناك سيرى الرجل العجوز ما لا تستطيع الكاميرا رؤيته. ستستعيد الصور الممحوَّةُ

ملامحَها في كلماته.» قالت إنَّها تريد أن تصوِّر فيلمًا عن علاقة الصورة بالصورة، «سأعرض صورتين: صورةً تلتقطها الكاميرا السينمائيَّة لوارسو اليوم، والتي لم تعد تشبه تلك المدينةَ المزروعة في ذاكرة غوستاف، وصورةَ الغيتو التي ترتسم في كلمات جدِّي وملامح وجهه وارتعاشات عينيه. غدًا، عندما تزوره وتلتقيه، انظرْ إلى عينيه، فالعيون مستودع الذاكرة. فيلمي ليس نوستالجيًا عن الماضي، ولن يكون فيلمًا عن المحرقة. إنَّه فيلم عن صورتين: الأولى تتغطَّى بالثانية، والثانية تُعيد تأويل الأولى. ما رأيك؟»

«جميع الضحايا كنوز فنِّيَّة، لكنَّني لا أحبّ كلام الضحايا»، قال.

كان يريد أن يروي لها عن منالَ التي نسجت حكايتها بلا كلام، وكيف حفر الصمت أثره في وجنتيها وشفتيها، لكن منالَ لم تكن واردةً في تلك المرحلة من علاقته بدالية، فآدم كان لا يزال يلبَس طاقيَّة الإخفاء، معلنًا أنَّه يُدعى آدم دانون، وأنَّه الابن الشرعيّ لغيتو وارسو.

«لم أفهم شيئًا»، أجابها.

أذهلها آدم بمعرفته التفصيليَّة للغيتو وحكاياته، فطلبت منه أن يأتي معها لزيارة الجدّ.

«جدِّي سيتشجَّع على رواية ذكرياته إذا التقى أحدَ أبناء الغيتو»، قالت.

قال إنَّه متردِّد لأنَّ الغيتو بالنسبة إليه هو ذاكرة الآخرين، «أنا لا أتذكَّر شيئًا»، قال، «صنعت ذاكرتي من ذاكرة أهلي التي امَّحت في جنون أمِّي. أنا لست ابنًا لأحد، حتى إنَّني لا أستطيع أن أنتسب إلى الغيتو إلَّا بشكل مجازيّ.»

كانت حكايات الغيتو جسرَهما إلى أوَّل الحبّ، وصارت علاقة آدم بغوستاف الخيطَ الذي ربط دالية بهذا الرجل. كان آدم، الذي صنع سمعته الصحافيَّة من إيقاعات الموسيقى الشرقيَّة ومن تلاوين صوت أمّ كلثوم التي تأتي من قعر الرغبات، يخاف من الحبّ. قال لشقيقته كرمى قبل أن يعرف أنَّها شقيقته، إنَّه لا يصلح للزواج لأنَّه لا يستطيع أن يتخيَّل نفسه أبًا، «أنا لا أكره الآباء، بل أشفق عليهم، ولا أريد أن أنتهي مشفقًا على نفسي.» وعندما أخذهما الكلام إلى حكاية كرمى مع والديها، واكتشفا أنَّهما شقيقان من دون أن يرتبطا بصلات الدم، امتقع وجه الفتاة، وقالت إنَّ علاقتها به هي علاقة محارم، وإنَّها لا تستطيع أن تكمل الطريق معه.

كان آدم يريد أن يقول لها إن لا وجود لطريق أصلًا، لكنَّه لم يقل. فالحكاية انتهت في تلك اللحظة لأنَّها كانت بلا أفق، وليس بسبب الأب الذي لم يكن بالنسبة إلى آدم سوى كابوس. لكن هذه الحكاية خلخلت مشاعره. فجأة، تحوَّل عبد الله الأشهل من جلَّاد إلى ضحيَّة، وصار للحكاية وجوهٌ متعدِّدة، بحيث بات من المتعذَّر روايتُها.

غوستاف البولنديّ الكهل، الذي هرب من غيتو وارسو، تاركًا شقيقتيه لمصيرهما البائس، أخذ آدم إلى الحبّ، وإلى قبول اقتراح دالية الزواج، وإنجاب طفل.

قالت إنَّها تريد ولدًا كي تسمِّيه غوستاف.

«أنا أحبّ جدّك، لكنْ غوستاف؟ هل أنت جادَّة؟»

«سمِّه ما شئت، لكنَّني سأدعوه غوستاف، كي لا تختفي ذاكرة الألم وتموت مع جدِّي.»

- 2 -

مضت السنون، وها هما معًا، وكان ليل. رجل تجاوز الخمسين. دبيب الشيخوخة يتسرَّب إلى مفاصله. قالت له إنَّ العمر يمضي، وحان الوقت. أومأ برأسه موافقًا، وفكَّر في أنَّها حين تحدَّثت عن العمر الذي يمضي، كانت تتحدَّث عن عمره هو. فحين يتجاوز الإنسان الخمسين، عليه أن يبدأ في طيِّ سجَّادة الحياة المفروشة على الأرض أمامه، وينحني كي يضمّ البقايا إلى البقايا. لكن آدم دنُّون اليوم على عتبة بداية جديدة. انقضت أكثر من تسعة أعوام في هذه العلاقة التي لا يعرف اسمها، وإذا عرف الاسم فإنَّه لا يعرف معناه، وإذا عرف المعنى فإنَّه لا يستطيع القبض عليه، لأنَّ مشكلة الحبّ هي أنَّ معانيه تفيض وتتّخذ ألوانًا مختلفة بحيث يصعب القبض عليها.

قالت إنَّ العمر يمضي، على الرَّغم من أنَّها، وهي في الرابعة والثلاثين، تشعر بأنَّ الحياة أمامها وليست وراءها. لماذا، إذًا، تريده زوجًا، وتريد أن تُنجب منه ولدًا؟ فكرة الزواج كانت تُحيله على صورة

أبيه المعلَّقةِ على ذاكرة منال، وفكرةُ الطفل كانت تأخذه إلى صورة شهلا ووليدها على حائط منزل الأشباح في وادي الصليب. أخذ صورة شهلا معه عندما غادر البيت مطرودًا، وانتقل بها إلى جميع الشقق التي أقام بها، وعندما رأت دالية الصورة موضوعةً بين ملفَّاته على طاولة مكتبه في العجمي، سألته مَن تكون صاحبتها، وبدلًا من أن يروي لها الحقيقة، تلعثم أمامها كالمتَّهَم.

«هل كنت متزوِّجًا؟» سألته، «ومَن هذا الطفل، هل هو ابنك؟»

«ابني، لا! مستحيل! أنا لم أتزوَّج، ولن أتزوَّج»، أجابها.

واضطرَّ إلى أن يروي لها سرَّ هذه الصورة.

«وتسمِّي هذا سرًّا! لم أكن أعرف أنَّك رومنطيقيّ»، قالت.

«أنا، لا . . . كنت طفلًا.»

قالت إنَّه لا يزال طفلًا، وإنَّها تحبّه من أجل الطفل.

قال لها، حين وصلا إلى جانب جامع البحر، «انظري إلى الصخرة التي تتماوج في الماء. هذا كلّ ما تبقّى من المدينة.»

لعب آدم خلال سنوات علاقته بدالية لعبةَ أسماء الحبّ، وروى لها أنَّ هناك عشرين اسمًا عربيًّا لحالات الحبّ المتنوّعة، وأنَّ الأسماء درجٌ علينا أن نصعده بتمهُّل كي ننتقل من حالة إلى حالة، فنصل في النهاية إلى اكتمال الحبّ فينا.

ولم تكن اللعبة ممكنة إلَّا عبر الترجمة، لكن آدم عجز عن ترجمة الكلمات. كان يكتفي بتقديم شروح لها، ثم يطلب من دالية أن تحفظها بلغتها الأصليَّة.

«غريب أمركم وأمر لغتكم مع المترادفات. هل يحتاج الله إلى

تسعة وتسعين اسمًا كي نتعرَّف إليه؟ نقول الله وكفى.»

«الله ليس اسمًا، إنَّه تلخيص للأسماء التسعة والتسعين»، قال، و«الحبّ أيضًا ليس اسمًا، إنَّه إدغام عشرين كلمة أو أكثر من أجل الاقتراب منه.»

«هذا لا معنى له»، أجابت، وقالت إنَّها تستمع إلى أمّ كلثوم من أجله، لكنَّها لا تفهم لماذا تكرِّر المغنِّية الجُمَل الموسيقيَّة نفسها بشكل لا ينتهي.

«إنَّها لا تكرِّر يا حبيبتي، بل تصعد درجات المقام كي تصل إلى اكتمال النغم.»

وعندما بدأت دالية تحبّ الأسماء وتردِّدها بلغة العرب، اكتشفت سرَّ أمّ كلثوم، وعرفت معنى الطرب الذي ليس نشوةً، مثلما يظنّ البعض، وإنَّما هو ذوبان كامل في الإيقاع.

وصارت تردّد مع آدم: الهوى، الصَّبوة، الصَّبابة، الدَّنَف، الشَّغَف، التتيُّم، الشَّجْو، التباريح، الشَّجَن، الجوَى، الوَجْد، الكَلَف، العِشْق، النَّجْوى، الشَّوْق، الوَصَب، الاستكانة، الوِدّ، الغرام والهُيام.

تعلَّما معًا كيف يصعدان دَرَجَ الحبّ، من الشهوة إلى اللهو، ومن الدخول في شغاف القلب إلى التعبُّد والحزن، وانتقلا إلى اللوعة وألم الحبّ، وسارا معًا إلى الذلّ والخضوع في انتظار حرير الحبّ الذي يتغلغل في جميع الحواسّ، ووصلا إلى الهُيام وجنونه. ترجم لداليةَ الحالات العشرين التي يمرّ بها الحبّ، كما وصفه العرب، لكنَّه لم يكن متأكِّدًا من معاني الكلمات، فترجمة كلمات الحبّ إلى لغات أخرى مستحيلة، لأنَّ الحبّ لا يُترجم. واحتار الرجل في أمره، هل

الصَّبابة مدخلٌ إلى الهُيام، وهل الهُيام هو الحبّ؟ لا يعرف إذا كان يفهم معنى هذا الشعور الذي سمُّوه الحبّ، حتى إنَّه لا يعرف سبب تعلُّقه بهذه المرأة. هل يحبّها لأنَّها تفتح في قلبه أنهار الكلام، أم يحبّها لأنَّها تأخذه إلى ليل الرغبة؟

«نحن في أيّ مرحلة الآن؟» سألته.

«لا أدري، ربَّما صرنا في مرحلة لا اسم لها.»

«سمِّها أنت»، قالت، «أخاف من العجز عن تسمية المشاعر، لأنَّ غياب الاسم يقود إلى السَّأمَ.»

«لِنَقُلْ إنّنا على عتبة السَّأم، فالإنسان العاقل لا يتزوَّج إلَّا بحثًا عن السَّأم.»

وانفجر ضاحكًا، لكن داليةَ لم تضحك. سحبت يدها من يده ومشت. لحق بها وقال إنَّه كان يمزح.

«تبدو كأنَّك ذاهب إلى الزواج مرغمًا.»

«أبدًا، أبدًا والله. أنا الذي يريدك، وأنا مَن طلب يدك من غوستاف.»

ابتسمت دالية حين تذكَّرت كيف ركع آدم تحت ملصق فيلمها الذي تحتلُّه صورة غوستاف، وطلب من الرجل العجوز يد حفيدته.

«لنَقُل إنَّنا في مرحلة اسمها الزواج»، قالت.

«الزواج لا علاقة له بأسماء الحبّ، كما أنَّ اسم الزوج بالعبريَّة الحديثة والعربيَّة القديمة كريهٌ: «بعلٌ» إله كنعانيّ، وأنا لا أحبّ أن أُدعى إلٰهَك أو بعلَك.»

قال إنَّهما في مرحلة اسمها حجر آدم، ونظر إلى بعيد البحر.

«انظري إلى الحجر الذي انبثق من قلب الماء. اسمه حجر آدم. وعندما كتب العاشق الأوَّل حكايته على الماء نبت هذا الحجر.»

قال إنَّه لا يعرف معنى هذه المرحلة. علينا أن نسبح كي نصل إلى هذا الحجر، وهناك نرى.

قال لها حين وصلا إلى جانب جامع البحر: انظري إلى الصخرة التي تتماوج مع الماء. هذه صخرة الحبّ التي دلَّني عليها رجل يُدعى أبا حسن. كنت أراه يجلس وحيدًا على هذا الشاطئ، وروى لي حكاياته، وطلب منِّي وعدًا بأن أسبح مع المرأة التي أحبّها إلى هذه الصخرة، لأنَّ مَن لا يصل إلى حجر آدم لا يستحقّ نعمة الحبّ.

- 3 -

في أماسي يافا، المدينة التي أقام بها آدم لأنَّها صارت ضاحية لتلّ أبيب حيث يعمل ناقدًا موسيقيًّا في صحيفة عبريَّة، كان البحر رفيقَه الوحيدَ. ينحدر من مقبرة البحر شبهِ المهجورة في اتِّجاه الشاطئ. يجلس على الرمل، ويستسلم للفراغ الذي يحتلّه. فقط أمام البحر تنحسر الأفكارُ والتداعيات والصور التي تكتظّ بها حياتُه، ويكتشف فراغَ الروح.

يأتي إلى هنا كي يتأمَّل شخصه اللامرئيَّ الذي يشبه ظلًّا على الرمل، فيرى نفسه منبسطًا ومسطَّحًا مثل صورة بلا أبعاد.

لم يكن بطل هذه القصَّة وراويها بَرِمًا بحياته. العكس هو الصحيح. كان مستمتعًا بقدرته على الاختباء خلف إيقاعات الموسيقى الشرقيَّة التي اكتشفها حين كان في الثلاثين.

أمّا كيف صار كاتبًا وناقدًا موسيقيًّا، وتخلَّى عن مهنته كمدرِّس للغة العربيَّة، فتلك حكاية تستحقّ أن تُروى.

كان ذلك مجرَّد مصادفة عجيبة، فهو، كجميع أبناء جيله المتأثِّرين بالفكر اليساريّ، كان يكره أمّ كلثوم. فبعد حرب الأيّام الستَّة شاع شتم أمّ كلثوم في أوساط النخب العربيَّة، باعتبارها مسؤولةً عن الهزيمة. لم يُعر آدم المسألةَ اهتمامًا، حتى إنَّه لم يفكِّر فيها. اعتنقها لأنَّها كانت موضة، بل إنَّه بشَّر بها تلاميذه في المدرسة حيث كان يعمل.

كان يحبّ ألحان محمَّد عبد الوهاب التحديثيَّة، ويعشق فيروز وصوتَها المخمليَّ، وينتشي بصوت عبد الحليم حافظ، لكنَّه يرى في أمّ كلثوم وفي مقاماتها وتكرارها عبارات الحبّ والتذلُّل تجسيدًا للتخلُّف العربيّ الذي قاد إلى الهزائم المتتالية.

وفجأة، وجد نفسه في حالة عجيبة. وفي لحظة انبهار بلا مقدِّمات، سقط أسير الطرب وسَكِرَ بالإيقاع، وانقلبت حياته رأسًا على عقب وهو يكتشف أنَّ هناك روحًا في داخله تتمرَّد عليه وتدفعه إلى حافَّة السجود والعبادة.

كان ذلك في بار صغير اسمه «بار مراكش»، في وادي الصليب. بعد طرده من الوادي في إثر انكشاف علاقته برفقة، أقام الفتى بفرن وادي النسناس في حيفا، ثم انتقل للإقامة بعدَّة أماكن إلى أن استقرَّ به المقام في شقَّة صغيرة في غيتو العرب في حيفا، بعد أن بدأ عمله كمدرِّس للغة العربيَّة في مدرسة حيفا.

لا يدري لماذا قادته قدماه إلى وادي الصليب. أغلب الظنّ أنَّه أراد أن يزور بيت الصور حيث أقام عندما كان يعمل في الكاراج. لم يقل لنفسه إنَّه اشتاق إلى شهلا المعلَّقة على حائط الذكريات، فلا مبرِّر لهذا الشوق، لأنَّه أخذ صورة شهلا معه، وتركها منسيَّةً على طاولته

المغطّاة بالصحف والكتب. رأى نفسه يمشي في اتّجاه وادي الصليب، فمشى. رأى بارًا صغيرًا اسمه «بار مراكش» فدخله. رأى نفسه محاطًا باليهود المغاربة الذين ملأوا الحيّ، فابتسم لهم. رأى في عيونهم علامات الكراهية لشكله الأشكينازيّ، فلم يبالِ. كان يعرف أنَّ دخول الحيّ ليس آمنًا، وخصوصًا بعد عصيان المغاربة الذي قاد إلى تشكيل ما سيُعرف باسم حركة الفهود السود، لكنَّه جلس على البار وشرب «الروج»، واستمتع بالموشَّحات الأندلسيَّة التي كانت تغنّيها امرأة كهلة يرافقها فتًى في السادسة عشرة من العمر يعزف على الكمان.

وفجأة، عمّ الصمت ودخلت الستّ.

كانوا يسمُّونها الستَّ، تيمُّنًا بأمّ كلثوم. وكانت الستّ امرأة مصريَّة في الأربعين، بيضاءَ البشرة، قصيرةَ القامة، ممتلئةَ الجسم، شفتاها مرسومتان بقلم أحمر سميك، وأنفها صغير لا يكاد يُرى، وضفيرتاها سوداوان، ووجهُها عريض يفترس عينيها الصغيرتين. وإلى جانبها رجلان، الأوّل كَهْلٌ أحدبُ يتوكّأ على عصاه كي لا يقع ويحمل في يده دربكّة، والثاني شابّ في العشرينيّات أسمرُ البشرة بوجه مستطيل يشبه وجوه المومياءات المصريَّة، وبعينين فاحمتين واسعتين بدتا كأنَّهما مكحَّلتان، يحمل عودًا. جلست الستّ على كرسيّ مخصَّص لها، بينما اقتعد الأحدبُ الأرضَ بدربكّته، أمّا العوَّاد فرفع قدمه اليمنى ووضعها على كرسيٍّ قبالته، واحتضن العود في حرجه، وبدأ يدوزن أوتاره.

شعر آدم بالاختناق من مناخ السكون الذي عمَّ البار. وفي اللحظة التي أراد فيها أن يخرج كي يستنشق الهواء ويَمْضي في حاله، انفجر الصوت، وغنَّت الستّ «أنا في انتظارك»، وبدأ آدم يترنَّح. وحين

وصلت إلى الذروة مع مقطع «أتقلّب على جمر النار» ساد المكانَ توهُّجٌ لا تفسيرَ له. غنَّت المقطع واستعادته بأشكال مختلفة. وفي كلِّ انعطافة في الصوت، كان آدم يشعر بأنَّ روحه تستيقظ من سباتها. أحسَّ بأنَّه لا يريدها أن تتوقَّف عن استعادة المقطع نفسه، كأنَّ التكرار صار أبديَّة من النشوة التي احتلَّت روحه وجسمه. فالتكرار لا يتكرَّر، بل يقوم في كلِّ مرَّة بإعادة تأويل النغم وصنعِه من جديد. أحسَّ آدم بأنَّه دخل حقلًا من الإثارة الجنسيَّة لا مركزَ له، فالجسم كلّه يصير أرضًا للإثارة وملعبًا للرغبات. كانت رغبته بلا هدف. المرأة القصيرة المستديرة القوام لا تقدِّم إليه أيَّ سبب للإثارة، لكن رغبته كانت تسبح فوق الجنس، كأنَّها تخبِّئ الجسد كي تتجلَّى الروح. أحسّ بأنَّه يتمايل. تُكرِّر فيتكرَّر. تُلوِّن فيتلوَّن. تهبط إلى أرض الإيقاع فتهبطُ روحه معها. تصعد فيصعد. سُكْرٌ بلا خمر، وخمرٌ مصنوعةٌ من عصارة الحياة. أغمض عينيه فرأى، وحين سمع صراخ «الله الله»، صرخ لإلٰه انبثق من أحشائه.

وبينما كان الطرب يستولي على كعب روحه، ويصعد من أعماق خصيتيه إلى عينيه، رأى فتاة بيضاء البشرة تأتي من لامكان، تتوسَّط الحلبة، وهي تلبس جلّابة مغربيَّة وتبدأ في الرقص. لم تكن ترقص، كانت تتبع إيقاع خصرها الذي يرتعش بالتموُّجات، وتدور على محور يصعد من باطن قدميها إلى أعلى صدرها، ثم يصل إلى العنق ليجعله مدخلًا إلى عينين تنعكس فيهما ظلال لا عدد لها. الستّ المصريَّة تغنِّي، والفتاة المغربيَّة، التي كانوا يدعونها نجمة، تتلوَّى، والرجل الطويل ذو الشعر الكستنائيّ يجلس وسط هذه المجموعة من اليهود العرب والأمازيغ، ويكتشف ما لا يمكن ترجمته إلى كلمات، على

الرَّغم من أنَّ العرب أطلقت عليه اسم الطرب. طَرَبُ الصوت امتدّ إلى الخصر الذي صار محور الكون. الخصر يضبط إيقاع الجسد، وجسد الراقصة صار آلة موسيقيَّة تعزف إيقاعات الفصول. كأنّ منعطفات جسد نجمة قنواتٌ تسري فيها الموسيقى، فتطلُّ من شرفات جسدها الرغباتُ. تكرج آهاتُ الستّ في ثنايا الجسد، وحين تلامس الخصر تتمرجح النشوة بين الثديين والردفين. وفي اللحظة التي استسلم فيها الرجال الجالسون في البار لأرجوحة النشوة، بدأوا بخلع قمصانهم والتلويح بها. خلع آدم قميصه، وانبجست الدموع من عينيه، ورأى كيف تَظَلَّل المكان بأنوثة الطرب.

لا يذكر آدم ماذا جرى، فالسُّكْر بالموسيقى والصوت والرقص تَعْتَعَهُ. يذكر أنَّه خرج من البار بعد انسحاب المغنِّية والراقصة، وأنَّه مشى في وادي الصليب وصعد إلى الكرمل، حيث جلس على مقعده الحجريّ في ستيلَّا مارس، لكنَّه لا يذكر كيف قادته قدماه إلى البيت، وكيف وجد نفسه في صباح اليوم التالي نائمًا في سريره.

اكتشف آدم في نوستالجيا هؤلاء اليهود العرب، بإيقاعات أرواحهم حنينًا أخرسَ يختبئ في تلافيف قلبه، فالطربُ أنثى، والغوايةُ خصرٌ، والصوتُ آلة تختصر الموسيقى. صارت أمّ كلثوم رفيقتَه في عتمة صورته. اشترى أسطوانات الستّ، وبدأ يتدرَّج مع صوتها في اكتشاف أنوثة العالم، وفي الدخول في أمواج اللغة التي تصير خطوطًا ومثلَّثاتٍ ودوائرَ تحتضن الأشياء.

في مقاله الأوَّل الذي أرسله إلى صحيفة «هعير» في تلّ أبيب، كتب عن لحظة الطرب في البار. كان متيقِّنًا من أنَّ الصحيفة لن تهتمّ بمقاله، لكنَّه فوجئ به منشورًا على صفحة كاملة، وباتِّصال من أحد

محرِّري الصحيفة، وكان عربيًّا يُدعى ألكسندر خوري، يطلب منه كتابة مقال أسبوعي عن الموسيقى العربيَّة. هنا، بدأت رحلة آدم إلى عالمه الجديد. صار كاتبًا من خلال الموسيقى العربيَّة، وانفتحت أمامه كنوز كتاب «الأغاني» للأصفهاني. صار ابن الغيتو مرجعًا في التراث الموسيقيّ العربيّ، حتى إنَّ مجموعة من الموسيقيِّين المصريِّين المهاجرين إلى «أرض الميعاد»، الذين أسَّسوا «كافيه كايرو»، وجعلوه مركزًا لعزف الموسيقى العربيَّة، طلبوا منه افتتاح مقهاهم بمحاضرة عن الطرب العربيّ.

وقال له الكريم خود، وانقلبت حياته رأسًا على عقب. استقال من التعليم وانتقل إلى الإقامة بتلّ أبيب ـ يافو (هكذا صار اسم فيحاء فلسطين بعد طرد سكَّانها منها وإلحاقها ببلديَّة تلّ أبيب). استأجر بيتًا في غيتو حيّ العجمي، وعاش ليله في بارات المدينة الكوزموبوليتيَّة التي كتب عنها أنَّها تشبه بيروت، مع أنَّه لم يزر العاصمة اللبنانيَّة.

في رحلته الجديدة، اكتشف آدم في الطرب العربيّ المرآةَ التي تعكس صورة الرجل اللامرئيّ التي رسمها لنفسه منذ لحظة مغادرته منزلَ زوج أمّه في الكرمل. في الكاراج، ثم في مدرسة المطران، وفي ثانويَّة حيفا، وفي الجامعة، لبس آدم طاقيَّة الإخفاء، وكان الأمر في منتهى السهولة. اكتشف، عندما ترك منالَ وراءه، أنَّه لم يكن سوى ظلّ لامرأة لم تكن هي الأُخرى سوى ظلّ لحكاية، وأنَّهما، هو وأمَّه، كانا يعيشان على حافَّة الحياة.

عاش بلا صورته، كأن لا مرآة له، فمراياه كانت تمحو صورته. والامِّحاءُ الأكثر إيلامًا كان حين وجد، بعد تخرُّجه من جامعة حيفا بماجستير في الأدب العبريّ، أنَّ عليه أن يدرِّس الأدب العربيّ، لا

لشيء إلَّا لأنَّ رقم هويَّته يُشير إلى أنَّه عربيّ، وليس يهوديًّا.

في ليلة الطرب في «بار مراكش» في وادي الصليب، اكتشف سحر العالم اللامرئيّ الذي يختبئ في ثنايا روحه، وأنَّ هذا العالم سيكون مرآته التي تسمح له بأن يختفي كلِّيًّا خلف الموسيقى، فصارت الموسيقى العربيَّة سلّمه إلى الامِّحاء، وطريقه إلى اللعب والتحوُّل إلى خلاسيٍّ متعدّد الوجوه.

- 4 -

كان يُدعى أبا حسن الحجر، وهذا ليس اسمه، لكنَّ الاسم التصق به، ولم يعد قادرًا على التخلّي عنه.

«الاسم ثوب لا نستطيع أن نخلعه. فقط المهاجرون قادرون على خلع أسمائهم كي يلبَسوا أسماء جديدة. وأنا لست مهاجرًا. بلى، كنت مهاجرًا، لكنّي لم ألبَس اسمًا جديدًا إلّا حين عدت إلى مدينتي. الأمر غريب. صارت عودتي الأخيرة إلى مسقطي، حيث سأموت، هي هجرتي. الموت هو الهجرة الكبرى، يا ابني. عدت ورأيت نفسي من دون أن أدري، أخيط ثوب اسمي بيدي. أردت أن تكون عودتي بداية، فانتهيت على شاطئ يافا، أجلس قبالة هذا الحجر الذي عَرَفني طفلًا، واحتفى بي شابًّا، وغاب عن عينَيَّ طوال العمر الذي أمضيته في أميركا. وحين عدت إليه، اكتشفت أنّني لم أعد قادرًا على رؤيته بعينَيَّ اللتين غزاهما بياضُ العمر، فالكهولة ليست سوى تدريب على عتمة الموت. هناك تسبح أرواح البشر وتهيم في فضاء يشبه اللجّة العمياء.

أنا لا أراه بشكل واضح، لكنَّ الحجر يراني، وهذا يكفي.»

على رمال الشاطئ التقى آدمُ هذا الكهلَ الغريب الأطوار. كان يراه جالسًا على المقعد الحجريّ نفسِه في مواجهة صخرة بدت كأنَّها مرميَّة في البحر. وصارا أليفين. صار آدم يتعمَّد، عند خروجه للمشي على الشاطئ، أن يمرّ أمام المقعد الحجريّ، فيرى الرجل جالسًا في مكانه، كأنَّه التصق بالمكان. وفي إحدى المرَّات، حيّاه باللغة العبريَّة، فردَّ الرجل بشتيمة باللغة العربيَّة. ابتسم آدم واقترب منه.

«ليش عم تشتمني؟ أنا إيش سوِّيت؟»

«إنت عربي؟» سأل الرجل، «ليش بتحكي زيّ الخواجات؟»

ردّ آدم بالعبريَّة قبل أن ينفجر ضاحكًا، ويسأل الرجل عن أحواله.

بدأت الصداقة بشتيمة، ومن الشتيمة تدرَّج الكلام. روى آدم أنَّ من الصعب العثورَ على شتائم باللغة العبريَّة، لذا فاليهود زيّنا يشتمون بالعربيَّة.

«حتى المسبّات سرقوها»، قال الكهل، «العمى، ما خلُّولنا إشي.»

«عشان هيك فكَّرتك يهودي.»

«أنا؟» وانفجر الرجل ضاحكًا.

احتار آدم بماذا يجاوب، فهو لم يفكِّر في مفارقة غياب الشتائم عن اللغة العبريَّة، وهو ما جعل أبناء عمِّنا يضطرُّون إلى الشتم بالعربيَّة قبل أن يبدأوا مؤخَّرًا بصوغ شتائمهم الخاصَّة. ولم يفقه دلالات هذه المسألة إلَّا خلال محاضرة مأمون في جامعة نيويورك، حين شرح، في تقديمه قراءتَه شعرَ محمود درويش، فكرةَ التمييز التي صاغها النقّاد العرب في

العصر العبَّاسي بين الشعر والدين، وذلك خوفًا من أن تصير اللغة العربيَّة، وهي لغةُ القرآن، مقدَّسةً. «اللغة المقدَّسة تموت كلغة وتصير غير صالحة للحياة»، قال مأمون. عندما استمع آدم إلى هذه المحاضرة، تذكَّر حواره مع أبي حسن الحجر، وفهم أنَّ الشتيمة هي كنز لغويّ من الاستعارات والكنايات التي تُشير إلى الحيويَّة الاستعماليَّة للغة.

«بتعرف أحلى إشي بلغّتنا، هو المسبّات، هون بتظهر عبقريَّة اللغة.»

«هيئتك اختصاصي مسبّات»، قال الرجل. «عندك حقّ، أنا بأميركا كنت أشتم بالعربي، يمكن منشان هيك في ناس كتار افتكروني يهودي، وكنت أطنّش.»

«وحدا بيجي من أميركا على هالبلاد؟»

قال أبو حسن إنَّه ترك كلّ شيء وراءه وعاد من أجل المقبرة والصخرة. «مقبرة البحر يلّي صارت شبه خربانة، هون بدِّي إندفن، هيك قلت لأولادي.»

لم تكن أميركا سوى محطَّة عبور، هكذا اعتقد أبو حسن الحجر طوال حياته. وحين أزمع على الرحيل كي يعود إلى يافا، اكتشف أنَّ ما افترضه معبرًا صار بيتًا جديدًا لأولاده الثلاثة الذين وُلدوا في أميركا وتربُّوا فيها وتأمركوا. فعاد وحده ليعيش وحيدًا وغريبًا، في مدينته التي لم يبق منها سوى أطلال مرسومة في ذاكرته. استأجر بيتًا في العجمي، وأقام هنا منذ خمسة أعوام، وصار متسلِّلًا، لأنَّ تأشيرته لا تسمح له بالبقاء أكثر من ثلاثة أشهر. «كنت آجي وأبقى ثلاثة أشهر وبعدين أرجع ع أميركا أُقعد شهر وما لاقي حالي إلَّا رجعت. وبعدين تعبت،

إجيت وما رجعت. قلت لحسن ابني الكبير: خلص، انسوني. والمفاجأة كانت أنَّهم نسيوني. بنتي هند تلفنتلي وبكيت، وبعدين هي كمان نسيتني. وابني الثاني عايش بآخر الدنيا، بعرفش شو أخدوا عَ نيوزيلندا، واسمه عمر، وهو كان ناسينا كلّنا. متزوِّج واحدة بعرفش شو ربّها، برازيليَّة سمرا وبتشتغل رقّاصة فلامنكو، إجاها شغل بنيوزلندا، لحقها واختفى.»

قال إنَّ زوجته الشركسيَّة ماتت في أميركا، وإنَّ ما جعله يُصاب بلوثة العودة هو أنَّها كانت تهمس، في سرير احتضارها، بأنَّها لا تريد أن تموت في أرض غريبة. بعد موتها، شعرتُ بأنَّ «أميركا انتهت بالنسبة إليّ، وأنَّ عليَّ أن أمضي، وأتيت. لكنَّني أشعر أيضًا بأنَّني غريب، الأمكنة تتغيَّر، مثلما يتغيَّر البشر. ولولا رائحةُ البحر، وذاكرةُ هذا الحجر، وصورةُ أخي أحمد وهو يطفو فوق دمه وسط الأمواج أمام مستعمرة بات يام، لَما وجدت يافا في يافا.»

قال آدم لدالية إنَّه لم يستلطف هذا الرجل، فحكايات مرض الحنين لم تعد تُثير اهتمامه. قال إنَّه خرج من بيت زوج أمّه وقرَّر ألَّا ينظر إلى الوراء، «يجب أن نتخلَّى عن الوراء وننسى الماضي. أنا لا أحبّ أن أكون، كجميع الفلسطينيِّين، نصفَ يهوديّ، أستعير من اليهود أسطورة أرض الميعاد وأعيش في الماضي. بدلًا من أن أكون نصف يهوديّ، صرت يهوديًا كاملًا. لكنَّني لم أنجح. حاولت وحاولت. لم أترك شيئًا يعتب عليّ، ولم تزبط بشكل كامل. بلى، يعني زبطت كقناع، إلى أن جئت أنتِ لا أعلم من أين، ونزعتِ القناع عن وجهي، لتكتشفي رجلًا مهزومًا. يبدو أنَّك مهووسة بحبِّ المهزومين، وهذه فضيلة، لكنَّها لا تكفي كي نصنع حياة مشتركة. اكتشفت أنَّك مثلنا/

مثلهم، صرت نصفَ فلسطينيَّة. كنت أحدِّثك عن وارسو، وأنت تحدِّثينني عن دير طريف. أروي لجدّك عن أبطال انتفاضة الغيتو، وأنت تروين عن أبي الذي سقط في معركة اللِّدّ. ما هذه اللعبة؟ لقد صرنا غريبين بلا مكان نلجأ إليه. ربَّما هذا هو الحبّ: أن تكون غريبًا فتلتقي غريبًا آخر، وتصيرا مثل جميع الغرباء عرضةً لموت بلا رثاء.

قال آدم إنَّ هذا الرجل أثار فضوله، ليس بسبب حنينه المَرَضيّ إلى يافا الذي حوَّله إلى ما يشبه الحجر، يجلس ساعاتٍ طويلةً على الشاطئ كي يتأمَّل حجرًا غريبًا نبت وسط الأمواج كأنَّه صخرة مروَّسة الرأس تشمخ وسط صخور منخفضة يغطِّيها الماء، بل لأنَّ حكايته مع التسلُّل إلى يافا تشبه حكاية عبد الله الأشهل في تسلُّله إلى حيفا، حيث وجد في منالَ غريبتَه وضحيَّتَه.

عبد الله الأشهل كان حجرًا أيضًا، وهناك آلاف الرجال والنساء الذين صاروا صامتين كالحجارة في هذه البلاد. أمَّا آدم، فاختار أن يكون حجرًا ناطقًا، يملأ حياته بصخب الكلام الذي يُخفي استكانة الحجر إلى مصيره.

«أنا مثل تميم بن مقبل العامريّ الذي تمنَّى أن يكون حجرًا كي لا يشعر بآلام الحبّ وأوجاع الذنوب، بعد أن فرَّقه الإسلام عن دهماء زوجة أبيه التي عشقها بعد وفاة والده وتزوَّجها، على عادة أهل الجاهليَّة:

«هل عاشقٌ نال من دهماءَ حاجتَه / في الجاهليَّة قبل الدين مرحومُ / ما أطيبَ العيشِ لو أنَّ الفتى حَجَرٌ / تنبو الحوادثُ عنه وهو ملمومُ»

ذكَّره تميم بشاعره وضّاح اليمن. الأوَّل تمنَّى أن يصير حَجَرًا ملمومًا بالصمت، والثاني صار صندوقًا لصمت الحبِّ. قال لدالية إنَّ الرجل الكَهْلَ حجرٌ مرميٌّ على الشاطئ، وإنَّ حجر آدم يشبه رجلًا حقَّق نبوءة الشاعر الجاهليّ فتحوَّل إلى صخرة وسط الماء.

«لماذا اسمه حجر آدم؟» سألت.

«لا أدري، بعضهم يطلق عليه اسم صخرة آندروميدا، نسبةً إلى الإلٰهة اليونانيَّة التي تحمل الاسم نفسَه. جميع اليافويِّين، الذين التقيتهم، قالوا إنَّ اسمه حجر آدم، نسبة إلى سيِّدنا آدم عليه السلام. ويُقال إنَّ آدم وقف على هذه الصخرة وبكى ابنه هابيل. وأنا أحببت الاسم، فالصخرة تبدو غريبة، بانحناءاتها ورأسها المدبَّب. أغراني أبو حسن بحكاياته الغراميَّة على هذه الصخرة، وأنا صدَّقتها، وعليَّ أن أجرِّب الحبَّ على منحنياتها الصعبة كي أتعمَّد باسمي. فهذه صخرتي، وأنت امرأتي.»

إذا أراد آدم أن يصف أبا حسن، فإنَّه لن يجد سوى صفة الرجل الذي يختبئ في صورته. حين يتذكَّره، يرى أمامه رجلًا مختبئًا تحت جناحَي قصَّته. يجلس صامتًا كأنَّه حقَّق أمنية الشاعر الجاهليّ. يتحجَّر في مكانه. عيناه اللتان صارتا لا تريان الأشياء إلَّا كظلال، مسمَّرتان على البحر، ينظر كأنَّه يرى، ويستأنس بهدير الموج.

قال أبو حسن إنَّ الماء هو أوَّل الموسيقى، وروى عن تجربته مع موسيقى الماء في شاطئ في ماساشوشتس يُدعى «كايب كود»، «هناك سمعتُ إيقاعات بحر يافا، وهناك أحسست بالألم، ووعدت نفسي بأنَّني لن أموت إلَّا هنا، أمام هذا الشاطئ الذي علَّمني موسيقى العَلاقة بين الجسد والماء.»

لم يروِ أبو حسن يومًا حكايته. كان يتكلَّم نتف الكلام. حتى آدم لم يشعر يومًا بأنَّ هذا الرجل يمتلك حكاية يمكن أن نجد لها نَسَقًا، ولم يكتشف نَسَقَ الحكاية إلَّا مع دالية وهما يمشيان على الشاطئ الرمليّ.

هزَّت دالية رأسها من دون أن تجاوب، فهي تحبّ كلّ شيء في هذا الرجل، حتى ميوله إلى التنظير بسرعة، ثم الانقلاب على أفكاره ونظريَّاته كأنَّه يلعب بالكلام. لكنَّها لا تعتقد أنَّ الحبّ يصنع الحكايات أو يجعلها ممكنة، فالحكاية التي سمعتها عن الرجل الحجر موجودةٌ، سواء رواها آدم أو لم يَرْوِها.

«ماذا جرى للرجل؟» سألته.

«لا أعرف، اختفى مثلما ظهر. هل مات ودُفن هنا، كما كانت رغبته، أم إنَّ ابنته جاءت وأخذته إلى أميركا بعد أن أعياه المرض ودفنته هناك؟ لكن هذا ليس مهمًّا»، قال آدم، «فأنا لم أعرفه عن قرب. استمعت إلى حكاياته التي اندثرت الآن، وأغرتني قصَّته مع الحجر. وحين عزمنا على الزواج، قلت يجب أن نأتي إلى هنا ونسبح معًا إلى الصخرة، وأوفي بوعدي لنفسي، بأن أفضّ بكارتك على حجر آدم.»

«بكارتي؟ قلت بكارتي؟ أنت معتوه. بكارتي لم توجَد كي يفضّها أحد.»

قال آدم ما قاله، لكنَّه لم يكن يقصد البكارة بمعناها الفعليّ. فهو يجد أنَّ ما نطلق عليه اسم فضّ البكارة هو عملٌ لا معنى له، ولقد اختبر شعور اللامعنى وخاف منه مع رَفقة، وكان في السادسة عشرة.

قال لدالية عن البكارة لكنَّه كان يعني شيئًا آخر. كان يريد أن يقول إنَّه يريد أن يأخذها إلى صخرة آدم، كي يبدأ معها حكاية الحبِّ من الأوَّل.

قال لها إنَّه يريدها من الأوّل، وهنا يقع الخطأ الذي لا يستطيع أحد ألَّا يقع فيه.

«توقَّف عن الثرثرة»، قالت. خلعت فستانها الأخضر، ورمته على الشاطئ. مشت صوب الماء، وقالت إنَّها ستنتظره على حجر آدم.

- 5 -

ندم آدم لأنَّه روى لدالية حكاية أبي حسن الحجر، إذ بدت الحكاية ناقصة. وكان عليه، كي ينقذ الحكاية، أن يؤلِّف قصصًا غراميَّة للرجل الكهل، ويقوِّله ما لم يقل، كأن يجعله يروي أنَّه أخذ إلى الحجر الفتاةَ التي أحبَّها، وهناك نام معها وأقسم على الزواج بها.

«وهل تزوَّجها؟» سألت دالية.

«لا.»

«لماذا؟»

«النكبة»، أجابها، «النكبة مزَّقت الناس»، «أضعتُ الفتاة وأضعت كلّ شيء، أنا كنت في أميركا وهي كانت هنا.» وعندما سألته هل بحث عنها؟ قال إنَّها ماتت خلال احتلال المدينة.

لم يقل أبو حسن الحقيقة، فالكوارث، على الرَّغم من مآسيها، تحرِّر الضحايا من الحقيقة، وتجعلهم يجدون تبريرًا لكلِّ شيء. هذا ما

رواه آدم على لسان الرجل. لكنَّ الكاذب الحقيقيّ كان آدم، فالرجل الكهل لم يروِ أنَّه ضاجع صديقته هناك، بل لم يروِ شيئًا عن النساء في هذه المرحلة المبكرة من عمره. الحقيقة أنَّ آدم سأل أبا حسن عن إمكان مضاجعة امرأة على هذه الصخرة المدبَّبة الرأس، فدلَّه الرجل ضاحكًا على أماكن متعدِّدة على الشاطئ الرمليّ تصلح لممارسة الجنس. أمّا على الصخرة، فهذا صعب، «كنَّا نسبح من حجر الطبليَّة إلى حجر آدم. نتسلَّق أعلى الحجر، وننتظر موجة عالية ترفع منسوب الماء لأنَّ المنطقة كانت ملأى بالصخور، ونقفز.» قال أبو حسن إنَّه كان فتًى لم يتجاوز الخامسة عشرة عندما كان يقفز من صخرة آدم، «وبعدين روَّحت أدرس بمدرسة الفرندز برام الله، ومن هناك عَ أميركا بعد المتريكيوليشن.»

آدم لا يعرف حكاية الرجل، لكنَّه رواها بنواقصها من أجل إغواء دالية وإقناعها بالسباحة إلى الحجر بسبب متخيَّل غراميّ أوحى إليه بأنَّ مضاجعة دالية على حجر آدم ستشكِّل بداية جديدة لعلاقتهما.

وآدم لم يكذب بلا سبب، فهو يعتقد أنَّنا لا نعرف من الحكايات والأخبار التي نرويها سوى أجزاء منها، لأنَّ كلّ حكاية تحمل أسرارها ووجوهَها المتنوِّعة. ومهما يجتهدْ كتّاب الروايات، فإنَّهم يبقون عاجزين عن رواية الحكاية بشكل كامل. هذا هو السبب الذي منعه من كتابة الرواية. ولهذا لم يستطع الانتقال في كتابة حكاية وضّاح اليمن، من التأمُّلات والسرد المتقطِّع، إلى بناء حكاية متكاملة.

أمَّا قصَّته الشخصيَّة التي أخذته دالية إلى تخومها، فعصيَّة على التحوُّل إلى سياق متكامل، وهو لن يسقط في فخِّ تميم بن مقبل، مثلما اقترحت عليه دالية.

«أنت لم تحبّ سوى امرأة واحدة»، قالت، «وحكايتك مع رَفقة كانت مستحيلة، ليس بسبب والدها غابرييل، بل لسبب آخر هو أنَّها لا تشبه أمّك. هذا هو سبب فشلك مع جميع النساء. والآن، عليك أن تقتنع بأنّني أشبه منالَ، كي تستطيع علاقتنا أن تستمرّ.»

«تتكلّمين على الفشل! أنا فاشل! الله يسامحك. كلّه مقبول منك ما عدا حكاية منال». «منال لا» قال، «أنا لست تميم بن مقبل.»

«إيش هادا؟ تميم بن مقبل؟» سألت بالعربيَّة التي لا تعرفها.

كيف يروي لها عن تميم بن مقبل؟ في الماضي حاول أن يروي لها عن وضّاح اليمن، فلم تعجبها القصَّة. قالت إنَّها حكاية رومانسيَّة بلا معنى، «هذا الوضَّاح أهبل، ليس لأنَّه لم ينتفض لحظة دفنه حيًّا في الصندوق الدمشقيّ على يد الخليفة الأمويّ، فكلّ قصَّة دفنه حيًّا ليست مؤكَّدة ولا يمكن البرهنة عليها، لأن لا وجود سوى لشاهد واحد هو القاتل، والشاهد لم يشهد ولم يُخبر أحدًا؛ بل لأنَّه قبل بأن يُدفن في الصندوق طوال إقامته بالقصر مع حبيبته زوجة الخليفة. ما هذه الحياة؟»

«لكنّه كان يحبّها.»

«إذا كان الحبّ هكذا فبلاه أفضل. ثم هذا ليس حبًّا»، قالت، «هذه تركيبة قصصيَّة تصلح للكسل العاطفيّ، وأنا لا أحبّ الكسل.» وقالت إنَّها تريد أن تُخرجه من صندوق هذه المسرحيَّة الذي عاش فيه، «لا أفهم لماذا رضيتَ بهذه اللعبة وأتقنتها إلى درجة أنَّك خدعتني في البداية ثم انزلق لسانك. خلص، أنا لا أريد الوهم. أريد أن أعيش معك الحقيقة كما هي.»

سيرة تميم بن مقبل هي الوجه الآخر لحكاية وضّاح اليمن. إنَّها حكاية واقعيَّة وجارحة، وتمسّ المقدَّسات، لذلك لم يحفل بها مؤرِّخو الأدب العربيّ، ولم يبقَ منها سوى صرخة الشاعر «ما أطيب العيش لو أنَّ الفتى حَجَرٌ». أُخرج هذا الصَّدْر الشعريّ من سياقه ومن مرجعه الواقعيّ، وصار استعارة بذاته. هذا النوع من الاستعارات أطلق عليه آدم اسم الاستعارة المستديرة.

روى لدالية أنَّ الاستعارة المستديرة تختلف عن الاستعارات الأُخرى، لأنَّها لا تُحيل على شيء خارجها، وإنَّما تُقتطع من سياقها وتصير وعاءً يمكن إسقاط تجارب الناس الشخصيَّة فيه من دون مرجعها. قال إنَّ الأدب لن يصير شفَّافًا كالموسيقى، وموحيًا كالرقص، إلَّا حين يتحوَّل إلى استعارة مستديرة؛ أي إلى معنى أبيض، أو إلى ما قبل المعنى. وعندها يمكن أن يختزن كلَّ الاحتمالات.

حاول أن يشرح لها أنَّه لم يدفن نفسه في صندوق يشبه صندوق وضّاح اليمن إلَّا لأنَّه أراد للحكاية أن تختفي، ولا يبقى منها سوى صورة الرجل الغريب الذي لا يبحث عن شيء ولا يريد شيئًا، بل يجول في أقبية التاريخ الدمويَّة مثلَ سائح، ولا مهمَّة له سوى أن يتدرَّبَ على الموت.

كان أبو حسن الحجر، بالنسبة إليه، استعارةً مستديرة، فالرجل لم يَرْوِ حكايات النكبة وكيف انهارت يافا وتشرَّد ناسها وركبوا القوارب التي أخذتهم إلى مجهول البحر والمنفى. وعندما سأله آدم أن يبدأ حكايته من أوَّل النكبة، قال الرجل إنَّ النكبة لا أوَّل لها بالنسبة إليه، فالنكبة هي الأوَّل الذي نسخ كلّ شيء قبله، كما أنَّه لا يعرف النكبة إلَّا بصفتها غُربة. لم يكن هناك، ولم يعش التجربة إلَّا من حكايات

أهله، وهو لا يحبّ أن يروي حكايات سمعها من الآخرين. الحكاية التي تستحقّ أن تُروى هي الحكاية الي عاشها راويها، أمّا أن ننقل عن فلان الذي روى عن فلان آخر، وهذا ما يسمّيه العرب العنعنة، فأمر لا يُثير سوى الملل.

وحكاية أبي حسن جعلت منه استعارة مدوَّرة تبدأ وتنتهي على هذا الشاطئ. كلّ شيء قبلها كان مقدِّماتٍ لها، ولا شيءَ بعدها، لأنَّ الموت هو الخاتمةُ التي تُحيل التجارب الإنسانيَّة على حكايات.

قال إنَّه صار لقيط المصادفة، «كان عمري 17 سنة. تخرَّجت من مدرسة الفرندر في رام الله، ووجدتني أنال منحة للدراسة في جامعة برنستون. القصَّة فيهاش إشي. هيدول الكويكرز يلّي بيسمُّوا حالهم الأصدقاء، حالة غريبة. أعطوني المنحة لأنّي كنت الأوَّل بالصفّ بالرياضيَّات والفيزيا، وسافرت بعد شهرين بالبحر، وهيّ كانت.»

كان ذلك في آب 1947. كان يوسف شحادة في السابعة عشرة، الابن الرابع لموسى شحادة الذي أنجب أربعة عشر ابنًا وابنة، سلم منهم تسعة. أربعة ماتوا رضّعًا، والخامس مات في سنة 1946، حين سبح من حجر آدم تسلُّلًا إلى مستعمرة بات يام المحاذية، فأطلق المستوطنون عليه النار، ومات.

يوسف كان الابن السادس لعائلة من الصيَّادين، لكن أمّه القويَّة الشخصيَّة، هكذا وصفها لآدم، أصرَّت على أن يكمل دراسته في مدرسة الفرندز في رام الله بمنحة نالها بسبب تفوُّقه في المدرسة في يافا. ولأنَّ أمّه وجدت طريقة للاتِّصال بجماعة من الكويكرز الأميركيِّين، جاءت إلى يافا بحثًا عن أتباع لهذا المذهب البروتستانتيّ

الذي لم يكن أحد في فلسطين قد سمع به.

قال يوسف إنّه، حين جاءه عرض المنحة إلى أميركا، تردَّد كثيرًا، لكنَّه في النهاية اقتنع برأي أمّه بأنَّ الإنسان لا يستطيع معاندة قَدَره.

وهناك في أميركا تبنَّته امرأة اميركيَّة تُدعى أنجيلا وزوجها جون طومسون، اللذان لم ينجبا أولادًا، «صرت زيّ كأنّي ابنهم، لا مش كأنّي، صرت ابنهم الحقيقيّ، ولسّه بحسّ أنجيلا أمّي الثانية، وكنت ناوي أسمّي هند أنجيلا، لكن مرتي رقيّة أصرَّت على هند، لأنَّها اكتشفت الطبخ الهنديّ بأميركا، وهلكت سلّافنا بأكل الشطَّة.»

قال أبو حسن إنَّه يستطيع أن يصف نفسه بأنَّه مسلم كويكرز، «لا، الحقيقة أنا نصف مؤمن، وأريد أن أموت على دين محمَّد، بس يا زلمي فيك تكون مسلم وكويكرز وملحد وكويكرز، وإلى آخره... إشي عجيب.»

ما إنَّ انتهى العامّ الدراسي الأوَّل حتى وجد أبو حسن نفسه وحيدًا. أضاع أهله الذين أخذتهم النكبة في طُرُقاتها الوعرة، ولم يعثر عليهم مشتَّتين بين لبنان والأردن إلَّا بعد أشهر طويلة من المعاناة. وهنا كان على الفتى أن يتَّخذ القرار بشأن معنى حياته. أقنعته أنجيلا بلا معنى قطع دراسته والعودة، ووجد نفسه بلا مكان يعود إليه، وفهم أنَّ طريقه قد رُسم، وعليه أن يصنع حياته من الركام.

قالت له المرأة الأميركيَّة وهي تعترف بخفر، إنَّه أوَّل حبّ في حياتها، «لا تفهمني خطأ، فالمرأة لا تكتشف الحبّ الحقيقيّ الذي ينغرس في أعماقها إلى الأبد إلَّا حين تنجب ولدًا، وأنا لم أنجب، وأرسلك الله إليَّ ابنًا مكتملًا، فتبنّيتك. الآن، أفهم صمت مريم أمّ

يسوع أمام ابنها المعلّق على الصليب. كلّهم حكوا عنه إلّا هي. هذا هو الفرق بينها وبين مريم المجدليَّة وبقيَّة المريمات. المجدليَّة رأته بعد قيامته حين صار أثيريًّا يلبَس جسدًا لا يشبه جسده، وتكلَّمت معه وبشَّرت بقيامته. أمَّا أمُّه، فكانت أمَّه. هي وحدها مَن أحبَّته وعرفته، وتمنَّت الموت لنفسها كي تلحق به. لم تعنِ لها قيامته سوى شكلٍ آخر للموت. فالموت هو الفراق حين يصير مَن نحبّهم غرباءَ عنّا، واحتفظت بحزنها سرًّا لم تَبُحْ به لأحد.»

كانت أنجيلا في الخمسين، طويلة وممتلئة. شعرها الأسود الطويل ينحدر على كتفيها كأنَّها تشبه المريمات، تعمل متطوّعة في مركز للأطفال المعوَّقين، وتساعد زوجها المستر طومسون في عمله كصاحب معمل صغير للقمصان. وجد الاثنان في يوسف شحادة ابنًا تمنَّياه طوال حياتيهما، ولم يكن أمام يوسف خِيارٌ آخر، فقد وجد فيهما بديلًا من أحزان والده الصيَّاد الذي كان يعيش كأنَّ الحياة تفلت من شباكه، ومن أمِّه التي ربَّت أولادها بقسوة الفقر، وبسلطة امرأة تقود سفينة موشكة على الغرق.

«بقائي مقامرة وذهابي مقامرة»، أجاب يوسف أمّه الأميركيَّة.

«فلنقامر معًا»، قالت.

هكذا كتب الرجل حياته بصفتها مقامرة. عمل في أوقات فراغه في جلي الصحون، وبدأ يرسل ما تيسَّر إلى أهله الذين استقرّ بهم المقام في لبنان، لكنَّه اكتشف أنَّه لم يعد يملك جواز سفر. جوازه الفلسطينيّ فَقَدَ شرعيَّته مع اختفاء فلسطين عن الخريطة، وهو لا يملك جوازًا آخر. ولم تصبح هذه الواقعة مشكلة إلّا بعد أن أنهى تعليمه

الجامعيّ وتخرَّج مهندسًا، وجاءته فرصة عمل في شركة أرامكو في السعوديَّة.

«قصصي بلا معنى»، قال أبو حسن، «إيش بدَّك فيِّي، أنا زيّ ما قلتلك رجل محظوظ: درست في أحسن جامعة؛ تبنَّتني عيلة ولا أروع، وتعلَّمت أصلِّي بصمت. بتعرف الصلاة بالصمت يمكن هي الصلاة الوحيدة يلِّي بيسمعها الله؟ الله صمت مطلق، ووقت بيحكي من خلال الناس بحكيش عن نفسه، بيحكي مثل الإنسان، لأنَّ الإنسان إلٰه ناقص.»

لا تنفكّ عقدة لسان أبي حسن إلَّا حين يحكي عن الله الذي يكتشف فيه الإنسانُ نفسَه بصفته إلٰهًا ناقصًا من خلال الصمت. هذا ما تعلَّمه من صلوات «الفرندز» التي كان يحضرها بشكل غير منتظم، ويبدو أنَّ الرجل اعتبر الصلاة الصامتة طريقةَ حياة تُعفيه من إخبار الآخرين حكايته التي لا تُروى. كيف يروي أنَّه اكتشف، بين ليلة وضحاها أنَّه صار لاأحد، وأنَّ بلده اختفى كأنَّ الأرض انشقَّت وابتلعته؟ ولمَن يروي؟ فهناك في أميركا لم يكن أحد على استعداد لسماع فلسطينيّ يحكي عن بلد لم يوجَد في رأيهم إلَّا في الأساطير التوراتيَّة كمكان مقدَّس وصحراء خالية من السكَّان، في انتظار عودة الشعب اليهوديّ إليه من المنافي. وما أراحه هو أنَّه لم يكن مضطرًّا إلى رواية الحكاية لأنجيلا أو للمستر طومسون، اللذين قرآ الحكاية في عينيه، واستقبلاها في قلبيهما، وكانت أمّه الأميركيَّة هي مَن حكى في أحد لقاءات الصلاة الصامتة. حضر الاجتماع نحو عشرين رجلًا وامرأة، ولم ينبس أحد. ثم وقفت المرأة، وقالت إنَّها سمعت صوتًا يوشوشها، وهذه كانت العادة في الصلوات التي كانوا يطلقون عليها

اسم العبادة في الانتظار. يجلس الجميع بصمت وخشوع وينتظرون روح الله التي ستقود بعضهم إلى الكلام.

قالت أنجيلا إنَّ الصوت الذي سمعته كان صوت الفقراء والصيَّادين الذين كانوا طائفةَ يسوع الناصريّ الأولى، وقالت إنَّها تعرف ابن أحد هؤلاء الصيَّادين، والذي طُرد والده من شاطئ بحر الجليل، وصار لاجئًا في شعب من اللاجئين.

بينما كانت المرأة تحكي والدموع تختنق في صوتها، انتابت يوسف مشاعرُ متناقضة. أحسَّ بالحاجة إلى البكاء ولم يبكِ، وبالحاجة إلى الضحك ولم يضحك، كأنَّه كان يتفرَّج على مسرحيَّة لا علاقة له بها. من أين أتت هذه المرأة بحكاية بحر الجليل أو بحيرة طبريَّة؟ فهو لا يعرف هذا المكان ولم يزره قطُّ. البحر، بالنسبة إليه، كان بحر يافا الذي يعجّ ميناؤه بالعمَّال الذين يحملون صناديق البرتقال إلى السفن الذاهبة إلى بريطانيا. وشعر بأنَّ الخطر على وجوده هو أن يتحوَّل إلى ضحيَّة مطلقة، فالضحيَّة تتعفَّن في حكايتها، وهو لا يريد لروحه أن تتعفَّن في الكلمات. انتظر كي تُنهي أنجيلا خطابها، وخرج من القاعة وهو يشعر بمسامير عيون العطف والشفقة تنغرس في ظهره، وطلب من أمّه الأميركيَّة ألَّا تروي الحكاية مرَّة أُخرى.

لم يروِ أبو حسن شيئًا عن تجربته الأميركيَّة. حتى حكاية لقائه أينشتاين في حرم جامعة برنستون مرَّت في أحاديثه مرورًا عابرًا.

«لكنَّك ضيَّعت فرصة أن تكسب أينشتاين للقضيَّة»، قال آدم.

«أنا أكسبه! هذا أينشتاين! إنت مالك إشي؟

«قال أينشتاين إنَّه تلقَّى رسالة من مسز طومسون التي تعرَّف إليها

في عشاء خيريّ في فيلادلفيا، تُشير فيها إلى وجود طالب فلسطينيّ في الجامعة، فأينشتاين كان يبحث عن فلسطينيّ أصلانيّ أو ما يسمُّونه هنا native، لأنَّه كان عليه أن يتّخذ قرارًا خطيرًا.»

«وبعدين؟» سأله آدم.

«لا بعدين ولا قبلين»، قال أبو حسن، «حاولت إحكي، وشفت حالي عمّ تأتئ. حدا بيسترجي يعلّم أينشتاين؟ قلت له: شوف يا أستاذ، إنت أينشتاين وأنا يوسف، أنا بقدرش أعلّمك، إنت بتعلّم كلّ الناس.»

«وإيش جاوب؟» سأل آدم.

«إيش بيعرّفني يا زلمي، كانت الدنيا تلج، وأنا كنت عمّ بعرق من راسي لكعب إجريي. بتذكّر إنَّه ابتسم لي، وقال إنَّه سيرفض العرض.»

«أيّ عرض؟»

«والله ما أنا فاهم إشي، بس بتذكّر إنّه حكي عن عرض من بن ـ غوريون حتى يصير رئيس دولة إسرائيل.»

«رفض يصير رئيس الدولة! إيش هالخرافيّة يلّي ما إلهاش معنى، والله ماني مصدّق حرف من كلامك.»

«صدّق أو لا تصدّق، بس هيك صار.»

«ليش أينشتاين كان صهيونيّ؟»

«بعرفش إشي عنه»، قال أبو حسن، «بس بتذكّر لمّا قلت له إنّي من يافا، وأهلي انطردوا من المدينة سنة 48، قال Oh my God، وتركني وراح.»

«بسّ هيك؟ ليش ما شرحتِلُه أكتر عن مأساة الشعب الفلسطيني؟»

«روح يا ابني الله يصلحك. خبَّرته عن أهلي وإنّي ما بقى عندي باسبور.»

«وإيش قال؟»

«إنت ليش عمّ تسألني كلّ هالأسئلة، أوعا تكون بدك تكتب قصَّة عنّي؟»

«أنا بكتبش قصص.»

«إنت عم تكذب عليّ. بس عندي طلب رجاءً: إذا كتبت عنّي، إيَّاك تخبِّر قصَّة أينشتاين، لأنَّه ما حدا رح يصدِّقها. رح يفكّروك عم بتكذب.»

«بس هيدي قصّة حقيقيَّة، ولّا لا؟»

«أكيد حقيقيَّة، بسّ الناس بتصدِّقش الحقيقة.

- 6 -

كانت علاقة آدم بالحقيقة تشبه علاقة أبي حسن الحجر بها، فهو أيضًا كان مقتنعًا بأنَّ الناس لن تصدِّق الحقيقة، أو أنَّ الحقيقة لا معنى لها، فاخترع قصَّة حياة لا تشبه قصَّته، وتقمَّص شخصيَّة آدم دانون كي يلهو ويسخر.

قال لداليةَ إنَّ القصَّة التي اخترعها لا عَلاقة لها بالتحايل على الواقع الجديد ومحاولة الانخراط فيه، «أنا لست متشائل إميل حبيبي، ولا أفهم لماذا تكرِّر اسم سعيد في الأدب الفلسطينيّ بهذا الشكل، من سعيد س. في رواية كنفاني «عائد إلى حيفا»، إلى سعيد أبي النحس المتشائل عند حبيبي، إلى بطل مسرحيَّة جان جينيه «الستائر» (الذي يمكن اعتباره فلسطينيًّا بعد نصّه المدهش: «أربع ساعات في شاتيلا»)، إلى إحدى شخصيَّات أنطون شمَّاس في «أرابيسك» التي تُدعى مريم سعيد، وصولًا إلى إدوارد سعيد الذي تحوَّل من اسم إنسان إلى رمز ثقافيّ. كأنَّ اسم سعيد صار طباقًا يحمل نقيضه في داخله.»

قال إنَّه لم يكن يتحايل. «حياتي ليست حيلة، بل حكاية ساخرة، أو مهزلة. كان في استطاعتي أن أختار أحد ثلاثة احتمالات: أن أتمسَّك بحقيقتي التي لن يصدِّقها أحد سوى أمثالي، وأعيش بائسًا في وطني؛ أو أتحايل، وأقنع نفسي بأنَّني أستطيع التأقلم فيصدِّقني البعض؛ أو أقلب الطاولة فألهو ولا أُبالي، عندها سيصدِّقني الجميع. اخترت الاحتمال الثالث، وصرت مهرِّجًا صغيرًا أتمتَّع بإعجاب هؤلاء الأشكيناز الأوروبيين بخيالهم عن شرق «ألف ليلة وليلة» وأمّ كلثوم، وأتفرّج على حنين الشرقيِّين إلى شرق دفنوه بأيديهم، وأضحك من لؤم التاريخ وعطشه الدمويّ الذي لا يرتوي. لا، يا عزيزتي، حاولت أن أخترع نفسي كي أتسلَّى. لا يوجد متعة تشبه متعة الممثِّل، لكن تمثيل الممثِّلين مؤلم، لأنَّ عليهم بعد انتهاء العرض خلع الشخصيَّات التي تقمَّصوها على الخشبة، والعودة إلى حياتهم الملأى بالتكرار والسأم. تخيَّلي معي أنَّني ممثِّل، أقف على المسرح وأتقمَّص هاملت وجنونه. وبعد ساعتين، ينتهي العرض. تنطفئ الأضواء. أمسح عرقي وأعود إلى البيت، أفتح البرّاد كي أبحث عن طعام بائت أسخِّنه. تخيَّلي بؤسي عندها. أمثِّل، ولكن شرط ألَّا أنزل عن الخشبة، ملغيًا الفرقَ بين الحياة والتمثيل. ألعب بنفسي ومشاعري. أتقمَّص الآخرين وأعاني معاناتهم، وأنسى نفسي. أليس هذا هو هدف الإنسان في الحياة: أن ينسى نفسه؟»

شعرت دالية بالخوف من هذا الهذيان. هل دعاها إلى الشاطئ كي يحتفلا بالحبِّ وينتقلا به إلى الزواج مثلما ادَّعى، أم أتى بها إلى هنا كي يلعب الفصل الأخير من مسرحيَّته أمامها ويَمْضي؟

قالت إنَّها تخاف منه ومن كلامه.

وقالت إنَّها تريد العودة إلى بيتها، «أنا لم أجبرك على شيء، لا على الزواج ولا على التخلّي عن تمثيلك. أنت حرّ.»

أدارت ظهرها ومضت.

«لا»، صرخ آدم، «أنا أحبّك.»

«ما معنى الحبّ بالنسبة إليك؟ واللهِ، لم أعد أفهم.»

دنا منها وضمَّها إلى صدره، وأحسَّت دالية بارتعاشة جسده. كانت ارتعاشته، وهو يأخذها بين ذراعيه، جسرَه إلى قلبها. فجأة يتحوَّل هذا الرجل إلى عصفور يرتعش من بَلَل الحنوّ والرغبة، فتجد الفتاة نفسها مستسلمة لأرجوحة الحبِّ والكلام والحكايات.

«هل تعرف لماذا أُعجبت بك في لقائنا الأوَّل؟»

«شعري الأشقر الذي صار مع العمر كستنائيًّا ربَّما. أمِّي كانت تقول إنَّها تكره شعري، مع أنَّه أجمل شيء عندي، لأنَّه لم يكن فاحمًا مثل شعر والدي.»

«شعرك كستنائيّ؟ لم ألاحظ ذلك.»

«أنت لئيمة»، قال.

«هذا هو الجواب عن سؤالي. أُعجبت بلؤمك وسخريتك اليهوديَّة»، قالت.

«سخريتي اليهوديَّة! أنتم لا تعرفون سخرية الفلسطينيِّين من أنفسهم ومن الآخرين، لذلك تنسبون كلّ شيء إليكم. حتى الفلافل والحمّص صارا مطبخًا إسرائيليًّا أصيلًا، ولم يعد ينقصنا سوى أن تسمُّوا الهولوكوست نكبة.»

«الآن ظهرتَ على حقيقتك، وفقدت سخريتك، وأنا أحبّ أن تصل إلى هنا. بَلا وارسو بلا زعبرة، أنت ابن غيتو اللّدّ. أريدك أن تقولها علانيَّة، لكن رجاءً لا تَقُل أنتم ونحن.»

«هل هذا شرطك للزواج؟»

«رجعتَ إلى اللؤم والسخرية. يجب ألَّا تنسى أنَّني أحبّك بلا قيد ولا شرط. أخبرني عنك وعن طفولتك بدلًا من أن تخبرني عن أبي حسن الحجر. فأنا أريد قصّتك أنت، لا قصصَ الآخرين.»

كيف يروي الطفل الذي تربّى في منزل لا شيء فيه يحكي؟

قال لها إنَّه لم يروِ لأنَّه يشعر بأنَّه لا يعرف أن يؤلّف كلمات لطفولة خرساء، «بسّ بدّي أخبّر كرمال عيونك.» وكي يروي، كان لا بدَّ من جسر، وأبي حسن، كان جسره إلى ذاكرة الطفولة. روى لها عن عذابات أبو حسن وكيف وجد نفسه بلا باسبور. كان عرض أرامكو له للعمل في السعوديَّة بمثابة لحظة الحقيقة التي كان عليه مواجهتها. فالعمل في صحراء النفط كان حلم جميع اللاجئين الفلسطينيين الذين وجدوا أنفسهم يعيشون في مخيَّمات الوحل والحرّ والرياح والفقر. وكانت وسيلَته كي يُخرج أفراد عائلته من البؤس الذي بدا أبديًّا. لكن كيف يسافر بلا باسبور؟ طلب من مسؤول الشركة الذي التقاه في برنستون مساعدته على حلّ هذه المسألة، لكنَّ الرجل الأميركيّ نظر إليه بدهشة كأنَّه لا يصدّق ما يسمع، وقال إنَّها ليست مشكلته. وهنا بدأت رحلة البهدلة في السفارات العربيَّة في واشنطن، التي أوصلته إلى لامكان. أنجيلا حاولت أيضًا، التقت بالقنصل اللبنانيّ الذي قال إنَّه لا يستطيع، «أنت تعلمين، الفلسطينيُّون يشكّلون تهديدًا للتوازن الطائفي

في لبنان، وما تطلبينه مُحال.»

كتب أبو حسن للمستر لوكمان، مدير الأرامكو، معتذرًا عن قبول الوظيفة، وبدأ يبحث عن عمل في أميركا. وفجأة وصلته رسالة من المدير يطلب منه الحضور إلى السفارة الأردنيَّة لإتمام إجراءات الباسبور الأردنيّ، وهكذا كان. ووجد الرجل نفسه في الظهران مع شلَّة من المهندسين الفلسطينيِّين، وهناك تعلَّم أن يصنع الخمر في منزله.

«خلص»، قالت دالية.

«كنت أريد أن أروي لك عن تقنيَّات تقطير الخمر من الفواكه في المنزل.»

«هذا لا يهمّني.»

«على راسي. تريدين الطفولة. أجمل شيء يا عزيزتي هو ذاكرة روائح الطعام عند الأطفال الفقراء.»

قال إنَّه حين يتذكَّر ساندويش الباذنجان المكدوس الذي لا يدري كيف تعلَّمت أمُّه صنعَه، يتحلَّب ريقه شهوةً، «كنت في أيَّام كثيرة أفطر وأتغدَّى وأتعشَّى سندويشة مكدوس. يجب أن تتعلَّمي صناعة المكدوس: باذنجان صغير نسلقه ونصفِّيه من الماء، ثم نحشوه بالفلفل الأحمر والثوم والجوز، وننقعه بزيت الزيتون. طعام كامل، لا يكلِّف شيئًا، لأنَّنا بعد انتهائنا من أكل الباذنجان نُعيد استخدام زيت الزيتون لأشياء أُخرى. والآن، حين أكون في المطاعم الفرنسيَّة أو الإيطاليَّة التي تقدِّم أفخر أنواع الطعام، أشتاق إلى رائحة المكدوس. هذه هي رائحة الطفولة، التي تهيمن على ذاكرتنا إلى الأبد.»

قال إنَّ أبا حسن الحجر حدَّثه عن رائحتين، رائحة البرتقال

ورائحة السمك البزري المقلي، «والله جئت إلى هنا من أجل هاتين الرائحتين، لكنَّني لم أجدهما. كنَّا حين نشقّ البرتقالة تملأ الرائحة المكانَ، برتقالة واحدة كانت تكفي ثلاثة أولاد، لأنَّنا كنَّا نأكل الرائحة.»

«هل أعجبتك قصتّي؟»

هزَّت دالية رأسها بإشفاقة ترافق ابتسامة أبناء الطبقة الوسطى أمام حكايات الفقراء.

«أخبريني أنت الآن.»

قالت إنَّها لا تحبّ ذاكرة روائح الطفولة، «نيَّالك إنت وصاحبك أبو حسن، أنا لا، لا أعرف كيف حدث ذلك. بلى أعرف، لكن رائحة طفولتي لا نكهة لها، والحقّ على أمِّي.»

وُلدت دالية بن تسفي لأب بولنديّ وأمّ عراقيَّة. قبل زواجه، قام والدها جدعون، على عادة الإسرائيليّين في تلك الأيَّام حين اجتاحتهم موجةُ عبرنة أسمائهم، بتغيير اسم عائلته من دانيلفيتش إلى اسم عبري هو بن تسفي، أي ابن الغزال، وسط احتجاج والده غوستاف. رأى غوستاف، الناجي من معسكرات الإبادة في بولندا، في هذا التغيير خيانةً لعائلة فقدت أغلبيَّة أبنائها وبناتها في المحرقة النازيَّة. «الألمان أبادونا جسديًّا، وأنتم هنا تُبيدوننا رمزيًّا»، صرخ الرجل العجوز بابنه. لكن جدعون لم يبالِ، ولم يكتفِ بهذا القَدْر، فتزوَّج فتاة عراقيَّة تُدعى سميرة ساسون (قامت أمّها بتغيير اسم ابنتها من سميرة إلى حانا كي تندمج الفتاة في مجتمعها الجديد)، وكان هذا الزواج حدثًا، لأنَّه كسر التقاليد التي كانت لا تحبِّذ زواج الأشكيناز بالشرقيِّين. لم ترضَ سميرة، أو

حانا، بالهويَّة التي أُلصقت بها كيهوديَّة شرقيَّة، وإنَّما كانت تصرّ على أنَّها يهوديَّة عراقيَّة، حتى إنَّها كانت تتكلَّم بشكل سرِّي مع طفلتها الوحيدة بالعربيَّة في كثير من الأحيان، وهو ما يفسِّر فهم دالية كثيرًا من الكلمات العربيَّة على الرَّغم من أنَّ يهود العراق يملكون لهجتهم الخاصَّة. روت دالية أنَّها لم تتعلَّم كيف تتذوَّق المطبخ العراقي إلَّا حين كبرت. أمّا في طفولتها، فكانت تخجل من بشرتها الحنطيَّة، ومن السندويشات التي كانت تحملها معها إلى المدرسة، بَيْض مسلوق، أو باذنجان مقلي، وما شابه. «كان زملائي وزميلاتي في المدرسة يقرفون من روائح طعامي، وحوَّلوني إلى مهزأة. كأنَّ سماري لم يكن كافيًا كي أشعر بالعزلة، فجاءت روائح طعامي الغريبةُ على ذائقتهم لتزيد الطين بلَّةً، فصرت أرمي سندويشاتي في المزبلة قبل الوصول إلى المدرسة، وأُمضي نهاري جائعة.» قالت إنَّها لم تتصالح مع روائح طفولتها إلَّا حين التقت آدم. «الآن، صرت تعرف لماذا أحبّك. لقد صالحتني مع طفولتي، لكنَّك صنعت شرخًا بيني وبين شعبي.»

«أجمل ما فيك هو لون بشرتك الزيتونيّ. الزيتون هو أجمل الأشجار. جسد كزيت الزيتون، وعينان خضراوان زيتيّتان. أنت الأجمل. ويوم عرسنا سأُقيم لك مأدبة أطبخ فيها عشرين نوعًا من أكلات الباذنجان.»

«دخيلك، بَلا الباذنجان.»

«ألا تحبِّين الباذنجان؟ الباذنجان أشرف الخضار، وهو زينة المطبخين العربيّ والعثمانيّ. وفي بلاد الشام، كان على الفتاة كي تجد عريسًا أن تعرف كيف تطهو ثلاثين صنفًا من أكلات الباذنجان المتنوّعة.»

«هذا يعني أنّني لن أجد عريسًا.»

«بل يعني أنّك توفّقتِ بأهبلَ رضي بك من دون شرط الباذنجان.»

«أنا أكره الباذنجان، وخصوصًا هذا الاختراع الإسرائيليّ، بحيث يخلطون الباذنجان المسلوق بالمايونيز.»

«ستحبّين الباذنجان»، قال، «اسمه يدلّ عليه. قرأت في مقال للكاتب السوري فاروق مردم، يقول فيه إنَّ أصل كلمة باذنجان هي بيض الجان، وأنا متأكّد من أنّك لا تستطيعين أن تتكبّري على بيض الجنّيّات.»

«لا تحكي إلّا بالأساطير. المهمّ أن نتّفق على مائدة عرسنا الآن.»

«ماذا تقترحين؟» قال.

«سمك، أنا أحبّ سمك البحر هنا.»

«يا ليتني أستطيع أن أدعو أبا حسن الحجر إلى مائدة العرس: صيّاد، وابن صيّاد، يفهم في السمك، وكان يحكي مع الأسماك ويسمع أصواتها.»

«لكنَّ الأسماك لا صوت لها»، قالت، «متى تتوقّف عن الكذب واختراع الحكايات؟»

«والله، أنا لا أخترع، هو قال وأنا أروي على لسانه. اتّفقنا، حفلة سمك سلطان إبراهيم ولقّز في مطعم زكريًّا في ميناء يافا، وسَلَطة طحينة وكاس عرق وباذنجان مقلي وزهرة وإلى آخره.»

«أنت شهوانيّ في كلّ شيء، في الأكل والموسيقى والحكي.»

«وفي الحبِّ أيضًا، لا تنسَيْ. أشتهيك كما يليق بالشهوة، ولا أرتوي، أنت مائي وعطشي؛ نبعي وصحرائي. هل تصدِّقين عندما لا نكون معًا، وأشتاق إليك، لا أتخيَّلك مثلما يفعل العشَّاق حين يستحضرون صور مَن يحبُّون، بل أرى اسمك مرسومًا بالحرف العربي على شكل دالية ملأى بعناقيد العنب؟ أجلس في ظلِّ الدالية، وأفرفط عناقيد العنب وأمتصّ حبّاتها. حروف اسمك حين تجتمع تصنع سماء رغبتي.»

وكان ليلٌ، وكانت امرأة. التفت الرجل بحثًا عن دالية فلم يجدها، ثم لمحها وسط ظلال الضوء القمريّ تسبح إلى بعيد حجر آدم. خلع ثيابه ورمى بنفسه في اليَمِّ.

- 7 -

كان بحر، وكان ليل.

مشى آدم في الماء. جسمه يرتعش بالبرودة التي تسلَّلت إلى مفاصله. تردَّد قليلًا، لكنَّه رأى يد دالية تلوِّح له من شقوق الضوء الذي يلتمع على صفحة البحر. وحين وصل علوُّ الماء إلى خصره غطس في الماء وبدأ يسبح نحو الحجر الذي كان يتراءى له في البعيد مثلَ تمثال نصفيٍّ لرجل عجوز يضيء القمرُ نصفَ ملامحه.

شعر بأنَّه يعود إلى مائه الأوَّل. ابتسم وهو يفكِّر في أنَّ هذا الشعور هو جزء من لعبة الوهم التي تصنعها هذه الحالة الغامضة التي نسمِّيها الحبَّ. في الحبِّ، تجتاحنا أحاسيس غريبة، كأن نعتقد أنَّنا نستطيع أن نستعيد طفولتنا بشقاوتها وبراءة بداياتها. رجل تجاوز الخمسين، ينغمر بماء رَحِمٍ بدايةٍ غامضة يشعر بدبيبها في أوصاله، وتدعوه إلى ممارسة الحبِّ مع امرأته على صخرة مرميَّة في بحر يافا. عندما سأل أبا حسن عن ممارسة الحبِّ على هذه الصخرة المدبَّبة،

ضحك الرجل منه، وقال: لا. لكنَّ آدم سيحوّل «اللا» إلى «نعم».

عازب مزمن، عاش طوال حياته على ضفاف لعبة الحبّ، يدَّعي الغرام مع نسائه، ثم يكتشف خواء اللعبة فيتركها في منتصفها، ويختفي. كان يشعر، بعد أن تنتهي لعبة بدايات الغواية، بأنَّ عليه أن يمضي من دون أن يدخل في نقاش النهايات العقيمة، فيختفي من دون مقدِّمات كأنَّه لم يكن.

قلبت دالية حياته رأسًا على عقب، وأخذته إلى هناك، حيث الحبّ الذي لم يؤمن يومًا بإمكان استمراره.

قال لها عندما وافق على الزواج، إنَّها حبُّه الأوَّل.

«أنت تكذب الآن، حتى في هذه اللحظة التي ننتظرها من عشرة أعوام تجدُ طريقك إلى التلاعب بالكلمات.»

لكن آدم لم يكن كاذبًا هذه المرَّةَ. قال لها إنَّها حبُّه الأوَّل لأنَّه يشعر للمرَّة الأولى بطعم كلمة حبّ بين شفتيه.

«وما معنى الحبّ؟» سألت.

«الحبّ ليس معنًى، بل مذاقٌ. اسمعي: «الحبّ كده / وصال ودلال / ورضى وخصام / وهو من دا ودا / الحبّ كده / مش عايزة كلام / الحبّ كده»، قال مردِّدًا شعر بيرم التونسي كما تغنِّيه أمّ كلثوم.

«لم أفهم»، قالت.

«وأنا أيضًا لم أفهم، فعندما تغنِّي الستّ مش عايزة كلام، نصل إلى معنى الحبّ، إنَّه من دا ودا. أمّا الوصال والدلال والخصام فأعراض لا أهمِّيَّة لها. المعنى هو غموض المعنى.»

وقال أيضًا إنَّه لم يعتقد للحظة أنَّ هذه الكلمة الغامضة التي كان

يتلاعب بها، ستتلاعب به في النهاية.

«هل تعلم بأنّني أحببتك لأنّك خدعتني وأوهمتني بأنّ الحياة متعة؟»

«أنا لم أخدعك، بل خدعت الحياةَ بك، فأنت المِصْيَدة التي أوْقِع بها الحياةَ كي أقنعها بأنّها جميلة وممتعة.»

قال لها إنّه، في الأعوام العشرة التي أمضاها معها عاش تجربة فريدة. «حتى عندما كنّا نختلف، ونبتعد، وهذا حدث عدّة مرّات، كنت أشعر بأنّني أدمنتك.»

قالت إنّها في كلّ مرّة ابتعدت فيها عنه، كان ذلك يحدث لأنّها أرادت أن تتجنّب الشعور بأنّها عرضة لأن تكون امرأة متروكة. «كنت أسبقك إلى الهرب.»

«والآن؟» سأل.

«لم يعد هناك مبرِّر للخوف»، قالت، «فأنت لن تهرب، لقد دجّنك الحبّ.»

«الذي يجب أن يخاف الآن هو أنا، لأنّني لا أملك الشعور بأنّني دجّنتك.»

قالت وقال، وكانا كمَن لا يقول. يمشيان على الشاطئ الرمليّ، يقول لها إنّهما يشبهان العشّاق، فتغضب، «أنت دائمًا هكذا، تحبّ التشبيه. ما معنى أنّنا نشبه العشّاق؟ نحن عاشقان، أليس كذلك؟»

«أكيد، نحن نتصرّف كعاشقين، أو كأنّنا عاشقان.»

كانت دالية تكره أداة التشبيه التي لا تفارق كلمات هذا الرجل الذي حين يتكلّم على مشاعره يعطيها الانطباع بأنّه يمثّل كلّ الوقت،

وبأنَّه ليس حقيقيًّا. صراعها معه كان صراعًا من أجله. هذا ما حاولت أن تشرحه له. كان يستمع إليها. يبتسم ويقول إنَّها لا تفهم أنَّ المسألة لا علاقة لها بقصَّة حياته التي اكتشف بعد ذلك، حين هاجر إلى أميركا، أنَّه كان يجهل بدايتها التي تشكِّل ذروتها التراجيديَّة. فآدم كان يشعر بأنَّه ظلٌّ يجتمع فيه عدد لا يُحصى من البشر. ليس صحيحًا أنَّه كان يمثِّل فقط. الصحيح أنَّه يحبّ أن يعيش اللحظة الحاضرة حتى الثمالة، مع أنَّه يعرف أنَّ الحاضر موقَّت. لا وجود للحاضر إلَّا بصفته لحظةً ستمضي. ولذا، فإنَّ الجذر في لغة العرب هو الفعل الماضي. مصير الحاضر أن يصبح ماضيًا، كما كتب الشاعر اللبناني أنسي الحاج حين اختار عنوان «ماضي الأيّام الآتية» لواحد من أجمل دواوينه.

يعرف آدم أنَّه تعب من الشوق الذي صار لا يفارقه، وهذا هو السبب الذي دفعه إلى الموافقة على الزواج.

قال لها عن الصعوبات التي سيواجهانها في هذا البلد العجيب الذي صُنع من أجل اليهود. أنا لست يهوديًّا ولن أصير يهوديًّا، لنقل إنَّني أتصرَّف كأنَّني يهوديّ، لكنَّني لستُ.

«عندما كنتُ يهوديًّا، أو ادَّعيتُ ذلك، لم يكن هناك مشكلة. كنت أمثِّل وكان جدّك يحبّني، بل إنَّه تبنَّاني. قال لي إنَّه يتمنَّى لو كنت أنا ابنه بدلًا من جدعون، لأنَّه متأكِّد من أنَّني ما كنت لأغيِّر اسم عائلتي كما فعل ابنه. جدّك رجل جميل. كان يجب أن أعرِّفه إلى أبي حسن. أنا متأكِّد من أنَّهما كانا سيصيران صديقين، لكنَّني لست متأكِّدًا الآن ماذا سيكون رأي غوستاف في هذا الزواج؟»

كلّ الحجج تهاوت بسبب الشوق. كانا يتعشَّيان في شقَّتها

الصغيرة عندما قال لها إنَّه لم يعد يحتمل الشوق، «إمّا نتزوّج وإمّا نفترق، خلص لم أعد أستطيع.»

«نتزوّج»، قالت، ثم استدركت مبديةً انزعاجَها من وضع هذين البديلين بشكل متساوٍ، وسألته: أيُّهما يفضّل.

«نتزوَّج طبعًا.»

«ولماذا قلت إنَّ الزواج مثل الفراق؟»

«لم أقل ذلك، قلت إنَّني لم أعد أحتمل هذا الوضع.»

«لكنَّ الزواج ليس مثل الفراق.»

«معك حقّ»، قال.

وضعت رأسها على كتفه، وطبعت قبلة طويلة على شفتيه.

«أيُّهما أسوأ في رأيكِ؟» سألها.

«كسّ أختك»، قالت، «لكنَّني سأتزوَّجك.»

وكان بحر، وكان ليل.

سبح آدم بأسرع ما يستطيع، لكنَّه بات متيقّنًا من أنَّ دالية ستسبقه إلى الصخرة، وستكتشف صعوبة اقتراح ممارسة الحبّ هناك، وربَّما ستسخر منه ومن حكايات صديقه أبي حسن الذي روى أنَّه كان يسبح من شاطئ دعدع إلى حجر الطبليَّة، يستريح قليلًا، ثم يتابع إلى حجر آدم. نسي آدم أو تناسى ما رواه له صديقه الكهل، واقترح على دالية أن يسبحا من جامع الميناء مباشرة إلى حجر آدم.

سبح آدم وسط عتمة الماء. أحسّ بأنَّ قوَّته تخونه، فهو من زمان لم يسبح مسافةً طويلة كهذه، لكنَّه أراد في لاوعيه أن يثبت لدالية أنَّه

أكثر شبابًا من شبابها، وأنَّ ممارسة الحبّ على هذا الحجر الذي يحمل اسم العاشق سيرسم وشمًا لا يُمحى على جسد المعشوقة.

عندما اقترب من الحجر تراءت له دالية كأنَّها ظلّ مُحاط بضوء خافت يقف في انتظاره. رأى إشراقة ابتسامة ترتسم على عينيها، وأحسَّ بعريها ملوَّنًا بأعشاب البحر. ثديان مستديران منتصبان بقشعريرة الماء؛ فخذان ملفوفان بنداء الرغبة؛ خصر مضموم كزرٍّ وردة دمشقيَّة، وذراعان ممدودتان انتظارًا.

تسلَّق الحجر، وكان الدم ينزف من جروح ركبتيه وباطن قدميه. مسح الدم بباطن كفِّه وتقدَّم منها. كانا يقفان على مستطيل صخريّ مليء بالنتوءات، وخلفه يرتفع الحجر إلى الأعلى حيث القمَّة. جسدان ملتصقان، وآهات كأنَّها أصداء لصوت تموُّجات البحر.

أمسك بخصرها وحاول إنزالها كي تستلقي على المستطيل الصخريّ، لكنَّها انزلقت من بين يديه.

حاول من جديد. انحنى على ثدييها بشفتيه. سجد أمامها على ركبتيه الداميتين، ودعاها إلى النزول إليه كي يصعدا معًا إلى قمّة الحبّ.

أشارت بعينيها إلى قمَّة الحجر المدبَّبة.

ابتعدت إلى الوراء وحاولت الصعود.

كانت تصعد وتنزلق، وآدم يمدّ يديه كي يتلقَّاها. حاولت عدَّة مرَّات، ثم قالت وهي تمسح الدماء عن كوعيها وركبتيها «هذه مهمَّة مستحيلة.»

أبعدها، وبدأ يحاول أن يتسلَّق، فكَّر في أبي حسن، وصرخ بأنَّه

لن يسمح للمهاجر إلى أميركا بأن يتفوَّق عليه.

ورأى نفسه يصعد، وشعر بأنَّه عاد فتًى في الخامسة عشرة. صرخ بأنَّه يريد أن يمسح سنوات عمره كلَّها، ويهبط من ستيلَّا مارس كي يمتطي جناحَي الحمامة الممدودين في بحر حيفا.

وجدا نفسيهما على قمَّة الصخرة.

وقفا في المكان الذي قيل إنَّه يحمل آثار قدمَي آدم بعد هبوطه من الجنَّة.

«انظري إلى آثار القدمين. هبط آدم من الجنَّة العلويَّة فوجد نفسه في يافا»، قال.

«لا أرى سوى قدميك الداميتين»، قالت.

وقالت إنَّها تشعر بأنَّه صار آدمَها هي، وإنَّها لا تريد سوى أن تكون له، ومعه، وبه.

وغرقا في جسديهما المنحنيين على انحناءات الصخور البحريَّة.

مزجت دالية ماءها بماء البحر الأبيض، وتدفَّقت أمواجها.

غرق آدم داخل الماء المتدفِّق، وأحسَّ بأنَّه صار جنينًا في داخلها يستعدّ لأن يولد.

وعندما أدارت دالية وجهها كي ترى وجه آدم، رأى الرجل وجه المرأة مغطًّى بالماء. لا يدري: هل بكت دموعًا وهي تمارس الحبّ، أم أنَّ مياه البحر هطلت من عينيها.

ضمَّها إلى صدره، وأحسَّ بأنَّ كلمة «أحبّك» التي خرجت من بين شفتيه ملأى بنكهة الأصداف البحريَّة.

وعندما عادا إلى الشاطئ، لبست ثيابها على بلل جسمها. تردَّد آدم قليلًا، ثم لبس ثيابه. وقفا أمام البحر يتأمَّلان شقوق الضوء الذي بدأ ينبلج مُعيدًا إلى البحر زُرقته.

«أهنِّئك، فكرة حجر آدم كانت عبقريَّة على الرَّغم من جميع الجروح في أيدينا وأقدامنا»، قالت.

«هذه ليست فكرتي، يجب أن نُعيد الفضل إلى أصحابه. هذه من أفضال صديقي أبي حسن.»

ابتسمت وقالت إنَّها تحبّ طريقته في تأليف الحكايات، فهي متأكِّدة أنَّ أبا حسن الحجر لم يوجَد قطّ.

«أنت غلطانة كالعادة، فأنا لم أؤلِّف شيئًا.»

«ألَّفت، أم لم تؤلِّف، فأنت عبقريّ.»

«أنا! لا، أنت تزيدينها، الغرام هو الذي يتكلَّم من خلالك»، قال، «هل تعلمين ماذا قال جان جينيه عن العبقريَّة؟»

«رجعنا إلى التلاعب بالكلام»، قالت.

«العبقريَّة هي الصرامة في اليأس، قال جان جينيه، أمَّا أنا فيأسي ليس صارمًا بشكل كافٍ.»

إشارات

أتوجَّه بالشكر إلى مجموعة من الصديقات والأصدقاء الذين كانوا إلى جانبي خلال رحلة كتابة هذه الرواية، وساعدوني على اجتياز مسالك الحكايات، وتابعوا مساراتِ الكتابة. وأخصّ بالشكر رائف زريق وهمّت الزعبي وماهر جرّار.

كما أشكر علي اليسير وماجدة قنديل ونعيم قنديل وعايدة فحماوي وبهودا شنهاف شهرباني وليلى شهيد، وعشراتِ الأشخاص الذين فتحوا لي أبواب ذاكراتهم.

وأتوجَّه بالشكر إلى الزميلة ناهد جعفر التي قرأت مخطوط هذه الرواية بتأنٍّ.

وفي النهاية، فإنَّ هذه الرواية لم تكن ممكنة لولا قراءتي لأعمال فاطمة قاسم ونادرة شلهوب ـ كيفوركيان ورجائي بصيلة ووليد الخالدي وهليل كوهين وأمنون راز كاركوتزكين وإيلان بابيه، ونصوصٍ من الأدبين الفلسطينيّ والإسرائيلي.

بدأت بكتابة هذه الرواية في خريف 2016؛ خلال إقامتي كزميل لمدَّة ثلاثة أشهر في معهد الدراسات المتقدِّمة في برلين، وأنهيتها في 30 أيلول 2018 في بيروت.

للمؤلّف

روايات:

عن علاقات الدائرة، 1975.

الجبل الصغير، 1977.

أبواب المدينة، 1981.

الوجوه البيضاء، 1981.

المبتدأ والخبر (قصص)، 1986.

رحلة غاندي الصغير، 1989.

مملكة الغرباء، 1991.

مجمع الأسرار، 1994.

باب الشمس، 1998.

رائحة الصابون، 2000.

يالو، 2002.

كأنَّها نائمة، 2007.

سينالكول، 2012.

أولاد الغيتو (1): اسمي آدم، 2016.

دراسات:

تجربة البحث عن أفق، 1974.

دراسات في نقد الشعر، 1979.

الذاكرة المفقودة، 1982.

زمن الاحتلال، 1984.

قال آدم لدالية عندما سألتْه عن مشروعه المؤجَّل لكتابة رواية، إنَّه لن يكتبَ لأنّه يخشى أن يكون في صدد تأليف ضريح للحكايات. كلُّ كتابة عن النكبة هي مقبرة، وأنا لستُ حارسًا للمقابر.

«فكرة مدهشة»، قالت دالية، «تذكّرني بمكتبة بورخيس. بدلًا من المكتبة مقبرة. وبدلًا من أن تضع الكتبَ على رفوفها، تحفر بالكلمات قبورًا للكلمات».

«فكرة مرعبة»، قال آدم، «ثمَّ مَن أنا كي أقلّد بورخيس؟ كي تكتب الأعماق، كما كتب هذا الأرجنتينيُّ، أو كما كتب أبو العلاء، يجب أن تكون أعمى، وأنا لستُ».

«لكنَّك أخرس. هناك كثيرٌ من الكتّاب العميان، أمّا الكاتب الأخرس فستكون أنت».

حازت رواية «أولاد الغيتو: اسمي آدم» جائزةَ كتارا لأفضل رواية عربيَّة، وأُدرجتْ ضمن اللائحة القصيرة لجائزة Booker العربيَّة.

الياس خوري: روائيّ لبنانيّ، من مواليد بيروت سنة ١٩٤٨. تُرجمتْ رواياتُه إلى العديد من اللُّغات.

دار الآداب
بيروت - لبنان
هاتف:1795135 -1861633 (961+)

لوحة الغلاف للفنان عبد الرحمن قطناني